

الحياة الأدبية

في العصر العباسي

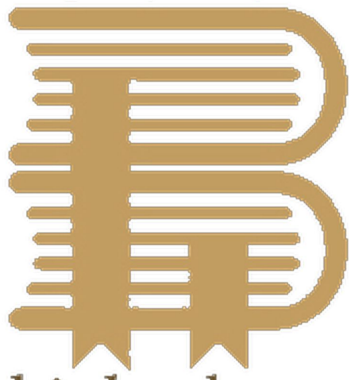


تأليف

محمد عبد المنعم خفاجي

نشر

رابطة الأدب الحديث



محمد عبد المنعم خفاجي

الحياة الأدبية

في العصر العباسي

تصوير صادق للحياة الأدبية في هذا
العصر العظيم ، وترجمة لأعلامه ونايغيه

نشر رابطة الأدب الحديث بالقاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

بالقاهرة

١٩٥٤

دار العهد الجديد للطباعة

الخرفش ٤٦ ب القاهرة

هذا الكتاب

من العسير جداً أن يكتب الكاتب بحثاً عن الأدب العباسي ، لتعدد مصادره ، وتوزع مراجعه ، وعموض معارفنا عن الأدب وحياته فيه ، وعن الأعلام النابغين من أدبائه وشعرائه وكتابه .

والكتب التي ألفت عن الأدب العباسي قليلة ، موجزة ، لا تشفي غلة الباحث ، الظامى . إلى معرفة الحقائق الأدبية من ينابيعها الأولى .

لهذا حجب إلى الكتابة في الأدب العباسي ، والتأليف فيه ، والبحث عن الينابيع التي أمدته بالنمو والازدهار والنهضة .. وكتأني هذا ثمرة مجهود شاق ، وعمل متواصل ، وبحث طويل ، وفيه صور دقيقة عميقة للحياة الأدبية في هذا العصر السحيق ، وترجمات وافية لأعلام الكتاب والادباء والنقاد والشعراء ، وإشارة إلى مصادر الأدب العباسي التي تعين الباحث والدراس

وأنا أقدمه للقراء ؛ ليكمل الحلقة التي بدأتها بكتابي : « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » ، و« الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام » ، وبكتابين آخرين اشتركت في تأليفهما مع أساتذة فضلاء ، وهما : الأدب العربي بين الجاهلية والاسلام ، و« الأدب العربي في ظلال الامويين والعباسيين » ، وبكتبي الاخرى التي نشرت من قبل من أمثال : موقف النقاد من الشعر الجاهلي ، والشعراء الجاهليون ، وأشعار الشعراء الجاهليين ، وبكتابين آخرين اشتركت مع أصدقاء أعزاء لي في نشرها ، وهما : أعلام الشعر الجاهلي ، وأعلام الأدب العربي .

وإني لأعتذر للقراء عما يكون في الكتاب من تقصير ، لأن تأليف مثل هذا الكتاب مع هذا الجهد المضني المرهق ، أمر يعصب مثاله إلا على الصابرين العاكفين في محراب العلم ، المؤمنين بالله وفضله وتوفيقه .

وأرجو أن يتيح لي الله من بعد نشر كتب مخطوطة أخرى لي ، تكمل هذه السلسلة وهي : أعلام الأدب في عصر بني أمية ، وأعلام الأدب الحديث ، والحياة الأدبية بعد العصر العباسي .

ومن الله التوفيق ، وأسأله الصواب والسداد ، إنه أكرم مسئول ، وأفضل مأمول ..

المؤلف

وما توفيق إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ..

مقدمة

كان العصر العباسي (١٣٢ - ٦٥٦ هـ = ٧٥٠ - ١٢٥٨ م) حافلا بثقى

التيارات الفكرية والعلمية والأدبية، وهو عصر النهضة والازدهار في الآداب العربية؛

وقد ورث العباسيون بنى أمية بالعلبة والقهر وثلوا عرشهم بيد صنائعهم من الأعاجم،

ولكن كان البون شاسعا والفرق بعيدا بين ما هنا وهناك في شتى المظاهر، في نظام

الخلافة وأساليب الحكم ومظاهر الحياتين الفكرية والاجتماعية، وما إلى ذلك كله

بما كان أثرا محتوما لسيطرة العنصر الفارسي على أعنة الشئون الداخلية والخارجية

صغيرها وكبيرها في المملكة الإسلامية، فهذه المداخل العنيفة نقلت الحكم الاسلامي

من طور إلى طور، وأثرت في الحياة العربية تأثيرا كسرويا خالصا، وأورثت العرب

من ضروب المذنيات ما هضموه وتمثلوه، فاضافوا إليه كثيرا من ألوان ومظاهر التجديد.

ولقد كان عصر نفوذ الخلفاء العباسيين عصر ازدهار في النهضة الفكرية والأدبية،

بعامل تشجيع الخلفاء للعلوم والآداب.. وفي عصر اضمحلال نفوذ الخلافة العباسية

أخذ العلم والآدب في الازدهار كذلك، بسبب تشجيع الدويلات التي انشعبت من

المملكة الإسلامية واستقلت، فقد كان لكل دولة عاصمة تنافس بغداد النفوذ

والسلطان والحضارة، وما لبثت بغداد نفسها ان عادت إلى سيرتها الأولى، حين

سيطر البويهيون عليها، وبذلك كان في انقسام الدولة وتقطعها، قوة للعلم، ورواج

للآدب، وإن كان فيه ضعفها السياسي.. فقد تعددت مراكز العلم والآدب وكثرت

أمام المنتجعين الموارد، وبعد أن كان لا يذكر في هذا المقام إلا بغداد، صار يضارعها

في الذكر القاهرة، وحلب، والرى، وبخارى، ونيسابور، وغيرها، وأخذ ملوك

هذه الدول، وأمرأؤها، ووزرائها، يتسابقون إلى اجتذاب العلماء والآدباء،

ويتبارون في الاحتفال بهم، وإجزال العطاء لهم، بدافع ما كان بينهم من تنافس،

وما يستكن في نفوسهم من حب الشهرة، وحسن الاحدوثة، وما في طبائع أكثرهم

من ميل للآدب وتعلق به، فقد كانوا بين عرب، ومتعربين هم إلى العروبة أقرب،

وحسبنا أن نذكر الفاطميين والحمدانيين، والبويهيين، ففضلهم على الآدب لم يقف

عند حد التشجيع والمكافأة، بل تعداه إلى المشاركة في ميدانه، مشاركة جد وسبق،

فعد في الشعراء تميم بن المعز الفاطمي، وأبو فراس الحمداني، وعضد الدولة البويهى.

وكان من نتائج هذه المنافسة أن كثرت عدد الشعراء والكتاب والعلماء كثرة لم نرها

من قبل ، ولم تكن من بعد ، وكان حب العباسيين للعلوم والآداب ، وبذلهم بسخاء في هذا السبيل ، مما جعل عاصمة الخلافة مهبط العلماء من كل فج وصوب ، سواء في ذلك بغداد أو سامرا ، فانتقلت إلى المسلمين علوم الأمم القديمة المتمدنة فحضرها وتمثلوها وأجادتها قرائحهم ، وعملوا على تنميتها ، فألف العلماء كتباً كثيرة بعد ذلك ، امتزج فيها العقل الشرق بالعقل الغربى . فلما اضمحلت الخلافة وقامت دول وإمارات في أطرافها وعلى أنقاضها أخذ ملوكها وسلاطينها يشجعون العلم والمعارف ويكثر من العلماء لثنافس عواصمهم مدينة بغداد ، وأقيمت المدارس والمكتبات ذوات الأثر البعيد في التهذيب والتثقيف الإسلامى ، وتسربت إلى أوروبا عن طريق المسلمين في الأندلس الذين نقلوا إليها حضارة الشرق الروحية منها والمادية .

ولم تقف حركة النقل من اليونانية عند هذه الكتب ولا عند هؤلاء المؤلفين ، بل امتدت إلى كتب كثيرة في علوم متنوعة في الهندسة والحساب والنجوم والميكانيكيات لإقليدس وأرخميدس وأبلونيوس ومنالوس وبطليموس القلوذى وأبرخس ؛ ثم نقلت كتب أخرى من الفارسية مثل كلية ودمنة ومزدك والتاج في سيرة أنوشروان والأدب الكبير والأدب الصغير واليتمية وسير الملوك ، وكذلك من الهندية كتب في الطب والنجوم والرياضيات والحساب والاسمار والتواريخ : مثل كتب مختصر الهند في العقاقير والعلاجات للهند والتوهم في الأمراض والعلل ورأى الهند في احتباس الحيات وسمومها وجوامع الموجود لخواطرها الهند في حساب التنجيم وخيال الكسوفين عند الهند . . بينما كانت الممالك الغربية مغمورة إذ ذاك في بحور من الجهالة والظلمة ، ثم انتقلت هذه الحضارة الإسلامية إلى شتى الاقطار عن طريق مدينة القسطنطينية وسواها .

ولا تزال النهضة الأدبية في العصر العباسى محل بحث الباحثين ، ودرس الدارسين ولم تكشف عقول العلماء حتى اليوم عن أسرارها وأسبابها .

وفي هذه الفصول حديث طويل عن الحياة الأدبية في العصر العباسى ، بشئ من التفصيل ، ولون من التحليل ، مع تراجم واسعة لأعلام الأدباء والكتاب والشعراء والمفكرين ، ومع شرح مظاهر هذه النهضة وألوانها ، والحديث عن صورها وفنونها ، والافاضة في النقد والدراسة والبحث والتحليل ، والترجمة لأعلام الأدباء والكتاب والنقاد والعلماء والشعراء والخطباء ، على نمط واسع من التعمق والاستيعاب ، مما سيلسه القارىء لهذا الكتاب .

الحياة السياسية في العصر العباسي

تنقسم الفترة الأولى من تاريخ الدولة العباسية (١٣٢ - ٥٣٣٤) إلى عصرين :
العصر العباسي الأول ، والعصر العباسي الثاني (١)

وإذا كان العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٥٢٣٢) يتميز بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس فيه . فإن العصر الثاني (٥٢٣٢ - ٥٣٣٤) يتسم بضعف الخلافة ، وضياح هيبة الخلفاء وفساد شؤون الدولة ، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذي بلغ حدا كبيرا في هذا العصر

وأول من استخدم الأتراك في الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام ١٥٨ هـ ، ولكنهم كانوا شريحة صغيرة لا شأن لها في الدولة بجانب الفرس والعرب (٣) ، وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لبسالتهم كانوا بعيدين عن شؤون الدولة وسياساتها لميل المأمون إلى الفرس أخواله .

وكانت أم المعتصم ، ماردة ، تركية من السغد ، فنشأ معه كثير من طبائع الأتراك مع الميل إليهم لأنهم أخواله ، وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم على الخلافة بعد قتل الأمين (٤) فصار يحافهم على نفسه وضاعت ثقته بهم ، كما ضاعت ثقته بالعرب ، فأخذ يتقوى بالأتراك ويتخير منهم الأشداء يتناغمهم بالمال من مواليتهم ، حتى اجتمع لديه آلاف من قبل أن تفضى إليه الخلافة (٥) .

(١) يسير على هذا التقسيم كثير من الباحثين (ص ٩ ج ٢ تاريخ آداب اللغة لزيدان ، و ٥ ج ٤ التمدن الاسلامي ، ١١ ٢ تاريخ الادب العربي للزيات ، ص ب ج ١ ضحى الاسلام) . ويجعل بعض الباحثين العصرين عصرأ واحداً (٣ آداب اللغة في العصر العباسي للأسكندر ، ١٦ تاريخ الادب العربي في العصر العباسي لمحمود مصطفى ، ١٦٥ ج ١ الفصل (٢) ويرى بعض الكتاب أن ابتداءه الفعلي بمقتل المتوكل عام ٢٤٧ (٣) ١٦٧ = ٤ التمدن الاسلامي .

(٤) قال طاهر بن الحسين وهو فارسي :

أيسومني المأمون خطة عاجز أو مارأي بالامس رأس محمد ؟

(١٥٧ / ١ العقد الفريد) وينسب لدعبل (٢٦٦ / ٧ مذهب الاغانى ، ٥٢ / ٢ آداب اللغة لزيدان ، ٣٥٠ الشعر والشعراء) (٥) ١٦٨ / ٤ التمدن الاسلامي

ولمات المأمون سنة ٢١٨ هـ كان هوى الحزب الفارسي مع ابنه العباس ونادوا به خليفة ، ولكن العباس بايع لعمه المعتصم فسكن الجند (١) ، فكان ذلك أيضاً مازاد من تقريب المعتصم للجند وإيثاره لهم ،

وفي عام ٢٢٠ هـ استقدم المعتصم عدداً كبيراً من الأتراك ، اشترهم وبذل فيهم الأموال ، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفاً (٢) ثم ازداد عددهم في جيشه حتى بلغوا السبعين ألفاً (٣) . ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت الخصومات بينهم وبين الجمهور ، وبينهم وبين الفرس أتى المعتصم سامرا على شاطئ دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكراً لجيشه ، وحاضرة للملك ، منذ عام ٢٢١ (٤) هـ ، وأصبحت مدينة عظيمة في مدة وجيزة (٥) ، وصارت من أجل الحواضر الإسلامية وظلت مقر الخلافة حتى عام ٢٨٩ (٦) هـ .. أسلم الأتراك ، وأخذوا يتعلمون العربية ويتكلمون بها ، وصاروا موضع ثقة الخليفة وإيثاره ، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب ونفوذهم في الدولة ؛ وكتب المعتصم إلى عماله باسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم وأنزلهم عما كان لهم من قيادة الجيوش ومنعوا الولايات (٧) :

وانتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي الأتراك (٨) ، الذين أخذوا يشكلون بالفرس والعرب جميعاً ، وسعوا في قتلهم ، وموقف الأفشين من أبي دلف وأمره بقتله لولا أن أنقذه ابن أبي دؤاد معروف (٩)

ولم يمض غير قليل حتى كان لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء ، وخاصة بعد فتح عمورية وقتل بابك عام ٢٢٣ هـ ؛ وصار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم ، واشتهر من بينهم الأفشين م ٢٢٦ هـ وشناس م ٢٣٠ هـ ، وإيتاخ م ٢٣٥ هـ ونواهم ، وتغلغل نفوذهم في جميع مناصب الدولة لكثرتهم وبسالتهم وتأييد الخلفاء لهم ، حتى ان الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) استخلف عام ٢٢٨ هـ شناس التركي على السلطنة وألبسه وشاحين وتاجاً (١٠) ، وفي عهده نكل بغا الكبير وجيشه بكثير

(١) ٣٠٤ / ١٠ الطبري (٢) ٢ / ٢٣٣ النجوم الزاهرة (٣) ٤ العصر العباسي للسباعي بيومي (٤) ٩ / ٤ وما بعدها مروج الذهب (٥) ٥٢ و ٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد (٦) ١٠٠ / ١ ظهر الاسلام . (٧) ١٤٤ / ٤ التمدن ، ١٦٥ حضارة الاسلام في دار السلام (٨) ١٧٠ ج ٤ التمدن (٩) ٥٤ الاذكياء لابن الجوزي .
(١٠) ١٣٥ تاريخ الخلفاء .

من العرب (١) .. ولما مات الواثق عام ٢٣٢ هـ ، سعى الأتراك في ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة ، لأن أمه « شجاع » ، خوارجية تركية ، فتم لهم ما أرادوا ، واستبدوا في عهده بأمور الدولة وشئون الخلافة ، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرتهم فارسيون ، وزاد في رعاية الأتراك وتقديمه لهم ، فزاد طمعهم في الدولة ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم كثيرون الدسائس والمؤامرات ، كثيرون الطمع في الأموال ، والعبث بالأمن .

ندم المتوكل على ما فرط ، وأخذ يعمل على كبح جماح الأتراك ، فحبس إيتاخ حتى مات عام ٢٣٥ هـ ، وأراد عام ٢٤٣ هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق ، لكن ذلك لم يتم له ، ثم عزم على قتل وصيف وبعثا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوهم ، ولكنهم كانوا يحكمون تدبيراً آخر لقتل الخليفة (٢) ؛ وتقدم باغر التركي حارس المتوكل ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك ، ينفذ المؤامرة التي دبرها القواد الأتراك ، ومعهم المنتصر الذي كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد ؛ ودخلوا على الخليفة فقتلوه في قصره الجعفري ، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان ، وذلك في أواخر عام ٢٤٧ هـ (٣) .

وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين وكانت هذه الحادثة مصرع الخلافة ومجد الأتراك .

وفي ذلك يقول البحترى :

أ كان ولي العهد أضمر غـدرة فن عجب أن ولي العهد غادره
فلا ملك الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ويقول المهلبى :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد وهل لمن فقدت عيناي مفتقد

ومنها : فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حتمكم السادة المذكورة الحشد

ورأى يزيد المهلبى هذا يشبه رأى اسحاق بن ابراهيم المصعبى م ٢٣٥ هـ في الأتراك حين شك المعتصم غدر من اضطنعمهم من قوادهم مع وفاء من اضطنعمهم

(١) ١٢ ج ١١ الطبرى . (٢) ٦٥ — ٦٧ ج ٤ مروج الذهب .

(٣) راجع مقتل المتوكل ومراثى الشعراء فيه في (٢٦٠ — ٢٦٤ ج ١ زهر الآداب) ، ومرتبة يزيد المهلبى فيه في (٣١١ ج ٢ وما بعدها من السكامل للمبرد ، ١٨٦ ج ٢ العقد ، ٢٦٣ ج ١ زهر الآداب)

أخوه المأمون من الرجال له (١)

ويقول على بن الجهم :

عييد أمير المؤمنين قتلته وأعظم آفات الملوك عبيدها
بنى هاشم صبرا لكل مصيبة سبيل على وجه الزمان جديدها
وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم ، فإن هذه المأساة
المؤلمة كانت سببا في زيادة كراهية الرأى العام لهم ، ونعمته عليهم .

ازداد عقب ذلك نفوذ الأتراك في عهد المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) ، ثم في عهد
المستعين (٢٤٨ - ٢٥٣ هـ) ، ثم عادوا لخلعوه من العرش ثم قتلوه وأقاموا مكانه
في الخلافة المعتز بالله ابن المتوكل عام ٢٥٢ هـ .

كان المعتز يكره الأتراك ، ويريد أن يثار منهم لآيئه ، ففي عهده قتل وصيف
عام ٢٥٣ هـ ، ثم بغا عام ٢٥٤ هـ ، وفي مصرعه يقول البحترى من قصيدة مدح بها
المعتز بالله : (٢)

أضحى بغاء وأقربوه وحزبه وكأنهم حلم من الأحلام
طاحوا فما بكت العيون عليهم بدموعها ومضوا بغير سلام
وبعد قليل سار الأتراك الى المعتز فوبخوه وطالبوه بالأموال ، ثم عذبوه
وضربوه بالدبابيس ، وجروه برجله إلى باب الحجر ، وأقاموه في الشمس حافياً ،
وكان بعضهم ياطمه وهو يتقي بيده ، فخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥ (٣) هـ ؛ ثم حبسوه
وقتلوه ؛ وولوا مكانه المهتدى بن الواثق ، الذي لم يعجبهم زهده وورعه وحبه
للعادلة ، فخلعوه عام ٢٥٦ هـ . ومات بعد خلعه بأيام .

وفي عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) اشتد الخلاف بين فرق الأتراك ، فطلبوا أن
يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة ، وألبرأسهم أحدهم ، فولى المعتمد
أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام ٢٥٧ هـ ، وبعد قليل أصبح السلطان الفعلي
للموفق لا للمعتمد ، وصارت كلمته هي العليا على الأتراك وقوادهم ، فكبح غير قليل
من جماهيرهم وأثر ذلك في حسن الأحوال قليلا .

وسار المعتضد بن الموفق في خلافته (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) سيرة أبيه ، فعمل على
رفع شأن الخلافة ، وألحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع ، ولم يحاربهم على حساب

(١) راجع ٨ ج ١١ الطبري (٢) راجع ٢٣٤ - ٢٣٦ ج ٢ ديوان البحترى

(٣) ١٦٢ ج ١١ طبري ، ١٣٠ ج ٢ شذرات الذهب ، ١٢٠ ج ٤ مروج الذهب

القانون والعدالة ، فاقص من تركى ارتكب معصية (١) ، وقتل قائد أتركيا قتل غلاماً له ومدحه ابن الرومى على ذلك (٢) ، وفى المعتضد يقول ابن المعتز من أرجوزته فى تاريخه :

قام بامر الملك لما ضاعا وكان نهباً فى الورى مشاعا
وكل يوم ملك مقتول وخائف مروع ذليل
وكل يوم شغب وغصب وأنفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل فغصبوها نفسها فى المحفل
ويطلبون كل يوم رزقاً يرونه ديناً لهم وحقاً
كذاك حتى أفقروا الخلافة وعودوها الرعب والخافة

ومات المعتضد ، فسار ابنه المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) فى خلافته بسيرة والده من الحزم والعزم والاختذ على يد الأتراك .
وبعد وفاته ولى الأتراك أخاه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً صغيراً ، وأيدوا عرشه ببطشهم وظل خليفة الى عام ٣٢٠ هـ

وهكذا كانت أمور الدولة فى العصر العباسى الثانى تسير فى طريق بعيد عن المالوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ فى يد الأتراك ، الذين لم يبالوا بشيء فى سبيل أهوائهم وشهواتهم ، واعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء . وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ، ويتعرضون للحرم والغلمان ، فكرههم الناس كرهاً شديداً ، وكان نفوذهم فى الدولة جرحاً دامياً يؤلم كل عربى صميم ، حتى هجا دعبل المتوفى ٢٤٦ هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم :

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركى عليه مهانة فانت له أم وأنت له أب
ويقول العلوى صاحب الزنج م ٢٧٠ هـ :

بنى عمنا وليتم الترك أمرنا ونحن قديماً أصلها وعمودها
فما بال عجم الترك تقسم فيئنا ونحن لديها فى البلاد شهودها
فاقسم لاذقت القراح وإن أذق فبلغة عيش أو يباد عميدها (٣)
وقد قام الشعب بعدة ثورات ، أهمها ثورة عام ٢٤٩ هـ التى اشترك فيها الجند

(٢) راجع نشوار المحاضرة جزء ١ ص ١٥٢ (٢) ديوان ابن الرومى ص ٣٠٣

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ٣٣١

الشاكزية ؛ وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة . وقد حاول بعض زعماء الأتراك التخفيف من حدة شعور الرأى العام وبغضه لهم ، وقاموا بدعايات كثيرة ، كان من أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بايحاء الفتح بن خاقان وحاول بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم والالفة بين الأتراك وجمهور الشعب ، وقد قدمها الجاحظ الى الفتح ، والظاهر أنه كتبها في أيام المعتصم ، ولكنها لم تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب فأعاد كتابتها من جديد في عهد المتوكل ، ودعا فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر وأشاد فيها بالأتراك وبطولتهم الى حد بعيد (١) . وهذه المحاولة توسواها من المحاولات قد فشلت جميعاً في الوصول الى الغرض المنشود .

وامتاز العصر الثانى بنفوذ الغلمان فيه ، وخاصة في آخره وفي عهد المقتدر ، الذى كان عنده أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان (٢) ، وتولى كثير من الخدم قيادة الجيوش وأهم الأعمال في الدولة ؛ كبدر غلام المعتضد ؛ الذى تولى قيادة الجند ونقش اسمه على الاعلام ؛ وأبلى في خدمة مولاه بلاء حسناً ؛ حتى قتل في سبيله عام ٢٨٩ هـ .

ونشطت النساء ؛ وكثر نفوذهن أيضاً في الدولة ، وكان معظم ذلك في عهد المقتدر لتسلط الخدم والحجاب .

وفي ظلال هذه الفوضى السياسية ؛ استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد ، وأهم هذه الدول المستقلة : الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) وهى تركية والدولة الأخشيدية بمصر (٣٣٢ - ٣٥٣ هـ) ، وهى تركية أيضاً ، والدولة الطاهرية بنجراسان (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) وهى فارسية ؛ والدولة السامانية في ماوراء النهر (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) وهى فارسية أيضاً ، والدولة الصفارية بفارس (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ) والدولة الدلفية بكرديستان (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) وهى عربية ، والدولة العلوية بطبرستان (٢٥٠ - ٣١٦ هـ)

كما حفل العصر العباسى الثانى بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة ، مما تجدد أخباره ونتائج في مقاتل الطالبيين ، وسبب ذلك راجع الى اضطهادهم واضطهاد شيعتهم .

فقد كثرت اضطهاد الشيعة في هذه الفترة الحافلة ، وأسرف في ذلك المتوكل على الله

(١) راجع رسالة الجاحظ في مناقب الترك وهى في أول رسائل الجاحظ

(٢) راجع التمدن ج ٤ ص ١٧٥ ، آداب اللغة لزيدان ج ٢ ص ١٥٤

فانه لما تولى الخلافة اضطهد الشيعة ، وشدّد التّكبير عليهم ، وصادر أموال العلويين وشيعتهم ، وغالى في تشريدهم ، وأمر في عام ٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين بكر بلاء (١) وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم (٢) ، من حيث كان المأمون يرعى العلويين ولا يؤذى أحداً منهم (٣) .

وكان المتوكل يبعض المأمون والمعتصم والواثق لمحبتهم لعلّى (٤) ، وكان شديد البغض لعلّى وأهل بيته ، وذلك راجع لموضع خؤولته من الترك وسلطان الأتراك في الدولة ، وتاريخ الأتراك ملوّء بكرههم للتّشيع والشيعة ، وبالخروب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة . وبذهاب الشيعة ونفوذهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وغلبت السنة على الدولة من ذلك الحين .

وسرت في الدولة بعد المتوكل موجة اضطهاد العلويين والشيعة ، فالمتصركان يقاوم العلويين كما به (٥) ، وتذكر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلته بالبيت العلوى ولكن لم تطل مدته (٦)

ولكن عهد المعتضد كان عهد خير على العلويين ، فانه لم يتعرض في أيامه لهم ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً (٧) .
وكان البعض يشنع على آل أبي طالب عند المكتفي فهاهم عنه (٨) . . وعلى الجملة فان أغلب هذا العهد كان عهد محنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم .

أما الفترة الثانية من حياة الدولة العباسية فتبدأ من عام ٣٣٤ هـ ، وتنتهى عام ٦٥٦ هـ ، وتتمتاز بنفوذ الامارات الاسلامية في العالم الاسلامى وقد بدأت هذه الفترة

(١) ٢٨٩ ج ٣ محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية للخضرى بك ، ١٩ ج ٧ وما بعدها ابن الاثير

(٢) العقد ج ١ ص ٢٤٩

(٣) راجع مناظرة المأمون للفقهاء في تفضيل على (٢٧٩ — ٢٨٦ ج ٣ العقد)

(٤) ظهر الاسلام ص ٤١ ج ١

(٥) الادارة الاسلامية لكرد على ط ١٩٣٤ ص ١٧٣

(٦) ظهر الاسلام ص ٤٤ ج ١ (٧) الفرج بعد الشدة ص ١٣٣ ج ١

(٨) الاغانى ص ١٤٣ ج ٩

بدخول البويهيين ببغداد سنة ٣٣٤ هـ ، حيث سيطر واعلى الحكم بدل الأتراك ، وهم من الجنس الفارس ، وبذلك عاد الفرس إلى السيادة ، وأقاموا ببغداد يتصرفون باسم الخليفة ، ولكنهم لم يكونوا كأسلافهم ، يرعون للخلفاء حرمتهم ، ويحفظون لهم جلالهم وهيبهم ، بلى حذروا حذو الترك فى التشكيل بهم ، والاستهانة بأقدارهم .

وكانت تضرب أسماء البويهيين على الدينار والدرهم ، ويخطب لهم على المنابر ويفوض إليهم الخلفاء كل ما وكل الله إليهم من شئون الرعية ، وتديرها فى جميع جهاتها ، إلى أموه الخليفة ، ولكن هذا لم يقنعهم فضيقوا عليهم فى الرزق وقدروا لهم النفقات ، وصادروهم على أموالهم ، وخلعواهم ، وسملوا عيونهم ، وقد احتاج بهاء الدولة إلى مال ، فدبر خلع الطائع ، فاستأذنه فى الحضور لث جديد العهد ، فلما دخل قبل الأرض بين يديه وجلس ، وتقدم بعض الديلم كأنهم يريدون تقبيل يد الخليفة ، فلما مدها إليهم ، جذبوه عن سرير الملك ، وهو يستغيث ، ونهبوا داره ، وامتنوا من كان بحضرته من القضاة والأشراف ، وسلبوهم ثيابهم .

وقد اشتد فى بدء هذه الفترة نفوذ الإمارات الإسلامية المستقلة المتباعدة

ومن أهمها .

١ - الدولة السامانية بفارس وما وراء النهر (٢٦١ - ٣٨٩ هـ)

٢ - د الزيارية بمرجان (٣١٦ - ٤٣٤ هـ)

٣ - د الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧ - ٣٩٤ هـ)

٤ - د البويهية بفارس ثم العراق (٣٢٠ - ٤٤٧ هـ)

٥ - د الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ)

ولقد كانت حال الخلفاء مع البويهيين مثل ما كانت عليه من قبل ، فظل البويهيون يستبدون بكل شيء ، ويعاملونهم بقسوة وعنف حتى دالت دولتهم ، وتغلب السلاجقة عليهم ، ودخلوا ببغداد عام ٤٤٧ هـ

ورث السلاجقيون الإمارات الشرقية ، ماعدا مصر والشام ؛ واستولوا على ديوان الخليفة ببغداد حتى أصبح لآحل له ولا عقد ، واستمر ذلك إلى زوال الخلافة حيث أغار عليها التتار بقيادة زعيمهم د هولاكو ، فاستولوا على ببغداد سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م ، بمساعدة د مؤيد الدين بن العلقمى ، وزير المستعصم آخر خلفاء ببغداد وقتلوا الخليفة وأهله ومثلوا بهم . وبموت المستعصم سقطت الخلافة العباسية من ببغداد ، وفر بعض الخلفاء إلى مصر فى زمن الملك الظاهر بيبرس ، فأنزلهم وخصص

لهم بعض وظائف لمعاشهم ، وبقوا فيها الى أن انتقلت الخلافة الى العثمانيين سنة ٩١٢هـ - ١٥١٧م

وفي خلال حكم السلجوقيين لم يعد شمل الدولة الاسلامية جميعا كما كان قبل ظهور الأتراك ، بل ظلت مفككة العرى مقطعة الاوصال ومن ضعفت شوكته في ولايته ، تلقفها منه غيره ، بدل أن تعود إلى حوزة الخليفة بالعراق ، وظهر في المشرق الاسلامي من الدول غير ماظهر على أيام الاتراك ومن أشهر هذه الدول :

- ١ - الدولة الغزنوية في السند و أفغانستان (٣٥١ - ٥٨٢ هـ)
- ٢ - د الفاطمية د مصر والشام (٣٦٢ - ٥٦٧ هـ)
- ٣ - د العقيلية د ديار بكر والجزيرة (٣٨٦ - ٤٨٩ هـ)
- ٤ - د المزيدية من بنى أسد في الحلة (٤٠٣ - ٥٤٥ هـ)
- ٥ - د المرداسية د د كلاب في حلب (٤١١ - ٤٧٢ هـ)

هذا غير ما تفرع من الدولة السلجوقية نفسها ، وتوزع منها ، من ممالك وأمارات ، لاحفادهم ، ومما ليكهم ، وقوادهم ، كالخوارزمشاهية ، والارتقية ، والأتابكية ، وسواها . وكذلك غير حلول الأيوبيين محل الفاطميين . . .

وبعد فقد دامت الخلافة العباسية خمسة قرون ، وكان عرش العباسيين فيها ملعباً للأهواء ، وتنقسم التطورات التي مرت بها إلى خمسة أدوار سياسية :

١ - فالدور الأول ، دور القوة المركزية ، أى قوة الخلافة ، يمتد من بدء الدولة إلى أواخر حكم المتوكل ، فيشغل أكثر من قرن من الزمان ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ وقد بلغت فيه الخلافة أقصى قوتها وأزهى مظاهر مجدها ، وفي هذا الدور كانت بغداد عاصمة لسلطنة واحدة تمتد بما يقرب من الهند إلى تونس .

٢ - والدور الثانى ، دور الجنودية (٢٤٧ - ٣٣٤ هـ) حيث كانت الخلافة تحت سيطرة الجنود الاتراك الذين نظمهم المعتصم ، وقد نقل ديوان الخلافة إلى سامرا حيث بقى فيها نحواً من ٥٨ سنة قبل أن يعاد إلى بغداد .

٣ - والدور الثالث أو الدور البويهى (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) وكانت فيه السلطة بيد بنى بويه وكان الخليفة لا يملك من المال إلا راتباً يتقاضاه ، ولو أن البويهيين أبقوا للخلافة نفوذها الاسمى ، وصاروا يحكمون في الدولة ظاهراً بإمرة الخلفاء .

وبقوا كذلك إلى أن ضعفوا ثم زال ملكهم بقيام السلاجقة . وقد دام هذا الدور أكثر من قرن حتى سنة سبع وأربعين وأربعمائة للهجرة .

والدور الرابع أو الدور السلجوقي (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ) ، وينقسم إلى عهدين : عهد قوة السلجوقيين وينتهي عام ٥٩٠ هـ وفيه كانت السلطة للسلاجقة ، وهم قوم من الأتراك سلخوا مسلك البويهيين في المحافظة على مظهر الخلافة وإبداء التبجيل لصاحبها وعهد الاحتضار ويبدأ باحتضار دولة السلاجقة في بغداد أيام الناصر حتى داهم المغول الخلافة سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة ، فنهبوا بغداد وقتلوا آخر خلفائها وحولوا ما كان قائماً من معالمها . . . هذا والعصر العباسي عامة يتميز بعدة مظاهر من أهمها :
١ - التنافس على السيادة بين العناصر الجنسية وأخصها العربي والفارسي والتركي .

٢ - ضعف الخلافة وتجزؤها إلى إمارات مستقلة .

٣ - الحركات الهدامة الداخلية .

٤ - غارات الروم والإفرنج على أطرافها .

الحياة الاجتماعية

كانت الدولة الإسلامية في ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :
الأتراك : وكان لهم النفوذ السياسي في الدولة ، وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً ، وتولوا شتى المناصب الرفيعة في الحكومة . وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة (١) ؛ وكان فيهم عبث بالآخلاق ، وشراهة في جمع الأموال (٢) ، وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، فكثرت الجوارى الأتراك في قصور الخلفاء والأثرياء ، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ؛ وطابع الترك حب الجنديّة والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل في الدين ، وحب المال وجمعه من أية سبيل ، مع عدم الرغبة في الإصلاح .

العنصر الفارسي : كانوا عماد النظام السياسي والإداري للدولة ، ولكن الترك أقصوهم عن منزلتهم في العصر العباسي الأول ، فأخذوا يدسون الدسائس ، ويدبرون المؤامرات ، ويرمون إلى الاستقلال ببلادهم عن الخلافة ، وكانت الدولة تتأثر بهم في حياتهم العقلية الخصبية ، وعاداتهم وتقاليدهم العامة ؛ وكانوا ادعاة الترف

(١) ظهر الاسلام جزء أول صفحة ٣٢ (٢) المرجع نفسه صفحة ٣٤ ، ٣٥

والمجون والحضارة ، وطابعهم حب السيادة والبذخ والقدرة على تنظيم إدارة الدولة وتشجيع العلوم والظهور بمظهر التشجيع .

العنصر العربي : أقصى عن النفوذ في الدولة والخلافة ، وكان للمعتصم في ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون في الشام والجزيرة حيث كونوا لهم هناك دويلات كثيرة . وطابع العربي الزهو والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة في السيادة .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثرهما في الحياة الاجتماعية في هذا العصر وهما الزنج والروم : أما الروم فقد كثرت أسراهم في بيوت الخلفاء والأغنياء ، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات تركيات . وكانت الجوارى الروميات والغلمان الروم يملأان القصور ، وتعشقهم الشعراء ، فكان للبحترى غلام رومى اسمه نسيم (١) ، وكذلك كان لسواه من الشعراء ، ومن هذا العنصر : ابن الرومى م ٢٨٣ هـ . . وأما الزنج أو السود فكانوا يجلبون من سواحل افريقيا الشرقية ، وكانوا يعملون في الزراعة والصناعة وفي بيوت الطبقات المتوسطة ، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التي هددوا بها الدولة (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) ، وكانت حرباً بين الأجناس ، وظلت حتى قضى عليها الموفق عام ٥٢٧ هـ .

وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً (٢) ، والنفوذ والثروة في يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف واللهو والمغالاة في البنيان . فقد أنفق المعتصم على بناء « سامرا » أموالاً طائلة ، وكذلك فعل المتوكل في بناء الجعفرى وسواه من المباني التي أنفق عليها نحو خمسة ملايين من الدنانير . وبني المعتضد قصر التاج في الجانب الشرقى من بغداد وأتمه ابنه المكتفى ، وبني المعتضد على بعد ميلين منه قصر الثريا الذى بلغ طوله ثلاثة فراسخ وأنفق عليه نحو نصف مليون من الدنانير ، ووصله بالقصر الحسنى بسرداب تحت الأرض بلغ طوله ميلين وكانت تمشى فيه جواريه وحرمة (٣) . وفي تهنئة المعتضد بقصر الثريا نظم ابن المعتز قصيدته :

(١) معاهد التنصيص ص ١١٠ / ١ - مذهب الأغاني ج ٧ ص ٩٤ .

(٢) راجع الطبقات الاجتماعية وحياتها في هذا العصر في التمدن الاسلامى (٢٠ - ٥٩ / ١٠١٥ - ١٢٩ / ٥) .

(٣) التمدن الاسلامى صفحة ٩٣ و ٩٤ ج ٥ وظهر الاسلام ج ١ صفحة ٩٩ .

(٢ - الحياة الأدبية)

سليت أمير المؤمنين على الدهر ولا زلت فينا باقياً واسع العمر
 حملت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معموراً وبورك من قصر
 فليس له فيما بنى الناس مشبه ولا يبناء الجن في سالف الدهر
 ويصف في أرجوزته في المعتضد قصر الرباب فيقول :

فمن رأى مثل الرباب قصراً كم حكمة فيه تخال سحراً
 أبنية فيها جنان الخلد لكل ذى زهد وغير زهد
 تخبر عن عز وعن تمكين وحكمة مقرونة بالدين
 ومظاهرات قوة الاسلام على أعاديه من الأنام

وهكذا كان الترف والنعيم حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس وبعض رجال
 التجارة والصناعة . حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس (١) .
 وكان من مظاهر الترف في هذا العصر - كما ذكرنا - كثرة الرقيق حتى
 امتلأت به القصور ، فكثرت نسل الجوارى واختلطت الدماء ، وأشاع هؤلاء
 الجوارى فن الغناء ، كما نشرن اللهو والمجون بين شتى الطبقات .

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت
 البلاد معرضاً للنحل ، ومجالاً لدعاية الجماعات السرية وأصحاب المذاهب الذين كانوا
 يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء
 بالدعوة إلى المساواة .

فكان فيها التشيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوالها ،
 والفلسفة بمذاهبها ، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى
 بمبادئهم وآرائهم .

وقد قامت جماعات تكافح الشك في الدين والمجون في المجتمع ويدعون إلى
 الحياة الاسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها : ومنهم الحنابلة الذين كانوا يقومون
 بثورات كثيرة في بغداد لمحاربة المجون والالحاد .

على أن أساس الحياة الاجتماعية (٢) هي الحالة الاقتصادية ، التي تسيطر على

(١) ظهر الاسلام جزء ١ صفحة ٩٧ .

(٢) يراد بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة من الصلات والأسباب

الناس من حيث لا يشعرون . والحياة الاقتصادية في العصر العباسي الثاني كانت شديدة الاضطراب والفوضى إلى حد بعيد .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للقرين لدى الخلفاء والوزراء (١) ، وكان كبار الملاك يستقلون باقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين حالة الناس . . وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين ، حتى الوزراء الذين كانوا يسوغونها أمام ضباطهم وأمام الخلفاء ، كما فعل سليمان بن وهب أمام المهدي (٢) . وعمت المصادرة بين طبقات الناس ، وأصبحت بتوالي الأيام المصدر الرئيسي لبيت المال (٣) وأنشئ لها ديوان مخصوص (٤) . . وكانت ضرائب الاطيان أساس دخل الخلافة (٥) ، ويدل على مدى قوة الدولة أن متوسط جبايتها كان في أواسط القرن الثالث كما ذكر ابن خرداذبة نحو ثلاثمائة مليون درهم (٦) ، بعد أن كان في عهد الرشيد والمأمون أكثر من ٣٩٠ مليوناً (٧) وفي عهد المعتصم ٣٨٨ (٨) .

وكانت نفقات المعتضد سبعة آلاف دينار في اليوم (٩) ، وذلك نحو مليونين ونصف مليون من الدنانير أو خمسين مليوناً من الدراهم في العام (١٠) ، فالباقي من مجموع الجباية هو الذي يبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة (١١) .

(١) ٥٤ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد .

(٢) ١٥٦ / ٧ مذهب الأغاني .

(٣) ١٨٠ / ٤ التمدن الإسلامي ، ١٦٩ الإدارة الإسلامية .

(٤) ٣٥ / ١ ظهر الإسلام ، ١٦٩ الإدارة .

(٥) ٥٣ بارتولد ، ٦٩ / ٥ التمدن . (٦) ٦١ / ٢ التمدن .

(٧) ١٧٩ — ١٨١ مة — ابن خلدون ، ٥٣ / ٢ التمدن ، ١٥٢ حضارة

الإسلام في دار السلام . (٨) وذلك وفق ما ذكر قدامة في كتاب الخراج

(٩٠ / ٢ التمدن) — ومتوسط الجباية في العصر الأول كان نحو ٣٦٠ مليوناً في

العام ، ينفق منها على مصالح الدولة نحو ٥٠ مليوناً والباقي يظل في بيت المال تحت

تصرف الخليفة يصرف منها المرتبات والمكافآت (٦٩ ، ٧٠ / ٤ التمدن)

(٩) ٣٥٣ — ٣٥٥ / ٣ الخضرى بك . (١٠) ٦٦ / ٢ التمدن .

(١١) ٦٧ / ٢ التمدن .

وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة (١) حتى ترك المنصور أربعة عشر مليوناً من الدنانير — أى ٦٠٠ مليون من الدراهم — وترك الرشيد واحداً وعشرين مليوناً (٢) ، وترك المعتضد فى خزانة الدولة أموالاً طائلة فوق ما ترك من ثروة خاصة .

وفى بعض مظاهر هذا الترف والبذخ ، يقول على بن الجهم واصفاً قصر الجعفرى الذى بناه الخليفة المتوكل على الله :

وما زلت أسمع أن الملو	ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجا	ل يقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الإما	م رأينا الخلافة فى دارها
بدائع لم ترها فارس	ولا الروم فى طول أعمارها
وللروم ما شيد الأولو	ن وللفرس آثار أحرارها
وكنا نحس لها نخوة	فطامنت نخوة جبارها
وأنشأت تحتج للمسله	ين على ملحدتها وكفارها
صحون تسافر فيها العيو	ن إذا ما تجلت لأبصارها
وقبة ملك كأن النجو	م تفضى إليها بأسرارها
نظمن الفسافس نظم الحلى	لعون النساء وأبكارها
لو أن سليمان أدت له	شياطينه بعض أخبارها
لايقن أن بنى هاشم	تقدمها فضل أخطارها

ولضيق أبواب الرزق على كثير من الناس ، وفصور وسائل الكسب عن أن تنفى لهم بمطالب الحياة ، اتخذ بعضهم تكفف الناس حرفة ، وقعدوا للسؤال كل مقعد ، وقد أنفذ ملك الروم إلى المنصور رسولا ، فاستراحه من على جسر الرصافة من الزمنى والسؤال ، وقال لعمارة بن حمزة — وكان يرافقه من قبل المنصور فى تطوافه ببغداد — إني أرى عندكم قوما يسألون ، وقد كان يجب على صاحبك أن يرحم هؤلاء ، ويكفيهم مؤنهم وعيالاتهم ، فاعتل له عمارة بوجهه ، واعتل المنصور بسواه .. فلا غرابة — إذن — أن يكثر أهل الكدية ، من الطبقة الدنيا ، بل لا غرابة إذا وجد بعض الناس فى التكدية هنا سبيل ، تدر عليهم فيها أخلاف

الرزق ، ويأمنون معها بوائق الغدر ، وهذا ما نراه ، ونرى معه كيف كانت وسائل الكسب على أيام الحريري ، من قوله في المقامة الساسانية : سمعت المعاش إمارة ، وتجارة ، وزراعة وصناعة ؛ فارست هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وأنقع ، فما أجدت منها معيشة ولا استرغدت عيشة ، ولم أر ما هو بارد المغنم ، لذيد المطعم ، وإني المكسب ، صافي المشرب ، إلا الحرفة التي وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ، وأضرم في الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها ، فشهدت وقائعها معلماً ، واخترت سبيلها لي ميسماً ، إذ كانت المتجر الذي لا يبور ، والمنهل الذي لا يغور ، والمصباح الذي يعشو إليه الجمهور ، ويستصبح به العمى والعور ، وكان أهلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف . . .

الحياة العقلية (١)

في العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ازدهرت الحياة العقلية ازدهاراً كبيراً ، وتلاقت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العربية في أثرها ، في العلم والثقافة . . كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة ، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات والوراثات .

كان النفوذ فيه للفرس ، وانتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على يد الوزراء وكتابهم الفارسيين ، ونقل المتقفون من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية - إلى العربية تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة ، وانتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادراً عن عقليتين وثقافتين ؛ وكان رجال العلم في هذا العصر أكثرهم فارسيون ، حتى قال ابن خلدون : إن حملة العلم في الاسلام أكثرهم من العجم (٢) ، ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر على الفكر الاسلامي بامتزاج الجنسيتين في الحياة الاجتماعية وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية ، وإذا كان خالد بن يزيد م ٨٩ هـ أول من ترجم - أو ترجمت له - كتب النجوم والطب والكيمياء (٣) ، فقد عني المنصور م ١٥٨ هـ بترجمة كتب

(١) يراد بالحياة العقلية حركة النفس الانسانية في جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والآداب . (٢) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون (٣) ٢١٢ / ١ البيان والتبيين للجاحظ ، ٩٧٤ الفهرست لابن النديم .

النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها ، وبعث الى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بمالديه من كتب الفلاسفة واستخار لها مهرة الترجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها (١) ، بل كان المنصور أول خليفة قرب المنجمين وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية (٢) ، وكذلك فعل الرشيد ، وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك (٣)

وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج المترجمين (٤) وهي مكملة لدار الحكمة التي بناها الرشيد للترجمة ، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقاليد الإيرانية في أمور الدولة فقد أخذت في ساحة الحضارة والثقافة أموراً كثيرة من بيزنطة (٥) .

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامي مباشرة وبوساطة الفرس أيضاً ، أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية ، وليس لهم ثقافة ، وبعد أن تعلوا العربية لم ينبغ منهم في الأدب والشعر والعلم إلا القليل ، كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان . وكان للإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة في الدين واللغة والأدب والشعر ، كانت هي أهم شيء أثر في الفكر الإسلامي وكانت المورد الأول للناس جميعاً .

تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي الأول وأحدثت أثرها في العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات (٦) وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدّموا معاني للأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها . وفي العصر العباسي الثاني (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ) زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها ، بتداول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم في البلاد الإسلامية .

وكان العصر العباسي الأول تغلب عليه نزعة الاعتزال التي أيدها المأمون بكل ما يستطيع ، ولكن العصر الثاني وهو عصر النفوذ التركي كان مصحوباً بمظاهر

-
- (١) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الاندلسي ، ٢١ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، وراجع حركة الترجمة في (٢٢٩ - ٢٣٣) الأدب العباسي لمحمود مصطفى ، ١٧٧ وما بعدها و ٢٦٤ و ٢٦٨ - ٢٧٠ / ١ ضحى الإسلام .
- (٢) ٢٤١ / ٤ وما بعدها مروج الذهب (٣) ٤٨٠ و ٤٨١ مقدمة ابن خلدون
- (٤) ٢٣٠ الأدب العباسي لمحمود مصطفى (٥) ٣٨ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد (٦) ٣٨٠ ج ١ ضحى الإسلام .

جديدة أهمها إلغاء سلطان المعتزلة وإعلاء شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل في القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة ، كمحمد بن أبي الليث في مصر وأحمد بن أبي دؤاد في العراق ، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين ؛ وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويعملون له (١) .

ومراكز الحياة العقلية في العصر الثاني كانت كثيرة متعددة ، فنشطت الدراسات الدينية واللغوية في مصر ؛ ونفوقت الشام في الشعر والآداب واللغة (٢) ، وكان للعراق الصدارة في العلم والآداب والفلسفة ؛ فكانت بغداد والبصرة وحران أهم مراكز العالم والحضارة . فالجاحظ والكندي بصريان ، والبتاني الرياضي الفلكي م ٣١٧ هـ من حران . وكانت بغداد تجذب العلماء اليها من كل أرجاء العالم الاسلامي ، واشتهرت بلخ وخوارزم واصفهان في ميدان التفكير والثقافة . فنسخ منها أبو زيد البلخي م ٣٢٢ هـ أحد تلاميذ الكندي المشهور وأبو هوسى الخوارزمي صاحب المؤلفات القيمة في الجبر والحساب ، ثم أبو الفرج الاصفهاني مؤلف الاغانى ؛ وسواهم من العلماء وبعد فالعصر العباسي الثاني كان زاخراً بالعلوم ، قديمها وحديثها ، كما كان حافلاً بالعلماء والمفكرين والفلاسفة .. وكانت العلوم المترجمة شرطاً في تكوين ثقافة الكاتب والاديب ، وراج علم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس (٣) والادباء ، وعلى أى حال فلم تكن مناهج التفكير واحدة عند جميع الناس ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده في العراق ؛ ويثور ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » على الحالة في عصره حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق (٤) ؛ وكانت جمادة الادباء يضجرون من الثقافات المترجمة وعلومها حتى قال ابن المعتز يصف من يؤثره بصداقته :

فإن تطلبه تقتنصه بحانة وإلا يبستان وكرم مظل
ولست تراه سائلاً عن خليفة ولا قائلاً من يعزلون ومن يل

(١) راجع ٤١ / ١ ظهر الاسلام (٢) راجع ٨ / ١ اليتيمة للشعالبي ، ١٧٧ ج ١ وما بعدها ظهر الاسلام . (٣) — واشتهر على بن جور الفارسي — وكان كاتباً مترسلاً ذا علم بالنجوم — بادخالها في شعره (٢٩٣ معجم الشعراء) .
(٤) راجع ص ٢ وما بعدها أدب الكاتب بهامش المثل السائر . وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته اليونانية وسواها (راجع ٤٠٢ ج ٤٠٦ ج ١ ضحى الاسلام) .

ولا صانحا كالعير في يوم لذة ينظر في تفضيل عثمان أو على
ولا حاسبا تقويم شمس وكوكب ليعرف أخبار العلوم من اسفل
يقوم كحزباء الظهيرة مائلا يقرب في اصطرلابه عين أحول
ولكن فيما قد عناه وسره وعن غير ما يعنيه فهو بمنزل

وقد ازدادت الحركة العقلية ازدهارا بعد ذلك ، وظهر أفذاذ من الفلاسفة
والمفكرين الذين يعتز بهم العقل الاسلامي ، ومن بينهم ابن سينا المتوفى عام ٤٢٨ هـ
والغزالي المتوفى عام ٥٠٥ هـ والرازي المتوفى عام ٦٠٦ هـ وسواهم ..

من أعلام المفكرين في العصر العباسي

نبغ في جميع ألوان الثقافة الدينية والأدبية والفكرية في العصر العباسي كثير
من أئمة العلماء .

١ — فقي التشرية الاسلامي نبغ: أحمد بن حنبل م ٢٤٠ هـ ، والكرائسي م ٢٤٥ هـ ،
والزعفراني م ٢٦٠ هـ ، وداود الظاهري (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ) (١) ، واسماعيل
ابن إسحاق قاضي بغداد م ٢٨٢ هـ ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل م ٢٩٠ هـ ،
والحرابي م ٢٨٥ هـ ، ويوسف بن يعقوب القاضي (٢٠٨ - ٢٩٧ هـ) ، ومحمد بن
داود الظاهري م ٢٩٧ هـ (٢) .

ب — وفي التصوف : المحاسبي ٢٤٣ هـ والبسطامي م ٢٦١ هـ وسهل التستري
م ٢٨٣ هـ وأبو سعيد الخزاز م ٢٨٦ هـ وهو أول من تكلم في الفناء والبقاء ، ثم
إمام الصوفية الجنيد م ٢٩٧ هـ (٣) ، ثم الحلاج وقتل عام ٣٠٩ هـ - اد (٤)

ج — وفي علوم اللغة والأدب ، مصعب الزبيري م ٢٣٦ هـ (٥) ، والتوزي
م ٢٣٨ هـ ، وأبو العميشل م ٢٤٠ هـ ، وابن السكيت م ٢٤٤ هـ ، ومحمد بن حبيب

(١) راجع ترجمته في ٢٦٥ وما بعدها من كتاب نظرات عامة في الفقه الاسلامي ،
١/٢١٣ وفيات الأعيان . (٢) راجع ترجمته في : ٢٧٢-٢٧٣/٢ وفيات الأعيان ،
١٥٩ وما بعدها تزيين الاسواق ، وله كتاب الزهرة ، وهو مخطوط بدار الكتب
ومنسوب لداود والده (٣٥٤٨ أدب مخطوط) (٣) ١/٢٠٨ وفيات
(٤) راجع ٩١ و ٢٣١ الكشكول في مقتل الحلاج .
(٥) وهو شاعر راوية (٤٠٢ معجم الشعراء)

م ٢٤٥ هـ (١)، والمازني م ٢٤٩ هـ ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥ هـ (٢) ، والزبير ابن بكار م ٢٥٦ هـ (٣) ، والرياشي أبو الفضل العباس بن الفرج م ٢٥٧ هـ (٤) والأشناداني م ٢٥٧ هـ وعمر بن شبة م ٢٦٢ هـ ، وابنه أحمد م ٢٧٢ هـ (٥) ، والطلحي م ٢٧١ هـ (٦) ، والسكري م ٢٧٥ هـ (٧) ، وأبو العباس اليزيدي م ٢٧٨ هـ ، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢ هـ (٨) ، والمبرد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ (٩) ، وثعلب (٢٠٠ - ٢٩١ هـ (١٠) ، والزجاجي البغدادي النحوي م ٣٠٧ هـ . وابن السراح تليذ المبرد والمتوفى عام ٣١٦ هـ (١١) ، والزجاج م ٣١١ هـ (١٢) ، والأخفش م ٣١٨ ونقطويه م ٣٢٣ هـ ، وابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١ هـ (١٣) ، ثم ابن الأنباري والزخري وسواهم .

د - وفي علم الكلام ظهر من المعتزلة : بشر بن المعتمر م ٢١٠ هـ ، وثمامة بن أشرس م ٢٢١ هـ ، والنظام (٢٠٠ - ٢٣٥ هـ) ، وابن أبي دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠ هـ) ، ويحيى بن أكرم م ٢٤٢ هـ ، والعلاف البصري م ٢٣٥ هـ ، وابن الراوندي

(١) ١٥٥ فهرست ، وكان من علماء بغداد بالأنساب والأخبار واللغة والشعر والقبائل (٢/١٩٣ آداب اللغة لزيدان)

(٢) وله كتاب المعمرين وكتاب الفصاحة (٨٧ الفهرست)

(٣) ١٦٠ الفهرست ، وله كتاب أخبار توبة ويلي (١٦١ فهرست)

(٤) ٨٦ فهرست ، وكان عالما راوية ثقة عارفا بأيام العرب وروى عن الأصمعي وأبي عبيدة وقتل بالبصرة في فتنة الزنج (٥) كان شاعرا مجيدا راوية (١٦٣ فهرست) (٦) وهو بصري نادم الموفق وكان راوية أخبارا (١٦٤ الفهرست)

(٧) وهو الذي جمع شعر مزاحم وأبي نواس (١١٧ الفهرست)

(٨) وله كتاب الفصاحة وكتاب الشعر والشعراء (١١٦ فهرست)

(٩) راجع ٣١٤ - ١/٣٢٠ ضحي الاسلام ، ٨٧ وما بعدها من الفهرست

٢/١٨٦ آداب اللغة لزيدان (١٠) راجع ١١٠ وما بعدها من الفهرست .

(١١) ٩٢ وما بعدها من الفهرست (١٢) من تلامذة المبرد وصار مع

المعتضد يعلم أولاده وكان أولا يؤدب القاسم بن عبيد الله (٩٠ وما بعدها من الفهرست ، ٢/٢٨١ آداب اللغة لزيدان) (١٣) ولد بالبصرة ونشأ بعمان ثم رحل إلى فارس وورد بغداد عام ٣٠٨ هـ وأقام بها وكان إماما في اللغة والأنساب والشعر وهو شاعر راوية (٤٦١ معجم الشعراء ، ٢٣٨ ج ١ ظهر ، ٣٧١ الزيات) .

م ٢٤٥ هـ، والجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ هـ)، وأبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣ هـ (١)).
ثم ظهر أبو الحسن الأشعري (٢٧٠ - ٣٣٣ هـ) (٢)؛ وقد استمر المعتزلة في
العراق يعلون ويدرسون على يد الجبائي وتلميذه في الاعتزال محمد بن عمر
الصيمري (٣).

هـ - ومن المفكرين والفلاسفة وأقطاب العلماء :

ابن ماسويه الطيب م ٢٤٣ هـ ، وابن سهل الطيب م ٢٥٥ هـ ، ومحمد موسى
ابن شاكر م ٢٥٩ هـ (٤) ، والكندي م ٢٦٠ هـ (٥) ، وبنو المنجم ، وأبو موسى
الخوارزمي وهو مذيع الحساب الهندي وأرقامه بين العرب، والفارابي م ٣٣٩ هـ ،
ثم ابن سينا م ٤٢٨ هـ ، والغزالي م ٥٠٥ هـ ، والرازي المتوفى ٦٠٦ هـ وسواهم ...
ومن صدور الفلسفة والمفكرين والرياضيين والمترجمين الذين كان لهم أثر في
الفكر العباسي : حنين بن اسحاق (١٩٤ - ٢٦٠ هـ (٦)) ، وأبو معشر

(١) معتزلي بصرى وإليه انتهت رئاسة البصريين في زمانه وكان إمام المعتزلة
ببغداد وتلميذ عليه الأشعري (ص ٦ تكملة الفهرست لابن النديم) .
(٢) تنقّف بثقافة المعتزلة ثم عاداهم وأعلن تركه لمبادئهم ، وصار رئيساً لمذهب
الأشعريين ، والأشعري يمثل الموجة الحديثة التي بدأت تهاجم المعتزلة وتنصر
المحدثين وأهل السنة منذ عصر المتوكل . (٣) ٢٤٢ / ١ ظهر الاسلام .
(٤) وهو وإخوته : أحمد والحسن كان لهم مكانة كبيرة في الفلسفة والميكانيكا
(٣٧٨ وما بعدها من الفهرست ، ٦٤ طبقات الأمم) ؛ وكان مطهر بن أحمد بن
موسى من ندماء المعتزلة (٣٧٩ فهرست) . (٥) هو يعقوب بن اسحق كان
متحققاً بعلوم الأوائل (٥٠٧ معجم الشعراء) ، وهو أول فيلسوف عربي درس
الفلسفة اليونانية وشرحها وبنى عليها (راجع ٣٥٧ - ٣٦٠ الفهرست ، ٥٩ وما بعدها
طبقات الأمم) ؛ ووشى به إلى المتوكل محمود وأحمد ابنا موسى بن شاكر فضربه
وأخذوا كتيبه بأسرها حتى أكرهما سند بن علي أخيراً على ردها إليه (١٩٥
و ١٩٧ المكافأة) .

(٦) أجاد العربية والفارسية والسريانية واليونانية ونقل هو ومدرسته إلى العربية
زبدة آثار اليونان وجعلوا الثقافة اليونانية بين أيدي العلماء (٢٨٣ - ٢٨٨ / ١
ضحى الاسلام ، ٤٠٩ وما بعدها الفهرست) ؛ ووشى به بختيشوع بن جبرائيل الطيب
إلى المتوكل فحبسه (راجع ١٣٧ / ٤ وما بعدها المدن ، ١٩٤ / ١ طبقات الأطباء =

الفلكي م ٢٧٢ هـ (١) ، والبلاذري م ٢٧٩ هـ (٢) ، وابن خردادبة المتوفى نحو عام ٢٧٨ هـ (٣) ، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢ هـ (٤) ، والسرخسي م ٢٨٦ هـ (٥) ، وثابت بن قرة (٢٢١ - ٢٨٨ هـ (٦)) ، وإسحاق بن حنين م ٢٩٧ هـ (٧) ، والرازي م ٣١١ هـ (٨) ، والبتاني الرياضي الفلكي م ٣١٧ هـ ، وأبو زيد البلخي م ٣٢٢ هـ ، وسراهم من أعلام المفكرين .

== لابن أبي أصيبعة) . (١) ٣٨٦ فهرست ، ٤٧ بارتولد ، ١٩٨ / ١ وما بعدها وفيات الأعيان . (٢) ١٩١ / ٢ آداب اللغة لزيدان ؛ وكان أديباً راوية وهو أحد النقلة من الفارسي إلى العربي (١٢٧ - ١٣٢ / ٢ معجم الأدباء لياقوت ، ١ / ٧ فوات الوفيات . (٣) ونادم المعتمد ، وله كتاب الشراب وكتاب المسالك والممالك (٢١٢ وما بعدها من الفهرست ، ٢٠٢ / ٢ آداب اللغة لزيدان) .

(٤) كانت ثقافته الهندية واليونانية واسعة ، وكان ملماً بعلوم كثيرة ، كما كان يقرن بالملاحظ في بلاغته (٤٠٦ / ١ وما بعدها ضحى الاسلام و ١١٦ فهرست ، ١٩٧ / ٢ آداب اللغة لزيدان) ، وله كتب في النبات وكتاب الأخبار الطوال في التاريخ العام وينتهي بوفاة المعتمد ٢٢٧ هـ . (٥) هو أحمد بن مروان (٣٦٥ فهرست) أو أحمد بن الطيب (٢٠٠ / ١ زهر الآداب) السرخسي تلميذ الكندي كان متفنناً في علوم القدماء والعرب ، وكان أستاذاً للمعتضد ثم خص به ، وله كتب كثيرة في الفلسفة وغيرها وقتلة المعتضد لأنه أفضى إليه بسر فأفشاه (٣٦٥ - ٣٦٧ فهرست ، ٥١ / ٢ معجم الأدباء ، ٦١ طبقات الأمم لصاعد) ، وله كتاب إلى المعتضد في أدب النفس (٢٤٣ الفهرست) (٦) راجع ١٧٧ - ١٧٩ / ١ وفيات الأعيان (٧) ٣٩٧ و ٤١٥ الفهرست ، ١١٦ - ١١٧ / ١ وفيات الأعيان

(٨) ٥٠٣ - ٥٠٥ / ٢ وفيات ، ٦١ طبقات الأمم ، ٤١٥ - ٤٢٠ الفهرست .

الحياة الأدبية

- ١ -

إذا كانت آثار الثقافات المترجمة قد صبغت الحياة العقلية والاجتماعية في العصر العباسي الأول والثاني بأصباغ جديدة ، فقد كان أثرها في الأدب واللغة متفاوتاً . فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة الكتابة والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل ، من حيث فضحت معاني الكتاب وخيالات الشعراء ، وعمقت صياغتهم الذهنية ، وتفكيرهم العقلي ، إلى حد كبير .

وإذا كانت الثقافات الحديثة قد طغت موجهتها على كثير من نواحي الحياة والتفكير ، فإن العربية كانت أعز من أن تخنى رأسها للعواصف الجارحة التي تهدم من صرحها الشاهق ، أو تززع من ثقتها القوية بالنفس . وظلت كما هي لغة التفكير والأدب ، وإن ساءت حركة الرقي ، ولم تقف جامدة ضعيفة الاحساس بالحياة . وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد وضعت موضع العناية بالترجمة . فإن الأدب اليوناني لم يترجم منه شيء ، ولم يتأثر به الأدب والشعر في نهضتهما اللاحقة في هذا العصر الحافل (١) . لتباين الأذواق ، ولاعتداد العرب بأنفسهم ولغتهم وأدبهم ، ولاختلاف حياة العرب واليونان التي يصورها الأدب ويكون أوضح مثال لها . وعلى أي حال فإن الثقافة اليونانية قد صبغت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقة في التفكير والخيال والمعاني (٢) وطرافة التقسيم .

وتأثير الثقافة الهندية في الأدب العربي كذلك كان طفيفاً لا يعدوتلك الأفكار التي كانت تتساقط من علم النجوم أو الرياضة في الشعر ، وهذه القصص الهندية التي أولع العرب بها ، ونقلوها إلى العربية ككيلة ودمنة الذي نقلوه من الفارسية إلى لغتهم ، وتلك الحكم التي تشبه الأمثال العربية ، وهذه الألفاظ التي عربوها وأدخلوها إلى العربية .

(١) ٤٥ بارتولد ، ٦٦ الفن ومذاهبه ، ٢٨٧ التوجيه الأدبي ، ٢٣٥ الأدب العباسي لمحمود مصطفى ، ٢٨٠ ج ١ ضحى الاسلام ، ٢٤٤ الزيات (٢) وقد أفاد الأدب العربي من القصص والحكم اليونانية التي انتشرت في الثقافة الإسلامية . وعربت كثير من الألفاظ اليونانية :

والفرس في الأدب العربي كبير ، فهم الذين أشاعوا فيه اللهو والمجون
 والراح ، وأدب الزهد تأثر كثيراً بنزعات الفرس ، وعندهم نقلت آثار
 كثير من الأدب القصصي ككيلة ودمنة وهزار أفسانه ، والتوقيعات كان للفرس
 فيها كبير ، وقد ترجمت عن الفارسية توقيعات كسرى ، هذا إلى أنه كان للفرس
 شعر وأمثال وأدب كثير وضع تحت أعين العرب ، وكان للعرب الذين يجيدون
 الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير في الأدب كالعنابي وأبي نواس وبشار
 وسواهم ، فأخرجوا أدباً عربياً فيه معاني الفرس وبلاغة العرب ، وكان
 الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أبو شروان
 مشهوراً بالزجس ، وكان يقول : هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر
 فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد

كان بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خدمود (١)

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسى
 زبرجد أخضر توسطه شذور من ذهب أصفر له رفة الخمر ونفحات العطر ، فقال
 محمد بن عبد الله بن طاهر (٢) :

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب

فاشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزرة كالبحر في اللهب

وأخذ ابن الرومي معنى حكمة لبهرام جور (٣) فنظمه شعراً (٤) . وكان من
 الفرس كبار الكتاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الانشاء (الكتابة الفنية) في
 البلاغية ، وكان منهم شعراء أحدثوا آثاراً واسعة في أغراض الشعر ومعانيه
 وأوزانه وقوافيه ، ونقلوا للخلفاء والامراء والوزراء كثيراً من آداب الفرس
 وسلكهم وتاريخهم وقصصهم وأسماهم ، مما ظهر أثره في الأدب العربي

(١) زهر الآداب (٢) وينسب البيت الأول لعلي بن الجهم

(٣) زهر المعاني قال أبو هلال : وهو من قول أردشير : الورد ياقوت أحمر

وأصفر ودر أبيض على كرسى زبرجد يتوسطه شذور من الذهب . (٣) فارسي قديم

تعلم العربية في الحيرة وشعر بها ، ويقول شمس الدين الرازي في كتاب د المعجم :

إنه أول من نظم شعراً فارسياً وأخذه عنه العرب وكان علماء الفرس يستعجبون منه

قرض الشعر (٤) ٢٧٨ وما بعدها زهر الآداب .

واضحاً . واذا كان الأدب في عهد بني أمية عربياً خالصاً في المادة والمعنى ، ولم يكن للفرس إلا مدرسته وحفظه وروايته ، فقد كان في عهد بني العباس أثرهم أعنى لاني الاسلوب البياني ، بل في التفكير والخيال ، وتأثيرهم تنوعت الاغراض وظهر التناقض في النثر والشعر ، وطلبت الرقة والدماثة ، مع المحافظة على فصاحة العربية والاخذ بأساليبها .

- ٢ -

ويمتاز الأدب في هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه ، وبصدق تمثيله للحياة الاجتماعية ، وبكثرة الحكم وأخبار الزهد والزهاد فيه ، وبتأليف الكتب الجامعة في الأدب كالبيان والتبيين وعيون الاخبار والكامل والعقد ، وبأن الأدب أصبح في هذا العصر صناعة علمية في الانشاء والتأليف ، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال والمبالغة الشديدة والاكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية . وقد أصاب الأدب كساد وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسطه ابن قتيبة في مقدمه أدب السكاك بوضوح .

- ٣ -

وقد ضعفت الخطابة بزوال أسبابها وأعجمية رجال الدولة ، ولأن الدولة قد توطدت دعائمها ، وحكمت بالاستبداد ، وبطلت الخطابة في الجيوش ، وضعفت الملكات ، كذلك صار في الكتابة — وقد تنوعت أساليبها وأغراضها — غنى عن الخطابة ، فضعف شأنها ولم يبق لها إلا مظهرها الديني ، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلاة الجامعة ويخطبون الناس ، وكان آخر خليفة خطب على المنبر هو الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) (١) .

وقد بلغت كتابة الرسائل في هذه العصر مكانة عالية ، وقد كان للاعقاب العباسي أثر عظيم في الميول والعقول ، ظهر على أقلام الكاتبين ، فاستنبطوا عيون المعاني ، وتخبروا شريف الالفاظ مما لم يكن حوشياً ساقطاً سوقياً ، وفتحوا أبواب البديع وبذوا الكتاب فحول الشعر في عظمة الحياة والرياسة ، وتسمنوا أرفع المناصب في الدولة ، واشتهر منهم : محمد بن عبد الملك الزيات ، وآل وهب ، وسواهم ، من

(١) راجع ٢١٣ الزيات ، ٥٤ وما بعدها الأدب العباسي لمحمود مصطفى ،

١٠٤ وما بعدها العصر العباسي للسباعي بيومي .

أعلام الكتابة . كما نبغ في الأدب والشعر جمهور كبير . ونهض الشعر في هذا العصر نهضته العظمى .. مما سنتحدث عنه في الدراسات التالية .

وقد كانت طبقات الأدباء في صدر الدولة العباسية متعددة ، ومن بينها : طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة في البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا (١) ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢) وحكم مذهبهم في نقد (٣) البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتها ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابها وأخذوا يحدثون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبي وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلي والاجتماعي الذي داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثاني ، كما أخذوا يلقنون مذهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شدة الأدب كما ترى في محاضرة بشر بن المعتز المعترلي م سنة ٢٠٥ هـ في أصول البلاغة التي يقول الجاحظ عنها : إن بشرا مر بابراهيم بن جبلة بن مخزومة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : أضربوا غما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقة في أصول البلاغة وهنصر البيان (٤) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٥) ، وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بفنهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب في الخلافة الإسلامية

وقد استمرت الحياة الأدبية في النمو والازدهار ، على الرغم من انقسام الخلافة وضعفها .. ويرجع هذا الازدهار إلى تنافس الدول والإمارات الإسلامية في تشجيع الأدباء والشعراء وتمثلهم لبغداد وخلافة بغداد في العمل على إحاطة عروشهم بالمفكرين وأعلام الشعر والأدب

ولقد كان ظهور الموالي ، وعلو شأنهم (١) مما أحيى نفوسهم الشعور القومى ، وذكرهم بما كان لهم من مجد بائد ، وعز قديم ، فعلنت الشعورية ، تنفس عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين ، وتمجد العجم بإعلان مآثرهم ، وتزرى على العرب بتلس المثالب لهم ، وتسجل ذلك فى الشعر ، من أمثال بشار ، والمتوكل ، والحريص ، ومهيار ، وفى الكتب يضعها أمثال أبي عبيدة ، والهيثم بن عدى ، وسعيد بن حميد وعلان الشعوبى ، وانبرى هؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم ، ويدفع عن العرب ، وينتصر لهم ، أمثال محمد بن يزيد الاموى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، بل لقد حاول الجاحظ أن يهدم العصبية الجنسية بما عالجها فى رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، حين استشرى شرها ، وكاد يقع الفتنة فى صفوف الجند أيام المعتصم .

وتحيز المال فى جانب الحكام والامراء ، جعل الأدب يستمر اتجاهه القديم إلى ناحيتهم ، ويسير فى ركابهم ، يعلى من شأنهم ، ويتغنى يذكرهم ، وغلب ذلك على أكثر أدب العصر ، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت أسبابهم بالقصور ، وذاقوا فى رحابها حلاوة النعيم .

وانغماس الأدباء فى الحضارة ، ومشاركتهم فى لهما الخلب ، ومجونها السافر ، مكن لهم من تصويرها فى جميع أوضاعها ، فوصفوها فى مظاهرها الرائعة وفى مبادئ الوضعية ، وملا شعرهم بالتحريض على متع الحياة وتحسين الخلاعة والمجون ، فى صراحة مكشوفة ، وعري فاضح ، وابتذال مهين ، ومن شاء فليرجع إلى الأغاني ، أو يتيمة الدهر ، أو دواوين كثير من الشعراء ، ليستطلع طلع ذلك فى شعر بشار ، ومطيع بن إياس ، ووالبة بن الحباب ، ومسلم بن الوليد ، وأبي نواس ، وحسين بن الضحاك ، وابن الحجاج ، وابن سكرة ، وأبي الرقعمق ، وغيرهم من الشعراء .

والزهد ، وهو حركة تقاوم هذه المادية الجارفة ، وتصد عنها بالتنفير من الدنيا والترغيب فى الآخرة ، والتذكير بالموت والحساب : وجد له مجالا فى تنف لبعض الشعراء والعلماء ، وفى كثير من شعر أبي العتاهية ، وفى كل ما صدر عن الزهاد والمتمسكين من أقوال .

وقسوة الحياة وشقاؤها ، وشظف العيش ، ورنق المشرب ، انعكست صورها في كتب المقامات ، قصصاً للكادحين ، يمتثلون على العيش بالمكر والخداع ، وفي أدب المحرومين ، كابن لنكك البصرى ، وأبي حيان ، سخطاً على الزمان ، وأنينا من الدؤس والحزمان .

واضطراب نظام الحكم ، وفساد أدواته ، لم يعدم من ينمى عليه ، ويندد به ، مثل أبي العلاء أو من يروم علاجه ، ويحاول إصلاحه كابن المقفع .

ولو رجعنا إلى ما وصفناه من معالم هذا العصر ، نبحت عن أشد الظواهر الاجتماعية تأثيراً في الحياة ، ما وجدنا أقوى من التحام العرب بالموالى وامتزاجهم على الوجه الذى بيناه ، من ظهور الموالى وقوة نفوذهم ، فهم الذين أثروا فى المجتمع ، ولونوا الحضارة ، بما ورثوه عن دولهم الدائلة ، وحضارتهم الزائلة ، وصبغوا الدولة بصبغتهم ، وأدخلوا فيها نظمهم وتقاليدهم ، وقد تنبه إلى شئ من هذا بعض من عاصر العهد وشهد مجارى الامور فيه ، وهذا أبو حيان التوحيدي يصور ذلك كله فيقول : « ضعف أمر الدين . وتحلل ركنه ، وتداوله الناس بالغلبة والقهر ، فتناول له ناس من آل الرسول صلى الله عليه وسلم بالعجم ، وبقوتهم ، ونهضتهم وعاداتهم فى مساورة الملوك وإزالة الدول ، وتناول العز كيف كان .. ألا ترى أن الحال استحالت عجا كسروية وقيصرية ؟ . هذا الربيع - وهو حاجب المنصور - يضرب من شمت الخليفة عند العطسة ، فيشكى ذلك إلى أبي جعفر المنصور ، فيقول : أصاب الرجل السنة ، واخطأ الأدب ، وهذا هو الجهل ، كأنه لا يعلم أن السنة أشرف من الأدب ، بل الأدب كله فى السنة ، وهى الجامعة للأدب النبوى والأمر الإلهى ، ولكن لما غلبت عليهم العزة ، ودخلت النعرة فى آناهم ، وظهرت الخنزوات بينهم ، سمو آيين العجم أدبا ، وقدموه على السنة التى هى ثمرة النبوة ، .

النثر الأدبى

كان عبد الحميد الكاتب وابن المقفع من أشهر الكتاب الذين وضعوا أصول النثر الادبى الفنى فى الادب العربى . وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الاموية ، وشهد ابن المقفع جانباً من أول عصر الدولة العباسية ، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثراً واضحاً بعيد المدى فى تطور النثر الادبى والكتابة الفنية ، ومنهم يعقوب (٣ - الحياة الادبية)

ابن داود وزير المهدي ، وأبو الربيع محمد بن الليث الذي كتب للهدى والهادي
والرشيد ، والقاسم بن صبيح ، وسهل بن هرون (١) ويحيى بن برمك ، ثم ابنه :
جعفر بن يحيى (١٤٢ — ١٨٧ هـ) وأخوه الفضل ، والحسن بن سهل (٢) وأخوه
الفضل (٣) وأحمد بن يوسف (٤) ٢١٢ م هـ ، وعمر بن مسعدة ٢١٧ هـ ، والعتابي
م ٢٢٠ هـ (٥) ، ومحمد بن يزيد وزير المأمون (٦)

وفي القرن الثالث الهجري بلغ النثر الفني منزله سامقة ، وامتاز بسهولة العبارة
وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب ، كما امتاز بجودة المعاني واختراعها ودقة الأخيلة
وابتداعها ، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه ، بل الاحتفال بها
والطعن فيما سواها مما شكاه منه النقاد (٧) ، ومال الكتاب إلى الإطناب حتى قال
ابن قتيبة : « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية
كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان « أما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى
الخ » لم يعمل هذا الكلام في أنفسهم عمله في نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل
ويكرر ويعيد ويبدى ويحذر وينذر » (٨) والاطناب مذهب فارسي حتى في الأساطير
وكتابة التاريخ ، ويقول ابن الأثير : « والعجم يفضلون العرب في الاطالة فإن شاعرهم

-
- (١) راجع : ٥٥ / ١ البيان ، ٢٨٢ / ٢ زهر ، ٣ / ٢٦٠ زهر الآداب أيضا .
(٢) يشيد به الجاحظ (٨٤ ج ١ البيان) ، وله كلمة يعرف بها أنواع الآداب
١٩٥ ج ١ زهر . (٣) تبناه يحيى البرمكي وضمه إلى المأمون (٧٤ المكافاة)
وأشاد الحصري ببلاغته (١٦ — ١٩ ج ٧ زهر) . (٤) له ترجمة في الأوراق
قسم أخبار الشعراء (٢٠٦ — ٢٣٦) وكان على الطبقة في البلاغة ولم يكن في زمانه
أكتب منه ، وله شعر جيد (١٤٨ ج ٢ زهر) ، وكان ممن نبأوا بالكتابة (١١ ج ٣
العقد) ، وهو أول من افتتح المكتبة في النهان بالنيروز والمهرجان (٩٥ ج ١
ديوان المعاني . (٥) راجع ١٧٥ فهرست ابن النديم ، ٣٥٢ معجم الشعراء .
(٦) راجع ٤٢٤ معجم الشعراء . (٧) ص ٢ أدب الكاتب لابن قتيبة
بهاشم المثل السائر ، ٤٢ و ٤٣ رسائل الجاحظ حيث يقول الجاحظ : والناسي .
من الكتاب إذا وطئ . مقعد الرياسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه وألا
يرتضى من الكتب إلا المنطق الخ ، ومثل ذلك يقول ابن قتيبة ، وهذا ينفي رأى
ابن الأثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢٠ المثل السائر) .
(٨) راجع مقدمة أدب الكاتب .

يذكر كتاباً من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال كما فعل الفردوسي في نظم الشاهنامه وهو في ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها (١) ، ولم يحفل الكتاب في أوائل العصر العباسي الثاني بالبديع ، والتأنيق الكثير في الأسلوب ، ويعيب البديع الجاحظ بأن د كلامه بعيد الاشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظة مصنوعة الخ ، (٢) ، كما عابه الباقلاني بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه (٣)

وكان حامل لواء هذه الطريقة الجديدة امام البيان الجاحظ، وافندي به كتاب عصره ، كالصولي وابن الزيات والحسن وسليمان ابني وهب وسعيد بن حميد وأحمد ابن اسرائيل والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتّاب الذين نشأوا في هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك في تفكيرهم وانتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان .

أثر الجاحظ الطبع والبعد عن التكلف والتعقيد والحوشية والسوقية ، كما أثر الوضوح وظهور الشخصية فيما يكتبه من رسائل أو مؤلفات ، واحتال على نشاط القارئ بالفسكاهة ومزج الجد بالهزل وبالاستطراد وبراعة الأسلوب وسحره بالرواية والنقد والتحريض ، والاطناب والانتباه العقلي والتغلغل الفكري ودقة الملاحظة والشرح والتحليل والتعمق . . وشمول الفكرة ونفوذها وإحاطتها بشتى جوانب الحياة أظهر سمات أسلوب الجاحظ ، وهو مع ذلك متقد الخاسة للعرب والعربية ، يفضل بلاغة العرب على كل بلاغة ويستشهد بكلمة العربي وبيت البدوي كما يستشهد بحكمة الحكيم ورأى المفكر . وفي انشاء الجاحظ كثير من أساليب الخطابة والجدل . وكان من المعجبين بابن المقفع ونوه بذكره

-
- (١) ٤ ج ٣ المثل السائر . وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة في هذا العصر كرسالة الخنيس (١٠٧ - ١١١ ج ١٢ -- ابن طيفور مخطوط) .
 (٢) ٨٢ مقامات البديع - المقامة الجاحظية - ، ٢٠٩ ج ٢ زهر .
 (٣) راجع ١٩٤ اعجاز القرآن .

ولكنه لم يسلك مسلكه في الأدب لأنه رأى أفق الأدب أوسع من أن يقصر على الحكم والمواعظ .

حقا لقد كان الجاحظ في سحر بلاغته (١) وسمو أسلوبه وشخصيته البارزة في كل فقرة من فقراته وثقافته الواسعة في شتى آثاره الأدبية نسيج وحده وفريد عصره . كما يقولون ، ورسائله ، الترييع والتديير ، وكتابه ، الحيوان ، من مظاهر ثقافته الواسعة العميقة . وإذا كان ابن المقفع إمام المنشئين في عصر الترجمة ؛ فالجاحظ إمامهم في عصر التأليف .

وقد تأثر بأسلوب الجاحظ الأدباء الذين آلت إليهم الزعامة الأدبية بعده ، كابن المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر الأديب المشهور . وقد ذاع في النثر في هذا العهد ألوان كثيرة : كأدب التهكم والسخرية ، والرسائل الإخوانية ، والرسالة الأدبية ، والتوقيع ، والمقامة ، والأدب الوصفي ، وأدب الطبيعة وأدب القصة ، وسوى ذلك من فنون النثر الأدبي في هذا العصر الزاهر المتنوع الثقافات .

وقد ألفت في هذا العصر كتب أدبية جامعة : كالبيان والتبيين ، والحيوان للجاحظ وأدب الكاتب وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والكامل للبرد . وكذلك وضعت أصول النقد والموازاة والبيان على يد الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وسواهم . . ولا عجب إذا قلنا إن النثر الأدبي قد بلغ غاية نهضته وعنفوان قوته في هذا العصر الحافل .

وإن أمتاز العصر العباسي الأول بالجاحظ والعصر الثاني بالعديد من الكتاب ممن ذكرناهم ، فإن العصر الثالث يتميز بظهور ابن العميد والصاحب بن عباد ، وكان ابن العميد غاية في علوم الدين واللغة ورواية شعار والفلسفة (١) ، وكان الصاحب من ذبوع الشهرة وانتشار الصيت إلى حد بعيد ، وكان يحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من أربوا في العدد على أدباء وشعراء الرشيد . . كما ظهر فيه كذلك البديع والخوارزمي وأبو الفرج البغهام والبستي والصابي والجرجاني صاحب الوساطة ، والعسكري صاحب الصناعتين

(١) يقول الجاحظ من رسالة له إلى ابن الزيات : نحن أعزك الله نسجبالقوله ونموه بالبيان (٣٩١ دلائل الإعجاز)

والاصبهاني صاحب الاغانى والثعالبى والحصرى والميكالى، وعرف إلى جانبهم من فحول الشعراء من تصدوا للكتابة، كالمتنبى الذى اتهموه بمعارضة القرآن، وكالشريف الرضى وينسب النقاد إليه كثيراً مما فى نهج البلاغة، أنشاه بقله، ونحله الامام على كما يقولون.

ويتميز العصر الرابع بظهور أبى محمد القاسم بن على الحريرى المتوفى عام ٥١٦ هـ صاحب المقامات، وكذلك الزمخشري، والقاضى الفاضل م ٥٩٦ هـ صاحب الطريقة الادبية المشهورة به، وعماد الدين الاصفهاني م ٥٩٧ هـ، وابن الاثير م ٦٣٧ هـ، والوطواط م ٥٧٣ هـ، وسواهم.

أعلام الكتاب وعلماء الأدب

نبغ كثير من الكتاب فى هذا العصر ومن أعلامهم: محمد بن عبد الملك الزيات م ٢٣٣ هـ (١)، ولإبراهيم بن العباس الصولى م ٢٤٣ (٢) هـ، وسعيد بن حميد ٢٦٠ هـ (٣)، والحسن بن وهب (٤) ٢٦٥ هـ (٥)، وسليمان بن وهب م ٢٧٢ هـ (٦)، وأبو العباس احمد بن محمد بن ثوابه الكاتب م ٢٧٧ هـ (٧)، والمرئدى وكان يكتب للوفى (٨)، ونطاحة الكاتب احمد بن اسماعيل بن الخصيب الانبارى كاتب عميد الله بن عبد الله بن طاهر

- (١) راجع: ١٧٧ فهرست، ٤٢٥ معجم الشعراء، ٢٧٨ / ٣ وما بعدها عصر المأمون، ٢٧ / ١١ وما بعدها الطبرى، ٣٩ / ٤ مسعودى، ٤٣ الرسالة العذراء (٢) راجع: ٥٦ / ٤ مسعودى، ١٧٦ فهرست، ٢١ / ٩ الاغانى وما بعدها ٢٠٠ / ١ المفصل، ٢٠٨ الوسيط، ٤٢ / ٢ ثمرات الاوراق، ٩٩ خاص الخاص (٣) راجع: ١٧٩ فهرست، وفيات الاعيان ٥٤ - ٥٧ / ٢ طبعة ١٣١٠، ١٧٧ ج ٤ / ١٢٢، ٤ / ٩١، ٤ المسعودى، ٤٢ / ٢ ثمرات الاوراق (٤) راجع: ١٧٧ فهرست، ٥٠٦ سمط الآلى، ٢٤٨ ابن الرومى للعقاد، ٤٤ / ٣ زهر، ٢٢١ - ٢٢٣ / ٣ معجم الادباء.

(٥) وفى معجم الادباء أنه ولد عام ١٨٦ هـ ومات فى آخر خلافة المتوكل.

- (٦) راجع: ٢٤٩ ابن الرومى، ١٧٧ فهرست، ١٥٤ - ١٦٠ / ٧ مذهب الاغانى، ٥٠٦ / ١ سمط الآلى، ٤٨٥ معجم الشعراء، ٣٨٦ - ٣٨٨ / ١ وفيات الاعيان، ٤٦ / ٣ زهر (٧) ١٨٧ و ١٨٨ فهرست، ٣٦ - ٥١ / ٢ معجم الادباء (٨) ١٨٧ فهرست، ١٦٠ أدب الكتاب للصولى.

وكان بينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات (١) ، ومحمد بن مكرم الكاتب م بعد ٢٨٢ هـ (٢) ، وأبراهيم بن المدير م ٢٧٩ هـ (٣) ، وابن طيفور (٢٠٤-٢٨٢ هـ) ، وعلى بن الحسن م بعد ٣١٠ هـ وقد جاءونا التسعين (٤) ، وعلى بن العباس النوبختي م ٣٢٧ عن سن عالية (٥) وابن المعتز م ٢٩٦ هـ ، وأبو بكر محمد بن يحيى الصولي م ٣٣٦ هـ (٦) وهو الذي جمع ديوان ابن المعتز (٧) ، وأبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الكاتب م ٣١٤ هـ (٨) وحيد بن نصر الكاتب م ٣٠٠ هـ (٩) ، وأبو الحسين جعفر بن محمد بن ثواب الكاتب وكتب للقاسم (١٠) وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثواب الكاتب وكتب للمعتضد (١١)

واشتهر هذا العصر بأعلام ذائعة في الأدب العربي والتأليف فيه ، ومنهم :

- ١ - الجاحظ م ٢٥٥ هـ وله كثير من المؤلفات الخالدة منها البيان والحيوان .
- ب - أبو سعيد الحسن السكري النحوي م ٢٧٥ هـ وكان رواية البصريين وجمع أشعار الجاهلية والاسلام .
- ح - ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ (١٢) ، وله عيون الأخبار وأدب الكاتب والشعر والشعراء وكتاب الشراب .
- د - ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد م ٢٨١ هـ وكان مؤدب المكتفي وله كتب كثيرة (١٣) .

-
- (١) راجع : ١٨٠ فهرست ، ٣٧٧ ج ١ معجم الادباء ، ويروى عنه الصولي كثيرا جدا في أدب الكتاب وله كتاب طبقات الكتاب .
 - (٢) راجع ٤٤٤ معجم الشعراء (٣) ٤٥٢ معجم الشعراء ، ٣٤٩ الموشح (٤) ٢٩٥ معجم الشعراء (٥) ٢٩٥ معجم الشعراء ١٤٥ ج ٢ زهر .
 - (٦) ٤٦٥ معجم الشعراء ، ١٧٤ ج ٢ زيدان ، ٣٤٣ - ٣٤٥ نزهة الالباء ومقدمة ادب الكتاب (٧) ١٧٥ ج ٢ زيدان .
 - (٨) ٢٥٢ ج ٤ تاريخ بغداد (٩) ٤٦٣ معجم الشعراء .
 - (١٠) ٤١٧ ج ٢ معجم الادباء ، ١٨٨ فهرست . (١١) ١٨٨ فهرست .
 - (١٢) ١١٥ وما بعدها ، فهرست ٤٤٩ - ٤٥٠ / ١ وفيات الأعيان ، ١٧٠ / ٢ وما بعدها زيدان .

(١٣) راجع ١٧٢ / ٢ زيدان .

- هـ - ابن طيفور أحمد بن أبي طاهر تلميذ الجاحظ (٢٠٤ - ٢٨٠ هـ (١)) ، وله سرقات الشعراء وكتاب بغداد والجامع في الشعراء واختيار المنظوم والمنثور (٢) .
- و - ومنهم أبو العيينة محمد بن القاسم بن خلاد (١٩١ - ٢٨٣ هـ (٣)) .
- ز - أبو علي البصير الفضل بن جعفر بن يونس م ٢٥١ هـ (٤) .
- ح - جمحظة أبو الحسن أحمد بن جعفر البرمكي (٢٢٤ - ٣٢٦ هـ (٥)) .
- ط - ومنهم ابن المعتز م ٢٩٦ هـ ، وأبو خليفة الفضل بن الحباب الحمصي م ٣٠٥ هـ (٦) ، وقدامة م ٣٣٧ هـ ، والوشاء أبو الطيب محمد بن أحمد م ٣٣١ هـ ، ويموت بن المزرع م بعد ٣٠٠ هـ وهو ابن أخت الجاحظ (٧) . وغيرهم من جملة الأدباء وأئمة علماء الأدب .

ولقد كانت مصادر الثقافة الأدبية في هذا العصر كثيرة متعددة ومن أهمها :

(١) ٢٠٩ - ٢١٠ فهرست ، ١٩٧ طبقات الشعراء لابن المعتز ، و ٣٥١ الموشح ، ٢١١ / ٤ تاريخ بغداد ، ١٥٢ / ١ معجم الأدباء ، ٤٨ و ٩٣ و ٩٤ / ١ ديوان المعاني .

(٢) أربعة عشر جزءاً يوجد منه بدار الكتب ثلاثة أجزاء في مجلد مخطوط هي : الحادى عشر في بلاغات النساء وقد طبع منفرداً في مصر ، والثانى عشر ويجمع قصائد ورسائل لا يوجد لها مثيل ومنها المعلقات ، والثالث عشر ويجمع فصولاً من رسائل مختارة .

(٣) ١٨١ فهرست ، ١٧٠ / ٤ مسعودى ، ٤٤٨ معجم الشعراء ، ٣٢١ - ٣٢٤ / ٢ وفيات الأعيان ، ٣١٦ و ٣٢٢ - ٣٣٠ و ٣٣٢ / ١ زهر ، ٢٦٥ - ٢٧٠ نكت الحميان ، ١٧٠ / ٣ تاريخ بغداد ، ١٨٠ / ٢ شذرات الذهب ، ٦١ / ٧ معجم الأدباء ، ١٤٥ / ٣ سبط اللالى ، ٢١٨ - ٢٢١ / ١ أمالى المرتضى ، ١٩٦ طبقات الشعر لابن المعتز (٤) ٢ / ٩٦ زهر ، ٩٢ / ٤ مسعودى ، ٣١٤ معجم الشعراء ، ١٨٨ طبقات الشعراء لابن المعتز ، ١٧٨ فهرست ، ٢٧٦ / ١ سبط اللالى

(٥) ٢٠٨ فهرست ، ١٥٧ و ١٥٨ / ٢ زهر (٦) ١٦٥ فهرست ، ٢٥٣ / ٣ زهر

(٧) ٥١٠ معجم الشعراء ، ١٣٦ ج ٤ مسعودى

١ - القرآن والحديث والكتب المؤلفة حولها، مما يتصل بالأدب والدين كمجاز القرآن لأبي عبيدة وإعجاز القرآن للجاحظ والإعجاز لمحمد بن يزيد الواسطي م ٣٠٦ هـ (١)

ب - خطب الخطباء وحكم الحكماء ورسائل الأدباء

ج - كتب التاريخ التي جمعها أو ألفها المؤرخون في هذا العصر والذي سبقه، كابن اسحاق وابن هشام والبلاذري واليعقوبي والطبري وسواهم

د - كتب السياسة التي تأثرت بآثار الفرس أو كانت مترجمة من ثقافتهم ومنها: كليلية ودمنة والأدب الصغير (٢) والأدب الكبير والدرة (٣) اليتيمة ورسالة الصحابة (٤) لابن المقفع وهي تصوير لسياسة الدولة وحاشية السلطان وأعوانه وجنده، ومنها رسالة طاهر بن الحسين في السياسة وقد أرسلها إلى ابنه عبد الله (٥)، ومشاورة المهدي لأهل بيته في خراسان (٦)

هـ - كتب الأدب الجامعة، كالبيان وعميون الأخبار والكامل

و - كتب البيان والنقد والكتابة، ومنها كتاب الفصاحة للسجستاني وللدنوري (٧)، وكتاب البلاغة للبرد (٨)، وقواعد الشعر للبرد ولثعلب، وأسرار البلاغة في الكتابة لقدامة (٩) ونقد الشعر ونقد النثر له أيضا، وكتاب البديع لابن المعتز، وكتاب الصناعة لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس م ٣٣٨ هـ (١٠)

(١) ولعبد القاهر الجرجاني شرح عليه (١/٩٤ كشف الظنون)

(٢) تجده في رسائل البلغاء ١٧-٥٤، وطبع مستقلا عام ١٩١١م (٣) ٥٥-٥٤ المرجع

(٤) تجدها في رسائل البلغاء ١٢٠-١٣١ (٥) تجدها في ١٥١ - ١٥٤

الإدارة الإسلامية، ١٠٨ - ١١٧/٢ تاريخ آداب اللغة لمحمد بك دياب، ١٨٦ وما بعدها من المطالعة التوجيهية (٦) تجدها في ٩٥ - ١٠٧/١ العقد؛ وقدام

المهدي محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم وإثبات مقائهم في كتاب (١/٩٥ العقد) وكتبت عام ١٧٠ (١/١٠٧ العقد)

(٧) ١٦٠/٢ كشف الظنون

(٨) ٨٨ فهرست (٩) ١/٤٧٠ كشف (١٠) ١٥٤/٢ كشف

والرسالة العذراء لابن المدبر م ٢٧٩ هـ (١) ؛ ومنها أدب الكتاب للصولي ، ورسائل
الأدباء في النقد كرسالة ابن المعتز في أبي تمام

ز - كتب الشعر ، ومنها مجموعات في أشعار القبائل والافراد ومنها المفضليات
وحماسة أبي تمام وحماسة البحتري ودواوين الشعراء والكتب المؤلفة في طبقاتهم .
وكذلك كتاب الامالي للقالى م ٣٥٦ هـ ، وكتاب الاغانى لأبي الفرج الأصبهاني
م ٣٥٦ هـ ، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه م ٣٢٨ هـ ، وكتاب زهر الآداب
للحصرى م ٤٥٣ هـ ، وقيمة الدهر للشعالى م ٤٢٩ هـ ، والمثل السائر لابن الأثير
م ٦٣٧ هـ ، وسواها من مئات المصادر في الادب والشعر

الشعر العربي

كان الشعر الجاهلي غنائيا يفيض من القلب ويصور عاطفة الشاعر وشعوره ، وكان
ضخم الالفاظ ، قوى الأسلوب ، متعدد الأوزان والقوافي ، معانيه فطرية مستمدة
من صحيفة الحياة ومشاهد البيئة .

فلما جاء الاسلام ظل الشعر على حالته ، أسر لفظ ، وجزالة عبارة ، وطريقة
أداء ، ولكن أغراضه تغيرت بتأثير الحياة الجديدة ، ومعانيه استحكمت والفاظه
عذبت بتأثير القرآن وبلاغة الرسول .

وبابتداء القرن الثاني بدأ عهد جديد في الشعر العربي كان له أثره في شتى نواحيه
الفنية . وظهر هذا الأثر على أيدي المخضرمين الذين عاصروا الدوائين الأموية
والعباسية ، كما ظهر منذ أواخر القرن الثاني الهجري على أيدي المحدثين - او المولدين
- الذين نشأوا في العصر العباسي ، وتأثروا بالحياة الاجتماعية والفكرية التي كانت تسود فيه
سار الشعر بخطوات كبيرة على يد بشار زعيم المحدثين ، وعلى أيدي زعماء
مدرسته الأدبية كأبي نواس ومسلم وغيرهما من الشعراء ، وظلت هذه النهضة
الفنية تزدهر حتى آتت أكلها في العصر الثاني .

وقد كان أبو تمام آخر من شهدهم العصر الأول من أمراء القريض ، ولكن

(١) تجدها في ١٧٦ - ١٩٣ رسائل البلغاء ونشرها مستقلة عام ١٩٣٠

مدرسته الشعرية ظلت مهيمنة على دولة الشعر طول العصر الثاني كله ، وهي التي وجهته توجيهاً جديداً يجمع بين فن بشار ومدرسته ، والآثار العقلية والاجتماعية والأدبية التي سادت العصر الثاني وذاعت فيه ، مما خلق نهضة فنية لم يشهدها الشعر طول العصور الأدبية جميعها .

حدث تغيير واسع في تفكير الشاعر العباسي وعقوله ، فامتازت معاني الشعر بدقة النصور ، واستنباط الدقيق والجديد من الآراء والأفكار ، وبالاكتشاف من ضرب المثل واستخدام الآراء الفلسفية والبراهين والأقضية العقلية ، وبتحميص الأفكار وترتيب العناصر . وأخذ المنطق يتغلغل في الصياغة الذهنية ، حتى لتجد القصيدة عند أبي تمام محكمة الأجزاء والعناصر والترتيب ، وتبعه في ذلك كثير من الشعراء . . . وأكثر الشعراء من الإبداع في التصوير والخيال والاعراق فيه ، وتركيب التشبيهات والاستعارات والأوصاف ، في جنوح إلى المبالغة والاعراق والغلو والاستقصاء والتغلغل في دقائق الاعراض والخيالات . وانصرف الشعراء عن المعاني البدوية أو الحضرية المتأثرة بالبداوة إلى معاني حضرية صرفة . وبعد أن كان الشعر مرآة للطبع الخالص ، أصبح في هذا العصر لا يصدر إلا بعد أن يسيطر عليه العقل وآثار التفكير ؛ وندر في هذا العصر من خلا شعره من آثار الحضارة العقلية ؛ فن لم تظهر في شعره المعاني الفلسفية والآراء الطريفة التي سرت إلى المتأدبين من مذاكرة علم الكلام والعلوم المترجمة وخاصة الفلسفية ؛ ظهرت فيه محسنات اللفظ والمعنى ، وتفخيمات الفرس ومبالغاتهم ، ولا بدع في ذلك فأكثر الشعراء في هذا العصر كانوا رضاع أدبين ونشء حضارتين وولدان جنسيتين ، مما كان له صداه في أخيلة الشعراء وتصوراتهم وتأديتهم للمعاني ، ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل ما يعمل لك وفرة المعاني الجديدة ودقة النظر ولطف الأخذ بها ، فالمحدثون أكثر ابتداءً للمعاني وألطف مأخذاً وأدق نظراً ، لأنهم عظم الملك الإسلامي في زمانهم ورأوا ما لم يره المتقدمون ، (١) . ومعاني الشعر في هذا العصر : إما معاني قديمة تناولها الشعراء فأحسنوا غالباً صوغها وزادوا فيها ، وإما معاني جديدة استقل المحدثون بابتدائها ، وإذا كان المتقدمون متانة التعبير وصحة الأداء والسلامة من قصور الملمكة ، فإن للمحدثين مزية (٢) المعنى والتحليق في سماء الخيال واتساق

(١) المثل السائر ص ١٣٦ (٢) ويرى ابن جني أن المولدين يستشهد بهم

في المعاني (٢٢٤ / ٢ العمدة)

الفكر؛ وشاعت في أشعارهم تلك الحكمة التي اشتهر بها صالح بن عبد القدوس وأبو العتاهية وأبو تمام وسواهم من الشعراء؛ وللمروزي أحمد بن محمد مزدوجة ترجم فيها أمثال الفرس (١). وكان المروزي مولعاً بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية (٢) وللابنوردی قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس (٣) واشتهر علي بن جور الفارسي - وكان ذا علم بالنجوم - بادخالها في شعره (٤) .. والحكمة اليونانية صاروا يدخلونها في الشعر .

يقول الشاعر (٥) : والفقر في أوطاننا عربية والمال في الغربية أوطان وهو نظم لحكمة أرسطو : المال في الغربية وطن ، والمقل في أهله غريب (٦) ، وفنون الشعر وأغراضه القديمة من مدح وهجاء وغفر ورثاء ووصف وغزل بالمؤنس وزهد وحكمة ومثل ، نظم فيها الشعراء ولكنهم أكثرها منها وافتنوا فيها وصبغوها بصبغة تكاد تكون جديدة مبتكرة ، فقد جدد التلقيح العقلي نماذج هذه الأغراض الشعرية ، وأحدث ألواناً من ضروب الرقي الفني غير كثيراً من جوانبها القديمة .

ونظموا مع ذلك في أغراض جديدة خلقتها البيئة وآثار الحضارة والحياة في العصر العباسي ، فشاع فيه المجون والغزل بالمذكر (٧) ووصف الخمر وتصوير

- (١) كان أكثر شعره في الزهد والأمثال (١٢٢ جزء ١ الاغانى ، ٢٣٨ جزء ١ الكامل) (٢) اليتيمة ص ٨٣ جزء ٤ ، والكشكول ص ١٢٣ و ١٢٤ (٣) اليتيمة ص ٨٦ جزء ٤ (٤) معجم الشعراء ص ٢٩٣ (٥) رسالة الغفران ٢٠٣ . (٦) وهي في البديع لابن المعتز برواية أخرى منسوبة لمسلمة بن عبد الملك (٧٦ البديع) .

(٧) نشأ هذا الفن على يد حماد ووالبة وأبي نواس والحسين بن الضحاك والبحترى وسواهم من الشعراء وإذا كان أبوا نواس وحده أو مع فئة قليلة قد نظموا فيه في العصر الأول فقد كان أكثر الشعراء في العصر الثاني يطرقون هذا الباب ولم يبق شاعر في بغداد إلا واشتهر بغلام يعشقه ويتغزل به .

الطبيعة ووصف الصيد والطرْد ونظم الشعر في تأديب النفس وتهذيب النشء بنظم القصص كما فعل أبان وسواه من الشعراء ، وضبط قواعد العلوم ونظم التاريخ كما فعل ابن المعتز في أرجوزته في المعتضد وسواه من الشعراء ، ونظموه في وصف المصلوبين وهجاء المغنين والانتهاك بالآبنة والذم بالرشوة ووصف شتى ألوان الطعام ، وفي التصوف الذي أكثر منه الزهاد والمتصوفون ، وفي الوعظ والأخلاق وفي شتى الأغراض وجديدها .

وكان للغناء والحضارة والترف أثر في التجديد في أوزان الشعر وقوافيه ، فأخذوا يلائمون بين الموضوعات والأوزان والقوافي (١) وزهدوا في الأوزان الطويلة وآثروا عليها الأوزان السهلة الخفيفة القصيرة ، بل إنهم جددوا أوزاناً لم يسبقهم إليها المتقدمون ، ونظموا على الأوزان التي لم تنظم منها العرب إلا قليلاً كالمضارع والمقتضب والمجثث ، وأكثروا من نظم الخمسات والمزدرجات ، ونظم عليها بشارعبثاً واستهتاراً بالشعر (٢) وصنع ابن المعتز أرجوزة في ذم الصبوح وأرجوزة في سيرة المعتضد ، واشتهر بالتخميس ابن وكيع والأمير تميم (٣) ، ونظموا الدوبيت والسلسلة والموالي والزجل وقوما وكان وكان ، والموشح ، ويسروا على أنفسهم في القوافي فاختاروا أيسر الألفاظ وأسهلها وأحبها إلى السمع ، وتجنبوا عيوب القافية ، كل ذلك حرصاً على مسايرة الشعر للحضارة والغناء ومحاولة لنشره بين شتى الطبقات .

أما في أسلوب الشعر : فقد حافظ الشعراء على عريته ، وإن كان بعض الشعراء قد أدخلوا فيه بعض الألفاظ الفارسية دون تعريب أو معربة مصقولة ، كما فعل أبو نواس وابن المعتز وسواهما من الشعراء ومن قبل كان الأعشى وأمية ابن أبي الصلت وكذلك يزيد ابن مفرغ وأسود بن أبي كريمة (٤) . وقد حاولت بعض العناصر الفارسية إحياء أدبهم القومي ونظم الشعر بلغتهم الفارسية . ويرى أنه قد دعت للآمون حين دخوله « مرو » قصيدة فارسية نظمها شاعر يدعى عباس ويقول الشاعر في القصيدة إنه لم ينظم أحد بهذه اللغة قبله وقد يكون هو عباس

(١) راجع ٩ الكف عن مساوي شعر المتنبي .

(٢) العمدة ج ١ ص ١٥٧ . (٣) العمدة ج ١ ص ١٥٨ .

(٤) البيان والتبيين ص ١٠٩ ج ١

ابن طرخان الذى نقل ابن خرداذبة فى كتابه الجغرافيا شعراً فارسياً له ولكن لغة القصيدة تدعو إلى الشك فى نسبتها لذلك العهد (١) ، وكان هناك شاعر آخر هو محمد ابن البعيث كان يكتب أشعاره بالعربية والفارسية (٢) ، وكذلك الأمر فى النثر فقد كان موسى الأسوارى يقص بالفارسية والعربية (٣) .

وقد ظهر أثر الحضارة وسلامة الذوق فى تخير ألفاظ الشعر وأساليبه لاستعمال الروية وقلة الارتجال والانحاء دلياً بالتهذيب والميل به إلى جانب الرقة والسلاسة مع بقاء جزالته وخفامة عبارته فى غير الهزل والمجون وفى الموضوعات التى تتطلبها ، وانتقل ذوق الزخرف والترف من الحياة العامة إلى الحياة الفنية الخاصة فنتجنت الدقة فى انتقاء الألفاظ العذبة الممثلة للمعنى أتم تمثيل وظهر التشكف فى صوغ العبارات والأساليب . ودعا النقاد كالجاحظ وسواه إلى إثارة ما لم يكن من الألفاظ ساقطاً سوقياً ولا مستكراً وحشياً وإلى هجر الغريب والخشونة وإثارة الجمال الفنى من وضوح العبارة وجمال الابتداء وحسن التخلص والانهاء . وقد استعملوا بعض الألفاظ الكلامية واقتبسوا فى الشعر من كتب الله العزيز ، وقصدوا البديع وألوان الزخرف الفنى قصداً يوشون به شعرهم . فقل حظ الشعر من اليسر ، وبعد عهده بالبداوة ، وكثر حظه من التشكف الفنى ، وأصبح أثراً من آثار الصناعة بعد أن كان وليد الطبع والفطرة الحرة المطلقة . وبذلك أصبح الشعر فناً حقاً يسير الشاعر فيه وراء الترف والجمال ، من حيث لم يكن الشاعر الجاهلى أو الاسلامى عادة صاحب فن ، بل كان الطبع قوياً فيه . وما يقال عن زهير والخطيئة وطفيل الغنوى من أنهم كانوا أصحاب روية وأناة ليس معناه الصنعة أو التكلف الذى نراه عند المحدثين (٤) فالمثل الأعلى للشعر عند القدماء ما جرى على السليقة والفطرة وما أوحى به لإلهم حياتهم من المعانى . فأما عند المحدثين ففى العناية بالزخرف والتنميق (٥) ، فلم تكن

(١) الحضارة الاسلامية لبارتولد ص ٦٨

لبارتولد ص ٦٩ (٣) البيان ص ٢٣٤ ج ١

(٤) ويجعل صاحب الأدب الجاهلى مدرسة مسلم وأبى تمام وسواهما من المصنعين

أمتداداً لمدرسة زهير والخطيئة (٢٨٨ الأدب الجاهلى)

(٥) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٩٩ وما بعدها

العرب تعباً بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالابداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الألوان من الغرابة والحسن تكلموا الاحتذاء عليها وسموها البديع (١) .

وقد حاول بعض المحدثين التجديد في بناء القصيدة وأغراضها ، فدعوا إلى ترك الأطلال ومساءلتها في مبادئ القصيد ، كما فعل أبو نواس ومطيع وابن المعتز ، وسواهم من الشعراء ، ويقول أبو نواس :

صفة الطول بلاغة الفـدم فاجمل صفاتك لابنة الكرم

ولكن ابن قتيبة لم يرض عن ذلك ، ودعا إلى الاحتفاظ بمنهج القصيدة الموروثة (٢) . ولكن ابن رشيق لم يرض عن ذلك المنهج والاتجاه ، ورأى أنه لا معنى لذكر الحضري الديار إلا مجازاً ، (٣) ، لرغبة الناس في الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها ، والأولى في هذا الوقت صفات الخمر والقيان (٤) . أما المذاهب الأدبية العامة في فن الشعر في القرن الثالث الهجري وما بعده فيمكن إرجاعها إلى مذهبين :

فطائفة من الشعراء قد احتذت حذو القدماء ، فهي لا تسير في سبيل التجديد الفني في الشعر إلا بمقدار ما يتلاءم مع الروح العربية ، فظلت على النهج والصيغة القديمة ، ومنهم : أشجع ، ومروان بن أبي حفصة م ١٨٢ هـ ، ودعبل م ٢٤٦ هـ ، وعلى بن الجهم م ٢٤٩ هـ ، والبحتري م ٢٨٤ هـ ، وسواهم .

وطائفة مالت إلى التجديد : كبشار م ١٦٧ هـ ، وأبي نواس ١٤٥ - ١٩٩ هـ ، والعتابي م ٢٢٠ هـ ، ومسلم ٢٠٨ هـ ، وأبي تمام م ٢٣١ هـ ، وابن المعتز . ويرجع ذلك إلى التفاوت بين الشعراء في الثقافة والتفكير والعقلية :

فالطائفة الأولى تنقفت بالثقافة العربية وحدها فسارت في مذاهب الشعر وفنه وأخيلته ومعانيه على المنهج القديم .

والطائفة الثانية تنقفت بالثقافة العربية وبالثقافات الحديثة ودعت إلى أن يكون

(١) راجع ٣٨ الوساطة (٢) راجع ١٤ و ١٥ الشعر والشعراء ، والعمدة

ج ١ ص ١٩٧ (٣) العمدة ج ١ ص ١٩٩ (٤) العمدة ج ٢ ص ٢٧٩

الشعر فنا يعبر عن هذه الثقافات جميعا ويوزن أسلوبه بميزان العقل والمنطق الدقيق. وكان بين الطبقتين نضال أدبي واسع تمثله المعركة الأدبية التي نشبت بين البحرى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر م ٣٠٠ هـ والتي نجد أخبارها فى المعارضات التى قامت بين الشاعرين (١) ، وفيها يقول البحرى :

كلفتمونا حدود منطقكم فى الشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذوالقروح يلج بالمنطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه
وقبل ذلك قال أبو تمام فى الحسن بن وهب :

لم يتبع شنع الكلام ولا مشى مشى المقيد فى حدود المنطق
فى هذه خبث الكلام وهذه كالسور مضروبا له والحنق
وكذلك انقسم نقاد الأدب وعلماء طبعات :

١ — فطائفة من النقاد تقف إعجابها وتقديرها على الشعر القديم ، وتزرى بشعر المحدثين وفهم لما فيه من إسفاف وإغراق وإحالة ونقص طبع وتفاوت نفس وتباين ملكات ، — وهم علماء الادب واللغة الذين تثقفوا ثقافة أدبية وعربية خالصة ولم يتزودوا بزاد آخر من الثقافات الحديثة .

ومن هؤلاء : أبو عمرو بن العلام ١٥٤ هـ وكان أعلم الناس بالعربية وجلس إليه الأصمعى عشر سنين فما سمعه يحتج ببديت إسلامى (٢) وكان يقيم الموازنة بين الشعراء على أساس عصورهم ، لا على أساس شعرهم حتى قال : لو أدرك الاخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا (٣) ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم (٤) ، وكان كما يقول ابن سلام فى طبقات الشعراء : أشد الناس تسليما للعرب .

ومنهم ابن الاعرابى م ٢٣١ هـ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء (٥) ، فكان يقول فى شعر أبى تمام : « إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل » ، وأنشده (٦)

(١) راجع هذه المعارضات فى ديوان البحرى ٣٢ — ٣٨/١ (٢) الشعر والشعراء ص ٧ ، البيان والتبيين ٢٠٩/١ ، العمدة ٧٣ ج ١ (٣) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٠٥ (٤) العمدة ٧٣ ج ١ (٥) الموازنة ٨ ، الموشح ٣٠١ ؛ أخبار أبى تمام ٢٤٤ (٦) التصحيف والتحريف ٨٥ ، المثل السائر ٣١٥ ، أخبار أبى تمام ١٧٥ ، ص ٥٤ وما بعدها من الصناعتين ، رسائل ابن المعتز ١٣ ، الموازنة ١٠ ، وراجع ٥٠ وما بعدها من الوساطة .

ابن الطوسي أرجوزه لابي تمام على أنها لبعض شعراء هذيل فاستحسنها وكتبها فلما علم أنها لحبيب قال خرقوها ، وكان ابن الاعرابي يعيب شعر أبي نواس فأنشده رجل شعر آله وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه فلما علم أنه لابي نواس أنكره (١) ؛ وكان يستشهد في كتابه النوادر بكثير من أشعار المحدثين ولعله لو علم بذلك ما فعله (٢) ؛ وكان يقول : ختم الشعر بآب نهر (٣) ؛ وكان الاصمعي يقول : ختم الشعر بالرماح (٤) ، وقال : بشار خاتمة الشعراء والله لو لا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (٥) ؛ وكان أبو حاتم يعيب شعر أبي تمام (٦)

ومنها اسحاق الموصلي الذي كان في كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم (٧) فتعصب على أبي نواس (٨) ، وطعن على أبي العتاهية (٩) ، وكان لا يفتد ببشار ويقدم مرواناً عليه (١٠) ، وسمع أبا تمام ينشد شعراً له فقال : يا هذا لقد شددت على نفسك (١١) ، ومع ذلك فقد كان أنتاجه الأدبي لا يرضى طبقة النقاد التي احتذى حذوها وذلك لأنهم يرونه محدثاً كما فعل الاصمعي معه حين استحسن بيتين أنشدهما اسحاق له فلما علم أن اسحاق صاحبهما عابهما (١٢) ، ولم يكن تعصب اسحاق للقدماء في الأدب وحده بل كان كذلك في الغناء أيضاً فكان زعيم طائفة تنكر تغيير الغناء القديم وتعظم الاقدام عليه (١٣)

وكان المأمون — رغم ثقافته الواسعة — يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول انقضى الشعر مع ملك بني أمية (١٤) ؛ ودخل عليه أبو تمام في زى اعرابي فأنشده فجعل المأمون يتعجب من غريب ما يأتي به فلما انتهى إلى قوله :

هن الحمام فان كسرت عيافة من حاتم فانهم حمام

فقال المأمون : الله أكبر كنت يا هذا قد خلطت على الامر منذ اليوم وكنت حسبتك بدوياً ثم تأملت معاني شعرك فاذا هي معاني الحضريين وإذا أنت منهم فغض به ذلك عنده (١٥)

وهو مثل ذلك التعصب للقديم موجود في الآداب الأخرى ؛ فقد كان هوراس

(١) راجع ٢٨٩ ج ١ زهر (٢) أخبار أبي تمام للصولي ١٧٧ (٣) العمدة ٧٣ ج ١

(٤) البيان ١٩٧ ج ٣ (٥) الأغاني ٢٣ ج ٣ (٦) المرشح ٣٠٤ (٧) أخبار أبي تمام ٢٢١

(٨) راجع ٢٦٣ و ٢٦٤ من الموشح ؛ الأغاني ٢٨ ج ٣ (٩) موشح ٢٥٨

(١٠) الأغاني ٢٨ ج ٣ (١١) الموازنة وتروى برواية أخرى (٣٢٧ الموشح)

(١٢) الوساطة ٥٠ ، الموازنة ١٠ (١٣) الأغاني ٣٥ ج ٩ (١٤) ديوان المعاني ٣٦٢ ج ١

(١٥) ديوان المعاني ١٢٠ ج ٢

الشاعر الرومانى يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التى يجب أن تدرس ليلاً ونهاراً ، فإن الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه (١) .

واعترض الباقلانى عنهم بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى (٢) ، واعتذر ابن رشيق بحاجتهم إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون (٣) .

ب - وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبى وحده فى الشعر وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً كالجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن رشيق (٤) ، ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على المحدثين لغير سبب (٥) وفضل ، خلف لامية مروان على لامية الأعشى (٦) ، ويشرح الجرجاني والباقلانى مذهبهم فى النقد (٧) .

ح - وطائفة أخرى حكمت الثقافات الحديثة فى النقد كما فعل قدامة فى نقد الشعر ومناهجه ولا سيما بعد اطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو فى نقد الشعر الذى نقله أبو بشر من السريانية إلى العربية (٨) .

ولاختلاف مناهج النقاد فى نقد الشعر كان الشعراء يتشددون فى طلب العدالة الأدبية من النقاد حين يعرضون ما نظموه من شعر عليهم كما فعل ابن منذر ١٩٨ هـ ، فقد أنشد أبا عبيدة قصيدته فى رثاء عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى (٩) :

كل حى لاقى الحمام فودى ما لحى مؤمل من خلود
وهى التى عارض بها قصيدة أ ب (١٠) زبيد الطائى :

إن طول الحياة غير سعود وضلال تأميل طول الخلود
فقال له : احكم بين القصيدتين واتق الله ولا تقل ذاك متقادم الزمان وهذا
حدث متأخر ، ولكن انظر إلى الشعرين واحكم لأفصحهما وأجودهما (١١) .

وفى العصر الثانى كف الخلفاء عن شد أزر الشعراء بالصلات ، لغلبة الترك على

(١) قواعد النقد الأدبى ص ١٤٤ وما بعدها (٢) إعجاز القرآن ١٠٠

(٣) العمدة ٧٣ ج ١ (٤) الحيوان ٤٠ ج ٣ ، الشعر والشعراء ٧ و ٨ ،

الكامل ١٨ ج ١ ، العمدة ٧٤ ج ١ (٥) أخبار أبي تمام ١٧٥ وما بعدها ،

رسائل ابن المعتز ١٤ (٦) العقد ص ٤٠٢ ج ٣ (٧) الوساطة ٣٧ وما بعدها ،

إعجاز القرآن ١٠٠ (٨) زيدان ١٥٧ ج ٢ (٩) راجعها فى الكامل للمبرد

٢٨٨ و ٢٩٠ ج ٢ ، والمبرد شديد الإعجاب بها (٢٨٨ ج ٢ الكامل) (١٠) راجعها

فى (٢٨٦ وما بعدها جمهرة أشعار العرب) (١١) ٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز

(٤ - الحياة الأدبية)

أمور الدولة وضعف الخلفاء واضطراب الحياة السياسية ، ولأن الدعاية السياسية خرجت كلها أو جلها من أيدي الشعراء إلى أيدي الكتّاب والدعاة . . . وتوزع العناية بين الشعر والعلوم الحديثة ، ولكثرة الشعر والشعراء ، ولغلبة المنادمة على الشعر مما رجع صفة النديم على صفة الشاعر ، ولقلة المبالاة بالمدح والذم حين استبحر العمران وشاعت الإباحة والمجون . . . فلم يعد الشعر طريقاً إلى الحياة ، ووسيلة للعيش ، كما كان في العصر الأول ، الذي أغدق فيه الخلفاء والوزراء والأمراء على الشعراء بانفس الجوائز والصلوات (١) .

وكان من رواة الشعر العربي طبقة من العلماء من البصريين والكوفيين والبغداديين ، الذين كانوا يروونه إشباعاً لنهم فطريهم وأذواقهم الأدبية العربية الخاصة ، من أمثال : خلف والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد ويحيى بن نعيم وعمرو بن كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (٢) ومن عامة رواة الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المستخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة . كما يقول الجاحظ - دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إغراب ، والأخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب (٣) . وبجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم في آفاق الأدب العربي أمثال ابن هرمة وبشار وصالح ابن عبد القدوس وأبي نواس وأبي العتاهية والسيد الحميري وأبان اللاحق ومنصور النمرى وسلم الخاسر وابن أبي عيينة ويحيى بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابي ومسلم وأبي تمام (٤) ، وغيرهم من رجال الأدب والبيان ، من بيت بني هاشم وبني العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٥) .

ومهما كان فإن التجديد الشعري في العصر العباسي لم يتعد في الأغلب صناعة الشعر وأنه منحصر في الوجداني منه ، وهو يظهر لنا في ثلاثة مظاهر : رقة العبارة ،

(١) راجع أصفاد الملوك على المدح في ١٥٨ - ١٦١ ج ١ العقد الفريد .

(٢) ١/٢٠٦ البيان (٣) ٣/٢٢٤ البيان (٤) ١/٥٤ البيان (٥) ١/١٠٦

والتفنن في المعاني ، والتوفر على البديع اللفظي ، وقد يضاف إليها التوسع في المصطلحات اللفظية .

وقد كان نتاج الشعراء في العصر العباسي ممتازاً بالدقة ، ومبنياً على دراسة النفس ومعرفة طبائعها وخصائصها ، وفهم حقائق الحياة ، واستشفاف أسرارها ، وقل أن يعرى أديب عباسي من نصيب في الحكم والأمثال ، ومن أشهرهم في ذلك بشار بن برد ، وصالح بن عبد القدوس ، وأبو العتاهية ، وأبو الطيب المتنبي ، وأبو العلاء المعري ، فقد كانوا أوفر من غيرهم حظاً ، وأحكم بناءً ، وأشعارهم مملوءة بالحكمة ، وهذه أمثلة قليلة منها : قال بشار :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن	برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة	فإن الخوافي قوة للقسوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها	وما خير سيف لم يؤيد بقائم
ويقول صالح بن عبد القدوس :	

لا يبلغ الأعداء من جاهل	ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه	حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله	كذى الضنى عاد إلى نكسه
وإن من أدبته في الصبا	كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقا ناضراً	بعد الذي أبصرت من يده

وجمع أبو العتاهية نحو أربعة آلاف مثل في أرجوزة حكيم سماها ذوات الأمثال، ومنها:

حسبك ما تبتغيه القوت	ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا	من اتقى الله رجا وخافا
هي المقادير فلنى أو فذر	إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
ما انتفع المرء بمثل عدله	وخير ذخر المرء حسن فعله
من جعل النمام عينا هلكا	مبلغك الشر كباغيه لكا
ما عيش من آفته بقاؤه	نقص عيشاً كله فناؤه

من لك بالمحض وليس محض	يخبث بعض ويطيب بعض
إن الشباب حجة التصابي	روائح الجنة في الشباب

ويروى أن الجاحظ أنشدت أمامه هذه الأرجوزة يوماً ، فلما وصل إلى هذا

البيت ، استوقف المنشد ، ثم قال : انظروا قوله : روائح الجنة في الشباب ، فإن له معنى كعنى الطرب ، الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة ، إلا بعد التطويل وإدامة الفكر ، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .

ويمتاز كذلك الشعر العباسى (١) بكثرة استدلالهم لما يذهبون اليه من رأى أو فكرة ، بالحجج العقلية أو البراهين الشعرية ، وذلك لأنهم أفادوا من دراسة الفلسفة والمنطق ، وأصبحت نفوسهم لا تقنع بالرأى من دون دليل ، ولأنهم في التعمق وراء المعانى كانوا يصلون فى كثير من الأحيان إلى الحكم على الأشياء بغير المؤلف ؛ ولا بد للحكم حينئذ من برهان يدعمه ، أو قياس يقربه من مألوف الناس ، ولذلك كثر فى أدبهم حسن التعليل ، والمذهب الكلامى ، والتذييل المشتمل على التشبيه الضمنى ، وقد مدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدته :

مافى وقوفك ساعة من باس نقضى حقوق الأربع الأدراس
فلما وصل إلى قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس
قال له الفيلسوف الكندى - وكان حاضراً بالمجلس - الأمير فوق من وصفت ، فاتكأ أبو تمام على ذكائه ، واستنجد بديهته فأنجدته بقوله :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلاً شروداً فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وما أنكر الناس (١) تطويل الشعر فى المدح حتى ضاق ابن الرومى بأهل زمانه ، فاستخرج منه معنى بغضاً ، هو تيقن المادح أن الكرم لا يملأ نفس الممدوح ، وأنه غائر تحت طبقات من البخل وكزازة النفس ، فلا بد للوصول اليه من تطويل الأسباب كما يطيل الرشاء من يمتنع من بثر بعيدة الماء :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه
وما كان الناس يابهون لبكاء الطفل ساعة الميلاد ، ولكن ابن الرومى الذى

(١) مذكرة فى الأدب العربى للأستاذ أحمد شعراوى .

كان يتلذذ لتشاؤمه العليل ؛ التفت إليه ، واتخذ دليلاً على ما تعج به الحياة من
رزايا ، وما ترصده للأحياء من آلام :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإلّاها لاوسع بما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقي من أذاها يهدد

وما دام جمال الشيء أو قبحه بالدليل والبرهان ؛ فقد تمكنوا من تحسين
ما تعارف الناس على هجنته ، وتهجين ما تواضع الناس على استحسانه ، وقد كان
البدر أسمى ما يشبه به وجه الحسناء في البهاء ، وليكن عبد الرحمن بن المنجم يجرى
على لسان حبيبته حاجة يكتب لها فيها النصر على البدر حيث يقول :

شبهتها بالبدر فاستضحكت وقابلت قولى بالذكر
وسفحت قولى وقالت : متى سمجت حتى صرت كالبددر
البدر لا يرنو بعين كما أرنو ولا يبسم عن ثغر
ولا يميظ المرط عن ناهد ولا يشد العقد فى نحر
من قاس بالبدر صفائى فلا زال أسيراً فى يدى هجرى

وما سمعنا أحداً احتج للحقد قبل هذا العصر ، ولعل أول من حاول ذلك
عبد الملك بن صالح بن على بن يدى الرشيد ، وكان يحج عليه ، ويتممه بالتطلع إلى
الخلافة ، فأراد يحيى بن خالد البرمكى أن يضع من قدره تقرّباً إلى الرشيد ، فقال :
يا عبد الملك ، بلغنى أنك حقود ، فقال عبد الملك : إن كان الحقد هو بقاء الخير
والشر ؛ لإنهما لباقيان فى قلبى ، فقال الرشيد : تالله ما رأيت أحداً احتج للحقد
بأحسن مما احتج به عبد الملك ، وكان قول عبد الملك هذا نواة ، أخذها ابن الرومى ،
فاستندبتا ، ونماها ، وأبداها كثيرة الغصون والأفنان فى قوله يزين الحقد أيضاً :

لئن كنت فى حفظى لما أنا مودع من الخير والشر انتحيت على عرضى
لما عبتنى إلا بفضل إبانة ورب امرئ يزرى على خلق محض
ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها بل العيب أن تدان ديناً ولا تقضى
وخير سجيّات الرجال سجية توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
إذا الأرض أدت ربيع ما أنت زارع من البذر فيها فهمى ناهيك من أرض
ولولا الحقود المستكنات لم يكن لينقض وترأ آخر الدهر ذو نقض

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى
فحيث ترى حقداً على ذى إساءة
وبعض السجايا ينتهين إلى بعض
فثم ترى شكراً على حسن القرض
وقد نقض ابن الرومي ذلك فقال :

يا ماحد الحقد محتالاً له شهباً
لن يقلب العيب زينا من يزينه
قد أبرم الله أسباب الأمور معاً
يا دافس الحقد في ضعفى جوانبه
الحقد داء دوى لا دواء له
فاستشف منه بصفح أو معاتبة
واجعل طلابك بالآوتار ما عظمت
فالعفو أقرب للتقوى وإن جرم
يكفيك في العفو أن الله قرظه
شهدت أنك لو أذنبت ساءك أن
إذن وسرك أن ينسى الذنوب معاً
فكيف تمدح أمراً أنت تكرهه
لقد سلكت إليه مسلكاً وعثاً
حتى يرد كبيراً عاتياً حدثاً
فلن ترى سيباً منهن منتكثاً
ساء الدفين الذى أضحت له جدناً
يرى الصدور إذا ماجره حرثاً
فإنما يبرأ المصدور ما نقثاً
ولا تكن لصغير القول مكثراً
من مجرم جرح الأكباد أو فرثاً
وحيا إلى خير من صلى ومن بعثاً
تلقى أخاك حقوداً صدره شرثاً
وأن تصادف منه جانباً دمثاً
فكن - هديت - تميز كل ما اعتثاً

ومن خصائص الشعر العباسي أيضاً براعة التصوير ، والافتنان فيه ، وسمو
الخيال ، واتساع آفاقه ، ولا شك أن لما أطلعهم عليه الترجمة من آداب الأمم
الأخرى مدخلا في ذلك ، فقد عرفوا مسالك غيرهم في تصور الأشياء وتصويرها ،
ورأوا مسابح للخيال لا تقف عند الجزء أو تجهد في تصويره ، بل تنظر إلى الكل نظرة
شاملة ، تعين على إخراجه في صورة كاملة مترابطة ، ولعل إفادتهم في هذه الناحية
كانت محدودة لغلبة التأثير بالأدب القديم ، ولكنها على كل حال ؛ تركت آثاراً
لأنكاد نلجها عند السابقين عليهم . والحضارة لها كذلك نصيب . فالشاعر إنما
يستمد صورته مما يحيط به ، وقد لام ابن الرومي من قال له لم لا تشبه كتشبهات
ابن المعتز ، وأنت أشعر منه ؟ . فقال ألا تنشدني شيئاً من قوله الذى استعجزتني
عن مثله ؟ فأنشده قوله في الهلال .

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
فقال له زدني ، فأنشده قوله في الآذريون الأصفر ، وهو زهر أصفر ، في
وسطه خمل أسود ، وليس بطيب الرائحة :

كان آذريونها والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه ؟ بالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون
بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظر إذا أنا وصفت
ما أعرف أين يقع قولى من الناس ؟ هل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام :

وساق صبيح للصبح دعوته فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر لآثر مبيض
كأذبال خود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
ومن بديع الخيال قول ابى إسحاق إبراهيم بن موسى ، يصور تلاحظ العاشقين
بصورة معركة ، يظفر أحد الطرفين فيها بالنصر ، ويؤء الآخر بالقتل أو الأسر :

غزتى بجيش من محاسن وجهها فعبى لها طرفى ، ليدفع عن قلبى
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها يريد اغتصاب القلب قسراً على الحرب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا جعلت فؤادى فى يديها على العضب
وناديت من وقع الاسنة والقنا على كبدى : يا صاح مالى وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

وكذلك يقول ابن الرومى :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بذها حوانى
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
ملقحات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات وهى صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها ترجم عنه وهو بادی الغنى عن الترجمان

ومن الآثار التي ظهرت في أدبهم ؛ طول النفس وامتداده (١) ، واتساع القصيدة لمئات الآيات ، فقد أقدرتهم مطالعة الفلسفة والعلوم العقلية على التفسير والتحليل ، وامتلأت أيديهم بالمعاني والأفكار يبسطونها ، ويقلبونها على جميع وجوها ، ويضعون الصور الكثيرة لها ، ويحتجون بما وسعهم من الدليل والبرهان ، وبذلك انفسح مجال القول أمامهم ، انفساحاً لم ييسر لمن كانوا قبلهم ، بل كان أمام متأخريهم أوسع منه أمام المتقدمين منهم ، لتكامل الأسباب وتوافرها ، ومصادق ذلك في الرجوع إلى ما قدمناه من الاحتجاج للحقد ، فقد تركز في قول عبد الملك بن صالح ؛ واتسع عليه وانبسط عند ابن الرومي حتى ملأ الكثير من الآيات ؛ وطول النفس غير الهائلة التي يخلقها العجز والحيرة في أداء المعنى . أو بعبارة أخرى ، لا نقصد به ذلك الاسهاب العبي الناتج من ضعف المملكات وقصورها عن توضيح المراد إلا في فضول من اللفظ ، وإنما نقصد به إلى اشباع المعنى ، ومعاودته بالتحليل والتفصيل ، ودعوه بالبرهان والدليل ، وعرضه في معارض مختلفة من الصور الجميلة ، لا في مبادئ من العبارات المتكررة ، والجل المترددة .

ومن خصائصه كذلك المبالغة دون تهيب ، ومجاورة الحد فيما يتبتون من صفات المدح والذم ، فقد أخذوا عن الفرس ما ورثوه من المغالاة في تعظيم الأكاسرة ، والديانة بالحق الإلهي المقدس ؛ وأخذ الخلفاء الأدباء بهذا المبدأ ، وحلوه على الإغراق في مدحهم ، فتباروا في هذا الميدان ، يحاول كل منهم أن يفتح قلب مدوحه بما يفخمه ويضخم ما هو فيه ، أو بما يختلفه ويدعيه بما ليس فيه ، وبذلك دخلت المبالغة والادعاء جميع أبواب الشعر ، وبخاصة الهجاء ؛ لأنهما مكنا فيه من الإيجاع والإيلام . وقد قال منصور النري في مدح الرشيد :

خليقة الله إن الجود أودية	أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت أمراً فالله رافعه	ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصماً	فليس بالصلاوات الخمس ينتفع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله	أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فلما اجتمع الشعراء بباب المعتصم بعث إليهم وزيره محمد بن عبد الملك الزيات يقول لهم : من يحسن قول النري : خليفة الله الخ فليدخل ، وإلا فليصرف فقام محمد بن وهيب ، وقال : فينا من يقول مثله ، وأنشد قصيدة منها :

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها
فالشمس تحكيه في الاشرار طالعة
والبدر يحكيه في الظلماء منبججا
ومنها :

فالخلق جسم له رأس يدبره
وأبو نواس يهجو الرقاشي بقوله :

رأيت قدور الناس سوداً من الصلي
يبينها المعتقى بفنائهم
إذا ما تنادوا بالرحيل سعى بها
ولو جثتها ملأى عبيطاً مجزراً
وقدر الرقاشين زهراء كالبدور
ثلاث كنقط الماء من نقط الخبر
أمامهم الحسولى من ولد الذر
لأخرجت ما فيها على طرف الظفر

ويتصل بحديث المبالغة في المعاني ظاهران لم تكونا قبل هذا العصر : إحداهما شيوع الخنوع والضراعة في مخاطبة الرؤساء ، فقد علوا بهم عن أن يوجهوا الخطاب إليهم ، أو يصلوه بأسمائهم ، واتجهوا إلى الحضرة والسدة وما أشبه ذلك ، إرضاء لكبرياتهم ، وظاهرة لغطرستهم . والآخرى : كثرة الألقاب التي تضاف إلى الأسماء ، رغبة في التفخيم من شأن أصحابها ، والتهويل بأفئداهم ، وما اتجه الناس قبل هذا العهد إلى أن يضيفوا للخليفة أو من يتصل به في العمل لقباً يزيد على اسمه ، حتى جاء أول خلفاء العباسيين فلقب نفسه بالسفاح ، ففتح بذلك باب الألقاب للخلفاء ، وكذلك صنع من كانوا يعاونونه ، فقد اختلفوا في اختراع الألقاب الفخمة كالوزير ، والسلطان ، وذى اليمينين أو الرياستين ، أو الوزارتين ، أو الكفأيتين ، ورئيس الرؤساء ، وما أشبه ذلك من الألقاب المركبة من إضافة الكلمات الضخمة إلى الدولة ، أو الدين ، والتي كثرت حتى في عهود الضعف والانحلال ، وأسبغت على من يستحق ومن لا يستحق ، وما أطف ما قال أبو بكر الخوارزمي في أحد ذوى الألقاب :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا
ولقبوا رجلا لو كان أولهم
قل الدراهم في كفى خليفتنا
هذا ، فأنفق في الأقوام ألقاباً
من الكنى ومن الألقاب أبواباً
ما كان يرضى به للحش بواباً

ألوان من صنعة المحدثين في الشعر

كان الشعراء المحدثون يقصدون الى ألوان خاصة من الاساليب الساحرة التي يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وسحر الاداء ، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن تعليل وسوى هذه الألوان ، التي يقصدونها قصدا ويفتنون فيها افتنانا ، ويحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها ، كان الراعى مقدمة لهذا اللون من الصنعة ، فكان كثير البديع في شعره (١)

وأول من فتن البديع من المحدثين بشار وابن هرمة (٢) ، ولم يكن في المولدين أصوب بديعا منهما (٣) ، ثم اتبع بشارا وابن هرمة مقتديا بهما العتابي والنخعي ومسلم وأبو نواس (٤) ، فالعتابي يذهب شعره في البديع (٥) ، وكان يحتذى حذو بشار في البديع (٦) ، كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن ، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالنخعي ومسلم وأشباههما (٧) وأستاذهم بشار أبو المحدثين وأستاذهم (٨) وكانت تبتاين طبقات شعره فيصعد كبيرها ويهبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب (٩) ، وكان نواس ثاني بشار في منزعه لفظا ومعنى وكثيرا ما صلب على قوالبه وجرى في مضماره . حتى قال الجاحظ فيهما : معناهما واحد والعدة اثنان ! . بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قول ولا تعب من عمل شعر ؛ وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره الى القلب بلا اذن ، وليس بعد بشار مولد أشعر من ابى نواس (١٠) ، وكان أبو نواس يشبه بالناطقة (١١) ، وكان أسير المحدثين شعرا (١٢) . والصنعة واضحة بشكل ملبوس في ميميته :

(١) ٢٤٢ / ٣ البيان (٢) ١١٠ / ١ العمدة (٣) ٥٥ / ١ البيان

(٤) ١١٠ / ١ العمدة (٥) ٢٤٢ / ٣ البيان (٦) ٥٥ / ١ البيان

(٧) ٥٤ / ١ البيان (٨) راجع ٢٠٠ / ٣ الاغانى ، ١١٠ / ١ العمدة

١٣ / ٢ زهر ؛ ٢٥٠ موشح ، ص ٣ طبقات ابن المعتز . وكان الاصمعي يقول هو خاتمة الشعراء (٢٣ / ٣ الاغانى)

(٩) ٢٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف .

(١٠) ١٦١ العصر العباسي للاسكندر (١١) ١١٠ / ١ العمدة

(١٢) ١٧٣ / ١ العمدة

وذنى رحم قلبت أظفار ضغنه بحلى عنه وهو ليس له حلم (١)
على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهذيبا أدبيا واسعا
للشعر ومذهبها جديدا مأثورا إلا على يد المحدثين عامة (٢) وعلى يد مسلم وأبي تمام
على الخصوص ، فسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة
وأكثر منها ولم يكن فى الاشعار المحدثّة قبله إلا النبذ اليسيرة وهو زهير المولدين
وكان يبطىء فى صنعته ويجيدها (٣) ، بل هو فيما زعموا أول من قال هذا الشعر
المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف (٤) ، وأول من أفسد
الشعر بالبديع (٥) ، ويشيد به النقاد جميعا فى مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره
فى هذا الباب (٦) ، وكان يتخذ الصنعة مذهباً يطبق عليه نماذج بيتا بيتا فعنى بضروب
التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباق واستعارة ومشاكاة وأقام ألفاظه
وتعابيريه كما يقيم المثلون تماثيلهم ، وحقا كان مسلم زعيم التصنيع فى عصره فقد .
استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذج فالتصيدة عنده لاتعبر عن خواطر وإنما
تعبّر عن ألوان (٧) .

وعمت موجة التصنيع بعد مسلم ، وعلى نمطه وحنوه سار أبو تمام والبحترى
فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها ، فأما حبيب فيذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ
الاسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتى للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة
رتأخذها بقوة . وأما البحترى فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهباً فى الكلام
يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا
مشقة (٨) ، كان لأبى تمام مذهب فى المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء (٩) ، وربما
أسرف فى المطابق وفى المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها (١٠) ، ولا
تجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمه (١١) ، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون

(١) وهى فى ديوانه ، وتنسب لمعن بن أوس خطأ

(٢) ١/١٧٣ العمدة (٣) ١/١١٠ العمدة (٤) ١/٢٠ معاهد التنصيص

(٥) ٨ الموازنة (٦) ٦٨ المثل السائر ، ١٠٩ طبقات ابن المعتز ، ٣٧٢

معجم الشعراء ، ٢٤٨ رسائل البلغاء ، ١٣٢ / ٤ زهر .

(٧) ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه (٨) ١/١٠٩ العمدة

(٩) ٧/ ١٦٨ مذهب الاغانى (١٠) إعجاز القرآن (١١) ٩٢ رسالة الغفران

التقسيم والتصريح والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس (١) ، وعلى أى حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طرقا سائلة وأكثر منها فى أشعارهما تكثيرا سهلا عند الناس، على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا (٢) ، كان أبو تمام يستخدم فى صناعة شعره وشئ التصنيع الذى عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكل وتصوير وأضاف إليها شيئا آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد فى تصويره على صيغ التدبيج وقد استوعب الفلسفة، والثقافة وحوّلها إلى فن وشعر، فالطباق والجناس والمشاكل كل ذلك وسواه تجتمع فى شعره فيجلبه الغموض فى كثير من جوانبه وأجزائه وهو الغموض الفنى الذى أخذ به النقاد فهو مبتكر أفكارا وصورا جديدة ولكنه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدى ما يريد، وجانب الغموض والمعانى العويصة فى شعره هو الذى أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التى شبت فى فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تفرع من مذهب البرناسيين ؛ وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداما معقدا يلوّنه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد (٣) وهو المقابلة.. وكان البحترى يتشبه بأبى تمام وينحو نحوه ويحذو حذوه فى البديع (٤)

وكان لا يرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام (٥) ويقل التصنع له فاذا وقع فى كلامه كان فى الأكثر حسنا رشيقا وتصنعه للطائفة كثير حسن، وتعمقه فى وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة فى السلامة (٦) ، والبحترى على أى حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق، كان بدويا أعرايا فظلت أدوات الصناعة عنده ساذجة بسيطة (٧) ، كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقد شديدا كما يقول الباقلانى ، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد

(١) ٣٠٥ الريحانة للشهاب من ظلامه أبى تمام التى ذكرها الشهاب الخفاجى فى — ريحانته ٣٠٤ — ٣٠٩ ، وقد صنفها الخالدى على لسان أبى تمام يشكو فيها الطائى من الواعظ الموصلى الذى كان يغير على شعر أبى تمام فى كلامه وشعره .

(٢) ١/١١٠ العمدة

(٣) راجع ١١٦ و ١١٥ و ١٢١ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣١ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى

(٤) ١٨٣ / ٧ مذهب الأغاني (٥) أى من إسرافه فيه

(٦) ٩٦ إعجاز القرآن (٧) ٩٠ الفن ومذاهبه

تحميلين بأصناف الحلى كما يقول صاحب المثل السائر ، بل كانت كالعسل حلالة (١) ، أما ابن الرومي فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ فيطالبون صحته ولا يبالون حيث وقع من دجته اللفظ وخشونته (٢) ، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع (٣) ، فهو حديث في ثقافته ولسكنه لا يستطيع أن ينمض في فنه بألوان التصنيع وزخارفه ، وحقا قد شغف بالتصوير واسكن هذا الشغف لا يخرج به إلى مجال المصنعين (٤) ، وهو مع ذلك قد يأتي بألوان الزخرف الفنى في شعره ولسكن دون أن يتخذها مذهبا ، وكان يستخدم الطباق والجناس في شعره وهو يشبه البحترى في ذلك إلا أن البحترى يكثر من الجناس ، وقد استعار من أبي تمام صبيغ التدييع (٥) .

وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به (٦) ، وكان ابن المعتز هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر ليلهو به وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين وكان متمكنا جيدا فى تكلفه كما كان الوليد مطبوعا جيدا فى طبعه ، ويقول عبد القاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبي تمام ولم يكن من المطبوعين (٧) ، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من مصنوع ، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول :

وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من ابن المعتز ، فإن صنعته خفية لطيفة لا تسكاد تظهر فى بعض المواضع إلا البصير بدقائق الشعر وهو عندى أطف أصحابه

-
- (١) ٣٥ طبقات ابن المعتز والآمدى يفضل ابتداءه (١/٢٠٥ العمدة) وكان مقصرا فى الخروج من النسب إلى المدح (٤١ إعجاز القرآن) ، ويفضله الجرجاني بجودة الابتداء على حبيب والمتنبى ، وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة (١/٢٠٥ العمدة)
- (٢) ١/١٠٦ العمدة ، وابن الرومي أكثر الشعراء اختراعا المعانى (٢٣٢ ج ١ العمدة ، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١ رسالة الغفران)
- (٣) ٩٤ الفن ومذاهبه (٤) ٩٥ المرجع

- (٥) وكان يلتزم حركة ما قبل الروى فى أكثر شعره (١٣٣ و ١١١ العمدة) وكان يلتزم القافية ١٣٧ و ١٣٨ / ١ العمدة ، وقد يلتزم الجزء وحركته قبل الروى ١٧٢ سر الفصاحة .

شعرا وأكثرهم بديعاً وافتناناً وأقربهم قوافي وأوزاناً ولا أرى وراءه غاية لطلبها في هذا الباب (١) ؛ ولقد صدق ابن رشيق في حكمه الأدبي على ابن المعتز وصنعتة فإن له من رائع الصنعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة في صناعته ما يروع القارىء ويستبد بأعجاب المنصف من النقاد، وكان أبو تمام متكلفاً للبديع وكان البحترى وابن المعتز يجريان مع الطبع وكان مسلم ينهج نهجاً وسطاً ، (٢) ، ولا شك أن ذلك أثر لعصر ابن المعتز ويثبته وحياته ووجدانه وشعوره ، وآية ناطقة بحبه للجمال السارى فى الحياة .

أشهر الشعراء العباسيين

فى صدر العصر العباسى نجد ابن هرمة وبشاراً وأبانوس ، والعديد من الشعراء من أمثال مسلم وسلم الخاسر وأبى العتاهية والبة ومنصور النمرى وبكر بن النطاح وعلى بن جبلة والعتابى وأبى الشيص .

كما نبغ كذلك الكثير من الشعراء ، نذكر منهم : محمود بن الحسين الوراق ٥٢٣٠ هـ وامتاز بالحكمة والأمثال (٣) ، وأباتمام م ٥٢٣١ هـ . وديك الجن (١٦١) - ٥٢٣٥ هـ (٤) ، وعبد الصمد بن المعدل م ٥٢٤٠ هـ (٥) ، وعمارة بن عقيل م ٥٢٤٠ هـ (٦) وأبا العميثل م ٥٢٤٠ هـ شاعر عبد الله بن طاهر وكاتبه (٧) ، ودعبل (١٤٨) —

(١) ١٠٩ و ١١٠ ج ١ : العمدة (٢) ١٧٠ وما بعدها الأسلوب للشايب

(٣) راجع ١٣٨ / ١ أزهر ، ١٧٤ طبقات الشعراء لابن المعتز (٤) هو عبد السلام الحمصى شاعر الشام وكان أبو تمام يحتذيه راجعه (٨٣ / ١ عمدة) وكان ماجناً (٣١٦ / ١ الدميرى) ، وشهد له أبو نواس (٣١٦ / ١ الدميرى ، ٥٢٥ / ١ وفيات الأعيان) ويروى ذلك عن دعبل (١٩٣ / ١ العمدة) وعن أبى تمام (١٥١ حلبة الكميت) وتوفى عن بضع وسبعين سنة (٣٥ الكشكول) (٥) كان شاعر البصرة (٩٣ خاص الخاص ، ٧٤ / ٣ زهر) ، وأخوه أحمد شاعر كذلك (٧٢ / ٣ زهر)

(٦) ٢٤٧ معجم الشعراء ، ١٤٩ - ١٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٧) ١٣٣ / ٢ الدميرى ، ٧٢ و ٧٣ فهرست ، ١٣٥ - ١٣٦ طبقات الشعراء

لابن المعتز ، ٤٧٠ / ١ ابن خلكان

٢٤٦ هـ (١) ، وعوف بن محم الخزاعي م ٢٤٨ هـ (٢) ، وعلى بن الجهم م ٢٤٩ هـ (٣) والعطوى م نحو ٢٥٠ هـ (٤) ، والحسين بن الضحاك الخليج (١٦٢ - ٢٥٠ هـ) (٥) وبارق الكريزى وكان شاعر مكة فى أيام المتوكل وكان يتعصب على أبى تمام (٦) ومحمد ابن سلامة بن أبى زرعة الدمشقى وكان هو وديك الجن شاعرا الشام (٧) ، وأبا عيينة عبد الله بن محمد بن أبى عيينة ، المهلب (٨) .
وكذلك الأخيطل محمد بن عبد الله بن شعيب (٩) توفى نحو عام ٢٥٠ هـ ، ومحمود بن مروان

(١) ١٩٣ - ١٩٨ / ٤ معجم الأدباء ، ١٢٤ - ١٢٧ طبقات الشعر لابن المعتز ، ٢٤٨ - ٢٧٢ / ٧ مذهب الأغاني . وله كتاب طبقات الشعراء (٢٢٩ فهرست) وكتاب فى شعراء بغداد (٦٧ المؤلف) وكان شاعر علماء وعالم شعراء (٢٤٩ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف) ، وكان يؤدب الفضل ابن العباس (٢٥٦ / ٧ مذهب الأغاني) ،

(٢) ٦٩ فهرست ، ١٠١ خاص الخاص ، ١٣٠ / ١ الأمالى .

(٣) ٢٨٦ معجم الشعراء ، ١٥١ وما بعدها طبقات الشعراء لابن المعتز ، ٣٩ - ٤١ / ٢ وفيات الأعيان ، ٦١ / ٤ المسعودى ، ٤٢٣ - ٤٣٠ / ٢ عصر المأمون ، ٩٨ خاص الخاص وكان شاعر مقلدا مطبوعا (١٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز) وعلمه بالشعر أكبر من شعره (١٦٣ أخبار أبى تمام) ، وكان أحسن الناس علما بالشعر (١٠٠ إعجاز القرآن للباقلانى) ومن الفضلاء بالشعر وصناعة له (١٧٠ / ١ عمدة) وراجع فيه (٦١ / ٤ مسعودى ، ١٠٥ / ٩ الأغاني وما بعدها)

(٤) وكان له فن لم يسبق اليه ذهب فيه مذهب أصحاب الكلام (٥٨ / ٢٠)

الأغاني) وكان أحد المتكلمين الخذاق (٤٣٢ معجم الشعراء) ، وراجع ١٨٧ - ١٨٨ طبقات ابن المعتز ، ٢٣٢ / ٢ الأمالى (٥) ١١٣ المؤلف ، ٣٠٠ هـ معجم الأدباء ، ٢٦٥ - ٢٧٧ / ٣ عصر المأمون ، ١٢٧ - ١٢٨ طبقات ابن المعتز . وهما المأمون ثم مدحه بقصيدة نالت استحسانه فعفا عنه (٢٠٦ / ٢ ديوان المعاني) (٦) ٤٣٩ معجم الشعراء (٧) ٢١٤ معجم الشعراء (٨) ٢٧٥ - ٢٩٥ / ٧ مذهب الأغاني ، ١٣٦ - ١٣٩ طبقات ابن المعتز ، ٢٦٧ معجم الشعراء .

(٩) يسلك مسلك أبى تمام ويحذر حدوه (٤٣٢ معجم الشعراء) وأنشد أبا تمام

شعرا له فقال له : اذهب إذا شئت فليس للناس بعدى غيرك (١٩٥ طبقات ابن المعتز) .

ابن أبي الجنوب بن أبي حفصة مدح المتوكل ولزم المعتز وخص به فقلده اليماة والبحرين (١) ، ومحمد بن أبي الوليد الكلبي مدحه المتوكل وكان شاعر أوانه (٢) ،
 ويزيد المهلب (٣) وتوفي نحو ٢٥٦ هـ ، والحدوني إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه
 البصري (٤) ، وتوفي نحو عام ٢٦٠ هـ ، ومحمد بن دكين المتكلم ورثي المعتز وله أشعار
 يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد (٥) توفي بعد عام ٢٥٥ هـ ، ويعقوب النمار
 وتوفي في آخر أيام المعتمد (٦) ، والخليع الأصغر محمد بن أحمد م ٢٨٠ هـ (٧)
 وابن الرومي (٢٢١ — ٢٨٣ هـ) (٨) ، والبحترى م ٢٨٤ ، وأبو الحسين
 الخزاعي م ٢٨٣ هـ (٩) ، ومحمد بن علي بن حمزة العلوي م ٢٨٧ هـ (١٠) ،
 وأبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ الأنباري م ٢٩٣ هـ (١١) ، وعبيد الله

(١) ٥٠٢ معجم الشعراء (٢) ٤٣٩ المرجع . (٣) ٧/٢٩٥ وما بعدها
 مذهب الأغاني وص ٣٤٣ المرشح (٤) راجع ٢٢٣ و ٢٥٦ — ٢/٢٦٠ زهر
 وله في طيلسان ابن حرب أربعون مقطوعة لا تخلو واحدة منها من معنى نادر
 أو مثل سائر (٩٤ خاص الخاص ، ١٧٦ طبقات ابن المعتز) ؛ وله قصيدة لامية
 جيدة في المطالب (٣٥ — ٢/٣٧ العقد) (٥) ٤٥١ معجم الشعراء

(٦) ٥٠٧ معجم الشعراء

(٧) ٤٥٢ معجم الشعراء وهو من ولد ابن قيس الرقيات .

(٨) ٣٥٧ وما بعدها موشح ، ٤١ — ٣/٤٤ وفيات الأعيان ، ١٥١ — ١٥٦

مراجعات للعقاد ، ٣١٣ — ٣٤٤ حصاد الهشيم للمازني ، وابن الرومي للعقاد .

(٩) ٢٩١ معجم الشعراء ، وهامش ١٤٤ ديوان ابن الرومي (١٠) وكان شاعراً

راوية عالماً (٤٥٣ معجم الشعراء) (١١) ترجمته في (٤٧١ — ١/٤٧٢ وفيات

الأعيان ، ١٩٨ طبقات ابن المعتز) وهو الناشئ الأكبر وكان في طبقة ابن

الرومي والبحترى وابن المعتز وكان نحوياً عروضياً متكلاً أقام ببغداد ثم خرج إلى

مصر وأقام بها إلى آخر عمره وكان متبحراً في عدة علوم منها المنطق ، وله قصيدة في

فنون من العلم تبلغ سبعة آلاف بيت (١/٤٧١ وفيات) ، وله كتابه الموسوم

بتفضيل الشعر (١/١٧٥ العمدة) وينقل عنه الحصري (٤٩ — ٣/٥١ زهر) ،

وله منظومة في الشعر كتبها إلى أبي الصقر (٢/١٠٨ العمدة) ، وله منظومة أخرى

في الشعر (١٠٩ — ٢/١١٠ عمدة) (٣/٥١ زهر) ، وله كلمة في تقسيم العلم عند

ابن عبد الله بن طاهر (٢٢٣ - ٣٠٠ هـ) ، ويحيى بن علي المنجم (٢٤١ - ٣٠٠ هـ) وابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) ، والبسامي علي بن بسام م ٣٠٢ هـ (١) ، ونصر ابن أحمد بن نصر الخيز أرزي المتوفى عام ٣١٧ هـ (٢) ، وأبو بكر الحسن بن علي ابن أحمد بن بشار المعروف بابن العلاف الشاعر المشهور (٢١٨ - ٣١٨ هـ (٣) وابن طباطبا العلوي الأصبهاني م ٣٢٢ هـ (٤) .

ثم ظهر المتنبى والشريف الرضى ، وأبو فراس الحمداني وكشاجم والرفاء والوواء الدمشقي ، ومهيار الديلمي ، وأبو طالب المأموني م ٣٨٣ هـ ، وأبو العلاء المعري والطغرائي م ٥١٣ هـ ، وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦ هـ ، وابن التعاويذي م ٥٣٨ هـ ، والأرجاني م ٥٤٤ هـ ، والآبيوردي م ٥٧٧ هـ ، وابن سناء الملك م ٦٠٨ هـ ، وابن النبيه م ٦١٩ هـ ، وابن الفارض م ٦٣٢ هـ ، وابن مطروح م ٦٤٩ هـ ، والبهاء زهير م ٦٥٦ هـ . وسواهم من عديد الشعراء .

= الفلاسفة (١/١٢ العمدة) ، وهو غير الناشئ الأصغر (٢٧١ - ٣٦٥ هـ) الذي كان من شعراء سيف الدولة (٨٤٨ وما بعدها ٢/ وفيات (١) يشبه الخطيئة في الهجاء (١٠٨ وما بعدها خاص الخاص ، ٢/٤٤ وما بعدها وفيات ، ٤/٢٢٦ المسعودي) وهجاء ابن المعتز (٣/٩٠ زهر ، ١٨٠ ديوان ابن المعتز) وأمه أمانة (٢١٤ فهرست) أخت أحمد بن حمدون ابن اسماعيل النديم ، وكان حسن البديهة شاعراً أديباً (٥/٣١٨ معجم الأدباء) وأغلب شعره في الهجاء (راجع ٢٩٤ معجم الشعراء) ، وكان هو وإخوته يقرأون الشعر على فضل البريدي (١٧١ أدب الكتاب للصولي) .

(٢) ٥٥ - ٦٠ / ٣ وفيات . وهو أحد المطبوعين المجودين وكان لا يعدل به أحد في زمانه (١/٤٩٨ سمط (٣) كان ينادم المعتضد وكان بينه وبين ابن المعتز صفة أكيدة فلما قتل ابن المعتز رثاه بدليته :

يا هر فارقتنا ولم تعد وكنت عندي بمنزل الولد

وجعلها في صورة رثاء هر له إخفاء على المقتدر (٢٤٥ - ٢٤٨ / ١ وفيات الاعيان ، ١٣٩ نسكت الهميان ، ٣٣٦ و ٣٣٧ ج ٢ الدميري) وعدد أبيات القصيدة ٦٥ بيتا وهي من أحسن الشعر وأبدعه كما يقول ابن خلكان

(٤) ٤٦٣ معجم الشعراء ، ٢٨٥ / ٦ معجم الأدباء ، ١٠٦ خاص الخاص

(م ٥ - الحياة الادبية)

طبقات الشعراء العباسيين

— ١ —

الطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين في الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة
من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا في المنزع أو يدخلوا في مناقضة أو يتزاحموا على
باب ملك (١) ، ومعنى الطبقة أنهم نظراء (٢) وأنهم قريبون من بعض في منزلتهم
الأدبية العامة وإن اختلفوا في اتجاهاتهم الفنية وإنتاجهم الأدبي . والشعراء أربع
طبقات ؛ جاهليون ومخضرمون وإسلاميون ومولدون وهم الذين فسدت فيهم ملكة
اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بني العباس (٣) ، ويضيف إليهم الشباب
الخفاجي طبقات ، هم المحدثون ثم المتأخرون والعصريون (٤) . . . والشعراء
العباسيون يقسمون إلى طبقات .

فالطبقة الأولى من العباسيين هم مخضرمو الدولتين ، كابن هرمة وأبي دلامة
م ١٦١ هـ والحسين بن مطير وأبو حية النخعي وسديف بن ميمون ويحيى بن زياد
وأبو الهندي وابن الخياط المكي (٥) وبشار م ١٦٧ هـ وصالح بن عبد القدوس
م ١٦٧ هـ أيضا (٦) وحماد مجرد م ١٦٨ هـ ومطيع م ١٦٩ هـ والسيد الحميري
م ١٧٣ هـ ومروان بن أبي حفصة (١٠٥ - ١٨١ هـ) ، ومن رجاها أبو نخيلة
السعدي ورؤبة م ١٤٥ هـ .

وقد تأثرت هذه الطبقة ولا سيما بشار بالفرس وحضارتهم تأثرا قويا وكان

(١) ٤٠١ الأدب العباسي لمحمود مصطفى

(٢) ٨٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب

(٣) ٤٥ تاريخ الأدب العربي للزيات

(٤) ٣١٠ و ٣١١ الريحانة

(٥) شاعر ظريف ماجن مدح المهدي (١٨/٩٤ الأغاني)

(٦) وفي الدميري أنه قتل عام ١٩٧ هـ (١/٢٧ الدميري) ولعله تحريف

تأثرهم يعلم اليونان قليلا بالقياس إلى من بعدهم . . . وزعيم هذه الطبقة بشار ، وهو أشهرهم وأشعرهم (١) ، فهو أستاذ المحدثين (٢) وتقدمه في طبقاتهم ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك يغني عن وصفه وإطالة ذكر محله (٣) ، وسمى أبا المحدثين لانه فقق لهم أكام المعاني ونهج لهم سبل البديع فاتبعوه (٤) ، وهو أستاذ المحدثين وبدرهم وصدرهم (٥) . . . ويجعل ابن رشيق أبا العتاهية م ٢١١ هـ من هذه الطبقة (٦) . والصواب عده من الطبقة الثانية .

والطبقة الثانية : نشأت في صدر الدولة ، ومن شعرائها : والبة م ١٧٥ هـ وسلم ١٨٦ هـ (٧) . والعباس بن الاحنف م ١٩٢ هـ ، وأشجع م ١٩٥ هـ ، وأبو الشيص م ١٩٦ هـ (٨) ، وأبو نواس م ١٩٨ هـ (٩) ، والحكم بن قنبر ، والفضل الرقاشي م ٢٠٠ هـ : وأبان م ٢٠٠ هـ (١٠) : ومحمد بن كناسة م ٢٠٧ هـ : وعلى بن جبلة العكوك (١٦٠ — ٢١٣ هـ) ، وبكر بن النطاح ، ومحمد بن بشير الرياشي : وأبو سعيد الخزومي (١١) ؛ والعتابي م ٢٢٠ هـ ، وعمار بن عقيل م ٢٤٠ هـ ؛ ومنصور النيرى (١٢) ، ومسلم بن الوليد م ٢٠٨ هـ : وأبو العتاهية م ٢١١ هـ ؛

(١) ١/٨٣ العمدة (٢) ٢٥٠ المـرشح (٣) ٢/٢٠ الاغانى

(٤) ٢/١٣٦ زهر (٥) ٨٤ خاص الخاص (٦) ١/٨٣ العمدة

(٧) ويعده بعض النقاد من الطبقة الأولى (٨٣ / ١ العمدة ، ٢٨٠ العصر العباسى للسباعى ييوى)

(٨) راجع ترجمته في ٢٤٥ — ٢٤٨ ٧/ مذهب الاغانى .

(٩) وفي الديميرى (١/٤٣) أنه توفي عام ١٩٤ هـ

(١٠) ترجمته في ١ — ٥٢ الأوراق قسم أخبار الشعراء

(١١) تليذ العتابي وراويته ووصف اسحاق الموصلى شعره وشعر مسلم أمام

الفضل بن يحيى وصفا رائعا

(راجع ٦٥ — ١٣/٦٩ تاريخ بغداد)

(١٢) بغدادى كثير الشعر جيده ، ومدح المأمون (١/٥٧٨ سمط اللآلى ، ٢٦٠

معجم الشعراء ، ١٣٩-١٤٠ طبقات ابن المعتز ، وفي الأمالى قصيدة لامية له (١/٢٥٩ الأمالى)

ودعبل (١٤٨ - ٢٤٦ هـ) وهو ساقتهم (١) ؛ وعوف بن عجم الخزاعي م ٢٤٨ هـ ،
والحسين بن الضحاك م ٢٥٠ هـ ، وليس فيهم نظير أبي نواس وليس يفضل عليه
مولد سوى بشار (٢) ، واشتهر منهم أبو العتاهية ، وكان شيخ الطبع (٣) ؛ وكان
غزير البحر لطيف المعاني سهل الألفاظ كثير الاقتنان قليل التكلف إلا أنه كان
كثير الساقط المرذول وهو وبشار والسيد أطبع الناس (٤) ، ويقول فيه ابن
الأعرابي : ما رأيت أجمع ولا أقدر على بيت شعر منه وما أحسب مذهبه إلا ضربا
من السحر (٥) ، وقال الأصمعي (٦) : شعره كساحة الملوك يقع فيها الجوهرو والذهب
والتراب والخزف ، وروى أبو حاتم عن أصحابه : لو أن طبع أبي العتاهية بجزالة
لفظ لكان أشعر الناس ، وشعره كالماء الجاري رقة ألفاظ ولطافة سبك (٨) ،
والبارد في شعره كثير (٩) ويقول المبرد فيه : وهو حسن الشعر قريب المأخذ ..
وزعيم هذه الطبقة أبو نواس وتجده له من بهجة اللفظ ودقيق المعنى ما يتحير فيه (١٠)
ويقول فيه النظام : كأنه جمع له الكلام فاختر أحسنه (١١) ؛ وامتاز بفحش
مجونه وتصويره لأخلاقه ولييئته ووصفه الخمر ؛ وهوثاني بشار في منزعه لفظا ومعنى
وبعد هذه الطبقة يختلف النقاد :

- ١ — ففريق يجعل أبا تمام م ٢٣١ هـ والبحترى م ٢٨٤ هـ وابن الرومي م ٢٨٣ هـ
وابن المعتز م ٢٩٦ هـ طبقة واحدة هي الطبقة الثالثة التي خلفت طبقة أبي نواس (١٢)
ويقول ابن رشيق طبقة حبيب والبحترى وابن الرومي وابن المعتز طبقة متداركة
وتلاحقوا وغطوا على من سواهم حتى نسي معهم بقية من أدرك أبا نواس ولم يذكر
من أصحاب ابن الرومي وابن المعتز إلا من ذكر بسببهما في مكتبة أو مناقضة (١٣)
- ٢ — وفريق يقسم هؤلاء ومن عاصرهم طبقتين فيجعل في الطبقة الثالثة : أبا تمام

-
- (١) ويعدده بعض الباحثين في الطبقة الثالثة (٤٠٢ الأدب العباسي لمحمود مصطفى)
 - (٢) ١/٨٣ العمدة (٣) ١/٨٢ العمدة (٤) ٣/١٢٢ الأغاني
 - (٥) ٣/١٢٧ الأغاني (٦) ٣/١٤٠ الأغاني (٧) ٣/١٥٢ الأغاني
 - (٨) ٦٨ المثل السائر (٩) ٥٩ صناعتين
 - (١٠) ١٧٢ إعجاز القرآن للباقلاني (١١) ٧/٢١٤ مذهب الأغاني
 - (١٢) ١/٨٣ العمدة (١٣) ١/٨٣ العمدة

(١٩٠ — ٢٣١ هـ) ، وديك الجن (١٦١ — ٢٣٥ هـ) ، ومحمود بن الحسين الوراق م ٢٣٠ هـ ، وعبد الصمد بن المعتدل م ٢٤٠ هـ وأخوه احمد ؛ والحدوني إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصري ، وأبا العميشل كاتب ال طاهر م ٢٤٠ هـ ؛ والعطوى وعلى بن الجهم م ٢٤٩ هـ ، ويجعل في الطبقة الرابعة : محمد بن اسحق الصيمري ، وعلى بن يحيى المنجم م ٢٧٥ هـ ، وابن الرومي (٢٢١ — ٢٨٣ هـ) ؛ والبحترى (٢٠٥ — ٢٨٤ هـ) ؛ وأبا العباس الانبارى م ٢٩٣ هـ ؛ وابن المعتزم ٢٩٦ هـ ؛ والبسamy م ٣٠٢ هـ ؛ والخيز أرزى م ٣١٧ هـ (١) .

٣ — وفريق يقسمهم ثلاث طبقات : فيجعل في الثالثة أبا تمام وديك الجن ودعبل وابن الجهم ؛ ويجعل في الرابعة البحترى وابن الرومي ؛ وفي الخامسة ابن المعتز والبسamy (٢) ؛

وفي العصر العباسي الثالث والرابع اشتهر من المشاركة السلامي م ٣٣٩ هـ ، وابن نباتة السعدي م ٤٠٥ هـ ، والشريف الرضي م ٤٠٦ هـ ، ومهيار م ٤٢٨ هـ ؛ وكانوا في بغداد. كما اشتهر في أمصار العراق أبو طالب المأموني م ٣٨٣ هـ ، والبستي م ٤٠٠ هـ ، وصردر م ٤٦٥ هـ ، والباخرزي م ٤٦٧ هـ ، والطغراني م ٥١٣ هـ ، وابن التعاويني م ٥٣٨ هـ ، والأرجاني م ٥٤٤ هـ ، والايوردي م ٥٥٧ هـ

كما اشتهر من شعراء الشام ومصر: المتنبي م ٣٥٤ هـ ، وأبو فراس الحمداني م ٣٥٧ هـ ، وكشاجم م ٣٨٠ هـ ، والسري الرفاء م ٣٦٦ هـ ، والوأواء الدمشقي م ٣٩٠ هـ ، والبيضاء م ٣٩٨ هـ ، والنامي م ٣٩٩ هـ ، وأبو بكر محمد الخالدي م ٣٨٠ هـ ، وأبو عثمان سعيد الخالدي م ٤٠٠ هـ . ثم المعري م ٤٤٩ هـ ؛ وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦ هـ ؛ وابن حيوس م ٤٧٣ هـ ؛ وابن الخياط الدمشقي م ٥١٧ هـ ؛ وابن الساعاتي م ٦٠٤ هـ وابن قلاقس الاسكندري م ٥٣٢ هـ ، وابن سناء الملك م ٦٠٨ هـ ، وابن النبيه م ٦١٩ هـ ، وابن الفارض م ٦٣٢ هـ ؛ وابن مطروح م ٦٤٩ هـ ؛ والبهاء زهير م ٦٥٦ هـ

(٣) ٤٠٢ الادب العباسي لمحمود مصطفى ، ٤٣ العصر العباسي الاسكندري

(٤) ٣٨٠ العصر العباسي للسباعي بيومي

من أئمة الشعر العباسي

كان أبرز شعراء القرن الثالث أبو تمام والبحترى وابن الرومي وابن المعتز .
وقد علت نما سبق طبقتهم الشعرية .

كان أبو تمام وابن الرومي يتعمقان في الثقافة وينزعان إلى التفكير ويؤثران
المعاني العميقة والآراء البعيدة في الشعر ، وكان أبو تمام مع ذلك يتخذ الشعر صناعة
فنية دقيقة فهو يختار ألفاظه وأسلوبه اختياراً دقيقاً ، ويصوغه صياغة خاصة
مصبوغة بألوان الترف والزخرف وأصباغ البديع المتعددة التي عرفها شعراء القرن
الثالث بذوقهم وعقلهم ؛ من حيث كان ابن الرومي قانعا بالغوص على المعاني دون
التفات أو إيثار لألوان الجمال في الأسلوب ؛ أما أبو عبادة البحرى فقد كان قريباً
في أفكاره واضحاً في أسلوبه ، يحب الصنعة ولكنه يؤثر منها ما كان موافقاً للقطرة
العربية السليمة وللذوق الأدبي الخالص الذي لم تفسده آثار الحضارة وألوان الثقافة
ومذاهب الصنعة في الشعر ، وكان شعره صورة لهذا الاتجاه دون ما سواه ؛ أما ابن
المعتز فقد شغف بصناعة الشعر شغفا شديداً ، فتأنق في ألفاظه وفي ألوان البديع
وأصباغ الزخرف التي وشى بها شعره ، وعنى بذلك عناية كبيرة ، ومع ذلك فإنه لم
يغفل نزعات التفكير التي كان يدفعه إليها عقله وبيئته وألوان الثقافات التي امتزجت
بالحياة العقلية في هذا العصر الخصب ، فكان شعره صورة عامة لمدرسة أبي تمام
ومدرسة البحرى ، ومثلها أدق تمثيل ، مع ظهور شخصيته ووضوح أثره في الحياة
الأدبية وتطور الشعر في عصره . . ونحن بعد ذلك لا غنى لنا عن عرض آراء النقاد
في أبي تمام والبحترى وابن الرومي عرضاً واسعاً يوقفنا على اتجاه ومنهج كل شاعر
في التفكير والنتاج .

أما أبو تمام فشاعر مبدع ألقى إليه زعامة الشعر من جميع الشعراء في عصره
وآثر في نظم الشعر تجويد المعنى ودقته ، فكان د لطيف الفطنة دقيق المعاني غواصاً
على ما يستصعب منها (١) ، وهو د متكلف إلا أنه يصيب ، وشغله المطابقة والتجنيس
جزل المعاني ، مدحه ورنائوه لاغزله وهجاؤه ، وطارت له أمثال وحفظت له أقوال (٢) ،
د ولا يتعلق بجيده جيد أمثاله ورديته مرذول مطروح (٣) ، د وكان صاحب طريقة
مبتدعة ومعان كاللؤلؤ متبعة (٤) ، د وهو رأس في الشعر ومبتدىء لمذهب سلكه

(١) ١٦٨/٧ مذهب الأغاني . (٢) ٢٤٩ رسائل البلغاء من رسائل الانتقاد

لابن شرف (٣) ٢ الموازنة (٤) ١٦٦ رسالة الغفران

كل محسن بعده فلم يبلغه فيه (١) ، ، وقد شغف بجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب وبالصنعة وقصد البديع فهو أكثر الشعراء بديعا وافتنانا وصنعة في شعره إلا أن مصنوعه جيد يشبه أن يكون مطبوعا ولحلاوة شعره ودقة أسلوبه خفيت الصنعة فيه كثيرا ، وهو من المعروفين بجودة الرثاء (٢) ، ، ولم يكن له حلوة توجب له حسن التغزل (٣) ، وكان يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك في شعره (٤) ، وكان يأتي في شعره برد الإعجاز على الصدور لا يأتي به إلا شاعرا متصنعا كحبيب ونظرائه (٥) ، وقصيدته متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل ؟ محشوة بالصنعة وتكلف فيها ألوان البديع مما عيب هو وأشباهه عليه (٦) ، وشعره مباين للشعر في عصره مباينة واضحة من حيث تصويره للشعر وشدة أخذه نفسه بتجويد المعنى ووحدة القصيد وفي كلفه بوصف الطبيعة وميله إلى المعاني الفلسفية يضمنها شعره أيا كان الموضوع الذي ينظم فيه ، ويرى بعض المحققين أنه يجيد في هذا المعنى وذاك ولكنه لا يعرض عليك العالم كله في حالة من الحالات (٧) ، ويرى آخر أن أبا تمام لا يعد في نظر أهل العصر الحاضر مثالا أعلى للشعر لأنه لم ينقل في شعره كثيرا من صور العواطف التي كانت تجيش بصدر المجتمع في ذلك الحين ولم يمثل الحياة القومية في عصره تمثيلا صحيحا ولم يكن كآبي العلاء حرا في إبداء ما يحتاج بنفسه من المعاني ولا شجاعا في بيان ما يعتقد حقا (٨) . ومهما يكن فقد كان أبو تمام رأس طبقة ، وأصل هو والبحتري في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد كما يقولون ، وتلذذ عليه كثيرون كالبحتري وسواه ، وكان البحتري يقدمه وكذلك ابن الرومي (٩) ، ولم يدركه ابن المعتز وإن كان تلذذ على أدبه وشعره .

وأما البحتري فتلميذ أبي تمام ، وكان يتشبه به في شعره ، ويجذو جذوه في البديع وكان يراه صاحبا وإماما (١٠) ، ترسم خطا أبي تمام ومضى على أثره في البديع إلا أنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى (١١) ، استمد

(١) ٣٧ أخبار أبي تمام للصولي . وراجع رد الأمدى عليه في ذلك ص ٦ من

الموازنة (٢) ٢/٢٤١ العمدة (٣) ٢/١١٣ العمدة (٤) ١/١٨٢ العمدة

(٥) ١/١٨٣ العمدة (٦) راجع ١٩٥ إعجاز القرآن

(٧) راجع مقالة للعقاد في الرسالة عدد ٤٥٨ (٨) ص ٨ مقدمة مختصر شرح

ديوان الحماسة (٩) ٦٥ أخبار أبي تمام (١٠) ٧/١٨٣ مذهب الأغاني

(١١) ٣٠٢ المثل السائر

معانيه من وحى الخيال وجمال الطبيعة لا من آراء العلم وقضايا المنطق والفلسفة، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته ورونقه حتى قال المتنبي فيه « أنا وأبو تمام حكيان والشاعر البحترى » ، ويشيد النقاد بعذوبته وجمال لفظه وأسلوبه (١) ، وهو في عذوبة اللفظ وسهولته يسبق في هذا الميدان ، والكتاب يفضلون كلامه على كل كلام ويقدمون رأيه في البلاغة على ما وصفه :

في نظام من البلاغة ما شك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك في رونق الربيع الجديد
حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنين ظلمة التعقيد
وركن اللفظ القريب فأدركن به غاية المرام البعيد (٢)

وهو من المكثرين في وصف الخيال المجيد في (٣) ، وأحسن الناس طريقاً في العتاب (٤) ، وكان بعض النقاد يختم به الشعراء (٥) ونوه به الآمدي في الموازنة أعظم تنويه (٦) ، وكان يذكر أن أجود شعره « أهلاً بذالك الخيال المقبل » (٧) ، وكان ابن المعتز يشيد بشاعريته وبقصيدته في وصف إيوان كسرى وقصيدته في وصف بركة المتوكل واعتذارياته (٨) ، وكان الصاحب يعجب بطريقة شعراء الشام المثلى التي هي طريقة البحترى في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة (٩)

ولنأى يوازن شعر البحترى بشعر شاعر من طبقتهم ومن هو في مضماره أو في منزلته (١٠) ونحن نفضل البحترى بديباجة شعره على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه، ونقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقيدته في قوله (١١) ، والكتاب يفضلون البحترى على أهل دهره (١٢) ، ويطلق الآمدي في الموازنة

(١) راجع : ٢٤٩ رسائل البلغاء ، ٧٣ أخبار أبي تمام للصولي ، وكان يقال لشعره سلاسل الذهب (١/٣٧٨ كشف الظنون) . وكثر الغناء في شعره استظرافاً لما فيه من الحلاوة على طبع البداوة (١/١٢٨ العمدة)

(٢) ١٠٠ إعجاز القرآن (٣) ٩٩ ديوان الصبابة لأبن حجلة .

(٤) ٢/١٥٢ العمدة (٥) ٧/١٨٣ مذهب الأغاني (٦) راجع الموازنة ،

١/٢٠٥ العمدة (٧) ١٧٥ إعجاز القرآن (٨) راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز

(٩) ١/٩ اليتيمة (١٠) ١٩٠ إعجاز القرآن (١١) ١٩١ المرجع

(١٢) ١٩٢ المرجع

بينه وبين أبي تمام (١) .

وقد ترجم للبحترى ابن المعتز فى كتابه طبقات الشعراء ترجمة موجزة (٢) ، وكان يشيد بشاعريته وبسنيته فى إيوان كسرى وهائيته فى بركة المتوكل (٣) ، وكان ابن المعتز يجتمع به ويجلس معه (٤) .

وأما ابن الرومى فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع ، وكان واسع العطن لطيف الفطن (٥) ، وهو أشعر أهل زمانه بعد البحترى وأكثرهم شعرا (٦) ، ويمتاز بطول نفسه فى قصائده (٧) ولم يجعل اللفظ شغلا شاغلا فى صناعته (٨) ، وكان من مختلفى معانى الشعر (٩) وهو أولى الناس باسم شاعر (١٠) ، وهو غريب الأخذ (١١) ، ويرى صاحب الوساطة أن قصائده على طولها لا تعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين (١٢) وهو على أى جال شاعر مجيد وعلم من أعلام القريض فى القرن الثالث ، ويمتاز ابن الرومى بتفضيله للفظ على المعنى وباستقصائه واختراعه وتوليدته فى معانيه

كان ابن الرومى شاعرا مكتهل السن وابن المعتز ما يزال يافعا شابا ، وكان ذلك يضع ابن الرومى موضع الأستاذ لابن المعتز ، ولكن الأمير لم يبال به ولا تأثر تأثرا واضحا بشعره ، لأنه كان بين الشاعرين صلات مقطوعة ، فضلا عن تفاوت السن كان ابن المعتز سنيا وابن الرومى معتزليا . وكان ابن الرومى يحب المستعين ويكره المعتز ، كما أحب المهتدى وهجا المعتز قبل قتله . وكان لذلك

(١) راجع الموازنة وعلى الأخص ص ٢ و ١٨٠ و ١٨١ ويقول الآمدي إن النقاد لم يتفقوا على أيهما أشعر ص ٢ الموازنة .

(٢) ١٨٦ و ١٨٧ طبقات الشعراء لابن المعتز وله تراجم فى ٩٦ - ٣/١٠٣ وفيات ، ٧/١٨٣ وما بعدها مذهب الاغانى ، ٣٣٠ الموشح وما بعدها .

(٣) راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز (٥) ٦ مقدمة ديوان البحترى

(٤) ٢٤٩ رسائل البلغاء من رسائل الانتقاد لابن شرف .

(٦) ٢٨٩ معجم الشعراء (٧) ٣٠٨ ابن الرومى للعقاد

(٨) ٣١٦ المرجع (٩) ٤/٢١٤ المسعودى (١٠) ١/٢٥٥ العمدة

(١١) ٣/١٠٥ زهر ، وكان يأخذ الحكم الفارسية فينظمها شعرا

(راجع ٣/٢٧٨ زهر)

(١٢) ٥٤ الوساطة

ولا شك أثره في نفس الأمير ، فنقم على ابن الرومي واعتزله ، ورفض الاتصال به ، ولم يترجم له في كتابه طبقات الشعراء مع أنه ترجم للبحترى (١) ولأبي تمام (٢) ولأبي العيناء (٣) والناشئ م ٢٩٣ (٤) وسواهم .
وأما ابن المعتز فشاعريته وشعره مفصل في كتابي «ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان» .

بين أبي تمام والبحتري

١ — بزغت شاعرية أبي تمام في آفاق الأدب العربي في مشرق القرن الثالث الهجري ، فهتف الناس بها ، وأنصتوا إليها ، معجبين بهذا الرجل الذي سار بالشعر العربي في مضمار جديد ونهج غريب . ترك أبو تمام الحلبة التي جرى فيها الشعراء قبله ، وأخذ يتحدث عن العواطف البشرية والحياة الإنسانية بلغة تبيان اللغة التي ألفها الناس وتحدث بها قبله الشعراء والشعراء . لم يقف في المجال الضيق الذي وقف فيه الشعر العربي فترة طويلة قبل بشار وبعده ، بل أضاف إليه ثروة طائلة من شتى الآخيلة الرائعة والمعاني الدقيقة والحكم الإنسانية العليا ، فكان له قدم وطيدة في المعاني ، وإبداع نادر فيها ، وإغراب فيما يستنبطه منها ، وتجديد فيما يأخذه من مألوفها ، فهو حين يصف الغناء يصفه بلمحة جديدة مبدعة :

ومسمعة تقوت السمع حسنا ولم تصممه لا يصمم صداها
مرت أوتارها فشجت وشاقت فلو يستطيع سامعها فداها
ولم أفهم معانيها ولكن وزت كبدي فلم أجعل شجاها
وحين يتحدث عن الغيث يتحدث عنه بنغمة ساخرة آخذة :

ديمة سمحة القياد سسكوب مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لإعظام أخرى لسمي نحوها المكان الجديب
لذ شؤبوها وطاب فلو تس طيع قامت فعانقتها القلوب
كشف الروض رأسه واستسرا محل منها كما استسر المريب

وحين يتحدث عن صلات الأدب التي تؤلف بين الأدباء ، يتحدث وكأن معه لسان كل أديب وعاطفة كل شاعر :

(١) ١٨٦ طبقات ابن المعتز (٢) ١٣٣ المرجع (٣) ١٩٦ المرجع

(٤) ١٩٨ طبقات الشعراء لابن المعتز

إن يكد مطرف الإخاء فإننا نسرى ونغدو في إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فؤنا عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب ، يؤلف بيننا أدب أقنائه مقام الوالد
وحين يشيد بذكر رجل تشيد معه الدنيا بذكره :

جهم التواضع والدنيا بسودده تكاد تهتز من أطرافها صلفا
وحين يبكي الراحلين من أحبابه ويصف عصف النوى بنفوسهم ومغانيمهم ،
يبعد حتى لكان الناس جميعا تبكيهم معه ، فيقول :
شهدت لقد أقوت مغانيمكم بعدى ومحت كما محت وشائع من برد
وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيأدمع أنجدنى على ساكنى نجد
أو يقول :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتاداً عندها كل مرقد
فأجرى لها الإشفاق دمعاً مورداً من الدم يجرى فوق خد مورد
هى الشمس يغنيها تودد وجهها إلى كل من لاقت وإن لم تودد
ثم يستمر فى توقيع لحنه الرائع :

ولكننى لم أحو وفرا جمعا قفزت به إلا بشمل مبدد
ولم تعطنى الأيام نوما مسكنا ألد به إلا بنوم مشرد
وهو حين يبكى المجد الآفل والبطولة الشهيدة تبكى معه الإنسانية جميعا :
كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح فى شغل عن السفر السفر

وهو بعد ذلك كله رجل مرفف الشعور مشبوب العاطفة قوى الأحساس بالجمال
تتجلى هذه الصفات جميعا فى أسلوبه الشعرى ، فهو صاحب صنعة يطلبها ليرضى بها وجدانه
ومشاعره وذوقه فتجنيته بعد نصب أحيانا وعفو الخاطر أحيانا أخرى ، وهو فى أكثر ما يأتى
به منها مبدع مجيد . ثم هو لا يرضى لمعناه الغريب الساحر ، ولا لصنعة البديعة الآخذة
إلا أسلوبا عاليا قويا محكم النسيج ، يتأق فى إختياره وطلبه تأق المصور الماهر فى
اختيار الألوان التى يجرى بها ريشته ، ويبرز فيها لوحته .

ترجع هذه الروح الشعرية القوية التى تجلت فى شعر أبى تمام إلى أسباب بعيدة
من الدم والعنصر ، وأسباب قريبة من البيئة والثقافة . فأبو تمام رجل آرى نشافى

بيئة عربية فكان له من العقلية الآرية حظ ومن الخيال السامي نصيب . يؤيد رأى هذا تلك الرواية التي ذاعت عن أبي تمام في عصره وتناولها علماء الأدب بعد عصره ، كالصولي والآمدى وابن خلكان (١) وياقوت وسواهما ، وهى الرواية التي تؤكد لنا أن أبا تمام ولد فى الشام من أب نصرانى اسمه (تدوس) . ولما نشأ فى طيء ادعى نسبه فيهم وحرف اسم والده فصار دأوسا ، وإذا نظرنا إلى الشعراء الذين ساءت علاقاتهم بأبي تمام كخلد بن بكار الموصلى والوليد ، وجدناهم يتهمون بدعوة أبي تمام تهكلا ذعا ساخرا . ألا نسمع قول خلد فيه :

أنا ما ذنبى اذا خا لفتى فيك الانام
أنت عندى عربى عربى والسلام
أو قوله أيضا : ويحك من دلاك فى نسبة
إن ذكرت طاء على فرسخ
أظلم فى ناظر ك النور
أو قول الوليد فى التهم به :

دع الهجاء فان الله حرمه واقصد إلى الحق إن الحق متسع
واذكر حبيب بن أوشونا ودعوته فان طيا اذا سبو إبه جزعوا

ألا تراه يؤكد ذلك وينبه على أنه يتكلم كلمة حق ؛ وأن فى الحق ميدانا متسعا للنقد والتهم ، وألا ترى الوليد يظهر لنا طيا فى صورة الجزع المألوع إذا ما ذكرت بدعوة أبي تمام فيهم ! ولا يضيرنا هذا التغاير فى اسم والد أبي تمام وسواء أكان تدوس أم أوشونا فإن الغاية واحدة ؛ والعربى كثيرا ما ينطق الاسم الأعجمى نطقا بعيدا عن أصله ومحرفا عن حقيقته . ثم ألا يكون لنا من ذلك دليل ملموس يؤيد ما نذهب إليه ؟ على أننا لا ننكر أن تخرج الروح العربية السامية شاعرية كشاعرية أبي تمام ، ولكننا نقول : إن عقلية أبي تمام العربية قد أتت بالبدع العجيب ، وسما بها أن لقحت بثقافة أخرى استمدها الشاعر من عناصر الدم والجنس الذى كان له مظاهر نفسية وفكرية فى عقل أبي تمام فخرج فى ذكائه النادر وعقليته الناضجة وملكاتة الشعرية الخصبة . . . ثم وراء هذا السبب أسباب قريبة تأثرت بها روح أبي تمام وتلونت بألوانها : فنشأته فى طيء وثقافته بثقافتها العربية ، وسطوع نجم الأدب والشعر فى عصره حين كان الأدب عامة والشعر خاصة سمر المجالس وحديث الخاصة ووسيلة الثروة والجاه والمجد ، ثم إقباله على الأدب

والشعر يروى ظمأً ونهمه من مشارعها العذاب ؛ كل تلك الأسباب ساعدت على السمو بشاعرية أبي تمام إلى الذروة ، وبلوغها الغاية التي ينشدها الشعراء . ؛ حتى كان لها الأثر البالغ في الأدب والشعر في عهد أبي تمام وبعده ، وحتى شغل بها الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم ومذاهبهم ؛ ولقد بلغ من أثرها أن كان الشعراء لا يستطيعون أخذ جائزة إلا بأذنه ، ولا ينالهم خير إلا بسببه ؛ وكان جميع الشعراء في عصره يعترفون بشاعريته ويقرون بأستاذيته ، ويقتفون أثره في صنعته ونهجه الشعري (١) ، وجرى على وتيرته الشعراء بعده ، فنهلوا من منهل ، وساروا على طريقتة ، كابن المعتز (٢) والمتنبي وسواهما .

ب — وشاء القدر أن يظهر في عهد أبي تمام وعلى يديه ومن قبيلائه طيء ، شاعر مطبوع : هو أبو عبادة البحتري ، الذي نهج السبيل المعبدة التي نهجها الشعراء قبله ، وآثر مذهب العرب الشعري الموروث على مذاهب المحدثين المبتدعة ، فعنى باستواء النظم ، وصحة الشبك ، وحلاوة اللفظ ، أكثر مما عنى بالمعاني والغوص على نافرها البعيد ، فخرج شعره ساحر الروق ، صحيح الطبع ، قريب المعاني واضحا قريبه من مذهب العرب الشعري وأسلوبهم فيه ، أو كما يقول البحتري نفسه :

ومعان لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول وليد
حزن مستعمل الكلام اختياراً ونجنين ظلة التعقيد
وركن اللفظ القريب فأدرک ن به غاية المرام البعيد

حتى قال الناس : « نظم البحتري (٣) ، واتخذوه مثلاً ، وحتى قيل فيه إنه آثر اللفظ (٤) على المعنى وأراد أن يشعر فغنى ، وقيل : « أعراب الشعر وما فارق عموده ، . وقد قال البحتري عن مذهبه هو ومذهب أبي تمام في الشعر : « أبو تمام يغوص على المعاني ، وأنا أقوم بعمود الشعر ، . وملك البحتري إمارة الشعر في عهده كما ملكها أبو تمام من قبل ، حتى روى أنه أخل خمسمائة شاعر (٥) في زمنه ، وذهب بجاه الشعر ومجده دون كثير من الشعراء ، واتبعه في نهجه الشعري معاصروه ومن بعدهم من الشعراء .

(١) ويقول فيه صاحب الوساطة : وأراه قبلة أصحاب المعاني وقدوة أهل البديع . (٢) ٢٦٢ أسرار البلاغة . (٣) اليتيمة . (٤) ابن الأثير ص ٣٠٤ . (٥) ١٣٥ وساطة و ٥ موازنة .

ج — أثر الشاعرين في النقد الأدبي : ودفعت نقاد الشعر وعلماء إلى العناية بشعر الطائيين أسباب كثيرة : من اتحاد بيئة الشاعرين وتقارب عصرهما ، وغزارة شعرهما وجودته ، وسمو إلهامهما ، وتباين نهجيهما فيه ، فدرس الأدباء والنقاد شعر الرجلين في عصرهما وبعد عصرهما ، وعنوا بنقده ، ولجوا في الموازنة بينهما وتفضيل أحدهما على الآخر ، وتعصب لهذا فريق ولذاك فريق ؛ فأما من تثقف بالثقافة العربية المحضة ، وطبع طبعه على حبها ، واكتسب الأدب بذوقه ، فلم ير الشعر إلا لامرئ القيس والنابعة ، أو لجريز والفرزدق ، أو لبشار وأبي نواس ، وأثر منه ما كان كثير الماء صحيح الطبع قريب المأخذ والمعاني ، مستوى الأسلوب غير مستكره اللفظ ولا معقد التراكيب . كأبي سعيد الضير الشاعر وأبي العميشل شاعر آل طاهر م ٢٤٠ هـ وكالمبرد م ٢٨٥ هـ والآمدى م ٣٧١ هـ فهؤلاء أثروا البحرى وقدموه ، ودفعوا أبا تمام عن بلوغ غايته ؛ وأما من تزود مع الثقافة العربية بنصيب من الثقافات الأخرى فأقبل عليها يدرسها ويتأثر باتجاهها ومنحأها العقلى ، ومال إلى الفكرة البعيدة والمعاني الغربية والمثل السائر والحكمة البليغة ، فقد أثر أبا تمام وفضله وتعصب له ، كالصولى وقدامة (١) ، وكهمارة ابن عقيل وسواهم ، على أننا نجد طائفة قد تعصبت على الرجلين معا ، وهم الذين لجوا في معاداة المحدثين وشعرهم ولم يروا الشعر إلا ما كان قديما جاهليا أو إسلاميا أمويا ، وختموا سجل الشعراء بأبن هرمة وبشار ، وهم رواة اللغة والأدب الذين عكفوا على الشعر الجاهلى وما قرب منه جمعا ورواية ودراسة كالاصمعى (٢١٣ هـ) وابن الاعرابى ويحيى بن أحمد الشيبانى وسواهم ممن لا يرى لمحدث فضلا ولا يقر له باحسان ، يتهجون فى ذلك نهج أستاذهم أبى عمرو بن العلاء الذى كان لا يحتج بيت إسلامى ، وكان يقول فى شعر جرير والفرزدق : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبيانا بروايته ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للبتقدمين ؛ وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا اليه وما كان من قبيح فهو من عندهم — ٧٣ ج ١ عمدة ٢٠٩ ج ١ بيان — . ألا ترى ابن العربى الاعرابى ينشده الطوسى أرجوزة هى لأبى تمام فيستحسنها ويستجيدها ويأمر بكتابتها وهو لا يعرف أنها له ، فلما أخبره أنها لأبى تمام ذمها وأسقطها وقال : خرق يا غلام ! وهكذا كان المتعصبون على أبى تمام أحد رجلين : رجل لا يدفع فضل المحدثين

(١) ألف كتابا فى الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام

ولكنه يؤثر اللفظ والأسلوب على المعنى والإغراق فيه والعناية باستنباط لطيفه ؛
ورجل نغم على أبي تمام مكانته فراح يطعن فيه ويتعصب عليه كدعبل ، ولم يعدم
المتعصبون على أبي تمام وله حجة يؤيدون بها آراءهم وحكمهم ، وأخذت حركة
النقد تستمر ، وأخذ المؤلفون يؤلفون الكتب في نقد الشعارين وتفضيل أحدهما ،
فألف ابن المعتز (م سنة ٢٩٦ هـ) رسالة في محاسن شعر أبي تمام ومساويه ، وألف
أبو العباس القطريلي (١) كتابا في إحالة أبي تمام وخطئه ، وألف أحمد بن طاهر
سنة ٢٨٠ هـ واحمد بن عمار في سرقاته ، كما ألف أبو الضياء بشر بن تميم كتابا في
سرقات البحترى وأبي تمام ، وفي القرن الرابع ألفت كتب كثيرة في هذا الموضوع
أهمها أخبار أبي تمام لأبي بكر بن محمد بن يحيى الصولي م سنة ٣٣٦ هـ أشاد فيه بأبي
تمام ورفع مكانته وتعصب له وقدمه ، وكتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن
ابن بشر بن يحيى الأمدى م سنة ٣٧١ عرض فيه شعر الشعارين على ميزان النقد ،
ثم وازن وناقش وحكم ، جانحا الى إثارة البحترى وتفضيله ، ولم تخل أمهات كتب
الأدب وأصوله كالأغاني والمزباني ومعجم الأدباء وسواها من الكتب من الكلام
على الشعارين وشعرهما وإثارة حركة النقد والموازنة بينهما .

موزانات بين قصائد من الشعر العباسي

وهذه موزانات أدبية جديدة بين هؤلاء الشعراء الأربعة : أبي تمام والبحترى
وابن الرومي وابن المعتز ، حيث ندرس كثيرا من الآثار الأبية التي تجمعها وحدة
واضحة في الغرض أو في الاتجاه ؛ لنكون من هذه الدراسة رأيا صحيحا في أحكامنا
الأدبية على هؤلاء الشعراء .

١ — قال أبو تمام في الغيث :

ديمة سمحة القياد سكوب	مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لإعظام أخرى	لسعى نحوها المكان الجديب
لذ شؤبوبها وطاب فلو تسطيع	قامت فعاقتها القلوب
فهي ماء يجرى وماء يليه	وعزالي (٢) تنشا وأخرى تذوب
كشف الروض رأسه واستسر	المحل منها كما استسر المريب

(١) ٦٢ موازنة . (٢) جمع عزلاء : مصب الماء من الراوية ونحوها .

فإذا الرى بعد محل وجرجا ن لديها يبرين أو مملحوب
أيها الغيث حى أهلا بمغدا ك وعند السرى وحين تؤوب
وقال ابن الرومى :

سحائب قيس بالبلاد فأفانيت
حدثها النعائم مثقلات فأقبلت
غيوث رأى الإحمال فيها حمامه
أظلت فقال الحرث والنسل هذه
فأطفأ نيران الغليل مواطر
وقال البحتري :

ذات ارتجاز بحنين الرعد
مسفوحة الدمع بغير وجد
جاءت بها ريح الصبا من نجد
فراحت الأرض بعيش رغد
وقال ابن المعتز :

وغيث خصب الترب تندى بقاعه
رحيب كوج البحر يلثم الربا
ألحت عليه كل طخياء ديمة
فما طلعت شمس النهار ضحية
كأن الرحاب الجون والفجر ساطع
وقال أيضا :

وسارية لا تمل البكا
سرت تقدح الصبح فى ليلى
فلما دنت جاجلت فى السما
ضمان عليها ارتداء اليفصاع
فما زال مدمعها باكيا
فأضحت سواء وجوه البلاد
جرى دمعها فى خدود الثرى
برق كهنديّة تنضى
رعدا أجش كجر الرحا
بأنوارها واعتجار الربا
على الترب حتى اكتسى ما اكتسى
وجن النبات بها والشقى
فتجد لأبى تمام الأسلوب الجيد والتصوير الجيد والاستعارات الرائعة والمعاني

المبتكرة والمبالغة المقبولة والشعور العميق بأثر الغيث في الأرض وحاجة الأرض للماء . ونجد ابن الرومي يصف الغيث بالكثافة والإطباق وكثرة الماء وحاجة الأرض إليه ، مع تقصير عن أبي تمام في التصوير والوصف والاسلوب ، ومع اعتماد عليه وأخذ من معانيه كما نراه في بيته الذي قبل الأخير . وتجد للبحتري أسلوبه الجميل وصياغته الفنية ولسكنك لا تحس بأثر لشخصيته فيما وراء الاسلوب من معنى وتصوير وخيال ، بل هو في ذلك مقلد كسواه من الكثير من الشعراء . ولسكنك تجد ابن المعتز قد ازدحمت في أسلوبه الصياغة الفنية الدقيقة والصور الشعرية الكثيرة التي تغلب عليها روح الإيجاز وجزالة الاسلوب في قطعه الأولى وعذوبته في الثانية مع جمال التشبيه والاستعارة والطباق ، وهو في قطعه الثانية يقف بجانب أبي تمام في المعاني والتصوير وظهور أثر شخصيته الواضحة في الاسلوب والتعبير .

٢ — وقال أبو تمام في ذكرى فراق أحبابه له :

نسائلها أى المواطن حلت	وأى بلاد أوطنتها وأيت ؟
وماذا عليها لو أشارت فودعت	الينا بأطراف البنان وأومت
وما كان إلا أن تولت بها النوى	فولى عزاء القلب لما تولت
فأما عيون العاشقين فأسخنت	وأما عيون الكاشحين فقرت
ولما دعانى البين وليت إذ دعا	ولما دعاها طاوعته ولبت
فلم أر مثلى كان أوفى بعهدا	ولا مثله لم ترع عهدي وذمتى

ويقول في موقف الوداع :

أما وقد كتمتهن الخدور ضحى	فأبعد الله دمعاً بعدها اكتما
لما استحر الوداع المحض وانصرمت	أواخر الصبر إلا كاظماً وجماً
رأيت أحسن مرئى وأقبحه	مستجمعين لى : التوديع والعنما
فكاد شوقى يتلو الدمع منسجماً	إن كان فى الأرض شوق فاض فانسجماً

وقال ابن الرومي :

لست أنسى امتناع صبرك للتو
ديع والبين مؤذن بشتات
وانحدار الدموع كاللؤلؤ الرطب
هوى من مدامع قرحات
والنفاسا نحوى وقد قبضتنى
عنك أيدى الفراق حال التفاتى
ومقالا جرى وللشوق فى الأحشاء
نار أليمة الحسرات
(٦ — الحياة الأدبية)

حاطك الله بالكلاءة والصنع ووقاك أعين العائدات

وقال البحتري :

ما أرى البين مخليا من وداع أنفـس العاشقين حتى تبينا
وبود القلوب يوم استقلت ظعن الحى أن تكون عيونا
منزل هاج لى الصباية والشو ق قرينى فيه فساء قرينا
يوم كان المقام فى الدار شكا يبعث الحزن والرحيل يقينا

وقال :

قد أرتك الدموع يوم تولت ظعن الحى ما وراء الدموع
عبرات ملء الجفون مرتها حرق للفراق ملء الضلوع
إن تبت وادع الضمير فعندى نصب من عشيـة التوديع
وقال ابن المعتز :

لا مثل من يعرف العشاق حبهـم بل أنت من بينهم تشقى بمن تمق
نأوا بليل فزموا كل يعملة ويعمل جل فى أنفه الخلق
لنى وأسماء والحى الذين غدوا بها على الكره من نفسى وما وثقوا
لكالربيط وقد سيقـت قرينته ينازع الحبـل مشدوداً وينطلق
قطيروا القلب وجدا بين أضلهـه وعذبوا النفس حتى ما بها رـمق
ما أنس لا أنس إذ قامت تودعنا بمقلة جفنها فى دمـعها غرق
تفتر عن مقلة حمراء موقدة تكاد لولا دمـوع العين تحترق
كأنها حين تبدو من مجاسدها بدر تمزق أركانـه الغسق

فتجد أبا تمام يتصرف فى المعانى المعروفة تصرف حسنا ويصوغها صياغة قوية فيها صنعة كثيرة أظهرها المقابلة ، فهو فى البيت الأول يتساءل فى حزن عن الديار التى أمتها محبوبته مع بعض القبح فى تكرير د أى وأيت ، إذ لا فائدة لهذا التكرار ولا جديد وراءه . وفى البيت الثانى يتحسر لعدم توديع محبوبته له قبل سفرها البعيد ولو بإشارة عابرة بأطراف البنان ، ويصور فى الثالث حزنه لفراقها ، وكذلك فى الرابع إلا أنه يضيف فيه إلى ذلك فرح خصومه بهذا الفراق وفى البيتـين الأخيرين يصور وفاءه لعهد الحب وخيانتها لهذا العهد المقدس ، وكذلك هو فى أبياته الأخرى ، معان واضحة معروفة يلم بها الشاعر فى كثير من تعقيدـه الفنى فى صياغته وصناعته

الشعرية، ولكنك تجد لابن الرومي تصويراً بارعاً، ينطق عن شعور صحيح بألم الوداع، وإدراك صادق لأحزان الفراق، وتأثر واضح بهذه الساعات الحافلة بالذكريات، والتي يعز فيها على الأحباب الصبر، فتتحدّر الدموع من عيونهم القرحات، ويعزون أنفسهم بتتبع أبصارهم للحبيب الراحل حين رحيله، وبالثناء له بأن يحوطه الله بالرعاية، وأن يحفظ عليه شبابه وجماله، ويمنع عنه أذى الحاسدين والعائذات، وينزل البحترى عن هذه الدرجة العالية التي بلغها ابن الرومي في أبياته، فهو لا يشعر إلا بما يشعر به الناس، وإن أوتى عذوبة التعبير وجمال الأداء، بل إنه يخرج على أدب الحب فيعلن سخطه على حبيبه الراحل. وابن المعتز يصل في أبياته إلى درجة ابن الرومي ولكن يهبط به أنه لم يتناول موقف الوداع وتصويره ببساطة ابن الرومي وصدق تصويره، ولكنه على أى حال فوق أبي تمام والبحترى في قوة الشعور وتأجج العاطفة وظهور الشخصية ووضوح التصوير الذي يمتزج فيه الفن بالفكرة والشعور، ويتراءى في ثوب من العذوبة والترف لولا بيته الثاني الذي أضعفه بيمملته ويعمله الجمل كما يقول

٣ — وقال أبو تمام في الشيب :

فأبكي تماضراً ولعوبا	لعب الشيب بالمفارق بل جد
وما أن رأت شواتي خضيبا	خضبت يدها إلى لؤلؤ العقد
الفضيعين : ميتة ومشيبا	كل داء يرجى الدواء له إلا

وقال :

فلا يورقك إيباض القتير به فان ذاك ابتسام الرأي والأدب

وقال :

له منظر في العين أبيض ناصع ولكنه في القلب أسود أسفع

وقال ابن الرومي :

لكن بشير يحلى وجهه الكربا	قالوا المشيب نذير، قلت : لا وأبى
أن اللحاق بحب النفس قد قربا	أليس يخبر من أرمى بساحته
على الشيبية والعيش الذي نضبا	يا حسن هاتيك بشرى عند ذى أسف
من لم يحبب إليه فقد العطب	لم يرع حق شباب كان يصبحه

لو لم يجب حفظه إلا بأن له
أخى وإلنى وتربى كان مولدنا
يضمننا حجر أم فى رضاعتنا
ان الشباب لمألوف لصحبته
والشيب مستوحش منه لغربته
وقال :

لابدع أن ضحك القثير
فبكى لضحكته الكبير
وقال :

قد يشيب الفتى وليس عجيبا
وقان البحرى :

عيرتنى المشيب وهى بدته
لاتريه عارا فما هو بالشيب
ويياض البازى أصدق حسنا
وقال :

عدلتنا فى عشقها أم عمرو
وردأت لمة ألم بها الشيب
ولعمرى لولا الأفاهى لابصر
أى ليل ينهى بغير نجوم
وقال ابن المعتز :

صدت شرير وأزمت هجرى
قالت : كبرت وشبت ، قلت لها
وقال : إن شيب الرأس نور الهموم

وقال :

قد أنكرت مشيبا
ياهند ماشاب قلبي
وقال ::

رات أقحوان الشيب لآخ وأذنت
فقال: محاك الدهر فى صبغة الصبا
ملاحظات أيام الصبا بوداع
وكننت من الفتيان خير متاع

فنجده الصنعة تهجن من أبيات أبي تمام الأولى الثلاثة وتضع من قيمتها ، ثم تخفف
وطأة هذه الصنعة في الثلاثة الأخيرة فتعجبك ، وتعجب بها وباحتجاجه للشيب
مع شعوره بالحزن منه .

ولكنك تجد عند ابن الرومي عمق شعور بالشباب وحزن عليه ووفاء له ،
وعمقا في تصوير ذلك كله ، يفوق كل جد ، ويبلغ غاية الجمال ، ويملك عاطفتك
ويستبد باستخسانك واستجادتك ؛ مع تعليل للنفس في بيته الأخير . والبحترى في
أبيانه يحاول إقناع حبيبته أم عمرو بالرضا بحالته ومشيدته ، فاحتج بما أسعفه
بيانه وتفكيره بالاحتجاج به ، في أسلوب مألوف ومعان قريبة ؛ وبيانه
البازي ، قريب المعنى ، إلا أنه جميل التصوير صادقه ساذج التفكير سهل الاستنباط .
وأما ابن المعتز فينهج نهج أبي تمام والبحترى ولكنه لا يصل إلى مكانة ابن الرومي
في تصويره وتصويره للشباب والمشيبي .

٤ — وقال أبو تمام في الربيع :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر	وغدا الثرى في حليه يتكسر
يا صاحبي تقصيا نظر يكما	تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه	زهر الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا	حل الربيع فأنما هي منظر
من كل زاهرة تفرق بالندى	فكأنها عين إليك تحدر
حتى غدت وهداتها ونجادهما	فتتين في حلل الربيع تبخر
مصفرة محمرة ، فكأنها	عصب تيمن في الوغى وتمضر

وقال ابن الرومي :

أصبحت الدنيا تروق من نظر	بمنظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر	فالأرض في روض كأفواف الخبر
نيرة النوار زهراء الزهر	تبرجت بعد حياء وخفر

تبرج الأنثى تصدت للذكر

وقال البحترى :

أتاك الربيع الطاق يتال ضاحكا	من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غسق الدجى	أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها يرد الندى فكأنه	ينث حديثا كان قبل مكتما

فن شجر رد الريح لباسه
أحل فأبدى للعيون بشاشة
ورق نسيم الريح حتى حسبته
وقال ابن المعتز :

أفظر إلى دنيا ربيع أقبلت
وإذا تعرى الصبح من كافوره
والورد يضحك من نواظر نرجس
ويقول :

أناك الريح بصوب البكر
ونفرت الأرض عن جوهر
وقد عدل الدهر ميزانه
فلا فية حر ولا فية قر

فترى في قطعة أبي تمام شعورا واضحا قويا بجمال الربيع وحياته ومناظره
الغائنة ، وأسلوبا باهرا رائعا قوى التعبير والتصوير . ونجد كذلك عند ابن الرومي
شعورا وتصويرا صادقين للربيع والحياة والطبيعة فيه ، ولكنه ينزل عن أبي تمام
في سمو التعبير وجودته وروح الفن التي تشيع في أبيات أبي تمام .
أما أبيات البحترى فجميلة عذبة ممتازة في أسلوبها ولكن تنقصها الروح والحياة
وقوة الشعور التي تتدفق في أبيات أبي تمام وابن الرومي ، وتضعف من روح
البحترى فيها قيود الصنعة التي تغطي عليه وتضعف من شعوره فيها
وتجد عند ابن المعتز شعورا واضحا بالحياة وأسرار الطبيعة في الربيع ، إلا
أن أسلوبه ضعيف لا يبلغ أسلوب أبي تمام ، وأول أبياته مسروق من ابن الرومي

ه — ويقول أبو تمام في الفرس :

أو أدهم فيه كمة أمم
مخلق وجهه على السبق
فهو يسر الرواض بالنزق
صهلق (٢) في الصليل تحسبه
ويقول ابن المعتز :

(١) التخليق : التلطيخ بالطيب (٢) أى شديد الصوت (٣) أى شد

وسابح مساح ذو ميعه كأنه حريق نار تلتهب
تراه إن أبصرته مستقبلا كأنما يعلو من الأرض حذب
عارى النسا ينتهب التراب له حوافر باذلة ما ينتهب
تصافح الترب إذا ماركضت لكنهما مع الصخور تصطخب
تحسبه يزهى على فارسه وإنما يزهى به إذا ركب
أسرع من لحظته إذا ونا طوع من عنائه إذا جذب
يبلغ ما تبلغه الريح ولا تبلغ ما يبلغه إذا طلب
ذو غرة قد شدخت جهته وأذن مثل السنان المنتصب
وناظر كأنه ذو روعة وكفل ملسم ضافى الذنب
ومنخر كالكير لم تشق به أنفاسه ولم يخنها فى تعب
قد خاض فى يوم الوغى فى حلة حمراء تسديها العوالى بالقضب

فترى فى أبيات أبى تمام وصفا للفرس تطيف به الحوشية والغرابه لاسيما
فى بيته الأخير .

أما أبيات ابن الممتر فتفوق أبيات أبى تمام لكثرة معانيها وقوة تصويرها
والجدة فى أساليبها ، ولجمال استعارتها وتشبيهاتها الدقيقة مع المبالغة والعذوبة فى
الفاظها وأسلوبها مما يظهر بوضوح أمام النقد العادل النزيه
٦ — وإذا قرأت قطعة ابن الرومى فى وصف الأسد :

فما أسد جهم الحيا شتيمه (١) خبثنة ورد السبال غضنفر
التي جمع فيها كثيرا من المعانى والأوصاف التي تصور خلق الأسد وقوته أوضح
تصوير ، ثم قرأت قطعة البحتري فى الأسد :

غداة لقيت الليث والليث مخدر يحدد نابا للقسماء ومخلبا
والتي ألم فيها بطرف بما ذكره بشر بن عوانة فى رائيته فى الإسد (٢) ، مع جمال
فى الأسلوب وطلاوة فى السبك وجودة فى الصياغة وإن كانت معانيها واضحة
محدودة قريبة

(١) أى كريبه (٢) رواها البديع فى مقاماته ، وأولها :

أفاطم لو شهدت بطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذا لرأيت ليثا أم ليثا هزبرا أغلبا لاقى هزبرا
وهى قصيدة من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله

ثم قرأت قطعة ابن المعتز في الاسد :

وما ليث غاب يهدم الجيش خوفه بمشية وثاب على النهى والزجر
يجر إلى أشـبـاله كل ليلة عقيرة وحش أو قتيلا من السقر
يزعزع أحشـاء البلاد زثيره ويبطل أبطال الرجال من الذعر
إلى آخر هذه القطعة الرائعة

وجدت ابن المعتز يربى على البحرى فيها بكثرة ما أتى به من معان ، ولكنه لا يصل إلى ابن الرومى في قطعه ، ووجدته يحاول أن يعطيك صورة واضحة للأسد في قوته وفزع الناس والبلاد منه ، ولكنه لا يجيء سابقا بل يسير وراء رائد الركب موفور الإجابة والتصوير

موازنات بين الشعراء العباسيين

قال مسلم بن الوليد - وهو معنى سبق إليه - :

لا يستطيع ديزيد ، من طبيعته عن المروءة والمعروف إحجاما
أخذ أبو تمام المعنى فكشفه وأحسن اللفظ وأجاده فقال :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطعه أنامله
وقال أبو تمام يصف مغنية تغنى بالفارسية :

ولم أفهم معانيها ولكن شجت كبدي فلم أجعل شجائها

أخذه من قول الحسين بن الضحاك - على ما في قوله من المناقضة - :

وما أفهم ما يعنى مغنينا إذا غنى

سوى أنى من حبي له استحسن المعنى

لأنه قال : ما أفهم ما يعنى ، ثم قال : استحسن المعنى ، وإنما أراد بالمعنى

اللحن لا معنى القول ، وأجود من ذلك كله قول حميد بن ثور يصف الحمامة :

ولم أر مثلى شاقه صوت مثلها ولا عرياً شاقه صوت أعجم
وقال الأختل يصف الخمر :

تدب ديبياً في العظام كأنها ديب نمال في نقأ يتهيل (١)

(١) النقا : كشيبي الرمل ، يتهيل : ينهال .

أخذه أبو تمام فأفسد المعنى فقال :

إذا الراح دبّت فيه تحسب جسمه لما دب فيه قرية من قرى النمل
وقال أبو العتاهية :

كم نعمة لا يستقل بشكرها لله في طي المكاره كامنه
أخذه أبو تمام فقال :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعيم
وقد أحسن إذ جاء بالزيادة التي هي عكس المعنى الأول . وقال شاعر :

ما كنت أحسب أن بحر آخرأ عسم البرية كلها إرواء
أضحى دفيناً في ذراع واحد من بعد ما ملك الفضاء فضاء (١)
وقال أبو تمام وأبر عليه وعلى كل من ذكر هذا المعنى :

وكيف احتمالى للسحاب صنيعه بإسقامها قبراً وفي لحده البحر
وقال مسلم بن الوليد في معنى بيت أبي العتاهية الأول :

أخ لي يعطيني إذا ما سألته ولولم أعرض بالسؤال ابتدانيا
وأخذ أبو تمام معنى البيت ومعنى بيت أبي العتاهية الأول فقال :
ورأيتني فسأت نفسك سبيها لي ثم جدت وما انتظرت سؤال (٢)
أو لعله أخذه من قول منصور النمرى يمدح الرشيد :

رأيت المصطفى هرون يعطى عطاء ليس ينتظر السؤال
وأجود من هذا كله قول سلم الخاسر :

أعطاك قبل سؤاله فكفاك مكروه السؤال
وأخذ أبو تمام معنى بيت أبي العتاهية الثاني فقال :

كالغيث إن جئته وافاك ريقه وإن تحملت عنه لج في الطلب (٣)
وقال أبو تمام :

كم من يد لك لولا ما أخففها به من الشكر لم تحمل ولم تطق
بالله أدفع عني ثقل فادحها فإني خائف منها على عنتي

(١) ضاء : أضاء

(٢) السيب : العطاء (٣) ريق كل شيء : أفضله وأوله

وهو من قول أبي نواس ، والمعنيان مختلفان لأن أبا نواس قال :
 أنت امرؤ جملتني نعماً أوهت قوى شكرى فقد ضعفا (١)
 لا تسدين إلى عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا
 فذكر أن نعم الممدوح قد غلبت الشكر فاستعفا من نعمة أخرى حتى يقوم
 بشكر نعمته السالفة ، وأبو تمام قال : لولا ما أخففها به من الشكر لم أطلق حملها ،
 ثم أحسن والطف في قوله : فإني خائف منها على عنقي ، ومعنى أبي نواس
 أجود وأبرع : وقال أبو تمام :
 والشيب قد طرد الشباب بياضه كالصبح أحدث للظلام أفولا
 أراد قول الفرزدق مع تقصير عن بلوغه شأوه :
 والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانيه نهار
 وقال أبو تمام :
 نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
 أخذ المعنى من قول يزيد بن الطثيرة إذ يقول :
 أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا
 وهذا أجود ، لأنه ذكر العلة .
 وقال ابن الخياط قصيدة يمدح بها المهدي فأجازه بجائزة ففرقها في الدار ، فبلغه ،
 فأضعف له الجائزة ، فقال :
 لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
 فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت ، وأعداني فأتلفت ما عندي (٢)

(١) جلله : غطاء ، وجلل المطر الأرض : عمها وطبقا فلم يدع شيئا إلا غطاء ،
 أوهت : أضعفت .

(٢) أفدت : استفدت : ونسبة هذين البيتين إلى ابن الخياط رواية كتاب
 « الموازنة بين أبي تمام والبحري » ، للآمدي ص ٢٩ ، وكتاب « الصناعتين لأبي
 هلال العسكري » ص ١٩١ ، والمشهور أنهما لبشار بن برد — انظر الأغاني جزء

أخذه أبو تمام فقال :

علمني جودك السماح فما أبقيت شيئاً لدى من صلتك
وقول ابن الخياط أبلغ وأجود ، وقال العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمداً
أخذه أبو تمام فقال :

أألفه النحيب كم افتراق أظل فكان داعية اجتماع
وبيت عروة بن الورد أجود من بيتيهما ، وهو قوله :

تقول سليمان لو أقت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوف
وأخذ المعنى أبو الطيب فقال :

لعسل الله يجعله رحىلا يعين على الإقامة في ذراكا (١)
وقال توبة بن الحمير :

يقول أناس لا يضيرك نايها بلى ، كل ماشف النفوس يضيرها (٢)
أخذه أبو تمام وزاد فيه فقال :

لا شيء ضائر عاشق ، فاذا نأى عنه الحبيب فكل شيء ضائر
وقال مروان بن أبي حفصة :

ما ضرني حسد اللئام ولم يزل ذو الفضل يحسد ذوو التقصير
أخذه أبو تمام فقال :

لقد آسف الأعداء مجد ابن يوسف وذو النقص في الدنيا بذى الفضل موالع
وقال أبو تمام :

غفوا بالأسنة ثم ثنوا مصافحة بأطراف الرماح
أخذ قوله « غفوا بالأسنة » من قول مسلم :

أخذ قوله « غفوا بأطراف القنا وتعانقوا » معانقة البغضاء غير التودد
وأخذ قوله « مصافحة بأطراف الرماح » من قول أبي إسحق التغلبي :

دنوت له بأبيض مشرفي كما يدنو المصافح للسلام
وقال أبو تمام :

أمن بعد طلى الحادثات محمداً يكون لاثواب الندى أبداً نشر !

(١) يقال : أنا في ذرا فلان أى في ظله وكنفه (٢) ضاره يضيره : ضره

أخذه من قول أبي نواس :

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوى المنية ناشر
وقال أبو تمام في مصلوب :

قد قلصت شفتاه من حفيظته نخيل من شدة التعيس مبتسما
سبقه عبد السلام بن رغبان فقال :

وإذا شئت أن ترى الموت في صو رة ليث في لبدق رنبال (١)
فالقه غير أنما لبدتاه أبيض صارم وأسمر عال
تلق ليثا قد قلصت شفتاه فيرى ضاحكا لعبس الصيال
وكذلك قال أبو تمام :

فلم أمدحك تفخيما بشعري ولكني مدحت بك المديحا
أخذه من حسان بن ثابت في مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال :

ما إن مدحت محمدا بمقاتي لكن مدحت مقاتي بمحمد
ولاشك أن أبا بكر رضى الله عنه سمع قول حسان هذا حين استخلف عمر رضى
الله عنه فقال له عمر استخلف غيرى فقال أبو بكر ما حبوناك بها وإنما حبوناها بك
وقال عروة بن الورد :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترأ من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذراً أو ينال رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح
أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إذ فانه النصر
فعروة بن الورد جعل اجتهاده في طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ،
وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد في لقاء العدو قائما
مقام الانتصار ، وكلا الماعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف ..

وقال مسلم بن الوليد :

كذلك الغيث يرجى في تحجبه حتى يرى مسفرا عن وابل المطر
أخذه أبو تمام فقال :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

(١) الرنبال الأسد والذئب ومن تلده أمه وحده ، والاول هو المراد .

وقالت مريم بنت طارق ترثي أخاها في أبيات :

كنا كأنجم ليـل بينها قر يجلو الدجى فهوى من بينها القمر
أخذ أبو تمام اللفظ والمعنى فقال :

كان بنى نهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
أو أخذه من قول جرير يرثي الوليد بن عبد الملك :

أمسى بنوه وقد جلّت مصيبتهم مثل النجوم هوى من بينها القمر
قال الآمدي : ولست أدري أيهما أخذ من صاحبه . أمريم أخذت من جرير
أم جرير أخذ منها ؟ وقال أبو الأسود :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
أخذه أبو تمام فقال :

ألوم من بخلت يدها وأغتدى للبخل تربا ، ساء ذاك صنيعا
وهذا من العام الذي جعل خاصا ، ألا ترى أن الأول نهى عن الإتيان بما ينهى
عنه مطلقا ، وجاء بالخلق منكرًا فجعله شائعا في بابه ، وأما أبو تمام فإنه خصص
ذلك بالبخل وهو خلق واحد من جملة الأخلاق . وقال أبو تمام :

هو الصنع إن يعجل فنفع وإن يرث فللريث في بعض المواطن أنفع
أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له ، وذلك قوله :

ومن الخير بطة سيبك عنى أسرع السحب في المسير الجهم
وهذا من المبتدع لا من المسروق ، وما أحسن ما أتى بهذا المعنى في المثال
المناسب له ، وكذلك قولهما في موضع آخر ، قال أبو تمام :

قد قلصت شفتاه من حفيظته نخيل من شدة التعبيل مبتسما
فأخذه أبو الطيب المتنبي فقال :

وجاهل مده في جهله ضحكى حتى أتته يد فراسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظن أن الليث مبتسم
ومما ينخرط في هذا المسلك قول أبي تمام :
وكذاك لم تفرط كآبة عاطل حتى يجاورها الزمان بحال

أخذه أبو عبادة البحرى فقال :

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلّاتق أصفار من الحسن خيب
وحسن درارى الكواكب أن ترى طوالع فى داج من الليل غيب
فإنه أتى بالمعنى مضروبا له هذا المثال الذى أوضحه وزاده حسنا .
وقال أبو تمام :

كلف رب المجد يعلم أنه لم يبتدأ عرف إذا لم يتم
فقال البحرى :

ومثلك إن أبدا الفعل أعاده وإن صنعا المعروف زاد وتما
فأبو تمام قال : إن الممدوح رب صنيعه أى يستديمه ويعلم أنه إذا لم يستدمه
فما ابتدأه ، والبحرى قال إنه يستديم صنيعه لاغير ، وذلك بعض ما ذكره
أبو تمام :

وقال أمية بن أبى الصلت يمدح عبد الله بن جدعان :

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين
أخذه أبو تمام فقال :

تدعى عطاياء وفرا وهى إن شهرت كانت فخارا لمن يعفوه مؤثقا
مازلت منتظرا أعجوبة زمنا حتى رأيت سؤالا يجتنى شرفا
فأمية أتى بمعنيين اثنين أحدهما أن عطاءك زين والآخر أن عطاء غيرك شين ،
وأما أبو تمام فإنه أتى بالمعنى الأول لاغير

النقد الأدبي في العصر العباسي

— ١ —

بلغ النقد الأدبي في القرن الثاني مرحلة من مراحل تطوره ، تناسب ما بلغه العرب في هذا العهد من نضج ثقافي وأدبي كبير .

كان الرواة كالأصمعي وخلف وحامد وأبي عبيدة يهتمون برواية الشعر وجمعه وكان لخلف مكانة في النقد ، وكان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف في حلبة هذه الصناعة — النقد — ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها ، وحذقه بها ، وإجادته لها ، (١) ، وكان يجمع كثيرا من الآداب (٢) ، وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار شاعرا كثير الشعر جيده (٣) ، وأصلح للأصمعي رواية بيت من شعر جرير وقال : ارووه كذلك فلقد كانت الرواة قديماً تصلح شعر الأوائل (٤) وأعجب بنقد بشار للشعر (٥) ؛ وعرض عليه مروان لاميته ففضلها على لامية الاعشى (٦) ، وكان أبو عبيدة يرى أن أشعر الناس امرؤ القيس والنابعة وزهير (٧) وأشعر المسلمين الفرزدق وجرير والأخطل لانهم أعطوا حظاً في الشعر لم يعطه أحد في الاسلام (٨) ، وكان الأصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ولطبعه ، وكان يشبهه بالاعشى والنابعة ، ويشبه مروان بزهير والحطيئة (٩) ، وكان يفضل بشارا على مروان (١٠) ، وكان يقول هو وأبو عبيدة : عدى في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها (١١) ، وعاب بين يدي الرشيد قول النابغة :

نظرت إليك ، بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

-
- (١) ١/١٩٧ العمدة . (٢) راجع ٣/٢٢٤ البيان . (٣) ٣٠٨ الشعر والشعراء .
(٤) ٢/١٣ زهر . (٥) ٣/٤٣ الاغانى . (٦) ٣/٤٠٢ العقد . (٧) ٤٤ الجهرة .
(٨) ٤٦ المرجع . (٩) ٣/٢٥ الاغانى . (١٠) ٣/٢٥ الاغانى ، ٢٥١ الموشح .
(١١) ٢/١٧ الاغانى .

لذ كره السقيم (١) ؛ وسئل المفضل عن الراعى وذى الرمة : أيهما أشعر فصاح
صبيحة منكورة ، أى لا يقاس ذو الرمة بالراعى (٢) . وقد سبق رأى هؤلاء النقاد
فى مذهب الصنعة والمصنعين

وكذلك كان الأدباء ينقدون الشعر بفطرتهم وذوقهم ؛ وكان بشار أجودهم
وأدقهم فى نقد الشعر ومذاهبه ، وكان أبو عبيدة يعجب من د فطنة بشار وصحة
قريحته وجودة نقده للشعر ، (٣) ، وكان خلف يعجب من نقده للشعر ومذاهبه (٤)
وغضب بشار على سلم لسرقته معانيه (٥) ، وكان مروان يعرض شعره عليه (٦) ،
وكان أبو العتاهية يعتمد على معانى بشار (٧) ، وكان أشجع يأخذ عنه ويعظمه (٨)
وكان ابن الرومى يقدمه ويزعم أنه أشعر من تقدم وتأخر (٩) ، وكان كثير من
الشعراء يجارون بشاراً فى هذا الميدان

ولكن جهود علماء اللغة فى النقد كانت أقوى وأظهر فوضعوا الجاهليين فى
طبقات ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً ، ولا فناً من
قنون الشعر إلا نقدوه ونوهوا بما فيه من جيد وردى ، وهم الذين جمعوا أقوال
النقاد قبلهم فى الشعر والشعراء ، ووازنوا بين الاسلاميين والمتقدمين ، ونقدوا
رواية الشعر وبنيته ومعانيه وغير ذلك من الموضوعات .

— ٢ —

وفى القرن الثالث أخذ النقد يستقل بالبحث والتأليف على أيدي النقاد وعلماء
الأدب وسواهم ، كابن سلام م ٢٣١ هـ ، والجاحظ م ٢٥٥ هـ وابن قتيبة م ٢٧٦ هـ ،
وابن المدبر م ٢٧٩ هـ . والمبرد م ٢٨٥ هـ ، وابن المعتزم م ٢٩٦ هـ وسواهم من الأدباء
وعلماء الأدب واللغة وأصحاب الثقافات الحديثة وغير هؤلاء من الذين خاضوا فى
أصول الموازنات والبلاغة وموازين النقد :

(١) ٢/٢٧٠ العمدة

(٢) ١٧٩ الموازنة : وكان ذو الرمة رأوية للراعى ٢٠٧ طبقات ابن سلام .

(٣) ٢/٢٣ الأغاني (٤) راجع ١/٤٣ الأغاني ، ٢١٠ الدلائل ، ٧٥ المفتاح ، ١٧

الايضاح (٥) ٣/٤٨ الأغاني (٦) ٣/٥٨ الأغاني (٧) ٣/١٣٤ الأغاني (٨) ٣/١٣٧

الأغاني (٩) ٢/١٣ زهر الآداب وكان بشار يقدم جريراً على الفرزدق (١٣٩ طبقات

ابن سلام) من حيث كان البحرى يفضل الفرزدق (٢٤ صناعتين) ، ونقد بشار

قول كثير د ألا إنما ليلي عصا خيزرانة ، (٢/٨٠ الكامل) .

١ — فن الأدباء النقاد : أبو تمام م ٢٣١ هـ ووصيته للبحترى حول الشعر وفنه ومذهب الشاعر فيه مثال واضح من أمثلة النقد الدقيقة وأصل من أصوله الأولى (١) ، وله آراء أخرى في النقد مفرقة في شتى المصادر (٢) ، ومنهم ابن المعتز وسواه .

وتميل هذه الطبقة إلى العناية بأدب وشعر المحدثين ونقدتهما ، وخاصة شعر أبي تمام والبحتري ، ولعلى بن أحمد المنجم رسالة في العباس بن الأحنف والعتابي والموازنة بينهما (٣) .

(ب) ومن علماء الأدب ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة :

أما ابن سلام فبصرى راوية عالم بالشعر مؤلف في نقده ، عاش في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري والثالث الأول من القرن الثالث ، ودرس وثقف وأحاط باللغة والآداب والأشعار ، واهتم بالنقد مع تأثر بروح عصره في الاستيعاب والشرح والتحليل ، وله كتاب طبقات الشعراء الجاهليين وكتاب طبقات الشعراء الإسلاميين (٤) ، وقد أدمجا في بعض طبعا من عهد قريب باسم « طبقات الشعراء » ، والمقدمة المطبوعة في أوله هي مقدمة كتاب طبقات الإسلاميين ، يرشد إلى ذلك الكثير من مقدمته كقوله : « ورتبت هذا المؤلف على عشر طبقات كل طبقة تجمع أربعة من فحول شعراء الإسلام » (٥) .

وكتابه أول مؤلف في النقد (٦) كما يقولون ، والصحيح أنه ألف قبله في موضوع كتابه نفسه كثير من الكتب كما سنذكره بعد قليل ، وبحوث كتابه تشمل ذكر أئمة العربية واتجاهاتهم العلمية ، وتتناول شرح الشعر العربي وأثره ونشأته وتطوره وتنقله في القبائل وانتحاله ، ثم يذكر طبقات الجاهليين العشر وشعراء المراثي وشعراء القرى العربية ، كما يذكر طبقات الإسلاميين العشر جاعلا في كل

(١) راجع الوصية في : ١/١٥١ زهر ، ٢/٢٠٩ العمدة ، ١٦٠ حديقة الافراح

للمعنى ط ١٣٢٠ هـ ، ٢٧ المطالعة التوجيهية . (٢) راجع مثلا ص ١٩٢ طبقات

لابن المعتز . (٣) ٩٢ — ٤/٩٤ زهر ، وهي في الموشح (٢٩٣ و ٢٩٤) منسوبة

لأبي أحمد يحيى بن علي المنجم م ٣٠٠ هـ . (٤) ١٦٥ فهرست . (٥) ص ١٦ طبقات

الشعراء لابن سلام . (٥) ٢/١٠٨ زيدان ، ٧٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب .

(٧ - الحياة الأدبية)

طبقة أربعة من الشعراء ، مع الدراسة العميقة والتحليل الدقيق والنقد الممتع لرجال هذه الطبقات وحياتهم ومذاهبهم الفنية في الشعر ، والكتاب بحق من مصادر ثقافتنا الأدبية في النقد ، ولا يكاد يستغنى عنه باحث أو دارس ، وهو ضروري في دراسة النقد وجامع لكثير من الآراء فيه ، وقد رواه عن ابن سلام ابن أخته أبو خليفة الفضل بن الحباب الجبحي م ٣٠٥ هـ والذي يشيد الحصري بأدبه وبلاغته (١) .

وأما الجاحظ فعلم من أعلام الأدب والنقد والبيان ، وفي كتابه « البيان » وسواه من مؤلفاته ثروة كبيرة في النقد الأدبي ، فتجده يحلل في دقة وتفصيل مذهب الطبع والصنعة في الشعر (٢) ، ويشير إلى سرقات أدبية (٣) ، وموازنات أدبية (٤) ، ويستجيد بعض آثار للشعراء فيقول مثلاً : وكان أبو حية أشعر الناس لقوله الخ (٥) ، ويقول : ومن جيد محدث أشهارهم الخ (٦) ، ويقول : ومن جيد الشعر قول جرير (٧) الخ ، ويثنى على أبي نواس وشعره وخمرياته (٨) ، ويرى أنه ليس هناك مولد إلا وبشار أشعر منه ولا مولد أشعر بعد بشار من أبي نواس (٩) وأبو نواس عنده أشعر الناس في قوله : « كأن ثيابه أطلعن من أزراره قرأ » (١٠) . ورأى أن يبتى عنزة « وخلا الذباب بها الخ » من المعاني العقم (١١) ؛ ومثله قول أبي نواس « قرارها كسرى الخ » (١٢) ، وينقد أبا العتاهية ذاهباً إلى (١٣) أن

(١) ٢٥٣ ج ٣ زهر . (٢) ٥٤ و ٥٥ و ١٥٠ ج ١ و ٢١ و ٢٦ ج ٢ البيان .

(٣) ٨٩ و ١١٦ و ١٧٩ و ٢٥٥ ج ١ البيان . (٤) ٢٤٣ ج ٢ البيان .

(٥) ١٦٦ ج ٢ و ٢٠٥ و ٢٠٦ ج ٤ . (٦) ١٧٥ ج ٣ البيان . (٧) ١٣٣ ج ٣

البيان ، وتجد شرحاً لبيت جرير اللذين ذكرهما الجاحظ في هذا الموضع في ص ٢٠٨ طبقات الشعراء لابن سلام . (٨) ٤٢ جزء ٤ العقد . (٩) ٩١ ج ١

العمدة . (١٠) ١٨٥ ج ٣ زهر . (١١) ١٨٤ ج ٣ البيان . (١٢) ١٦٦ ج ٣ زهر ،

وراجع شرح البيت في العمدة ٢٧٥ ج ١ وكذلك ذهب المبرد في الروضة في بيت

أبي نواس ، ونقدتهما ابن الأثير في ذهابهما إلى أن بيت أبي نواس من المعاني

المبتكرة ورأى أنه من المعاني المشاهدة ، وأن فصاحة هذا الشعر هي الموصوفة

لا هذا المعنى . (١٢٢) المثل السائر . (١٣) ٥٢ ج ٣ زهر .

شعره أملس المتون ليس له عيون أخرى الخ ، ويعجب بقوله د رائج الجنة في الشباب ، إعجابا كبيرا (١) ، ويعجب بمجدة أشعار طرفة وعبد يغوث وقت إحاطة الموت بهما (٢) ، ويذكر حوار إبراهيم بن عبد الله لآبيه في شعر كثير (٣) ، وأن الناس كانوا يستحسنون بيت الأعشى د وبات على النار الندى والمخلق ، حتى قال الخطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد
فسقط بيت الأعشى (٤) ، وينقد الكميث لقوله في رسول الله :
لج بتفضيلك اللسان ولو أكثر فيك اللجاج والصخب
كما ينقده لقوله في رثائه :

لقد غيبوا حزماً وعزماً ونائلاً عشية واره الصفيح المنصب

لأنه يصلح في عامة الناس (٥) ، وقد دافعوا عنه بأنه إنما أراد في البيت الأول آل الرسول لا الرسول فوري عنهم يذكر النبي خوفاً من بني أمية (٦) ، ويذكر منهاج الرواة (٧) وتعصب أبي عمرو بن العلاء على الاسلاميين (٨) ، وأن الرواة كانوا (٩) يحرضون على نسيب العباس بن الأحنف حتى أورد عليهم خلف نسيب الأعراب فعنوا به وزهدوا في نسيب العباس ، والملاحظ ينكر غلو المتعصبين على الشعراء المحدثين فعلهم ، ويرى أنه لو كان لهم بصر لعرفوا موضع الجيد ممن كان ، وفي أي زمان كان (١٠) إلى غير ذلك من شتى آرائه في النقد .

وأما ابن قتيبة فهو عالم ملم بالثقافات في عصره ، مجدد في التفكير ، ولكنه مع

(١) ٣٨ ج ٣ الأغاني ، ٣٦٦ ج ٢ عصر المأمون . (٢) ١٩٣ ج ٢ البيان .

(٣) ١٤٦ ج ٢ البيان . (٤) ٣٦ جزء ٢ البيان . (٥) ١٧٢ و ١٧٣ ج ٢

البيان ، ١٧٠ ج ٥ الحيوان ط ١٩٤٣ ، ١٤٥ ج ٢ العمدة . (٦) ٢٠ الموازنة ، ١٣٦ ج ٢ العمدة . (٧) ٢٢٤ ج ٣ البيان ، ٤ وه الكشف عن مساوي المتنبي .

(٨) ٢٠٩ ج ١ البيان . (٩) ٢٢٤ ج ٣ البيان . (١٠) ٤٠ ج ٣ الحيوان ،

وذلك مما يردده ابن المعتز الذي حكم عدالة الحكومة الأدبية وحتم ألا يدفع إحسان محسن عدواً كان أو صديقاً (١٣ و ١٤ رسائل ابن المعتز) ، وكذلك رأى

ابن قتيبة (٧ و ٨ الشعر والشعراء) ، وابن رشيق (٧٤ ج ٢ العمدة) .

ذلك محافظ كل المحافظة في الأدب ، ينعى على الأدباء انصرافهم إلى المنطق وشغفهم به عما سواه من علوم الدين واللغة (١) ، ويرى وجوب اتباع منهج المتقدمين في نظم القصيدة (٢) ، ولكنه مع ذلك لا يتعصب للقديم ولا للحدث تعصبا أعمى. ولكن يعطى كلا حق من العدالة والانصاف ، وكتاب الشعر والشعراء وعلى الأخص مقدمته دراسة عميقة للشعر وأقسامه وعناصره ولطبع والصنعة فيه وللخصومة بين القدماء والمحدثين ولدواعي الشعر ونظمه وأسباب اختلاف شعر الشاعر .

والكتاب مظهر لثقافة واسعة (٣) واطلاع واسع وذوق سليم ، وفيه عرض لنحو مائة وستين شاعراً من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وصدور المحدثين ، وقد عني في دراسته لهم ببيان مذاهبهم وخصائصهم واتجاهاتهم وذكر آراء النقاد في شعرهم وسرفاتهم وما يستجد لهم من حكمة أو تشبيه أو وصف وما سبقوا إليه من معان ، وسرد الشعراء سرداً دون ترتيب لطبقاتهم أو لهم بحسب عصورهم بعكس ابن سلام ، وقد اهتم بدراسة لغة الشعراء وأثر البيئة فيها (٤) ، وتكلم على بعض النساء الشاعرات كالخنساء (٥) وليلي الأخيلية (٦) ، وهو حريص على ذكر زلات الشعراء من ناحية العقيدة (٧) ، ويعنى بتحقيق نسبة الشعر لقائله عناية كبيرة .

وأما طبقة علماء اللغة فأثرهم في النقد واضح جليل ، يتجلى في آرائهم وكتبهم . وكان هؤلاء كلهم أو جلهم يؤثرون الشعر القديم ؛ ومنهم : أبو العميش المتوفى ٢٤٠ هـ ، وابن السكيت م ٢٤٤ هـ ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥ هـ ، وأبو الفضل

(١) ص ٢ أدب الكاتب . (٢) ١٤ وما بعدها الشعر والشعراء . (٣) راجع مثلاً شرحه المشكل من شعر أبي نواس (٣١٥ و ٣١٦ و ٣٢٠ و ٣٢٥ الشعر والشعراء) وسوى ذلك . (٤) راجع رأيه في عدى وأميه بن أبي الصلت وأبي دؤاد (٦٣ و ٦٩ و ١٧٦ الشعر والشعراء ، ١٧ ج ٢ الأغاني مثلاً) .
 (٥) ١٢٢ الشعر والشعراء . (٦) ١٧٠ المرجع . (٧) راجع مثلاً : ٣٢١ و ٣٢٢ المرجع .

الرياشي م ٢٥٧ هـ ، والسكري م ٢٧٥ هـ ، والمبرد م ٢٨٥ هـ ، ونعلب م ٢٩١ هـ .
وأظهرهم أثراً في ذلك المبرد الذي حفظه الكامل ، كثيراً من آرائه في النقد :

وأهم ما في الكامل للمبرد دراسته للتشبيه وعرضه لكثير من شواهد (١) ،
وهذا الباب كله نقد أدبي جيد ، ويذكر المبرد كثيراً من السرقات الأدبية في كتابه ،
ويذكر من آراء القدامى في النقد والموازنة ، ويشيد بابن مناذر ومرثيته د كل حي
لاقي الحرام فودى ، (٢) ، والمبرد لا يتعصب لتقديم على محدث ويرى أنه د ليس
لقدم العهد يفضل القاتل ولا لحدثان عهديه تضم المصيب ولكن يعطى كلا ما يستحق ، (٣) ،
ولذلك ضمن كتابه كثيراً من شعر المحدثين ، وعقد بابين لأشعارهم خاصة (٤) ،
ورأى أنها أشكل بالعصر (٥) ، ويروى شعراً لأبي تمام ويقول : د وليس بناقصه
حظه من الصواب أنه محدث ، (٦) ، وذكر مكانة الخنساء وليلى الأخيلية في الشعر (٧) ،
ونقد قول الشماخ :

إذا بلغتني وحملت رحلى عرابة فاشرق بدم الوتين (٨)

وإجماع النقاد على نقد قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت وإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى (٩)

ويذكر مجد آل حسان وأبي حفصة في الشعر (١٠) ، كما يذكر بعض المعاني

الجديدة في شعر أبي نواس (١١) ، ويعيب (١٢) قوله :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

(١) الكامل ص ٣٥ - ١٠١ ج ٢ (٢) الكامل ص ٢٨٨ ج ٢

(٣) الكامل ص ١٨ ج ١ (٤) الكامل ص ٣٠٧ - ٣١٢ ج ٢ و ص ٢٣٣ - ٢٦١

ج ١ (٥) الكامل ص ٢٢٣ ج ١ (٦) الكامل ص ٢٦٠ ج ٢ ، والمبرد مناقشة

أدبية بينه وبين ابن درستويه حول معنى لأبي تمام (زهر الآداب ص ٢٣٩ و ٢٤٠

ج ٢ (٧) الكامل ص ٢٧٩ ج ٢ (٨) الكامل ص ٧٧ ج ١

(٩) المرجع نفسه ص ١٠٦ ج ١ ، ويذكر الجاحظ أن صالح بن سليمان قال :

أحمق الشعراء الذي قال : د أهيم بدعد - البيت ، (البيان ص ٢١٧ ج ٣)

(١٠) الكامل ص ١٥٤ ج ١ (١١) الكامل ص ٩٤ ج ٢ (١٢) الكامل

ويذكر وجهاً لتخريجه:

وعلى أى حال فثقافة اللغويين فى النقد كانت قليلة بالنسبة لأدباء الكتاب وعلماء النقد (١) ؛ وسئل البحتري عن مسلم وأبى نواس أيهما أشعر ، فقال : مسلم لانه يتصرف فى كل فن ، فقليل له إن ثعلباً لا يوافقك على هذا ، فقال ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ، وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه (٢) ، وقال البحتري لصديق له أراد التوجه لأبى العباس (٣) ليقراً عليه شيئاً من الشعر: رأيت أبا عباسكم هذا فما رأيته ناقداً للشعر ولا يميز له ورأيتة يستجيد شيئاً وما هو بأفضل الشعر (٤) وأما النقاد من ذوى الثقافات الحديثة فى النقد والذين تأثروا بالثقافة اليونانية فأشهرهم قدامة بن جعفر ، (٢٧٦ - ٣٣٧ هـ) (٥) ، وله كتاب « نقد الشعر » الذى فصل فيه مذهبه فى النقد أتم تفصيل بما احتذى فيه حذو أرسطو فى كتاب الخطابة الذى ترجمه إسحاق بن حنين فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى ، ونجد أثر أرسطو واضحاً عند قدامة فى كلامه على الصفات النفسية التى جعلها أمهات الفضائل وذكر أن المدح الجيد لا يكون إلا بها (٦) ، وفى سوى ذلك من بحوث الكتاب ، ويرى قدامة أن الرثاء كالمديح فى وقوعه بهذه الصفات (٧) ، وأن الهجاء ضد المدح ولا يكون إلا بأضدادها (٨) ، وهذا وغيره من كثير من بحوث الكتاب

(١) راجع كلمة للجاحظ فى ذلك فى ص ٤ و ٥ الكشف عن مساوىء شعر المتنبي

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٩ والكشف ص ١٠١ والإعجاز القرآن ١٠١ والعمدة ٩٩ ج ٢

(٣) لعله يريد ثعلباً ، وأبو العباس لقب المبرد و ثعلب

(٤) الدلائل ص ١٩٥ (٥) أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ومن

يشار إليهم فى علم المنطق وأسلم على يد المكتفى (٢٠٣ - ٢٠٥ ج ٦ معجم

الأدباء ، ١٨٨ فهرست) ، وله ترجمة مشابهة كذلك فى تاريخ بغداد ، وله تفسير

بعض المقالة الأخرى لارسطو (راجع كشف الظنون ص ٣٤ ج ٢) وكثير من

المؤلفات (٦) نقد الشعر ص ٣٩ - ٤١

(٧) نقد الشعر ص ٥٩ ، الصناعتين ص ١٢٦

(٨) نقد الشعر ص ٥٥ ، ويقول عبد الصمد بن المعذل م ٢٤٠ هـ : الشعر كله فى

ثلاث لفظات وليس كل إنسان يحسن تأليفها : فإذا مدحت قلت أنت ، وإذا هجوت

قلت لست ، وإذا رثيت قلت كنت (العمدة ص ١٠٣ ج ١) ، وهذا أساس نظرية

قدامة ، وأيدها أبو هلال وابن رشيق فى كتابيهما : الصناعتين والعمدة

أثر لثقافة قدامة العقلية التي تزل في مواضع الذوق والاحساس والشعور في النقد وفهم الشعر والأدب ، وعناصر الشعر عند قدامة اللفظ والمعنى والوزن والقافية وما تركب منها (١) ، ثم يذكر أسباب الجودة التي تلحق بكل عنصر من هذه العناصر في نظم الشعر ، ويرى أن أضداد هذه الأمور هي أسباب الرداءة في النظم ، ويحتم على الشاعر أن ينظم الشعر متبعاً لأسباب الجودة وحذراً من الرداءة وأسبابها ، والناقد يحكم على ضوء هذا النهج نفسه فيرى مراطن الجمال والعيب في شعر الشاعر سواء في ألفاظه وأساليبه أو في معانيه أو في أوزانه أو قوافيه أو في سوى ذلك مما تركب منها ، فيحكم عليه أولاً بالرداءة أو الجودة والاحسان ؛ وهذا نهج عقلي واضح ولكنه في تقييده الشعر بهذه القيود الثقيلة وفي تطبيقه على هذه الأصول التي رسمها في كتابه يخطئ كثيراً ... وقد ألف الآمدي كتاباً في تدوين غلط قدامة في نقد الشعر ، وأهداه لابي الفضل محمد بن الحسين بن الحسين بن العميد وقرأه عليه وكتب خطه عاله ٣٦٥ هـ (٢) ، كما نقده كثير من علماء النقد والادب في شتى العصور ...

- ٣ -

وقد بلغ النقد الأدبي في القرن الرابع حداً كبيراً من النضوج والقوة ، شأنه في ذلك شأن الأدب والبيان وسائر ألوان العلوم والثقافات ، وذلك برغم ما كان يغشى الحياة الإسلامية إبان ذاك من ضعف سياسي بعيد الأثر في مستقبل العالم الإسلامي ، وحين كانت رقعة الدولة الإسلامية تمزق أديمها الحوادث العاصفة ، وتتداولها أيدي الملوك الغاصبين ، والدول الصغيرة الناشئة : كالأخشيدية والفاطمية والحمدانية والبهية وغيرها من مختلف الدويلات والعروش ، كان رجال العلم والأدب والفن جادين في إقامة الحياة الإسلامية على أسس وطيدة من التفكير المثمر والانتاج الصحيح والتجديد المستمر في شتى ألوان الثقافة ومناحي الحياة ، وكانت رعاية الملوك لهم ، وتمضيد الأمراء وقادة العالم الإسلامي إياهم ، سبباً من أسباب استمرار هذه النهضة الفكرية والعلمية والأدبية ، كما كانت حركة البعث العقلي التي غذاها الرشيد والمأمون قد أتت أكلها ، وهضمتها عقول المسلمين ، وأحاطتها

(١) راجع نقد الشعر ص ١٣ ، ومثل ذلك في العمدة ص ٩٩ ج ١

(٢) معجم الأدباء في ترجمة الآمدي ص ٥٨ ج ٣

غذاء عقليا أنتج نتائجه العظيمة في القرن الرابع الهجري ، فكان أحفل عهد رجال الفكر والعلم والأدب والنقد والبيان ، وأجد عصر شهدته العربية وآدابها الرفيعة ، وذاعت في آفاقه شهرة كثير من الأدباء والكتاب والشعراء وأئمة النقد وفحول البيان ، وظهرت في خلاله مؤلفات كثيرة ناضجة في علوم الدين والدنيا ، وفي علوم التفكير والفلسفة ، وفي علوم العربية وآدابها ، سواء في اللغة أم في الأدب أم في النقد أم في البيان ، وما زالت هذه المؤلفات أعظم المصادر وأجلها في الثقافة الإسلامية ، وما زلنا ننشد السير على آثارها في الابتداع والتجديد والانتاج ، ولعل من أظهر خصائص الثقافة الإسلامية في هذه الحقبة الرائعة بلوغ النقد الأدبي أبعد الغايات ، وكثرة ما ظهر فيه من مؤلفات ، تجمع بين سلامة الذوق ودقة الحكم وتحري الانصاف وعمق التفكير ، وتحاول جاهدة أن تضع أسس النقد وأصول الموازنة على دعائم ثابتة ، تقوم مقام الحكومة العادلة والحكم المنصف كلما تشعبت الآراء واختلفت الأذواق ، في شعر شاعر أو منزلة أديب ،

والنقد الأدبي بدأ بحوثه علماء اللغة والأدب ، واتجه أولا — في عهود كانت فيها الملكات العربية ما تزال على سلامتها وصحتها — إلى البحث عن الأسلوب وسلامته من الخطأ في اللغة أو الأعراب أو التصريف ، للحفاظ على العربية وكتابتها الحكيم ، ودفع عادية الفساد الذي نجم على يد المستعربين من الموالي ، ثم على يد من اختلط بهم من العرب . ولما فرغ النقد من هذه البحوث عاد إلى بحث الأسلوب نفسه وما يتصل به مما يمس صميم البيان والاداء . تلافياً لاططاء الملكات التي بدأ يدب اليها العمى والقصور والعجز بسبب المستعربين والاختلاط بهم ، وأخذ علماء الادب والنقد كأمين سلام ؛ م سنة ٢٣١ والجاحظ م سنة ٢٥٥ وابن قتيبة م سنة ٢٧٦ وأضرابهم كأضي عبيدة م سنة ٢٠٦ وسواه . في عرض المشكلات الأدبية والتعليق عليها وإبداء آرائهم فيها ،

ثم كان القرن الرابع فأنجبه علماء الادب في مشرقه إلى الكتابة في الادب والنقد ؛ ثم مزجوا بحوث النقد والادب بالبيان . ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة جلي انتقلت بهم إلى البحث في مظاهر البيان ومشكلات البلاغة . فاتجه تاليفهم في آخر هذا القرن إلى بحوث البيان نفسه .

ونقاد الادب والشعر في القرن الرابع فريقان : فريق كتب ونقد ووازن وحكم متأثراً بذوقه الادبي وطبعه العربي وثقافته الخالصة من شوائب الثقافات

الآخري التي جرت جداول إلى يمين الثقافة الإسلامية الصميعة المتدفقة ، ومن هؤلاء الخاتمي م سنة ٣٨٣ ، صاحب الرسالة الخاتمية ، في نقد شعر المتنبي وبيان سرقاته من حكمة أرسطو الفيلسوف ، والحسن بن بشر الآمدي م سنة ٣٧١ صاحب الموازنة بين الطائيين ، وعلى بن عبد العزيز الجرجاني م سنة ٣٩٢ صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وابن وكيع م سنة ٣٩٢ صاحب المنصف ، في سرقات المتنبي ، وأبو بكر الباقلاني م سنة ٤٠٢ مؤلف إعجاز القرآن ، وقبلهم أبو بكر الصولي م ٣٣٦ صاحب أخبار أبي تمام ، وأبو الفرج الاصبهاني م سنة ٣٥٦ مؤلف كتاب الأغاني ، وفريق آخر كتب بروح أدبي هذبه فسكرته ووسعت أفقه الثقافات الآخري التي هضمها القرن الرابع ، وأسألهاء غذاء عقليا لكل من توسع في الدراسة والبحث العميق ، ومن هذا الفريق جعفر بن قدامة سنة ٣١٩ وقدامة بن جعفر م سنة ٣٣٧ صاحب نقد الشعر ، وابن العميد م سنة ٣٦٠ ، والصاحب بن عباد م سنة ٣٨٥ صاحب رسالة الكشف عن مساوي شعر المتنبي ، وأبو هلال العسكري م سنة ٣٩٥ صاحب الصنائع ، وديوان المعاني ، وهذا الفريق الآخر يختلف نقده قوة وضعفا بحسب تمكن الطبع العربي من نفوس رجاله وأعلامه . وتتفاوت منازلهم في الاجادة والاحسان بتفاوتهم في الذوق الادبي الذي يعتد به في الحكومات الادبية العادلة . ودعنا من نقدوا الادب والشعر بدون تمكن الطبع الادبي في نفوسهم ، من : النحويين علماء اللغة ، والمعنويين رجال العقل والفلسفة . الذين جاء حكمهم بعيدا عن الذوق المطبوع والفطرة السليمة ، والذين تقدم الجرجاني في وساطته ، نقدا لاذعا . وطرح آراءهم في النقد والبيان فلم يعتد بها ولم يعرها نصيبا من البحث والمناقشة اللهم إلا حيث أراد أن يبرر موقفه منهم فذكر بعض أخطائهم في النقد لتكون حجة له في هذا الاهمال .

ومن الجدير بالالتفات أن كثيراً من نقاد القرن الرابع وجهوا عنايتهم الأولى إلى شعر شاعرين لها أثرهما وخطرهما في الشعر العربي ؛ فأبو بكر الصولي وابن بشر الآمدي اتجها إلى أبي تمام وشعره ، فدافع عنه الصولي دفاع المعتد به المعز بقيمته ، وحشد كل مارآه سببا لقبول هذه الحكومة من : شعر الشاعر ، ونقد الناقد ، وحكومة من قبله من رجال الأدب والنقد ، ووازن الآمدي بينه وبين البحتری عارضا شعره وماعليه من مؤاخذات ترجع إلى سرقة المعاني أو الخروج عن النهج

العربي في أساليب التعبير والبيان ، متجها إلى تفضيل البحترى عليه لطبعه وقلة ما أخذ عليه من مؤاخذات ، والحاتمي وابن عباد والجرجاني وابن وكيع ككتبوا في نقد المتنبي وشعره ، فندد به الحاتمي ، وأشاد بمساوي شعره ابن عباد ، ووقف الجرجاني موقف القاضي النزيه يفهم ويقرر ويحكم وينصف الشاعر من جور المتعصبين عليه ، والمتعصبين له معا . ولانشك أن أبا تمام والمتنبي كانا جديرين بكل ما دار حول شعرهما من ضجة ، وما كان لهما من دوى في حياة الشعر العربي ومذاهبه : فأبو تمام صاحب مذهب جديد في الشعر العربي ؛ حاول أن يرضى به عقله ، بالغوص على المعاني البعيدة ، والتؤدة في طلبها ، والتعمق فيها ، كما حاول أن يرضى به ذوقه وطبعه ، بإيثار الألفاظ القوية ، والأساليب الجزلة ، التي تحاكي أساليب العرب الأولى وجزالتهم ونهجهم في الصياغة والإعراب ، ثم بطلب شتى ألوان الجمال في الأداء والنظم من استعارة رائعة أو تشبيه بليغ أو حكمة بعيدة أو مثل نادر أو طباق ساحر أو تجنيس جميل . وأبو الطيب المتنبي هو الشاعر الذي عصف في حياته بمخصومه وأقرانه في مصر والشام والعراق وإيران ، وذهب شعره في أرجاء العالم العربي إذ ذاك نائرا مدويا :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب

فردده الناس وشدت به الحياة ، وتمثل به الدهر ، وكان أبو الطيب يفرغ من نفسه على شعره روح القوة والحرية والحياة ، مصوراً فيه خليجات نفسه ، وخفقات قلبه في قوة شخصية ، وقوة تأثير ، راسما الحياة الإسلامية في عصره ، داعياً إلى مذاهب جديدة فيها عزة النفس وكرامة الفرد وحرية الحياة . ثم لا تكاد تجد شاعراً يختلف النقاد في منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء كأبي الطيب ، ولا شاعراً كثرت حول شعره الدراسات الأدبية كثرتها حول شعر المتنبي . وحسبك أنه قد شرح ديوانه فحول العلماء كابن جني م سنة ٣٩٢ ومحمد الهروي م سنة ٤١٤ والمعري م سنة ٤٤٩ وابن الأفلح م سنة ٤٤١ والواحدى م سنة ٤٨١ وعبد القاهر الجرجاني م سنة ٤٧١ والتبريزي م سنة ٥٠٢ والعكبري م سنة ٦١٦ ، ثم اليازجي والبرقوق في عصرنا الحديث . كما نقد شعره كثير من النقاد كالحاتمي وابن عباد والجرجاني وكابن وكيع م سنة ٣٩٣ في كتابه « المنصف » ، في سرقات المتنبي الشعرية والثعالبي م سنة ٤٢٩ في كتابه « ديتمة الدهر » ، والعميدى في كتابه « الإبانة عن سرقات المتنبي » ،

وابن حسنون المصرى فى كتابه « نزهة الاديب فى سرقة المتنبي من حبيب » ، ومحمد ابن أحمد المغربى راوية المتنبي فى « كتابيه » الانتصار المنبى عن فضائل المتنبي ، و « التنبيه المنبى عن رذائل المتنبي » ، إلى غير ذلك الكثير من نقد المتنبي وشعره ، وهذا فضلا عن كتب عن حياة أبى الطيب أو عرض شعره من الكثير من رجال الادب والنقد والبيان .

هذا هو شأن النقد الادبى فى القرن الرابع ؛ ولاشك أن ظهور قدامة فى أول هذا القرن : ورجوعه إلى البيان اليونانى وما فيه من موازين للنقد ومناهج للبيان يلقي بها البيان العربى ويضع بها أسس النقد الادبى جاعلا لالوان النرف فى الاداء التى تمس الفكرة وتشبع المعنى حظا كبيرا فى النقد ، كان تطورا جديدا فى بحوث النقد والبيان ، وكان عقل قدامة المنطقى يغلب ذوقه الادبى ، فزل أحيانا فى نقده من حيث قوم ذوق ابن العميد والصاحب بن عباد وأبى هلال العسكري أحكام عقولهم فى النقد والحكومة الادبية ، وإن تبعوا منهج قدامة وجروا فى فهم الشعر وتذوقه ونقده مجراه الذى تذوقه فى كتابه نقد الشعر ، والذى يرجع إلى البحث فى عناصر الشعر الاساسية من : اللفظ والوزن والقافية والمعنى .

وجاء الآمدى فرسم منهجا جديدا فى النقد ، فجعل الطبع والسليقة العربية ومذاهب العرب فى البيان هى الحكم فى كل مشكلة ، والفواصل فى كل شبهة ، ونقد قدامة فى كثير من آرائه ، بل ألف كتابا بين فيه أخطاءه فى « نقد الشعر » وأهداه لابن العميد ، وبالرغم من ذلك كله فقد تأثر كرها ببعض آراء قدامة .

وقد استحال النقد إلى علم البلاغة العربية المعروف على أيدي علماء النقد .

وقد بدأ التدوين فى البلاغة على يد ابن المعتز الذى ألف كتابه القيم « البديع » (١) وتعلب الذى ألف كتابه « قواعد الشعر » ؛ وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٣٧ هـ . ثم كتاب الصنائع لابى هلال المتوفى عام ٣٩٥ هـ ، ثم كتاب الموازنة للامدى ، والوساطة للجرجانى ، وإعجاز القرآن للباقلانى ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى والعمدة لابن رشيق وهما أكثر الكتب اتصالا بالبلاغة . ثم جاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة والمتوفى عام ٤٧١ هـ . فألف فى البلاغة كتابين جليلين هما :

(١) على نهجه ألف ابن منقذ المتوفى عام ٥٨٤ هـ « البديع » .

١ — أسرار البلاغة ، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه و مجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع .

٢ — دلائل الاعجاز ؛ وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني . كما أنه يتحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضا .

وبعد عصر الجرجاني بحث الزمخشري في تفسيره ؛ والرازي في كتابه د نهاية الإيجاز ، وابن الاثير صاحب المثل (١) السائر ، وبدر الدين ابن ابن مالك صاحب المصباح ، والتنوخي صاحب د الأقصى القريب ، وكثير من العلماء ؛ في البلاغة والفصاحة .

ومن أهم هؤلاء العلماء في هذا الطور أبو يعقوب السكاكي المتوفى عام ٦٢٦ هـ تليذا الحانمي ، والذي ألّف كتابه د المفتاح ، وجعله أقساما ، وخص البلاغة بالقسم الثالث ، وقسمها إلى ثلاثة أقسام : المعاني - البيان - البديع . وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منها بالتفصيل . والفلسفة والمنطق يغلبان على السكاكي إلى حد كبير ، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر . . وبذلك تنتهي مراحل التأليف والابتكار في بحوث البلاغة وتدوينها كاملا .

وجاء الخطيب القزويني المتوفى عام ٧٣٩ هـ فألف في البلاغة كتابه : تلخيص (٢) المفتاح والإيضاح . وقد ألف الإيضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر والسكاكي في شيء من التنظيم والشرح .

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشي والتقارير وفي مقدمتها الاطول للعصام ؛ والمطول (٣) للسعد ، وشروح التلخيص وسواها . . وهذه أهم كتب البلاغة وشروحها في هذا العهد : قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادي م ٦٢٩ هـ ، والبيان لابن الزملاكي م ٦٥١ هـ ، والمعيار للزنجاني م ٦٥٤ هـ ، وبديع القرآن

(١) شرحه عز الدين بن أبي الحديد م ٦٦٥ هـ في كتابه د الفلك الدائر على المثل السائر ،

(٢) لذكريا الأنصاري م ٩٢٦ هـ د مختصر تلخيص المفتاح ، : وللعباسي م ٩٦٣ هـ شرح لشواهد التلخيص سماه معاهد التنصيص (٣) عليه كتاب في شرح شواهد اسمه عقود الدرر في حل أبيات المطول والمختصر ، وهو مطبوع طبعة حبر عام ١٣٠٧ هـ في ٦٦ صفحة .

لابن أبي الإصبع م ٦٥٤ هـ والفوائد الغيائية للعضد م ٧٥٦ هـ وشرحها الكرمانى م ٧٨٦ هـ ، التبيان لشرف الدين الطيبي م ٧٤٣ هـ ، والطراز ليحيى بن حمزة العلوى م ٧٤٩ هـ ، وعروس الافراح للسبكي م ٧٧٣ هـ ؛ والسمرقندية للسمرقندى وهى رسالة فى الاستعارات ، وتوفى السمرقندى عام ٨٨٠ هـ ، وسواها

نشأة البيان العربى

١ - كان للعرب فى حياتهم الاولى ذوق ، وفهم طبع ، كانوا بهما فى غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لاحكام النقد ولاصول البيان العربى ومذاهبه ، وكذلك كانت اصول البيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقرير .

وفى ظلال الحياة الاسلامية اختلطت العناصر ، وتمازجت الثقافات ؛ فلتحت العقول ، واصابت الالسنه آثار من اللكنة واللحن ، وأخذ أئمة العربية يعملون فى صبر وعزيمة فى وضع أصول النحو العربى ، وجمع مواد اللغة الغزيرة . . وصحب ذلك وتلاه دراسات أخرى تتناول البيان العربى وأصوله ومذاهبه بالبحث والتحليل ، وأخذت تتكون من تلك الدراسات النواة الاولى للبيان العربى ، وظل التقدم الفكرى والنضوج الأدبى والعلمى يسير بهذه البحوث والدراسات نحو السكال المنشود بخطوات كبيرة . . وكانت الثقافة البيانية تنمو حين ذاك بجهود ثلاث طبقات :

(١) الاولى طبقة رواة وعلماء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين ، من أمثال : خلف والأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة ويحيى بن نجم وعمرو بن كركرة ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (١) ، ومن عامة الرواة الذين لا يقفون إلا على البليغ الساحر من الأساليب كما يقول الجاحظ دون النحويين واللغويين والاختباريين الذين لم يتجهوا هذا الاتجاه (٢) . . وبحوار هؤلاء أئمة الشعراء (٣) وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب الذين تهقفوا بالثقافة العربية :

(١) ١/٢٠٩ البيان . (٢) ٣/٢٢٤ البيان . (٣) ١/٥٤ البيان .

(ب) والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوماً قط أمثل طريقة في البلاغة منهم والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن وحشياً ولا سوقياً (١) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢) ، وحكم مذهبهم في النقد (٣) ؛ ومثاهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رأهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٤) وكان بعضهم من عناصر عربية وثقفوا بثقافة أجنبية ، والآخرون من عناصر أجنبية تثقفت بالثقافة العربية . مما كان له أثره في أصول البيان وفي توجيه دراسته وبحوثه وفي الدعوة إلى آراء في الأدب توائم ثقافتهم وعقليتهم ، وكان بعضهم يلحق مذاهبه الأدبية العامة للتلاميذ وشدة الأدب . كما نرى في محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م ٢١٠ هـ في أصول البلاغة (٥) ، والتي يقول الجاحظ عنها إن بشراً مر بإبراهيم بن جبلة بن مخزومة (٦) وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد فقال بشر : اضربوا عما قال صفحاً ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميته في أصول البلاغة وعناصر البيان (٧) ؛ ومن رجال هذه الطبقة : أبو العلاء سالم مولى هشام وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٨) وابن المقفع وسهل بن هرون (٩) والحسن والفضل (١٠) ابنا سهل ويحيى البرمكى وأخوه جعفر (١١) وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة (١٢) وابن الزيات وسواهم

وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام .. ونستطيع أن نعرف آثارها تين الطبقتين في دراسات البيان بالرجوع إلى آرائهم المثبتة في شتى أصول الأدب ، والتي يمكننا أن نذكر لك هنا طرفاً منها ، وإن شئت فاقراً جواب

-
- (١) ١/١٠٥ البيان . (٢) ٣/٢٢٥ البيان . (٣) ١/٢٤٠ البيان .
 (٤) ١/١٠٦ البيان . (٥) ١/١٠٤ وما بعدها البيان ، ٢٢٨ وما بعدها صناعتين .
 (٦) يعده الجاحظ من الخطباء الشعراء ١/٥٥ البيان .
 (٧) والبشر كتاب في نظم كلیلة ودمنة . (٨) ١/٥١ البيان .
 (٩) كان سهل يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة (١/١٤٤) البيان ، ٣/٣٣
 العقد . (١٠) ذكر الحصرى كثيراً من بلاغته (١٦ - ١٩ ج ٢ زهر) .
 (١١) وصف الجاحظ بلاغته وأشاد به (١/٩١ و ٨٥) البيان ، ٢/٨١ زهر ،
 وكان يؤثر الإيجاز (١/٨١ البيان ، ١/١٧٧ الكامل) ، ونوه به سهل بن هرون
 (٢/١١ زهر) . (٢) نوه المأمون ببلاغته (٣/٢٦٤ زهر) .

حجار معاوية حين سأله عن البلاغة (١) ، ويروى قبل هذا بكثير أن عامر بن الظرب سأل حمزة بن رافع من أبلغ الناس ؟ . فقال ، من حلّى المعنى المزين باللفظ الوجيز وطبق المفصل قبل التحزين (٢) وقرأ تحديد المفضل الضبي للإيجاز (٣) ، وتفسير ابن المقفع للبلاغة (٤) ، وحوار الشمرى لعمر بن عبيد في البلاغة (٥) ، وتعريف الاصمعي للبليغ (٦) ، ورأى إبراهيم بن محمد في البلاغة (٧) ، وتعريف جعفر البرمكي للبيان (٨) ، وتعريف العتّابي للبلاغة (٩) ، وتفضيل الجاحظ لرايه (١٠) ، ووصف الرشيد للبلاغة (١١) ، ورأى شبيب بن شيبه في تفضيل بلاغة جودة القطع أو القافية على جودة الابتداء (١٢) ووصف ابن المقفع كلام الاعراب (١٣) ؛ الذين أعجب الجاحظ ببلاغتهم (١٤) ووصف الحسن بن وهب بلاغة أبي تمام (١٥) ، وتعريف المأمون للبليغ بأنه من كان كلامه في مقدار حاجته ولا يجمل الفكرة في في اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ ولا يعتمد الغريب الوحشى ولا الساقط السوقي (١٦) ، وقول خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ما لا يحتاج إلى الكلام (١٧) ، وتعريفه للبلاغة بأنها التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالكبير على الكثير ، وتعريف ابن عتبة لها : بأنها دنو المأخذ وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير ، وعرفها الخليل : بأنها ما قرب طرفاه وبعد منتهاه ، وعرفها إبراهيم الآمام : بأنها الجزالة والاصابة ، وعرفها ابن المقفع بأنها قلة

-
- (١) ١/٨١ البيان ، وراجع ٢/١٨ الكامل .
 (٢) ١/٢١٦ العمدة ، ٢/٢٨٠ الأمل للقالى . (٣) ١/٨١ البيان .
 (٤) ٩١/البيان ، ١/٢١٤ العمدة ، ١٥ - ١٧ صناعتين .
 (٥) ١/٩٠ البيان ، ١/١٤٢ زهر ، و ٤٧ الرسالة العذراء .
 (٦) ١/٨٦ البيان ، ١/٢٢٠ العمدة . (٧) ١/٧٥ البيان .
 (٨) ١/٨٥ البيان ، ٤٢ - ٤٧ صناعتين .
 (٩) ١/٩٠ ، و ١/١٥٧ البيان . (١٠) ١/١٢١ البيان .
 (١١) ٣/٢٦٤ زهر . (١٢) ١/٨٩ البيان . (١٣) ٢/١١٨ زهر .
 (١٤) ١/١١٠ البيان (١٥) ٣/٢٦٣ زهر
 (١٦) ٤٢٣ صناعتين (١٧) ٣٥ و ٣٦ الرسالة العذراء .

الحصر والجراة على البشر ، إلى غير ذلك شتى هذه التحديدات (١) ، ويقول أبو دواد الإيادي : رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحها رواية الكلام وحليها الاعراب (٢) الخ ، ويقول الخليل : كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقاً ولتلك الحال وفقاً وآخر كلامك لأوله مشابها وموارده لمصادره موازنة فافعل ، واحرص أن تكون لكلامك متهما وإن ظرف (٣) ، ووصية أبي تمام للبحرئى تدخل فى هذا الباب (٤) ، ويقول عبد الملك بن صالح م ١٩٩ هـ : البلاغة معرفة رتى الكلام وفقه (٥) ، وقال ابن الرومى : البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة عند الأطالة (٦) ، ويقول البحرئى : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل (٧) ، ويقول الثعالبى بعد : خير الكلام ما قل ودل وجل ولم يمل (٨) ، ويقول ابن الأعرابى : البلاغة التقرب من البغية ودلالة قليل على كثير (٩) .

(ج) وأما الطبقة الثالثة فهى طبقة المفكرين والمثقفين الذين تتقفوا بشقافة أجنبية واسعة ، وتأثروا كل التأثر بأداب الأمم الأخرى ، وترجوا آراءهم فى البيان ومناهجه إلى اللغة العربية ، أو ألفوا كتباً تبحث فى هذه الاتجاهات ، وهؤلاء قد عاشوا فى البيئة الإسلامية وأثروا فى النقد والأدب والبيان ودراساته وتطوره تأثيراً واضحاً كبيراً ، ويمكننا أن نذكر شيئاً عن مجهود هذه الطبقة فى خدمة البيان : أهم عمل علمى قامت به هذه الطبقة : هو ترجمة كتابى الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية ؛ فأما الخطابة فهو أصل كبير من أصول البلاغة ودراساتها ، وقد أصيب بنقل قديم ونقله إسحاق بن حنين م ٢٩٨ هـ وكذلك نقله إبراهيم بن عبد الله وفسره الفارابى م ٣٣٩ هـ ، (١٠) ؛ وأما كتاب الشعر فقد اختصره الكندى م ٢٥٣ هـ

(١) راجع : ٤٤ - ٤٦ الرسالة العذراء ، ١/٧٥ البيان ، ٢ و ٣ و ٢٢ ، ٢/٢٣

العقد ؛ ١٤٠ - ١/١٥٠ زهر ؛ ٨٧ - ٢/٩١ ديوان المعانى ؛ ١٠٩ و ٢٠٢ إعجاز

القرآن ؛ ٢١٣ - ١/٢٢١ العمدة (٢) ١/١٤٧ زهر ؛ ١/٥١ البيان

(٣) ٤٨ الرسالة العذراء (٤) ١/١٥١ زهر

(٥) ٣/٢٦٨ البيان (٦) ٤٥ صناعتين

(٧) ١/٣٦ المستطرف (٨) ١/٢١٨ العمدة

(٩) ١/١٧ العمدة (١٠) ٣٤٩ فهرست

ونقله يحيى بن عدى ومتى فى القرن الرابع من السريانية إلى العربية (١) . . . وقد ألفوا فى صناعة الشعر ، وللكندى رسالة فى صناعة الشعر (٢) ، ولأبى زيد البلخى كتاب بعنوان « صناعة الشعر » ، أيضا (٣) ، وكذلك لأبى هفان (٤) . وهناك آراء كثيرة مأثورة عن هذه الطبقة فى البلاغة وعناصرها وهى متفرقة فى شتى كتب الأدب ومصادره ، وتجدر فى البيان والعمدة وسواهما أن صاحب اليونانيين عرف البلاغة بأنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وعرفها الرومى بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وعرفها الفارسى بأنها معرفة الوصل من الفصل . وعرفها الهندى بأنها البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة الخ : وعرفها أرسطو بأنها حسن الاستعارة ؛ ويعرفها جالينوس بأنها إيضاح المفصل وفك المشكل ، وقرأ البلاغة كما يراها حكيم الهند (٥) ويقول ، حكيم : البلاغة معرفة السليم من المعتل وفرق ما بين المضمن والمطلق وفصل ما بين المشترك والمفرد (٦) ، ويعرفها سقراط بأنها استكشاف الحقائق (٧) ويقسمها الكندى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع بالعكس ، ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحدها (٨) ، ويقول ؛ يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعانى (٩) ، وذكر بزرجمهر فضائل الكلام ورذائله : فقال فضائله أن يكون صدقا وأن يقع موقع الانتفاع به وأن يتكلم

(١) ٣٤٩ و ٣٥٠ فهرست ، ونجد تحليلا كاملا للكتاب فى (٦٤ - ١٣٦ قواعد النقد الأدبى) ، وهولم يصل إليها كاملا وليس من شك فى أن للكتاب جزءا ثانياً قد فقد (٦٨ المرجع) ، ونكاد نجزم أن أرسطو أراد بكتابه هذا أن يكون ردا على أفلاطون فى رأيه الذى ذهب إليه وهو أن الشعر عمل غير جدير بمقام الذكاء البشرى وأنه من أشد بواعث الفساد (٧١ المرجع) ، ويقول أرسطو فى أوله : وسأتكلم هنا عن فن الشعر وأنواعه المختلفة ووظائف كل نوع وفى البناء الصحيح للنظومة وعدد أجزائها وخصائص كل منها ، (٧٩ المرجع ... وترجمه ابن سينا وابن رشد (٢٤ وما بعدها مقدمة نقد النثر)

(٢) ٣٥٩ فهرست (٣) ١٩٨ فهرست (٤) ٢٠٧ فهرست

(٥) ٧٨ و ١/٧٩ البيان ، ٢٠٢ - ٣٨ صناعتين ، ١/١٤٤ زهر ،

(٦) ٢/٨٨ البيان والتبيين (٧) أصول النقد الأدبى للشايب

(٨) ١/٢١٩ العمدة (٩) ١/٣٥ المستطرف

(٨ - الحياة الأدبية)

به في حينه وأن يحسن تأليفه وأن يستعمل منه مقدار الحاجة ، وردأله باضد (١) الخ ، وقال أبرويز لكتابه : الكلام أربعة : سؤالك الشيء وسؤالك عن الشيء وأمرك بالشيء وخبرك عنه ، فإذا طلبت فأسجع وإذا سألت فأوضح وإذا أمرت فاحكم وإذا أخبرت فحقق ، وقال أيضا : واجمع الكثير مما تريد في القليل (٢) ؛ ولعل ثعلبا حين ذكر في صدر كتابه « قواعد الشعر » أقسام الشعر وأنها أمر رنهي وخبر واستخبار (٣) قد تأثر بذلك الراي وبعد فقد تعاونت هذه الطبقات في خدمة البيان ، ولها جميعا أثرها في نشأته وتطوره .

٢ — ومن الكتب الأولى التي ألفت في دراسات البيان وموضوعاته : مجاز القرآن لأبي عبيدة ، وكتاب البيان لابن السكيت (٤) وكتاب الفصاحة للدينوري (٥) وكتاب التشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت (٦) ، وصناعة الكلام للجاحظ (٧) ؛ وكتاب التمثيل له (٨) ، ونظم القرآن أيضا (٩) وقواعد الشعر وكتاب البلاغة للبرد (١٠) ؛ وللحراني كتاب في البلاغة (١١) ، ولثعلب قواعد الشعر ، ولابن مقسم تليذه كتاب المدخل إلى صناعة الشعر (١٢) ، وللروزي كتاب البلاغة والخطابة (١٣) ولابن الحرون كتاب المطابق والمجانس (١٤) ، ولأبي سعيد الأصفهاني كتاب تهذيب الفصاحة (١٥) ، وللباحث كتاب صنعة البلاغة (١٥) ، ولمحمد بن يزيد الواسطي المعتزلي م ٣٠٦ هـ كتاب إعجاز القرآن في نظمها وتأليفه ، ولابن الأخشيد (١٦)

(١) ١٨٣ الموازنة (٢) ١٠ أدب الكاتب

(٣) ص ١١ قواعد الشعر

(٤) ١/٢٠٨ كشف الظنون . وقد يكون في هذا الكتاب عرض للأدب وألوانه كالبيان والتبيين .

(٥) ١١٦ فهرست (٦) ٣٨٣ فهرست . وهو فارسي خدم المنصور والمهدي

(٧) ٣٨ الجاحظ لمردم (٨) ٤١ المرجع ، ٦/٧٦ معجم الأدباء

(٩) ٤٠ الجاحظ لمردم (١٠) ٨٨ فهرست ، ٧/١٤٤ معجم الأدباء

(١١) ١٧٨ فهرست (١٢) ٢٦ بغية الوعاة

(١٣) ٢١٥ فهرست (١٤) ٢١٢ فهرست

(١٥) ١٩٧ فهرست (١٦) ٥٧ ، ٥٨ فهرست

كتاب نظم القرآن وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦ هـ (١) وللحسن بن جعفر كتاب في الرد على من نفي المجاز في القرآن (٢) .

٣ — وبعد فقد كان البيان العربي في القرن الثالث مزيجاً من ثقافات وآراء مختلفة عربية وغير عربية ، مؤلفة ومترجمة ؛ من حيث كاد في القرن الثاني أن يكون عربياً خاصاً . وهنا سؤالان لابد من الجواب عليهما ، وهما : متى نشأ البيان العربي ، وهل تأثر بثقافة أجنبية ؟

أما نشأة البلاغة والبيان فالآراء فيها كثيرة : فالدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر والجاحظ في رأيه أول من اهتم بها وهو مؤسس البيان العربي حقاً (٣) ؛ ويرى آخر أن نشأة البلاغة قديمة قد سبقت القرآن وتطورت بعده (٤) وأكثر الفنون الأدبية أخذت شواهدا من القرآن (٥) ؛ وينقد باحث هذا الرأي (٦) . ومن الضروري أن نفرق بين أمرين ، نطق العرب في آثارهم الأدبية بأساليب لغتهم المختلفة من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز وقصر وفصل ووصل وطباق وتجنيس الخ ، ومعرفتهم العلمية بأوضاع هذه الأساليب ونواحيها البلاغية ، فالأول كان موجوداً عند العرب قبل القرآن وفي عصر القرآن وبعده ، والثاني لم يوجد إلا في القرن الثالث الهجري كما ذهب إليه أكثر الباحثين ، فقواعد البلاغة قد سنّها الفكر أولاً ليجري عليها الأدب ، بل إن طبيعة الأدب موجودة من قبل سواء بحثت أم لم تبحث (٧) ، فالأدب وخواصه الأدبية موجودان من قديم وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها وبحثها على أنها علم وأصول وقواعد فلم يوجد إلا بعد القرن الثاني الهجري ، « فعمل البلاغة إسلامي لا عهد للجاهليين به » (٨) ، والبلاغة باعتبارها فناً مدروساً أي التحليل العلمي للأساليب البلاغية ليست من علوم العصر الجاهلي إنما هي دراسة متأخرة في نشأتها على أنه لا شك كان هناك في

(١) ٣٢٤ فهرست (٢) ٥٢ فهرست

(٣) ٣ و ٣١٣ مقدمة نقد النثر (٤) ١/٤٨ النثر الفني ، ومن قبل رأى الصاحبي أن النحو والعروض نشأ من قديم (٨ وما بعدها الصاحبي)

(٥) ١/٥٦ النثر الفني (٦) ١٦ / وما بعدها تاريخ البلاغة العربية مخطوط بمكتبة كلية اللغة (٧) ٨ قواعد النقد الأدبي

(٨) ٢٩ تاريخ البلاغة العربية

العصر الجاهلي وصدر الاسلام بعض الخصائص والأساليب البلاغية المتعارف عليها (١) ، وهذا كله مما لا سبيل إلى الشك فيه .

وأما الأمر الثاني وهو هل تأثرت البلاغة العربية في نشأتها الأولى ببلاغة الأمم الأخرى ؟ فيمكننا بسط الحديث فيه :

يذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة في الأدب العربي لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية ، فهذا شيء لم يكن ولا علم أبو نواس شيئا منه ولا مسلم ولا أبو تمام ولا البحتري ولا المتنبى ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم في أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد ، ثم ينبغي أن يكون هو تأثر في رسائله ومكاتباته بما ذكره علماء اليونان في حصر المعاني ، ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه واستجمله ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا (٢) ، ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر في علم البلاغة العربي (٣) ، ويرى آخر أن أرسطو المعلم الأول للمسلمين في علم البيان (٤) ، وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا في القرن الثاني وأثروا في البيان وتطوره جلهم من الأعاجم (٥) وأن متكلمي المعتزلة كانوا بتضلعههم في الفلسفة اليونانية من مؤسسي البيان العربي (٦) وأنه حتى منتصف القرن الثالث لم يوجد إلا بيان عربي واحد كان لا يزال في دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العربي والفارسي واليوناني ، ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربي بحت ، ويوناني يجهر بالأخذ عن أرسطو ، على أن البيان العربي الصرف قد تأثر باليونان (٧) . وترجم كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربي وكان يجمل كتاب الشعر (٨) وقد درس قدامه الفلسفة وخاصة المنطق (٩) ، على أن تشريح الفلسفة للأدب في رأي الدكتور يظهر أول مرة في نقد الشعر ، (١٠) ثم في نقد

(١) ص ٤ و ٥ مجلة الأدب والفن نوفمبر ١٩٤٥ من مقال للأستاذ جب .

(٢) ٢٠ المثل السائر (٣) ١/١٧٧ ضحى الاسلام

(٤) ٣١ مقدمة نقد النثر (٥) ص ٦ المرجع نفسه

(٦) ٨ المرجع (٧) ١١ وما بعدها المرجع

(٨) ١٧ المرجع (٩) ١٦ المرجع

(١٠) ١٦ وما بعدها مقدمة نقد النثر

النثر ، الذى هو مستمد من آراء أرسطو فى الجدل والقياس والخطابة (١) .

على أننا قد بسطنا القول فى ذلك فيما سبق ورأينا أن المشتغلين بالفلسفة قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى فى خدمة البيان العربى وإنشائه والتأليف فيه وكان اتجاههم الأول إل البيان اليونانى فأخذوا يدأبون على الافادة منه فى بحوث البيان العربى ودراسته وتلقيحه بما يمكن أن يلقح به من عناصر ومناهج علمية سلكها ومهد سبيلها اليونان ، فهم قد استعانوا بطرقهم فى دراسة البيان على فهم وتحليل أصول البيان العربى والتأليف فيه .

وهذه هى أول صحيفة فى البلاغة لبشر بن المعتمر (٢) :

مر بشر بإبراهيم بن جبلة بن مخزومة السكونى الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطلوا عنه كشحا . . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقة ، وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعه نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرها ، وأشرف حسبا ، وأحسن فى الاسماع . وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع . .

واحلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاوله والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً . وخفيفا على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه .

وإياك والتوعر ، فان التوعر يسلك إلى التعقيد ، والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ومن أراغ معنى كريما فيتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلبس إظهارهما وترتهن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما . وكن فى ثلاث منازل : فان أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا وخفيا سهلا ، ويكون معنأك ظاهرا مكشوفيا وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت

(١) ١٧ وما بعدها المرجع .

(٢) نقلا عن البيان والتبيين للجاحظ

للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاصي ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغه قلبك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلتطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء ، فانت البليغ التام .

فان كانت المنزلة الأولى لاتواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك ، وتجبد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها ، فلا تكرها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها ، فانك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنشور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك . . فان ابتليت بأن تتعاطى الصنعة وتكلف القول ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعصى عليك بعد إحالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودع بياض يومك أو سواد ليلك وعأوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواناة إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق .

فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك فانك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب ، والشئ لا يحن إلا إلى ما يشاكه ، وإن كانت المشاكاة قد تكون في طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع المحبة والشهوة ، فهكذا هذا . قال بشر : فلبا قرئت على ابراهيم قال لي : أنا أحوج الى هذا من هؤلاء القتيان .

تراجم الشعراء

بشار بن برد

المتوفى عام ١٦٧ هـ

حياته:

هو بشار بن برد بن يرجوخ زعيم المحدثين، جده يرجوخ من طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة وكان أبوه برد من في أخيرة القشيرية امرأة المهلب، وكان مقيماً لها في ضيعتها بالبصرة المعروفة (بخيرقان) فوهبت برداً بعد أن زوجته لامرأة من بني عقيل كانت متصلة بها، فولدت له امرأته وهو في ملكها بشاواً فأعتقه ولذلك يقال لبشار العقيلي. وبعد ذلك صار برد طياناً يضرب اللبن حاذقاً بالتطيين وكان يقول ما رأيت مولوداً أعظم بركة من ابني بشار ولقد ولد لي وما عندي درهم فما حال الحول حتى جمعت ما تقي درهم، ولم يمت برد حتى قال بشار الشعر، وما يحكي عنه أنه كان إذا هجا قوماً جاءوا إلى أبيه فشكوه فضر به ضرباً شديداً فكانت أمه تقول له كم تضرب هذا الصبي الضرير أما ترحمه؟ فيقول: بلى والله إني لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى، فسمعه بشار فطمع به وقال: يا أبتى هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر وأنا أن ألمت عليه أغنيك وسائر أهلي، فان شكوني إليك فقل لهم: أليس الله يقول ليس على الأعمى حرج؛ فلما عاودوه شكواه قال لهم برد ما قاله بشار فانصرفوا وهم يقولون: فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار، وكان لبشار أخوان بشر وبشير، كانا قصابين؛ ولما نبغ بشار في الشعر وصار له مقام بين الناس لم يترك بيت أبيه وكان أخواه يلبسان ثياباً فاذا لبسها أنكر راحتها فاذا كان في مجاس في تلك الثياب ف قيل له ما هذا يا معاذ؟ أجاب: هذه ثمرة معاشرة الأخوان. وحكى صاحب الأغاني قال حدث محمد بن الحجاج قال كنا مع بشار فأتاه رجل فسأل عن منزل رجل ذكره له فجعل يفهمه ولا يفهم فاخذ بيده وقام يقومه إلى منزل الرجل وهو يقول:

أعمى يقود بصيراً لا أبالكم قد ضل من كانت العميان تهديه
حتى صار إلى منزل الرجل ثم قال له هذا هو منزله يا أعمى.

وكان بشار شاعرا ذا ذوق سهل العبارة صحيح اللغة وذلك لأنه نشأ في البدو بين
بنى عقيل، وكثيرا ما يستشهد بشعره.. وكان أحسن الشعراء المحدثين ابتداء من ذلك
مطلع قصيدته :

أبى طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما
وبالجزع آثار بقين وباللوى ملاعب لا يعرفن إلا توها
وما أظرف قوله :

يا ليلنى تزداد نكرا من حب ما أحبت بكرا
حور إذا نظرت إليك سقتك بالعين خرا
وله أخبار وأشعار عديدة مع امرأة اسمها عبدة، منها قوله .
يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذوالحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا وألف بين العشق والعاشق الصب

وله ميمية بديعة نظمها لأبى مسلم إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يحرضه ويشير
عليه، فلما قتل أبو مسلم خاف بشار أن تشتم ميميته فقلبها وجعل التحريض فيها
على أبى مسلم والمديح والمشورة لأبى جعفر المنصور، ومطلعها :

أبا مسلم ما طيب عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
وله قصائد عديدة فى مدح المهدي، وكان المهدي يصله أولا، ويأمره أن
لا يقول الغزل والنسيب، ولكن بشار لم يسمع له، وكان سبب موت بشار ما حكاه
صاحب الأغاني قال : خرج بشار مرة إلى المهدي ويعقوب بن داود فلم يحفل به يعقوب
يعطه شيئا، ومر يعقوب ببشار وهو يريد منزله فصاح به بشار: طال الثواء على رسوم
المنزل، فقال يعقوب: فاذا تشاء أبا معاذ فارحل، فغضب بشار وقال يهجو :
بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

ولما طالت أيام بشار على باب يعقوب دخل عليه وكان من عادة بشار إذا
أراد أن ينشد أو يتكلم يتفل عن يمينه وشماله ويصفق بإحدى يديه على الأخرى
ففعل ذلك، وأنشد :

يعقوب قد وفد العفاة عشية متعرضين لسيلك المنتخب
فسقيتهم وحسبتي كسوة نبتت لزارعها بغير شراب
مهلا لديك فأننى ريحانة فاشتم بأنفك واسقها بذناب
طال الثواء على تنظر حاجة شمتت لديك ، فمن لها بخضاب؟
تعطى الغزيرة درها فاذا أبت كانت ملامتها على الحلاب

فلم يعطف ذلك يعقوب عليه وحرمه . فانصرف إلى البصرة مغضبا فلما قدم المهدي البصرة أعطى عطايا كثيرة ووصل الشعراء وذلك كله على يدى يعقوب ، ولم يعط بشارا من ذلك ؛ فجاء بشار إلى حلقة يونس النحوى فقال : هل ههنا أحد يحتشم منه ؟ قالوا له : لا ، فأنشأ بيتا بهجو فيه المهدي ، فسعى به أهل الحلقة إلى يعقوب فدخل يعقوب على المهدي ، وقال له : يا أمير المؤمنين أن هذا الأعمى قد هجأك . فقال بأى شيء ، فقال بما لا ينطق به لسانى ، فأمر بضربه حتى مات ، ثم ألقي فى زورق ورمى فى البطيحة فحمله الماء فاخرجه إلى دجلة البصرة ، فأخذ وأتى به أهله فدفنوه ، وبعد ذلك ندم المهدي على قتله حين لا ينفع الندم .

لكن اللغة والفصاحة من معاشره مواليه الذين نشأ فيهم ، ومن أئمة البصرة فى اللغة والأدب والكلام ، ومن اختلافه كثيرا إلى الأعراب الذين كانوا ينزلون بادية البصرة ، حتى خرج نابغة زمانه فى الفصاحة والشعر ، قيل له : ليس لأحد من شعراء العرب شعر ، إلا وقد قال فيه شيئا استشكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه ، وليس فى شعرك ما يشك فيه ، قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت ها هنا ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فנסاؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت ، فمن أين يأتينى الخطأ ؟ وكان فوق ذلك متوقد الذكاء صادق الحس لطيف الهداية ، وكان فى صباه وشبابه معتدل الأخلاق مكبا على تحصيل العلم ، مصادقا لو اصل بن عطاء رأس المعتزلة وعمرو بن عبيد ، إلا أن ذلك لم يدم طويلا ؛ فصرح بعقائد فاسدة فى حديثه وشعره ، ورأى المجون والخروج على العلماء والمتوقرين يحجبانه إلى طبقة الخلاء والمغنين والقيان فاستهتر بهما . ورأى أن أكثر الناس لا يستدر خيرهم إلا بتهديدهم بالهجاء والتشهير بهم ، فسلك معهم هذه الطريق ، وتماذى فى ذلك فأصبح ولعا بالمجون والعبت بالاناس ، قليل المبالاة بشعائر الدين وبالوقعة فيه ،

متهما بالزندقة ، وأنه يدين بالرجعة ويفضل النار على الأرض ، فيصوب رأى إبليس في امتناعه من السجود لآدم ، ويرى أن الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صار شعوبياً متعصباً على العرب ، يغري الموالى بنبذ ولائهم والالتقاء إلى الفرس ، شديد التبرم بالناس ، ثلاباً لهم ، نهاشاً لأعراضهم ، لم يسلم من عقرة لسانه خليفة ولا سوقة ، حتى أهل بيته . وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشاراً ولا يعرفه بشار ، فإنه إن لم يمتحن بلسانه امتحن به في ماله . ففقهه العلماء والمتكلمون وهموا بالوقعة به ، وإراحة الناس منه وخاصة واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، ففر من البصرة إلى أرض الجزيرة الفراتية واتصل ببعض أمراء بني أمية وولاتهم فدحهم وعاش في معرفتهم ، وجاءت الدولة العباسية فاضطرب عيشه فيها بادی الأمر حتى علم بموت عدويه : واصل وعمرو بن عبيد ، فعاد إليها محملاً بعقائد جديدة ومنكرات من الأخلاق ، غير أن نبوغه في الشعر ، وبراعة دعايته شغفت له عند كثير من رؤساء الموالى والمشتهرين بالمجون ، فعاش بقية عمره بالبصرة .

شعره

وقد قال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ، ثم بلغ الحلم وهو مخشى معرفة لسانه ، وكان يقول : هجوت جريراً فأعرض عني واستصغرنى ، ولو أجابني لكنت أشعر الناس .. وكان وهو صغير إذا هجا قوماً جاءوا إلى أبيه ، وكان طياناً يعمل اللب من الطين ، فشكوه إليه ، فيضربه ضرباً مبرحاً ، فكانت أمه تقول له : كم تضرب هذا الصبي الصغير الضير ، أما ترحه ، فيقول بلى والله إنى لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى ، فيسمعه بشار فيطمع فيه ، فقال يا أبت إن هذا الذى يشكونه اليك منى هو قولى الشعر ، وإنى إن تمت عليه أغنيتك وسائر أهلى ، فاداشكونى فقل لهم . أليس الله عز وجل يقول : ليس على الأعمى حرج . فلما أعادوا شكواهم قال لهم ذلك ، فانصرفوا ، وهم يقولون : فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار ، ويقول أكثر رواة الشعر ونقده والباحثون في طبقات الشعراء : إن بشاراً رأس المحدثين ومقدمهم ، وأسبقهم إلى معاينة محسنات البديع وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضري والهجاء المقذع فى الاسلام ، وإنه أول من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، وفتق عن المعانى الدقيقة والاخليلة اللطيفة

والحق أنه الجيد والردىء ، قال عن نفسه : لى إثناعشر ألف بيت عين ، فقليل له . هذا ما لم يكن أحد يدعيه سواك ، فقال : لى إثنى عشرة ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن فى كل واحدة منها بيت عين . وقصارى القول أن شعر بشار هو الحد الوسط بين الشعر القديم والحديث ، وقد طرق فيه كل باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله ، وأربى عليها ، وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والغزل بهن والخروج بذلك عن الحد المألوف عند أهل زمانه ، بما أنكره عليه العلماء والمتأهلون لما رأوا من تولع جوارى البصرة وشبانها بشعره ، وحتى قال سوار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار ما شئ أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى . وما زالا يعظانه ، وكان واصل بن عطاء يقول ، إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات لهذا الأعمى الملهد ، فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدي وقدم عليه مادحا له استنشدته قوله :

قاس الموم تنل بها نجحا والليل إن واره صبحا
لا يؤيسنك من مخدرة قول تغلظه وإن جرجا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمحا
فأنشده إياه ، وكان المهدي غيورا ، فغضب وزجره ، وقال : أتخص الناس على الفجور ، وتقذف المحصنات المخبات : والله أن قلت بعد هذا بيتا واحدا فى تشبيب لآتين على روحك ، فكان بشار إذا تآقت نفسه لقول ذلك ذكر أن الخليفة منعه كذا وكذا ، ويذكر من اللهو وحديث النساء ما يريد ، ويقول إنه مطيع له خائف أن يفعل كيت وكيت ، وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ، فلم يزد على أن حرمه الجائزة عليها ، من ذلك قوله يتبرأ من التشبيب ويمدح الخليفة :

يا منظرا حسنا رأيته من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومنى برد الشباب وقد طويته
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيته
ومخضب رخص البنان بكى على وما بكيته
ويشوقنى بيت الحبيب إذا اذكرت ، وأين يته ؟
قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قليته
ونحنانى الملك الهما م عن النساء وما عصيته

لا بل وفيت فلم أضع عهدا ولا رأيا رأيت
وأنا المظل على العدى وإذا غلا الحمد اشتريته
وأميل في أنس النديم من الحياة وما اشتيته
أصفي الخليل إذا دنا وإذا نأى عنى نأيت

ثم أنشده ما مدحه به بلا تشبيب فخره ، وبهذا الشعر الرقيق تعرف : كيف كان
ولوع شبان البصرة ونسائها وخلعائها يشعروهم وتغنيهم به ، وكيف كان إغراؤه لهم
بالمجون ، وكانت متأدبات القيان لذهاب بصره يحضرن مجلسه ويسمعن شعره
ويتناشدنه ويتغنين ويتمانن به ، فهوى بشار منهن جارية تسمى عبدة ، فشرها
في شعره ، حتى صاولة معها أخبار طائفة وأشعار سائرة : فمن قوله فيها :

يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهم فيها بخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا وألف بين العشق والعاشق الصب
وقوله :

لم يطل ليسلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم
وإذا قلت لها جودى لنا خرجت بالصمت عن ولا نعم
رفى يا عبد عنى واعلى أنتى يا عبد من لحم ودم
إن فى بردى جسما ناعلا لو توكت عليه لانهدم

وكان يولع فى شعره بهذا المعنى وشبهه مع أنه كان ضحكا كأنه فيل .. ومن ذلك قوله :

يا قوم أذن لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
هل من دواء لمشغوف بجارية يلقي بقلبانها روحا وريحانا

وهاجى بشار الشعراء المفلقين فى زمانه : ونصب لهم منهم حماد عجرد ،
واحتدم بينهما اللجاج والتقاذف بالأقوال المقدعة ، وظهر حماد عليه فى بعض
أهاجيه ، مع أن الجيد من هجاء بشار فيه أكثر من جيد هجاء حماد ؛ فهجاء بشار هتك
حماداً ، وبعض هجاء حماد آلم بشارا ، وإن لم يسقط منزلته ، قيل إنه لما هاجاه
حماد بقوله :

ويا أقبح من قرد إذا ما عى القرد

قال : لا إله إلا الله ، قد والله كنت أخشى أن يأتى به ، والله لقد وقع لى هذا البيت من أكثر من عشرين سنة فما نطقت به خوفا من أن يسمع ، فأهجى به ، حتى وقع عليه النبطى ، وقيل ، إنه لما سمعه بكى ، فقال له قائل : أتبكى من هجاء حماد ؟ فقال والله ما أبكى من هجائه ، ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه ، فيصفنى ولا أصفه .. ولبشار من المعانى المستكرة والأخيلة البديعة فى فنون الشعر المختلفة ما جعل منهجه برزخا بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة . وفى ذلك يقول الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين : « كان بشار خطيبا صاحب منشور ومزدوج وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الابداع والاختراع ، المتغنين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه ، . ومن غرر كلامه فى الحكم والنصائح قوله :

إذا بلغ رأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاة فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقاءم
وخل الهوينى للضعيف ولا تكن نووما فإن الحر ليس بنائم
وقوله :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فمش واحدا أو صل أخاك ، فإنه مقارف ذنب مرة وجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وقال أبان بن عبد الحميد : نزل فى ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس عيلان ، وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان بشار يأتهم ، وينشدهم أشعاره التى يمدح بها قيسا ، فيجلونه لذلك ويعظمونه ، وكان نساؤهم يجلسن معه ، ويتحدثن إليه ، وينشدهن أشعاره فى الغزل ، وكنت كثيرا ما آتى فى ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم . فأتيتهم يوما فإذا هم قد ارتحلوا ، فجئت إلى بشار ، فقلت : يا أبا معاذ أعلبت أن القوم قد ارتحلوا ؟ قال : لا ، فقلت : فاعلم ، قال : قد علبت لا علبت ! ومضيت . فلما كان بعد ذلك بأيام سمعت الناس ينشدون :

دعا بفراق من تهوى أبان ففاض الدمع واحترق الجفان
 كأن شرارة وقعت بقلبي لها في مقلتي ودى استئنان (١)
 إذا أنشدت أو نسمت عليها رياح الصيف هاج لها دخان

فعلبت أنها لبشار ؛ فأتيته ، فقلت : يا أبا معاذ ، ما ذنبي إليك ؟ قال : ذنب
 غراب البين ، فقلت : هل ذكرتني بغير هذا ؟ قال : لا ، فقلت : أنشدك الله
 ألا تزيد ، فقال : امض لشأنك فقد تركتك ... ومن غرر شعره قوله :

خليلي إن المال ليس بنافع إذا لم ينل منه أخ وصديق
 وكنت إذا ضاقت على محلة تيممت أخرى ما على مضيق
 وما خاب بين الله والناس عامل له في التقى أو في المحامد سوق
 وما ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقوله :

طبع على ما في غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهذبا
 أريد فلا أعطى وأعطي ولم أرد وقصر على أن أنال المغيبا
 فأصرف عن قصدي وعلى مقصر وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

ومن قوله في الوصف والحماسة :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطى حمر ثعالبه
 غدونا له والشمس في خدر أمها تظالعا والطل لم يجر ذائبه
 بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجي القرار مثالبه
 كأن مشار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
 بعثنا لهم موت الفجاءة إننا بنو الموت خفاق علينا سبائبه
 فراحوا : فريق في الإسار ومثله قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
 إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

ومن قوله في المدح يمدح خالد بن برمك وهو بفارس :

أخالد لم أخط إليك بذمة سوى أنتى عاف وأنت جواد

(١) استن الرجل : مضى على وجهه ، واستن السراب : اضطرب .

أخالد بين الأجر والحمد حاجتي فأيهما تأتي فأنت عماد
فإن تعطيني أفرغ عليك مدائحي وإن تأب لم يضرب على سداد
ركابي على حرف وقلبي مشبع وما لي بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي على سواد
وقوله :

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
غلا أنا منه ما أفاد ذرو الغنى أفدت ، وأعداني فأتلفت ما عندي
وقوله يمدح عقبة بن سلم بن قتيبة :

إنما لذة الجواد ابن سلم في عطاء ومركب للقاء
ليس يعطيك للرجاء وللخوف ولكن يلد طعم العطاء
تسقط الطير حيث ينتثر الحب ، وتغشى منازل الكرماء
ومن قوله في الحماسة يفتخر بولائه لمضر :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلبا
ومن ابتداءاته البديعة قوله :

أبي طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيا
وبالجزع آثار بقين وباللوى ملاعب لا يعرفن إلا توها

٧

آراء النقاد في شعره :

يقول فيه أبو الفرج : محل بشار في الشعر ، وتقدمه في طبقات المحدثين فيه
باجماع الرواة ، ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك ، يغنى عن وصفه وإطالة
ذكر محله ، وهو من مخضرمي شعراء الدولتين الأموية والعباسية ، وقد شهر فيهما ،
ومدح وهجا ، فأخذ سني الجوائز مع الشعراء (١) ؛ وكان يحيى بن الجون العبدى
راوية بشار (٢) ؛ وكان الأصمعي يقول :

بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (٣) ..
وقال أبو عبيدة : سمعت بشاراً يقول وقد أنشدني في شعر الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلما

فأنكره وقال : هذا بيت مصنوع ؛ ما يشبه كلام الأعشى ؛ فعجبت لذلك ، فلما كان بعد ذلك بعشر سنين كنت جالسا عند يونس ، فقال : حدثني أبو عمرو ابن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى ، فجعلت حينئذ أزداد عجباً من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقد الشعر (١) ؛ وسئل أبو عبيدة : مروان عندك أشعر أم بشار ؟ فقال : حكم بشار لنفسه أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ولا يكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية والاسلام هذا العدد ، ومروان أمدح الملوك (٢) .

وسئل الأصمعي عن بشار ومروان أيهما أشعر ؟ . فقال : بشار ، فسئل عن السبب في ذلك ، فقال : لأن مروان سلك طريقاً أكثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقاً لم يسلك وتفرد به ، وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر ، وأغزر وأوسع بديعاً ، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل ؛ وسأله رجل عن مروان بن أبي حفصة فقال : وجدت أهل بغداد وقد ختموا به الشعراء ، وبشار أحق بأن يختموهم به من مروان ، وما كان مروان في حياة بشار يقول شعراً حتى يصلحه له بشار ويقومه ، وهذا سلم الخاسر من طبقة مروان يزاحمه بين أيدي الخلفاء بالشعر ويساويه في الجوائز ، وسلم معترف بأنه تبع لبشار . وقال يحيى بن المنجم : سمعت من لأحصى من الرواة يقولون : أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس ، وفي الاسلام القطامي ، ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أبي طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيماً (٣)

وكان الأصمعي يعجب بشعر بشار لسكثرة فنونه وسعة تصرفه ، ويقول : كان مطبوعاً لا يكلف طبعه شيئاً ، لا كمن يقول البيت ويحككه أياماً ، وكان يشبه بشاراً بالأعشى والناطقة ، ويشبه مروان بزهير والحطيئة (٤) ، وسئل أبو زيد عن بشار ومروان فقال : مروان أجد وبشار أهزل ، فحدث الأصمعي بذلك فقال :

(١) ٢٣ / ٣ (٢) ٢٤ / ٣ المرجع .

(٣) ٢٥ / ٣ المرجع .

بشار يصلح للجد والهزل ، مروان لا يصلح إلا لأحدهما (١) وفضله أبو عمرو ابن العلاء (٢) ، وكان إسحاق الموصلي لا يعتد ببشار ويقول : هو كثير التخليط في نثره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا . وكان يقدم مروان عليه ويقول : هذا هو أشد استواء شعر منه ، وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها ، وكان لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى فيه خيرا (٣) .. وقيل لبشار : إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت فينبأ تقول شعرا يثير النقع وتخلع به قلب الجبان . إذا بك تقول : ربابة ربة البيت ، وأشباه ذلك ؛ فقال : لكل وجه فالقول الأول جد ؛ وهذا قلته في ربابة جاريتي فهذا عندها أحسن من دققانبك . وغضب بشار على سلم الخاسر لأنه سرق معانيه في شعره . وكان يقال : أطبع الناس بشار والسيد وأبو العتاهية وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرتهم (٤) ، وكان إسحاق يطعن على شعر بشار ويضع منه ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضا (٥) ✕

أبو نواس الحسن بن هاني

حياته :

هو أبو علي الحسن بن هاني بن عبد الأول بن الصباح . كنيته الأولى أبو فراس ثم كنى بأبي نواس . كان فارسى الأصل ، أعجمى المحدث ، لذلك أخفى نسبه ونسب أمه الالهوازية الفارسية حتى لا يعرف فيقدح فيه - ولما كبر أبو نواس أكثر من دعاويه وخلط في نسبه ، فادعى أنه بصرى المنشأ ثم ناقض دعوته في قوله ، من قصيدة يهجو بها عزب البصرة :

فان أك بصريا فان مهاجرى دمشق ولكن الحديث فنون
مجاور قوم ليس بينى وبينهم أواصر إلا دعوة وظنون

كما ادعى أنه تيمى النسب فانتسب إلى أولاد عبید الله بن زياد بن ظبيان العامرى التيمى ، فقيل لأبي نواس كيف تدعى نسبك إليه وهو لا عقب له ، لو انتسبت إلى أولاد أخيه أبان بن زياد اصدقناك فجل أبو نواس وترك نسبته إلى تيم ، ثم ادعى أنه من قبيلة نزار وأنه من أحفاد الفرزدق فانتقده الحسك بن قنبر المازنى وهجاه

(١) ٣ج ٢٥ المرجع (٢) ٣ج ٢٦ المرجع (٣) ٣ج ٢٨ (٤) ٣ج ١٢٢ الاغانى

(٥) ٣ج ٤٦ المرجع

فلما هجاه أبو نواس وخندف الاسدى، وأسد بطن من بطون نزار ، تعرض له الحكم وهجاه فترك النزارية ، وادعى أنه من حكم وانتسب إليها مدة حتى زجره يزيد بن منصور الحميرى (خال المهدي) وقال له أنت خوزى من (خوزستان - إحدى ولايات فارس) فالك ولحكم ؟ فرد عليه أبو نواس مضطرا : أنا مولى لهم يا سيدى . وإثر ذلك ترك الحكميون أبا نواس وشأنه ولكنه حنق واغتاظ فسب اليمنيين وهجا رجالاتهم ، فهجا هاشم بن حديج الكندى أحد أشراف اليمن بقصائد كثيرة ولا نعرف سبب تخصيصه هاشما بهجوه وبالإكثار من هجوه إلا أن يكون هو الذى بدأ بأفحامه ليترك دعوته ويهجر نسبه إلى قبيلته ، ولكن الحكميين رأوا أن لسان أبى نواس المقذع لا يكف ولا يسكت ، فقال بعضهم لبعض دعوا أبا نواس فى دعوته فهذا الولاء (الولاء لا النسب) يتعصب لنا ويدافع عنا ويهجو نزارا ألد أعدائنا ، وانفقوا إثر ذلك على أن لا يكذبوه فى نسبه إليهم ، فرجع أبو نواس إلى اليمن نادماً على سبه لهم معتذرا لمن هجاهم من رجالاتهم فاعتذر إلى هاشم بن حديج الكندى بقصائد استلكت سخيمته واسترجعت رحمته ، ومن اعتذاراته له

أتشتم خير ذى حكم بن سعد لقد لا قيت داهية تؤادا
سببت ابن الحديج فسب ظلى لعمر أليك ما استوفى وزادا

أبلغ اعتزاز العرب بنسبهم فى العصر العباسى هذا المبلغ ؟ إلى حد أن يحاول رجل كأبى نواس الانتساب إلى قبيلة والالتجاء إلى جماعة ، وإلى حد أن يعرف أن ذلك المدعى دخيل عنهم مدع عليهم ، وهل العصبية العربية مازالت قائمة لم يضعفها اختلاط الفرس بالعرب ؟ ذلك ما نراه من الاطلاع على تاريخ أبى نواس ، نرى اعتزازاً بالنسب لا يماثله اعتزاز وإكبارا للعصبية لا يداخله إنكار ، والاحتفاظ بالانساب لا يشابه احتفاظهم بعاداتهم وأخلاقهم ، غير أنه من المبالغة أن نقول إن تلك العصبية لم تنقص عما كانت عليه فى أيام الجاهلية ، فلا بد أن يكون الاختلاط أثره ولكثرة عدد القبيلة فعلة ، ولا بد أن تكون هذه العصبية فى الاقاليم البدوية النائية عن الفرس البعيدة عن الاختلاط تخالف العصبية التى توجد لدى الحضريين حيث يكثر مصاهرة العرب للفرس وتجاورهم فى السكنى فيكثر اختلاط الانساب ويصعب حفظها اطمأنت نفس أبى نواس إلى هذه الدعوة واستراحت من جهة النسب ولا سيما بعد أن وجد اليمنيين يتفاضلون به ويحلونه منهم مكانا رفيعا ومقاما خطيرا ويعدونّه من أشرافهم ويحلونه كأمرائهم ، ثم جلس أبو فراس الحسن بن هانىء يوما مع

الأمير خلف الأحمر أحد عمال اليمن ، وكان من أعجب الناس بأبي نواس وأميلهم إليه ، فقال له : أنت من أشرف اليمن فتسكن بكنتها ، بأسماء الذوين (الملوك الذين تبتدىء أسماؤهم بذى) وعد له منها : ذا جدن ، وذا يزن وذا نواس . فضل أبو فراس ذا نواس فكنى بأبي نواس ، وغلبت على كنيته الأولى ... يتضح لنا إذاً أن أبا نواس فارسي الأصل ، أعجمي النجار ، وأنه ليس له نسب بين العرب ، وأن ما شهر عنه من أنه كان حكيماً ماهو إلا نسبه ولاء رضى بها الحكميون وأقروه عليها ، لما أن رأوا فيه الشاعر الفذ النابه

ولد أبو نواس سنة ١٤٥ - ٧٦٢ م ، وقيل إنه ولد قبل ذلك التاريخ بأربع سنين . ولكن أين ولد الشاعر ؟ : أفى البصرة التى نشأ وتربى فيها ، كما يقول أبو نواس فى بيته : فإن أك بصرياً فإن مهاجرى الخ ؟ أم فى قرية من قرى كورة خوزستان الفارسية تدعى (باستان ماتارد) ثم انتقل إلى البصرة بعد ذلك وترعرع فيها ؟ أم فى دمشق حيث كان والده الجندى معسكراً فيها مع جند مروان بن محمد ؟ كل ذلك لا تلقى عليه الروايات قبساً من نور ، ولا شعاعاً من ضياء ، إلا ما نرى من كثرة الروايات التى تروى عنه أنه ولد فى كورة خوزستان فانتقل بعد ذلك مع أمه إلى البصرة ، مما يحملنا على تصديق ذلك الرأى ويجعلنا نشك فى قول أبي نواس : فإن أك بصرياً فإن مهاجرى دمشق .. فلعله أخفى مقر ولادته حتى لا يعلم أنه فارسي فيكون ذلك داعياً إلى تكذيبه فى انتسابه إلى الحكميين . كان جد أبي نواس من موالى الجراح بن عبد الله الحكيمى ، كما كان أبوه من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وكان مقبلاً بالشام ثم نقل لمراقبة الثغور فى الأهواز ، فتزوج منها بامرأة أهوازية تدعى جلبان ، فرزقت بعده أولاد ، منهم الشاعر النابه الذكر ، والرفيع القدر ، أبو نواس .

كان أبو نواس كما أسلفنا إذاً حكى الولاء عجمى النجار ، يفتخر باليمن ، ويحن إلى العجم ، ويذكرهم فى أشعاره ، حنين الابن لأهله والفرع لأصله .

درج الطفل الشاعر على أرض الأهواز ، تسير به سفينة الحياة وحيداً إلا من أمه ، فقد توفى أبوه الجندى فخرج إلى الحياة يفقد شخصه ولا يجد إلا رسمه ممثلاً فى أقارب أمه الذين عطفوا عليه ، وساعدوا إخوته على تكاليف العيش ومتاعب الأيام حتى إذا فقد المعين ، ونضب المعين ، خرجت به أمه من الأهواز إلى البصرة وقد تكامل سنه حولين ، عليها تجد فيها ما يقيم أودها ، ويصلح حالها

والبصرة يومئذ منتجع الشارد، ومقصد الوارد وكعبة المتأدب والعالم، فيها أسواق التجارة منتشرة ذائعة، وألوية العلم مرفوعة خافقة، ونوادى الأدب واسعة فسيحة.. كما كانت حلقة الاتصال بين شرق الامبراطورية الاسلامية وغربها، ومقر التمازج بين الثقافتين العربية والفارسية ومقر المربد خليفة عكاظ

واستقرت أم أبي نواس بالبصرة، وتم لها ما أرادت من حياة بسيطة هادئة فيها شيء من الدعة، ونزر من السعة.

وعرف أبو نواس الوجود منذ رأى البصرة، فحن إلى العلم حين رأى العلماء، وطرب للأدب إذ سمع من الادباء، خف إلى مكاتب القرآن، وجالس العلم ونوادى الأدب، فقرأ القرآن على يعقوب الحضرمي الفقيه المقرئ وحذقه، حتى إن شيخه أعجب به فرمى اليه خاتمه وقال اذهب فانت أقرأ أهل البصرة، ودرس النحو على أبي زيد وأبى عبيدة البصريين، وتعلم العربية، وحفظ كثيراً من القصائد والاراجيز

ولكن أمه البائسة الفقيرة كانت في حاجة إلى ابنها الصغير المهتم بنفسه، العاكف على درسه، ليساعدها على الحياة ويرفها من البؤس

لذلك اقتطفته من بين مجالس العلم والادب ووضعته في حانوت لبعض العطارين غير عابئة بحاله ولا مشفقة على آماله، فكث عنده يعمل معه حين يحضر وقت العمل ويتركه حين تسنح له ساعات الفراغ فيختلف إلى الادباء، ويتعارف بالشعراء، ويتنقل بين المجالس، ثم يعود إلى العطار، فيعمل بيده وجسمه ويفكر بخياله وعقله في معاناة الشعر، ونظم القريض، والترنم بما حفظه من قصائد وأراجيز. كان أبو نواس جميل الصورة، حسن الوجه أبيض اللون، نظيف الهيئة والاشارة

فترك جمال صورته شيئاً في نفوس معاصريه ووجد من وطأة بؤسه مشجعاً له على الترفيه عن نفسه وأمانيه، وكانت البصرة يومئذ تموج بألوف الموالى الذين تدفعهم بواعث خاصة إلى اللهو والمجون والخلاعة والفسوق، فلا نسب يمسكهم على الحياء، ولا شرف يحفزهم إلى الإباء، ولا قوة تجبرهم على التقوى ولا سيد يكرهم على الحسنى، وقد تأثروا بأخلاق بلادهم وعادات قومهم، فصعب عليهم إبدالها، وإن لم يصعب عليهم إخفاؤها.. وصعب على الانسان تغيير عادة وإن لم يكن صعباً عليه خفاؤها. وإذا علمنا أن القرية أو المدينة في العصر العباسي تحالف الحى أو القبيلة في العصر الجاهلى بكثرة عدد سكانها واختلاف نسب أهلها، وازدياد المتردين عليها

عرفنا مدى الصعوبات التي تلاقى الحساكم في التعرف بأخلاق الناس لجزائهم عليها.. هكذا كانت البصرة، وهكذا كانت يثبها ميدانا فسيحا للصالح والطالح، والفضيلة والرذيلة، والحياء والمجون؛ وفي هذا الجو عاش أبو نواس وهو مولى من الموالى الظرفاء، دفعه كما ذكرت دافع من نفسه، وباعث من شخصه، إلى الاختلاط بالمجان، والتقرب من الموالى، فوق الدوافع المساعدة الحافزة، فنشأ ماجنا بطبعه، فكما، كثير الدعابة حاضر البديهة يخب ويضع في أما كن اللهو وشارب الفجور والمجون، ويستمتع وينصت لمعازف القيان وأصوات المغنيات، ويطرب ويبهج لزجاجات السكرم وكاسات الراح.. استمر أبو نواس في حانوته ودأب على ترده على مجالس العلم والادب يشبع رغبته فيهما بالحفظ والدراسة كما دأب على اختلافه إلى الاصدقاء والندماء يطفى غلته بالمداعبة والمنادمة والمعاقرة، حتى رآه أبو أسامة والبة بن الحباب الاسدى الشاعر الكوفى الماجن في حانوته فأعجب بذكائه وجماله فتعرف به قصدا وتودد إليه عمدا، وقال له وقد أراد أن يصاحبه: إني أرى فيك مخايل أرى أن لا تضيعها وستقول الشعر وتعلو فيه فاصحبني حتى أخرجك، فقال: ومن أنت؟ قال: والبة؟ قال أبو أسامة؟ قال نعم؛ قال: أنا والله في طلبك وقد أردت الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك لأخذ عنك، وأسمع منك شعرك قال ولماذا؟ قال: شهوة للقاءك ولايات سمعتها لك: قال، وما هي؟ فأنشده:

جرحت فؤادى بالهوى	فالقلب مجروح النواحي
سئل الخليفة صارما	هو للفساد وللصلاح
أجداه كف أبى الوليد	يدأ مبارية الرياح
ألنى بجانب خصره	أمضى من الاجل المتاح
وكانما ذر الهبا	عليه أنفاس الرياح

فسار أبو نواس وهو شاب يافع مع والبة إلى الكوفة حيث مكث معه ومع جلسائه من ماجنيها وخلعائهما وهم كثيرون عديدون، ولأستاذة والبة الماجن سابق اتصال بهم، وماضى ائتلاف بجمعهم، فازداد عقدهم بأبى نواس تنضيذا ومجلسهم بروحه الفكهة أنسا وتفريدا.. تودد اليهم وتوددوا إليه. وحمل عليهم وحلوا عليه. فاجتمعوا على الشراب وتصافوا بالعتاب، وتفاكروا بقول الشعر، وتنادروا

بعذب الفكاهة ، وتسامروا بحلو الدعابة . هكذا كانوا في الكوفة لهواً ولعباً وفكاهة وسمراً ، يدأبون عليها ويسيرون اليها ، فهي لهم الشغل الشاغل ، والمطلب الاسمى . ووجد أبو نواس في أستاذه والبة مريباً وخليلاً ، ومصاحباً ونصيراً ، فاطمأن اليه ، واتلف بعشيرته . حتى قال والبة فيه :

يا شقيق النفس من حكم غبت عن عيني فلم أنم

كانت الاعراب المقيمة بالمدن ترسل أبناءها إلى البادية ، ليتقنوا العربية ويحذقوا اللغة ، حيث جو البادية هادىء صاف فانهز أبو نواس فرصة سفر وفد من أبناء بنى أسد إلى البادية وطلب من أستاذه والبة أن يخرج معهم فيتعلم العربية والغريب ، فأخرجه مع قوم منهم فأقام بالبادية سنة ، صحت فيها لهجته وخلصت فيها عربيته ، ثم رجع بعدها إلى الكوفة ، إلى أستاذه والبة على ما كان عليه من قبل

تخرج أبو نواس في الشعر على أستاذه والبة الماجن ، وعلى ندماء أستاذه والبة الخلاء ، وعلى من لقيهم وجالسهم من الأدباء . ولكنه بذم جميعاً وفاقهم كافة ، وغطى اسمه على اسمهم فتناقلت الألسنة ذكره ، كما رويت في مجالس السمر فكاهاته ، وفي نوادي المجون دعاباته . فكانت سلوة البائس وأغرودة الماجن

لا شك في أن والبة حقد على أبي نواس تليذه وخليله ، وود لو ينأى عن بلده وإن قام في قلبه وسكن في نفسه كما قال

يا شقيق النفس من حكم غبت عن عيني فلم أنم

ولا شك في أن أبا نواس قد ضاق أفق الكوفة عن أمانيه ، فرغب عنه بعد أن رغب فيه . وعزم على خطوة أوسع ليخطو بها نحو مستقبله ، وتسير بها سفينة آماله . وهكذا كان ما أراد ، فقد ركب قافلة جده حتى وصل إلى عاصمة الاسلام ودار السلام مدينة بغداد

دخل أبو نواس بغداد ، واتصل بالشعراء والأدباء والعلماء والكتاب والوزراء ، ومدح الرشيد ، وقربه منه الرشيد ، ثم غضب عليه لشعوبيته ووصفه للراح ، فحبسه ثم أطلق سراحه .. ثم مات الرشيد وولى الأمين الخلافة بعده ، ولما قدم الفضل بن الربيع بغداد على محمد الأمين بالأموال والقضيب والخاتم حين مات الرشيد ، وقد اشتد فرح الأمين به فقربه وألطفه وقلده الأمور وفوض اليه ما

وراء بابه فهو الذى يولى ويعزل ويحل ويعقد على محمد الأمين، قال أبو نواس يمدحه:

لعمرك ما غاب الأمين محمد عن الأمر يعنيه إذا شهد الفضل
ولولا مواريث الخلافة إنها له دونه ما كان بينهما فضل
لئن كانت الأجساد فيها تباينت فقولهما قول وفعلهما فعل
أرى الفضل للدنيا وللدن جامعاً كما السهم فيه الريش والفوق والنصل
ومن قوله يصف حراقة ركبا الأمين وكانت على مثال الأسد :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن بجرأ سار في الماء راكبا ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو أهت الشدق كالح الأناب
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذا رأوك على صو رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب؟
ذات زور ومنسر وجناحيه من تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما اس تعجلوها بجيشة وذهاب
بارك الله للأمين وأبقا ه وأبقى له رواء الشهاب
ملك تقصر المدائح عنه هاشمى موفق للصواب
ولما أنشد الأمين قصيدته التي يقول فيها :

أيا دارها بالماء حتى تليتها فلن تكرم الصبياء حتى تهينها
أغالي بها حتى إذا ما ملكتها أهنت لإكرام الخليل مصونها
وصفراء قبل المزج بيضاء بعده كأن شعاع الشمس يلقاك دونها

قال له : ألم أنك عن شرب الخمر؟ قال بلى والله يا أمير المؤمنين ، والله

ما شربتها منذ نهيتني عنها ومنعتني من شربها ، وأنا الذى أقول :

أيها الرائيحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شميا
نالتى بالمدام فيها إمام لا أرى لى خلافة مستقيا
فاصرفاها إلى سواى فاني لست إلا على الحديث نديما
كبر حظى منها إذا هى دارت أن أراها وأن أشم النسيما
فكأنى وما أزين منها قعدى يحسن التحكما
كل عن حمله السلاح إلى الحرب فأوصى المقيم ألا يقيما

وأنشده يمدحه :

ألا يا خير من رأت العيون نظيرك لا يحس ولا يكون

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأمين من شرب الخمر ، وذلك أن المأمون أمر الخطباء بخراسان أن يعيبوا الأمين بشعر أبي نواس ، ويقولون : هو جليسه ونديمه وينشدون على المنابر شعره فنعه الأمين ، فقال :

غنتا بالطول كيف بلينا	واسقنا نعطك الشاء الثمين
من سلاف كأنه كل طيب	يتمنى مخير أن يكونا
أكل الدهر ما تجشم منها	وتبقى لسانها الممكنونا
ثم شجت (١) فاستضحكت عن لال	لو تجمن في يد لاقتينا
وإذا ما لمستها فهباء (٢)	يمنع السكف ما يديح العيونا
في كؤوس كأنهن نجوم	باديات كأنها أيدينا
طالعات مع السقاة علينا	فاذا ما غربن يغربن فينا
لو ترى الشرب حولها من بعيد	قلت قوم من قرة (٣) يصطلونا
وغزال يديرها ببنان	ناعمات يزيدنها العسر أيننا
ذاك عيش لو دام لي غير أني	عفته مكرها وخفت الأمينا

وأخيراً أسرف أبو نواس في مجونه فخبسه الأمين ..

ودخل أبو نواس السجن يندب حظه ويبكى جده ، ويذكر أيامه ولياليه ، ويرثى أماله وأمانيه ، تزيده الذكرى جزعاً ويفعمه السجن فرقا وهلعاً ، بيد أنه كان يصبر ويتجلد حتى فرغ صبره ونفذ جلده وخبا سراج أمله الداوى وصدا حسام شبابه الماضي .. فلقد كان يعتمد على حسن ماضيه ورفيع مكانته وأنه في بطانة الخليفة واحد مفرد ، لا ترب يشغل مكانه ولا ندیم يطاوله . ويرتقب لذلك صفح الأمين عليه وعودته ثانياً لديه وتقربه اليه ، فبدد هذا الأمل في فكره أن رسف في قيود السجن ثلاثة أشهر ، والخليفة عنه معرض ، والدهر مدبر والنجم غارب

(١) شجت : مزجت بالماء . ويريد باللال : الحب

(٢) الهباء : ما ينبث في ضوء الشمس كأنه غبار .

(٣) القرة : البرد .

والقيد في عنقه دائم مقيم ، وأخذ أبو نواس قلبه وكتب الأمين يذكره بعبود له
وبقصائده فيه ، ويستشفع بجدده وأبيه وكرم محتده وجميل أباديه ، ثم يعد له الأيام
التي قضاها في سجنه ويعرض له بأمره وحالته تعريض المستشفع ، في مدح يشبه
الرجاء ، وشعر جياش بالثناء :

تذكر أمين الله والعهد يذكر	مقامي وإنشاديك والناس حضر
ونزى عليك الدر يادر هاشم	فيامن رأى درا على الدر ينثر
أبوك الذي لم يملك الأرض مثله	وعمك موسى صنوه المتخير
فمن ذا الذي يرمى بسهمك في الوري ؟	وعبد مناف والداك وحمير
تحسنت الدنيا بوجه خليفة	هو الصبح إلا أنه الدهر مسفر
يشير إليه الجود من وجناته	وينظر من أعطاه حين ينظر
أيا خير مأمون يرجى : أنا امرؤ	أسير رهين في سجونك مقبر
مضت لي شهور منذ حبست ثلاثة	كأنني قد أذنبت ما ليس يغفر
فإن كنت لم أذنب فقيم سجنتي ؟	وإن كنت ذا ذنب فعمفوك أكبر

وصلت الرقعة للأمين فطوى كشحه عنها ، لأن نار غضبه لم تخمد ، وقبس عفوه
لم يوقد .. غير أن السجين المرتقب لم يسكت ، فأرسل للخليفة ثانية مستشفعاً فلم يصفح ،
فبرم أبو نواس بالسجن ، وضاق به ذرعا لا سيما وقد أحس بالшиб ، ووهن
الكبر قد سرى في عظمه ، وضعف السقم بدأ يشعر بألمه ، فطلب السلوة فلم يجدها
إلا في نفسه ، والنديم فلم يره إلا في شعره ، فكان ينظم إذا هاجته عواصف الذكرى أو
ألمت به أطياف الخيال ، لا في الحز والندمان ، ولكن في الشكوى من الزمان ،
والترحم بالأصحاب والاخوان . عادة المسكوم إذا ما طله الفرج وديدن المحبوس إذا
فارقه الصبر .. ولما اشتد به الحال ... أكثر الشكابة وتمنى أن يقيض له المأمون
لينقذه عما هو فيه ... فأنشد :

يارب إن القوم قد ظللوني	وبلا افتراف معطل حبسوني
وإلى الجحود بما عرفت خلاله	ربي اليك - بكسبهم - نسبوني
ما كان إلا الجرى في ميدانهم	في كل درب ، والمجانة ديني
لا العذر يقبلها ويفرق شاهدي	منهم ولا يرضون حلف يميني
أما الأمين فلست أرجو دفعه	عني ، فمن لي اليوم بالمأمون ؟

ينس إذا أبو نواس من صفح الأمين . لا بل ينس من دفع ضره ، ولم يبق له من رجاء وأمل إلا أن يغلب المامون أخاه على أمره فينقذه بما هو فيه . . . ورضخ لحكم الله مكرهاً ، وسكن لصروف الزمان عاجزاً . حتى ذهب إلى بغداد صديقان من أصدقاء أبي نواس ، وأديبان من أدباء العربية ، هما ابن حبيب ، ومؤنس بن عمران ، فتذكرا رفيقيهما أبا نواس ، فذهبا يزوران في سجنه ، ولما أن عرف أن وجهتهما إلى الفضل بن الربيع ، أعطى لهما رقعة فيها هذه الأبيات :

ما من يد في الناس واحدة	كيد أبو العباس مولاها
نام البغاة على مضاجعهم	وسرى إلى نفسى فاحياها
قد كنت خفتك ثم أمتنى	من أن أخافك خوفك الله
فغفوت عنى عفواً مقتدر	وجبت له نعم فالقاهها

ورجما مؤنس أن يسعى في توصيلها إليه . وأعطاه إياها . ووصلت الرقعة للفضل فلم ينس صاحبها أبا نواس ، ولم ينس قصائده فيه . وغرره التي توجه بها ، فسعى عند الأمين . حتى بلغ سعيه الفوز ، فاطلق سراح أبي نواس السجين المعذب . أطلق سرحه ، فخرج من السجن خائر القوى ، سقيم الجسم ، كثير العلل . . فكتب إلى أهله ينبئهم بخبر خروجه من السجن :

إني أتيتكم من القبر	والناس يحسبون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت	عيني إلى ولدى ولا وبرى
الله ألبسنى به نعماً	شغلت جسامتها يدى شكرى

ويروى أنه لما حبس أبو نواس في شرب الخمر (١) آلمه الحبس وكان للفضل بن الربيع خال يستعرض أهل السجون ويتعاهدهم ويتفقدهم ، ودخل في حبس الزنادقة فرأى فيه أبا نواس . ولم يكن يعرفه . فقال : يا شاب ، أنت مع الزنادقة ! قال معاذ الله ! قال : فلعلك ممن يعبد الكباش ؟ قال : أنا آكل الكباش بصوفه ! قال : فلعلك ممن يعبد الشمس ؟ قال : إني لا تجنب القعود فيها بغضا لها ! قال . فبأى جرم حبست ؟ قال : حبست بتهمة أنا منها برىء ! قال : ليس إلا هذا ! ، والله لقد صدقتك . فجاء إلى الفضل فقال له : يا هذا ، أيحبس الناس بالتهمة ! قال وما ذاك ؟ فأخبره بما أدعى من جرمه ، فتبسم الفضل . ودخل على محمد الأمين فأخبره بذلك ، فدعا

به ، وتقدم اليه أن يجتنب الخمر والسكر : قال نعم ، قيل له : فبعهد الله ! قال : نعم ! فأخرج . فبعث إليه فتیان من قریش ، فقال لهم : إني لا أشرب ، قالوا : وإن لم تشرب فأنسنا بمحدثك . فأجاب ، فلما دارت الكأس بينهم قالوا : ألم تر تخ لها ؟ قال : لا سبيل والله إلى شربها ، وأنشأ يقول :

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شميما
إلى آخر هذه القصيدة الرائعة الجميلة .

ذهب أبو نواس إلى أهله ناسيا ماضيه ، تاركا مجون أيامه الأولى ، ناظرا إلى الموت نظرة الخائف ، وإلى الحياة بعين اليأس ، وإلى الله بعبرة التائب وزفرة المنيب ، وفي هذه الأثناء كانت جيوش المأمون قد دهمت بغداد بقيادة قائده طاهر بن الحسين وانتهى الأمر بدحر جيش الأميين ، والقضاء على ملكه ونفسه معا ... قتل الأميين ، ياله من خير مؤلم حقا وقع في نفس أبي نواس النديم الوفي المخلص وقوع الصاعقة ، وتذكر أبو نواس أيامه مع الأميين ، تلك الأيام التي غالبت الصروف ، وصارعت الحوادث وعصرت عود الزمن وذاق أبو نواس فيها أفويق السعادة ؛ فانطلق لسانه برثائه يحركه الوفاء على رغم ما كان بينهما آخر المدة من إعراض وفتور ، وفي هذه القطعة يتمثل لك وفاء أبي نواس صورة حية لقلبه وعواطفه الصادقة :

طوى الموت ما بيني وبين (محمد) وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل إلا عبرة تستديمها أحاديث نفس ما لها الدهر ذاكر
وكننت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيء عليه أحاذر
لئن عمرت دور بمن لا أوده فقصد عمرت بمن أود المقابر

كما رثاه بغير هذه ، من القصائد الناطقة ، التي تدل على إخلاص أبي نواس لصاحبه الراحل ، الخليفة محمد الأميين .

وفئت لذة الشباب عند أبي نواس وبقيت عبرة المشيب تعظه وتذكره الآخرة ، وتزهده في الدنيا ، فاستنjab أبي نواس لداعيا فأكثر من الندم على ما فرط في جنب الله ، والاستغفار على ما قدم من ذنوب ، حتى روى أنه صاغ خاتمين له : نقش في أحدهما : يشهد ابن هاني أن الله واحد ، وفي الثاني هذا البيت

تعاضني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما
ولم يكتف بالندم والاستغفار بل عف ونسك وزهد ، ونسى عادات الشباب

وأخلاق المجان والعكوف على اللهو والشراب ، وتعرف إلى المسجد والجماعة وصار بذلك مغرماً ولوعاً ؛ ويبسود أن أبا نواس قد تاب على يد الفضل بن الربيع بعد خروجه من السجن وذلك أقرب إلى العقل ، فالمفهوم أن أبا نواس حين أطلق سراحه ، بلغ شكره للفضل في رقعة فيها هذه الأبيات

أصبحت غير مدافع مولاكا والحظ لي أنى أكون كذاكا
لله درك أى رهن منية بالأمس كنت ، وهالكاً لولاكا
أصبحت معتدا على بنعمة ما كان ينعمها على سواكا

ثم توجه إلى أهله ؛ فأشبع غلة شوقه برؤيتهم . وذهب للفضل يشكره على يده وحسن صنيعه . وطبعاً شمل الحديث بينهما ذكر السجن والوشاة ، فنصح الفضل له بأن يغير ماضيه الذى كان تكأة للوشاة فى وشيهم ، والمفترين ضده فى افتراءهم ، فوعده أبو نواس بأن يسير كما أشار . وتاب على يده توبة نصوحاً . . فذلك أصدق فى نظر العقل ، وهو ما تؤيده أقوال أبي نواس فى الفضل . وان شئت فاقرا :

أنت يا ابن الربيع الزمتنى الفضل عودتنيه والخير عاده
فارعوى ياطلى ، وأقصر حبلى وتبدلت عفة وزهاده
لو ترانى ذكرت بن الحسن البصرى فى حسن سمته أو قتاده
المسابيح فى ذراعى والمصحف فى لبتى مكان القلاده
ولقد طال ما شقيت ولكن أدركتنى على يدك السعاده

مضى أبو نواس على سنن الهدى والصلاح ، ولكن سراج حياته كان آخذاً فى الانطفاء ، ومدد روحه كان وشيك الانتهاء ، فذب فيه السقام علواً وسفلاً ، حتى لكأن أعضاؤه السقيمة تموت متتالية وهو حى يراها . ويأسف شد الأسف أن تذهب أيامه الطويلة فى حاجة نفسه ولا يذكر طاعة الله إلا هزلاً كبيراً مشرفاً على الزوال ، ويتحسر كل التحسر أن مضت أيام الشباب لهواً ولعباً ، ويطلب من الله العفو والصفح ، فى أبيات لولم يكن لأبى نواس غيرها فى ميدان الادب ، وميدان العمل الصالح ، لكفته ؛

دب فى السقام علواً وسفلاً وأرانى أموت عضواً فعضواً
لطف نفسى على لىالى وأيام تجساوزتن لعباً ولهواً
قد أسأنا كل الأساءة فالله هم صفحا عنا ، وغفراً وعفواً
ذهبت جدتى بحاجة نفسى وتذكرت طاعة الله فاضسوا

وبعد قليل انطفأت الشعلة ، وهدم الجسم الدائب ، وسكن هذا القلب الخافق ،
وفاضت روح أبي نواس الشاعر في بغداد سنة ١٩٩ هـ ، وصعدت إلى السماء بعد
صراع طويل أوله للباطل وآخره للحق . ونزاع كبير بدايته للعالم ونهايته للآخرة
شعره وأثره في الأدب :

كان شعر بشار برزخا بين الشعر القديم والحديث ، وجاء بعده شعر أبي نواس
في فنونه وألفاظه ومعانيه مثالا محدثا جامعا لكل ما تصوره المحدثون في الشعر
من جد وهزل وجزالة وسهولة ، فهو رأس المحدثين بعد بشار ، وأشهر من كانت له
طريقة في الجد والهزل والهجاء ، غير أن بشارا كان لا يزال على بقية من الاحتشام
والتوقر ، فلم يهتف بالخنز في شعره إلا لماسا ، ولم يعجبه الغزل بالمذكر ، ولم يسلك
مسالك التأنيث في غزله مهما أسف فيه ورقق وسهل . وأبو نواس سلك طريقته
في المجون والهزل ، وركب رأسه في الاستهتار بالمصارحة بالفسق والفجور ،
وجاهر بالدعوة إلى شرب الخمر ووصفها وصفا لم يبلغه قبله شاعر لا في جاهلية
ولا إسلام ، وشذ عن مألوف العرب بصرفه التشبيب والغزل من أوصاف المؤنث
إلى أوصاف المذكر وخلع العذار في هذا الغزل وفي الخمرات ، حتى أصبح مثالا لمن
نشأ في عصره أو بعده من الخلفاء والمجان ، وحتى رسخ هذا اللون من الغزل
والخمرات بعد حين في أغراض الشعر .

وكان أبو نواس في مدائح الخلفاء وأهل الجد والتوقر من الوزراء والولاة
والقواد يفخم الألفاظ ويتخيرها ويجيد رصفها ، ويكثر من الغريب فيها ، ويسلك
غالبا مسلك القدماء في تقديم النسيب على طريقة العرب ، ووصف الرحلة
إلى الممدوح ، وإن ثار أحيانا على هذه الطريقة ، فدعا إلى افتتاح القصائد بوصف الخمر
وكان في طردياته أعرايبا في شملة لا يصدق من يقرؤها أنها صادرة من
حضري خليع مثل أبي نواس

والمشهور عنه في قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم ينحى عليها بحذف
الردى والمكرر وبالتهذيب والتثقيف حتى يصير كلها عيونا ، فهو من أمثال زهير
والخطيمية والاختل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة .

وكان إذا مدح أصدقاؤه ومن له عليه دالة ، راعى أسلوب الحضريين في دماثه
ولينه ورقة نسيجه ، ومهد للمديح بدم الديار والأطلال والنوق والجمال ودعا إلى

معاقة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغانى ومباكرة الرياض ونحو ذلك .
وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد .

وكذلك كان يرقق القول فى المقطعات والخزيات ، ويسف إلى أن يقارب العامة فى المجونيات ويكثر فيها من الألفاظ المولدة أو الدخيلة .

وجمع أبو نواس فى شعره خلاصة من معانى شعر المتقدمين من الجاهليين والاسلاميين ، وأضاف إليها صوراً جديدة من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى وبالحضارة الاسلامية العربية وعلومها وآدابها ، على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين فى الجذ والهزل ، وأشهر من حاكاه منهم وصب على قوالب معانيه بشار بن برد .
وأكثر معانيه المبتكرة هى فى الخزيات والغزل بالمذكر .

ولقد قال أبو نواس الشعر فى كل الأغراض ، وغلب عليه :

الغزل الماسجى بالمذكر والمؤنث والتفنن فى وصف الخمر وتشبيهها والدعوة إليها والنشوة بها وذكر سقاتها وندمائتها وصبوحها وغبوقها ، وتغلغل فى ذلك ما شاء .

ثم الهجاء ، وكان منه المقبول الذى سلك فيه مسلك التهكم والتنادر على المهجو ، ومنه المقذع الفاحش الذى سلك فيه مسلك العامة فى تسابها ومهازرتها ؛ فهجا الأفراد والجماعات والأمم : هجا مضر وقبائلها ، وفى هجائها حبسه الرشيد ، ثم هجا العرب وأهل باديتها منتسباً إلى كسرى . واستتبع هجومه لمضر خاصة أن افتخر باليمن ، وهجومه للعرب عامة أن افتخر بالعجم ، وانتسب إلى كسرى ، وظهر بمظهر الشعوبية ؛ وهجا نيل مصر لأنه رأى فيه تمساحاً التقم رجلاً .

ثم الطرد ووصف الصيد من الوحش والطير ، وآلة الصيد من الكلاب والجوارح والخيل ، وله فيه أراجيز تعد غاية فى فصاحة اللغة

ولم يكن المدح والثناء أهم مقاصده من شعره وإن تكسب بهما ، ولكن مدحه على قلته بالاضافة إلى بقية شعره أبلغ شعره وأجوده وأرصنه ، وله فيه قصائد جاراه فيها خول الشعراء ، ولا يزالون يعارضونها إلى اليوم .

ومن العجيب أن مثل أبى نواس فى عبثه وتماجنه يفسح للزهديات من شعره باباً واسماً اشتمل على مقطعات ؛ منها ما هو غاية فى الباب ، وكانت جديدة أن تصدر

عن أبي العتاهية ، والحق أنه لم ينظم هذا النوع إلا مكيدة لأبي العتاهية وتغفوا عليه، وإظهارا لقدرته على النظم في أى غرض X

وأشعار الحسن بن هانئ في الزهد كثيرة ، منها المقطوعات والقصائد ، ومنها ما جاء خالصا غير مشوب ، ومنها ما انتثر حتى في قصائد مجونه وخمرياته ، ولقد قال أبو العتاهية : قد قلت في الزهد عشرين ألف بيت ووددت أن لى مكانها الآيات الثلاثة التى قالها أبو نواس :

يا نواسى توقـر وتعز وتـصبر
إن يكن ساءك دهر إن ما سرك أكثر
يا كبير الذنب عـفـ والله من ذنبك أكبر

ومنها :

أعظم الأشياء من أصغر من عفو الله أصغر
ليس للإنسان إلا ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبـير ، بلى الله المدبر

وفي كتاب ابن منظور : قال أبو مخلد الطائى : جاء أبو العتاهية إلى عندى فقال لى : إن أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول فى الزهد شيئا ، فإنى قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ، وللزهد شوقى . فبعثت إلى أبى نواس فجاء إلى وأخذنا فى شأننا وأبو العتاهية لا يشرب النبيذ معنا ، فقلت لأبى نواس : إن أبا إسحق من قد عرفت فى جلاله وتقدمه قد أحب أنك لا تقول فى الزهد شيئا ، فوجم أبو نواس عند ذلك وقال يا أبا مخلد : قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هذا ، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه ما يتوب به كل خليع ، وقد فعلت ، ولا أخالف أبا إسحق فيما ذهب إليه ، .

ويروى ابن منظور (١) أن أبا العتاهية كان يقول : سبقنى أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أنى سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

وقوله :

من لم يكن لله متهما لم يس محتاجا إلى أحد
وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشف له عن عدو في ثياب صديق
ومن جد أبي نواس ما قاله يمدح الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين .
لقد نزلت أبا العباس هزلة ما إن ترى خلفها الأبصار مطرحا
وكلت بالدهر عينا غير غافلة من جود كفك تأسو كل ما جرحا
وقال يمدحه أيضا :

قولا لهرون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على ما بك من قدرة فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
وقال في الموعظة :

ألا كل حي هالك وابن هالك وذو حسب في الهالكين عريق
فقل لمقيم الدار إنك ظاعن إلى سفر نائي المكان سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشف له عن عدو في ثياب صديق

وقال في الكبير ينشأ عن الصغير ، وفي الجد يتولد من الهزل ، وفي النافع ينجم
عنه ضار :

أية نار قدح القادح وأي جد بلغ المازح
لله در الشيب من واعظ وناصح لو قبل الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح
وقال في عزة النفس ولو صدرت عن غيره لكانت به أخرى :

ومستعبد إخوانه بثرائه لبست له كبرا أبر على الكبير
إذا ضمنى يوما وإياه محفل يرى جانبي وعرا يزيد على الوعر
أخالفه في شكله وأجسره على المنطق المنزور والنظر الشرور
وقد زادني تها على الناس أننى أرانى أغناهم وإن كنت ذا فقر
فوالله لا يبدى لسانى حاجة إلى أحد حتى أغيب في القبر
فلا يطمعن في ذاك منى طامع ولا صاحب التاج المحجب في القصر
فلو لم أرث غفراً لكانت صيدانى عن الناس حسبي من سؤال من الفخر

وكان قوله : « فلا يطمعن — البتة ، سبيا في غضب الأمين عليه .
ومن هزله قوله في الخمریات :

دع عنك لوى فإن اللوم لغراء وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها إن مسها حجر مسته سواء
أراء النقداد فى شعره :

كان أبو عبيدة يقول : ذهبت الين بجذ الشعر وهزله ، امرؤ القيس بجده
وأبو نواس بهزله ، وكان يقول : ذهبت الين بجذ الشعر فى قديمه وحديثه ،
امرؤ القيس فى الأوائل وأبو نواس فى المحدثين ، وكان يقول : شعراء الين ثلاثة ،
امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس ، وقال أيضا : أبو نواس فى المحدثين
مثل امرئ القيس فى المتقدمين ، فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعانى ، وأرشدهم
إلى طريق الأدب والتصرف فى فنونه ، وكان يقول : يعجبني من شعراء أبي نواس
قوله .

بنينا على كسرى سماء مدامة مكلفة حافاتها بنجوم
فلو رد فى كسرى بن ساسان روحه إذا لاصطفانى دون كل نديم

وسئل يعقوب بن السكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء ، فقال : إذا
أردت من الجاهليين ، فلا امرئ القيس والأعشى ، ومن الإسلاميين فلجرب
والفرزدق ، ومن المحدثين فلا أبى نواس فحسب ، وقيل للعتبي : من أشعر الناس ؟
قال : عند الناس أو عندي ؟ قيل عند الناس ، قال : امرؤ القيس ، قيل : فعندك ؟
قال : أبو نواس . وقال عبد الله بن محمد بن عائشة : من طلب الأدب فلم يرو شعر
أبي نواس فليس بتمام الأدب ، وسئل : من أشعر المحدثين ؟ فقال الذى يقول :

كان ثيابه أطلعه من أزراره قمرأ
يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا
بعين خالط التفتير (١) من أجفانها الحورا

(١) التفتير : الفتور .

ووجه سابري (١) لو تصوب ماؤه قطراً
وقد خطت حواضنه له من عنبر طررا (٢)

وقال إبراهيم بن العباس الطويل : إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه ، وكان أبو نواس يقول عن نفسه : سفلت عن طبقة من تقدمني من الشعراء وعلوت عن طبقة من معي ومن يجيء بعدى ، فأنا نسيج وحدى .

وحدث جماعة من الرواة ممن شاهد أبا نواس قالوا : كان أقل ما فى أبي نواس قول الشعر ، وكان خلا رايه عالماً . وقال أبو عبيدة : بلغنى أن أبا نواس يتماطى قرص الشعر ، فتلقانى وهو سكران ما طر (٣) شاربه بعد ، فقلت له : كيف فلان عندك ؟ فقال : ثقيل الظل جامد النسيم ، فقلت : زد ، فقال : مظلم الهواء منبت الفناء ، فقلت زد ، فقال : غليظ الطبع بارد الشكل ، قلت : زد ، فقال : وخم الطلعة عسر القلعة (٤) ، قلت : زد ، قال : نأتى الجنبات بارد الحركات ، قال : فخففت عنه ، فقال : زدنى سؤالا أزدك جوابا ، فقلت : كفى من القلادة (٥) ما أحاط بالعنق . وقال سليمان بن أبى سهل لأبى نواس : ما الذى استجيد من أجناس شعرك ! فقال : أشعارى فى الخمر لم يقل مثلها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعرى إن لم يزاحم غزلى ماقلته فى الطرد (٦) . وكان يقول : ما قلت الشعر حتى ووبت لستين امرأة من العرب ، منهن الخنساء ولىلى فما ظنك بالرجال ؟ وأنى لأروى سبعمائة أرجوزة ما تعرف . وكان قد استاذن خلفا فى نظم الشعر فقال : لا آذن لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة ، فغاب عنه مدة وحضر اليه فقال له : قد حفظتها فقال : أنشدها ، فأنشده أكثرها فى عدة أيام ، ثم سأله أن يأذن له فى نظم الشعر ،

(١) سابري منسوب إلى سابور على غير قياس وهى كورة بفارس .. يوصف به الجيد . وتصوب : تسفل . (٢) طرر جمع طرة . والحواضن جمع حاضنة وهى المربة .

(٣) طر : نبت (٤) عسر القلعة : لا يقلع إلا بصعوبة

(٥) القلادة : ما يحيط بالرقبة من الحلى ، وهذا مثل

(٦) الطرد من طرد الصياد كفرح زاول الصيد ، فالطرد مزاوله الصيد

فقال له : لا آذن لك إلا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها ، فقال له : هذا أمر يصعب على فاني قد أتقنت حفظها ، فقال له : لا آذن لك إلا أن تنساها ، فذهب إلى بعض الديرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيته حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط ، فقال له : الآن فانظم الشعر. وكان أبو نواس يقول لا أكاد أقول شعرا جيداً حتى تكون نفسي طيبة وأكون في بستان مهـنق وعلى حال أرتضيها من صلة أوصل بها أو وعد بصلة ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها ، كان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ثم يعرضها على نفسه فيسقط كثيراً منها ويترك صافيها ولا يسره كل ما يقذف به خاطره ، وكان يهمله الشعر في الخمر فلا يعمل له إلا في وقت نشاطه ، ولم يكن في الشعر لا بالبطيء ولا بالسريع بل كان في منزلة وسطى . وكان الأصمعي يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيت واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعيفة كـ الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالافاقة من سقم
واني لآتي الأمر من حيث يتنى ويعلم سهمي حين أنزع (١) من أرمي

وقال العتاني لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس : والله لو أدرك الخبيث الجاهلية ما فضل عليه أحد. وقال أبو عمرو والشيباني : أشعر الناس في وصف الخمر ثلاثة : الأعشى (٢) والأخطل وأبو نواس : قال محمد بن عمر لم يكن شاعر في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته وبعد صيته وظرف لسانه : وقال أبو حاتم سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردت أن أجد قلت مثل قصيدي : « أيها المقتاب عن عفره » ، وإذا أردت العبث قلت مثل قصيدي : طاب الهوى لعميده » ، فأما الذي أنا فيه وحدي وكله جيد فاذا وصفت الخمر . وقال أبو ذكوان كنا عند التوزي فذكرت عنده أبا نواس فوضع منه بعض الحاضرين ، فقال له التوزي : أتقول هذا لرجل يقول :

(١) نزع بالسهم كضرب : رمى

(٢) الأعشى : شاعر جاهلي مشهور

يخافه الناس ويرجونه كأنه الجنة والنار
ويقول :

وما فاته جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير
ويقول :

قتمشت في مفاصلهم كتمشى البرء في السقم
وقال ابن الأعرابي يوما لجلسائه : ما أشعر ما قال أبو نواس في الخمر ؟
فقال بعضهم :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا
وقال آخر :

كان كبرى وصغرى من فقايعها حصباء در على أرض من الذهب
وقال آخر :

فكان الكئوس فينا نجوم دائرت بروجها أيدينا
وقال آخر :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لومسها حجر مسته سراء
فقال ابن الأعرابي : إن هذا كله لشاعر انفرد بالاحسان فيه ، وتقدم من
سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لا ينزل الليل حيث حلت فدهر شراها نهار
قال مسلم بن بهرام : لقيت أبا العتاهية فقلت له : من أشعر الناس ! قال : تريد
جاهليها أو إسلاميها أو مولدها ؟ قال : كلا أريد ، قال الذي يقول
في المديح .

إذا نحن أنيننا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذي نثني
والذي يقول في الزهد :

ألا رب وجه في التراب عتيق ويارب حسن في التراب رقيق
ويارب حزم في التراب ونجدة ويارب رأى في التراب وثيق
فقل لقريب الدار إنك راحل إلى منزل نائي المحل سحيق (١)
وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عزيز
إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

وكان يقول : سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أني سبقته إليها بكل
ما قلته فانه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
وقوله :

من لم يكن لله متهما لم يمس محتاجا إلى أحد
وقوله :

إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق
ثم قال : قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت وددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه
الآبيات. وقال الجاحظ : سمعت النظام يقول - وقد أنشد شعرا لأبي نواس - كأن
هذا الفتى جمع له الكلام فاختر أحسنه . وقال بعضهم : كأن المعاني حبست عليه
فأخذ حاجته وفرق الباقي على الناس . وقال أبو حاتم : كانت المعاني مدفونة حتى
أثارها أبو نواس. وورد على العتابي بحلب عدة من الكبار من أهل قنسرين (٢)
فدخلوا وسلخوا وكان في يده رقعة ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سلك صاحب هذه
الرقعة واديا ما سلكه أحد قبـله ، فنظروا فاذا هو شعر أبي نواس في جنان
وهو قوله :

ربع الكرى بين الجفون محيل (٣) عني عليه بكى عليك طـويل
يا ناظراً ما أقلمت لحظاته حتى تشحط (٤) بينهن قنيل

(١) سحيق : بعيد من سحق ككرم وفرح

(٢) كورة بالشام منها حلب . (٣) محيل : أتت عليه أحوال أي سنون -

(٤) تشحط بالدم : تضرع به .

وقال أبو عبد الرحمن الضرير: رأيت مسلم بن الوليد بجرجان وهو يتولاها فسألني عن خلفت من الشعراء ، فقلت له : أما من الكوفيين فأبو نواس وهو مقدم عندهم ، فقال : ويحك ! كيف يتقدم وهو يقول : رويدك يا إنسان لأنت تقفز ، رأيت قوله «تقفز» خرجت من بين فكي شاعر قط ؟ ثم قال : ويحك ! وكيف يكون كذلك وهو يحيل (١) ويتخطى من صفة المخلوق إلى صفة الخالق ؟ فقلت : مثل ماذا من قوله ؟ قال : أما فيما أحال ، فكقوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
وهذا من الاغراق المستحيل في العقول وما ليس على مذهب القوم ، وأما في
تخطيه بصفة المخلوق إلى صفة الخالق فكقوله :

يجل أن تلحق الصفات به فبكل خلق خلقه مثل
وكقوله :

برىء من الأشباه ليس له مثل

وما قيل عن أبي نواس : إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يحسنهما ، وأجود شعره في الخمر والطرده ، وأحسن ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سرقه ، وحسبك من رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يحسن أن يبني عليه حتى يجيء به قبيحا مثل قوله: ودواني بالتي كانت هي الداء، أخذه من قول الأعشى: وأخرى تداويت منها بها، والذي أخذه منه أحسن ، ومنها أيضا قوله: إن الشباب مطية الجهل، أخذه من قول النابغة الجعدي: فان مطية الجهل الشباب، وقوله: كطلعة الأشمط من إهابه (٢) أخذه من قول أبي النجم كطلعة الأشمط من كسائه ولكن رزق أبو نواس في شعره أن سار وحمله الناس وقدمه أهل عصره ، وإن له على ذلك لأشياء حسانا لا يدفعها ولا يطرحها إلا جاهل بالكلام أو حاسد .

وتوفي أبو نواس عام ١٩٨ هـ أو ١٩٩ هـ عن ٥٩ سنة .

(١) يحيل : يأتي بالحال .

(٢) الإهاب: الجلد

أبو العتاهية

١٣٠ — ٢١٣ هـ

هو أبو اسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، المعروف بأبي العتاهية الشاعر المشهور، ولد سنة ١٣٠ هـ — ٧٤٨ م بعين التمر، قيل لما غزا خالد بن الوليد عين التمر سبي كيسان مع جماعة من صبيان أهلها فوجههم إلى أبي بكر فوصلوا إليه وبحضرة عباد بن رفاعة العنزي فجعل أبو بكر يسأل الصبيان عن أنسابهم حتى أتى على كيسان فذكر له أنه من عنزة فلما سمعه عباد استوهبه من أبي بكر فأوهبه له فأتته فتولى عنزة. وكان أبو اسماعيل القاسم حجاجاً من أهل درجة ولذلك كان أبو العتاهية يقول لمن عبره في نسبه :

إلا إنما التقوى هي العز والكرم وحبك للدنيا هو الفقر والعدم
وليس على عبد تقى نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أوحجم

ونشأ أبو العتاهية بالكوفة وكان هو وأهله يعملون الجرار الخضر ويبيعونها، وقيل بل إن عبيد زيد أخيه كانت تعمل له الخزف والجرار وكان زيد يبيعها ويوردون شهادة على ذلك قول أبي العتاهية : أنا جرار القوافي وأخي جرار التجارة ، وكان على ما يحكى رجلاً نظيفاً أبيض اللون أسود الشعر له وفرة وجعدة وهيئة حسنة ولبافة وحصافة ، وكفى بأبي العتاهية لأنه كان يحب الشهوة والمجون والتعته ، قيل إن الخليفة المهدي قال له يوماً أنت متحذاق متعته ، فاستوت له كنية وسارت له في الناس . . وشعر أبي العتاهية لطيف المعاني سهل الالفاظ قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط والمرذول ، كان الأصمعي يقول : شعر أبي العتاهية كساحة الملوك فيها الجواهر والذهب والتراب والخزف والنوى ، وأكثر شعره في الزهد والأمثال ، قال المبرد د أبو العتاهية حسن الشعر قريب المأخذ ، لشعره ديباجة ويخرج القول كخرج النفس قوة وسهولة واقتداراً ، وكان أبو العتاهية يقول د لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت . . وامتدح أبو العتاهية الخليفة

المهدى وكان يحضر نأديه وينال بره وتعرف بجاريته عتبة وأخذ يذكرها في شعره ،
فغضب المهدي لذلك وأمر بحبسها فكتب إليه يستعطفه :

ألا أيها الملك المرجى عليه نوااض الدنيا تحوم
أقلنى ذلة لم أجر منها إلى لوم ولا مثلى ملوم
وخلصنى تخلص يوم بعث إذا للنار برزت الجحيم

فرق له وأمر باطلاق سراحه. ولما بويح الهادى استخنى أبو العتاهية خوفاً منه وكان
الهادى ينقم عليه لملازمته أخاه هارون ثم أنفذ إليه رقعة فيها :

ألا شافع عند الخليفة يشفع فيدفع عنا شر ما نتوقع
يردعنى موسى على غير عثرة ومالى أرى موسى من العفو أوسع
فأرسل إليه الهادى أماناً وأمر له بمال ولم يزل عنده مكرماً حتى توفى وتولى
الأمير هرون الرشيد فدخل عليه وامتدحه بقصيدة غراء :

جرى لك من هارون بالسعد طائرته أمام اعتزام لا تخاف بواده
وكان لا يفارق الرشيد فى سفر ولا حضر وكان الخليفة يجرى عليه فى كل سنة
خمس مئ ألف درهم ولما قدم الرشيد من الرقة لبس أبو العتاهية الصوف وتزهد، وكان
أبو العتاهية شديد البخل ، وحدث ثمامة قال دخلت يوماً إلى أبى العتاهية فإذا هو
يأكل خبزاً بلا شيء فقيل له وكيف ذلك فقال رأيت قدأمة خبزاً يابساً من رقاق
فطير وقدحا فيه لبن حليب فكان يأخذ القطعة من الخبز فيغمسها فى اللبن ويخرجها
فلا تتعلق منه بقليل ولا كثير فقلت له كأنك اشتيت أن تتأدم بلا شيء وما رأيت
أحدأ قبلك يتأدم بلا شيء . ويحكى عن بخل أبى العتاهية حكايات غريبة غير هذه
ولكنه كان يقول فى شعره عكس ما يفعل ومنه :

إذا المرؤ لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكة
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

وعاش أبو العتاهية إلى أيام المأمون وامتدحه ثم عاد إلى زهده وانقطع عن
أصحابه إلى أن مرض مرضه الذى توفى فيه ، واختلف فى سنة وفاته والراجح أنه
مات سنة ٢١٣ هـ ودفن حياال قنطرة الزياتين فى الجانب الغربى ببغداد وكان أمر
أن يكتب على قبره :

أذن حى تسمى اسمى ثم عى عى
أنا رهن بمضجى فاحذرى مثل مصرعى
عشت تسعين حجة اسلمتى لمضجى
ثم ترى الحى ثابتاً فى ديار الزرع
ليس زاد سوى التقى نخذى منه أو دعى

وقال محمد (١) بن أمية : كنت جالساً بين يدي إبراهيم بن المهدي ، فدخل إليه أبو العتاهية ، وقد تنسك ولبس الصوف ، وترك قول الشعر إلا فى الزهد . فرفعه إبراهيم وسر به ، وأقبل عليه بوجه . فقال له أبو العتاهية : أيها الأمير ؛ بلغنى خبر فتى فى ناحيتك ومن مواليك يعرف بابن أمية ، يقول الشعر ، وأنشدت له شعراً فأعجبني ، فما فعل ؟ فضحك إبراهيم ، ثم قال : لعله أقرب الحاضرين مجلساً منك . فالتفت إلى فقال : أنت هو ؟ فديتك ! فثورت (٢) وخجلت ، وقلت له : أنا محمد بن أمية جعلت فداءك ! وأما الشعر فإنما أنا شاب أعبت بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبت الشباب . فقال لى : فديتك ! ذاك والله زمان الشعر وإبانته ، وما قيل فيه فهو غرره وعيونه . وما زال ينشطنى ويؤنسنى حتى رأى أنى قد أنست به ، ثم قال لإبراهيم بن المهدي : إن رأى الأمير — أكرمه الله — أن يأمره بإنشادى ما حضر من الشعر ! فقال إبراهيم : بحياتى يا محمد أنشده ، فأنشدته .

رب وعد منك لا أنساه لى أوجب الشكر وإن لم تفعل
أقطع الدهر بظن حسن وأجلى غمرة ما تنجلى
كلما أملت يوماً صالحاً عرض المكروه لى فى أملى
وأرى الأيام لا تدنى الذى أرتجى منك وتدنى أجلى

فبكى أبو العتاهية حتى جرت دموعه على لحيته ، وجعل يردد البيت الأخير منها وينتحب ، وقام فخرج وهو يردده ويبكي ، حتى خرج إلى الباب !
وقال أبو العتاهية (٣) . حبسنى الرشيد لتركى الشعر ، وغلقت على الأبواب ،

(١) الأغاني ص ٣٠ ج ١١ ، وكان محمد بن أمية . كاتباً شاعراً ظريفاً ، نديماً لإبراهيم بن المهدي . (٢) تشور . فعل ما يستحيا منه فى الأصل ، والمراد هنا الخجل . (٣) الطبرى ص ٩٢ ج ٤ ، بدائع البدائع ص ١٥١ ج ١

فبقيت دهشاً كما يدهش مثلى لتلك الحال ؛ فنظرت فإذا رجل جالس فى جانب السجن وهو مقيد ، فجعلت أنظر إليه ساعة ، فتمثل بقوله :

تعودت حسن الصبر حتى ألفته فأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر
وصيرنى يأسى من الناس راجياً لحسن صنيع الله من حيث لا يدرى
فقلت له : أعد - أعزك الله - هذين البيتين ، فقال لى : ويلك يا أبا العتاهية !
ما أسوأ أدبك ! وأقل عقلك ! دخلت على السجن فما سلمت تسليم المسلم على المسلم ،
ولا سألت مسألة الحر للحر ، ولا توجعت توجع المجتلى للبتلى ، حتى إذا سمعت
بيتين من الشعر الذى لا فضيلة فىك سواه لم تصبر عن استعادتهما ، ولم تقدم قبل
مسألتك عنهما عذراً لنفسك فى طلبهما ! فقلت : يا أخى ؛ إني دهشت من هذه
الحال فلا تعذلى واعذلى متفضلاً ، فقال : أنا والله بالدهش والخيرة أولى منك ؛
لأنك حبست على أن تقول الشعر الذى به أرتفعت وبلغت ما بلغت ، وإذا قلته
أمنت ، وأنا حبست على أن أدل على ابن رسول الله ليقتل أو أقتل دونه ، والله
لا أدل عليه أبداً ، والساعة يدعى بى فأقتل ، فأينا أحق بالدهش ؟ فقلت ؛
أنت والله أولى ، سلمك الله وكفأك ، ولو علمت أن هذه حالك ما سألتك ،
فقال ؛ إذن لا أبخل عليك ، ثم أعاد على البيتين حتى حفظتهما ، وأجزتهما
بقولى :

إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما تكرهت منه طال عتبى على الدهر

ثم سأله عن اسمه ، فقال : أنا أبو حاضرة ، داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد .
قال : فلم نلبث إلا قليلاً حتى سمعنا صوت الأقفال ، فقام ، فسكب عليه ماء من
جرة كانت عنده ، ولبس ثوباً نظيفاً ، ودخل الحرس ومعهم الشموع ، فأخرجونا
جميعاً ، وقدم قبلى إلى الرشيد ، فسأله عن أحمد بن عيسى ، فقال : لا تسألنى عنه .
وافعل ما بدا لك ، فلو أنه تحت ثوبى ما كشفت عنه ، فامر به فضربت عنقه ،
ثم قال لى : أظنك يا أبا إسماعيل أرتعت ، فقلت : دون ما رأيته تسيل منه
النفوس ، فقال : ردوه إلى محبسه ، فردونى !

وجلس المهدي للشعراء (١) يوماً فاذن لهم ، وفيهم بشار وأشجع ، وكان
أشجع يأخذ عن بشار ويعظمه ، وكان فى القوم غير هذين أبو العتاهية ، قال أشجع

فلما سمع بشار كلام أبي العتاهية قال : يا أخا سليم ؛ أهذا ذلك الكوفي الملقب ؟
قلت : نعم ! قال : لا جرى الله خيراً من جمعنا معه . ثم قال له المهدي : أنشد ،
فقال : ويحك ! أو يستنشد أيضاً قبلنا ؟ ! فقلت : كما ترى ، فأنشد :

ألا ما لسيدتي ماها أدلا فأحل إدلالها
وإلا فقيم تجنت وما جنيت ! سقى الله أطلالها
ألا إن جارية اللاما م قد أسكن الحسن سربالها
مشت بين حور قصار الخطا تجاذب في المشى أكفالها
وقد أتعب الله نفسي بها وأتعب باللوم عذالها

قال أشجع : فقال لي بشار : ويحك يا أخا سليم ! ما أدري من أي أمره
أعجب : أمن ضعف شعره ، أم من تشبيهه بجارية الخليفة ، وهو يسمع ذلك بأذنه .
حتى أتى على قوله :

أنته الخلافة منقادة إليه تجر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

قال أشجع : فقال لي بشار وقد اهتز طرباً ، ويحك اترى الخليفة لم يطر
عن فراشه

ودخل الفراء على جعفر بن يحيى ، فقال له : أزعم أن أبا العتاهية
أشعر أهل هذا العصر ، فقال : هو والله أشعرهم عندي . وقيل لداود بن زيد الشاعر :
من أشعر أهل زمانه ؟ فقال : أبو نواس ، قيل له : فما تقول في أبي العتاهية ؟ قال :
هو أشعر الإنس والجن (١) . وقال ابن الأعرابي : والله ما رأيت شاعراً قط
أطبع ولا أقدر على بيت من أبي العتاهية ، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر (٢)
ويروى أن أبا العتاهية قال : قرأت البارحة د عم يتساءلون ، ، ثم قلت قصيدة
أحسن منها (٣) ، وكذب أبو العتاهية فما يدرك لإنسان بلاغة القرآن الكريم ولو
حاول المستحيل ، وقال الأصمعي : شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر
والذهب والتراب والخزف والنوى (٤) ، وقال أبو حاتم : كان أصحابنا يقولون :
لو أن شعر أبي العتاهية بجزالة لفظ لكان أشعر الناس (٥) ، وقيل لأبي نواس : والله

(١) ص ١٢٢ / ٣ الأغاني (٢) ٣ / ١٢٧ المرجع .

(٣) ٣ / ١٣٧ الأغاني

(٤) ٣ / ١٤٠ الأغاني (٥) ٣ / ١٥٢ المرجع

والله لآنت أشعر من أبي العتاهية ، فقال : والله ما رأيته قط إلا ظننت أنه سماء
وأنى أرض (١) ، وقيل لبشار : من أشعر أهل زماننا ؟ فقال خنت أهل بغداد
يعنى أبا العتاهية .

ويروى أن أبا العتاهية وإبراهيم الموصلي وأبا عمرو الشيباني توفوا في يوم واحد
من خلافة المأمون وذلك سنة ٢١٣ هـ (٢) .

أبو دلامة

المتوفى سنة ١٦١ هـ

هو زند بن الجون ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون ،
نشأ في الكوفة واتصل بالخلفاء من بني العباس ، فكانوا يستلطفونه ويغدقون عليه
صلاتهم ، وله في ذلك أخبار كثيرة ، وتوفى عام ١٦١ هـ .

قال أبو دلامة (٣) : أتى بي إلى المنصور وأنا سكران ؛ خلف ليخرجني في بعث
حرب ؛ فأخرجني مع روح بن حاتم المهلبى لقتال الشراة (٤) . فلما التقى الجمعان ،
قلت لروح : أما والله لو أن تحتى فرسك ، ومعى سلاحك ، لأثرت في عدوك اليوم
أثراً ترتضيه . فضحك وقال : لادفعن ذلك إليك ، ولأخذنك بالوفاء بشرطك ؛
ونزل عن فرسه ، ونزع سلاحه ، ودفعهما إلى ودعا بغيرهما . فلما حصل ذلك في
يدى ، وزالت عنى حلاوة الطمع ، قلت له : أيها الأمير ؛ هذا مقام العائذ بك ،
وقد قلت بيتين فاسمعهما ، قال : هات ؛ فأنشده :

لانى استجرتك أن أقدم فى الوغى لتطاعن وتنازل وضراب
فهب السيوف رأيتها مشهورة فتركتها ومضيت فى الهراب

ما ذا تقول لما يحىء وما يرى من واردات الموت فى الشباب (٥) ؟
فقال : دع عنك هذا وستعلم ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للبارزة . فقال :
أخرج إليه يا أبا دلامة ! فقلت : أنشدك الله أيها الأمير فى دى ! قال : والله

(١) ٣/١٥٦ (٢) ٣/١٧٥ الأغانى

(٣) الأغانى ص ٢٤٣ ج ١٠ ، نهاية الأرب ص ٤٠ ج ٤ ، معاهد التنصيص

ص ٢١٢ ج ٢ (٤) الشراة : هم الخوارج . (٥) الشباب السهم .

لتخرجن . فقلت : أيها الأمير فإنه أول يوم من الآخرة ، وآخر يوم من الدنيا ، وأنا والله جائع ما شبعت منى جارحة من الجوع ، فمر لى بشيء آكله ثم أخرج ! فأمر لى برغيفين ودجاجة ، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف . فلما رآنى الشارى أقبل نحوى ، وعليه فرو ، قد أصابه المطر فابتل ، وأصابته الشمس فافعل (١) ، وعيناه تقدان ، فأسرع لى . فقلت له : على رسلك يا هذا كما أنت ! فوقف . فقلت : أتقتل من لا يقا تللك ؟ قال : لا . قلت : أتقتل رجلا على دينك ؟ قال : لا . قلت : أقتستحل ذلك قبل أن تدعو من تقا تلله لى دينك ؟ قال : لا ، فاذهب عنى لى لعنة الله ! قلت : لا أفعل أو تسمع منى . قال : قل . قلت : هل كانت بيننا قط عداوة أو ترة ؟ أو تعرفنى بحال تحفظك على ! أو تعلم بين أهلى وأهلك وتراً ؟ قال : لا ، والله . قلت : ولا أنا والله لك إلا على جميل الرأى ، وإنى لأهواك ، وأنتحل مذهبك ، وأدين دينك ، وأريد السوء لمن أرادك لك . قال : يا هذا جزاك الله خيراً فانصرف . قلت : إن معى زاداً أحب أن آكله معك ، وأحب مواكلك لتتأكد المودة بيننا ، ويرى أهل العسكر هوانهم علينا . قال : فافعل . فتقدمت إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا ، وجمعنا أرجلنا على معارفها ، والناس قد غلبوا ضحكاً ! فلما استوفينا ودعنى . ثم قلت له : إن هذا لجاهل - إن أقت على طلب المبارزة - ندبنى إليك فتتعبنى وتتعب ، فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل . قال : فعلت . ثم انصرف وانصرفت . فقلت لروح : أما أنا فقد كفيتهك قرنى ! فقل لغيرى أن يكفيك قرنه كما كفيتهك . فأمسك ! وخرج آخر يدعو لى البراز فقال لى : اخرج إليه . فقلت :

إنى أعوذ بروح أن يقدمنى	لى البراز فتخزى بى بنو أسد
إن البراز لى الأقران أعليه	مما يفرق بين الروح والجسد
قد حالفتك المنايا إذ صمدت لها	وأصبحت لجميع الخلق بالرصد
إن المهلب حب الموت أورثكم	وما ورثت اختيار الموت عن أحد
لو أن لى مهجة أخرى لجدت بها	لكنها خلقت فرداً فلم أجد
فضحك وأعفانى !	

ودخل أبو دلامة (١) على المهدي وعنده عيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ، وناس من بني هاشم ، فقال المهدي : يا أبا دلامة . قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : اهج من شئت ممن ضمنه هذا المجلس ولك الجائزة ، فنظر في القوم فلم ير إلا شريفاً قريباً من المهدي . فقال : أنا أحد من بالمجلس ثم أنشد !

ألا أبلغ إليك أبا دلامه فليس من الكرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان قرداً وخنزيراً إذا نزع العمامه
جمعت دمامة وجمعت لؤماً غذاك اللؤم تتبعه الدمامه
فان تك قد أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنت القيامة

فضحك المهدي ، وسر القوم إذ لم يسيء إلى أحد منهم ، ثم قال له المهدي : تمن . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ تأمر لي بكلب صيد . فسبه وقال : ما تصنع به ؟ فقال : الحاجة لي أم لك ؟ فقال : صدقت أعطوه كلبا . فأعطى . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لا بد لهذا الكلب من كلاب (٢) . فأمر له بغلام مملوك ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أوتيها لي أن أصيد راجلاً ؟ فقال : أعطوه دابة . فقال : ومن يسوس الدابة ؟ فقال : أعطوه غلاماً سائساً . فقال : ومن ينحر الصيد ويصاحه ؟ فقال : أعطوه طياخاً . فقال : ومن يأويهم ؟ فقال : أعطوه داراً فبكي أبو دلامة وقال : ومن يمون هؤلاء كلهم ؟ فقال : يكتب له بمائة جريب (٣) عامرة ، ومائتي جريب غامرة . فقال : وما الغامرة ؟ قال : التي لا نبات فيها . قال : فأنا أعطيك مائتي ألف جريب من فيافي بني أسد ! فضحك وقال : ما تريد ؟ قال : بيت المال . قال : على أن أخرج المال منه . قال : فإذا يصير غامراً ، فاستفرغ ضحكاً وقال : اذهب فقد جعلتها لك كلها عامرة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ائذن لي أن أقبل يدك ، قال : أما هذه فدعها ، فقال : والله ما تمنع عيالي شيئاً أهون عليهم منها ! فناولته يده فقبلها .

وبروى أن أبو دلامة (٤) شرب في بعض الحانات (٥) ؛ فشى ، وهو يميل ؛

(١) ذيل زهر الآداب ص ٨٩ ، مذهب الأغاني ص ٢٠ ج ٩ ، المستطرف ص ٨٦ ج ١ ، المحاسن والمساوى ص ٢٨٧ طبع ليبزج ، ذيل زهر الآداب ص ٩٠ ، الأغاني ص ٢٥٨ ج ١٠ (٢) الكلاب : صاحب الكلاب . (٣) الجريب : المزروعة (٤) نهاية الأرب ص ٤٢ ج ٤ ، الأغاني ص ٢٥١ ج ١٠ طبعة دار الكتب . (٥) الحانات : المواضع التي تباع فيها الخمر

فلقيه العسس فأخذوه ، فقبل له : من أنت ؟ وما دينك ؟ فقال :

دينى على دين أبى العباس ماختم الطين على القرطاس
إذا اصطبحت أربعا بالكاس فقد أدار شربها براسى

فهل بماقلت لكم من باس

فأخذوه وخرقوا ثيابه وساجه (١) ، وأتى به إلى أبى جعفر ، فأمر بحبسه مع
الدجاج فى بيت ؛ فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرة ؛ وجاريتيه أخرى ، فلا يجيبه
أحد ؛ وهو مع ذلك يسمع صوت الدجاج وزقاه (٢) الديوك ، فلما أكثر قال له
السجان : ماشأنك ؟ قال : ويلك ! من أنت ؟ وأين أنا ؟ قال : فى الحبس
وأنا السجان ، قال : ومن حبستى ؟ قال أمير المؤمنين ، قال : ومن خرق طيلسانى ؟
قال : الحرس ، فطلب أن يأتية بدواة وقرطاس ، ففعل ، فكتب إلى أبى جعفر
المنصور يقول :

أمير المؤمنين فدتك نفسى	علام حبستنى وخرقت ساجى
أمن صهباء (٣) صافية المزاج	كأن شعاعها لب السراج
وقد طبخت بنار الله حتى	لقد صارت من النطف (٤) النضاج
تهش لها القلوب وتشتهيها	إذا برزت ترقرق فى الزجاج
أقاد إلى السجون بغير جرم	كأنى بعض عمال الخراج
فلو معهم حبست لكان سهلا	ولكنى حبست مع الدجاج
وقد كانت تخبرنى ذنوبى	بأنى من عقابك غير ناجى
على أنى - وإن لاقت شراً -	لخيرك بعد ذاك الشر راجى

فاستدعاه المنصور ، وقال : أين حبست يا أبا دلامة ؟ قال : مع الدجاج ! قال :
فما كنت تصنع ؟ قال : أقوقى (٥) إلى الصباح ، فضحك وخلقى سبيله ، وأمر له
بجائزة ، فلما خرج قال له الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ! أما سمعت قوله :
وقد طبخت بنار الله - يعنى الشمس - فأمر برده ، ثم قال : يا خبيث ؛ شربت الخمر
قال : لا ، قال : أفلم تقل : طبخت بنار الله - تعنى الشمس ؟ قال : لا ، والله
ما عنيت إلا نار الله الموقدة التى تطلع على فؤاد الربيع ! فضحك المنصور ، وقال :
خذها ياربيع ، ولا تعارذ التعرض له .

(١) الساج : الطيلسان الأخضر أو الأسود (٢) زقاه الديك : صياحه .

(٣) الصهباء : الخمر (٤) النطف : الماء الصافى قل أو كثر (٥) أقوقى : أصبح

وقال أيوب المورياني لأبي جعفر (١) وكان يشنأ أبا دلامة : إن أبا دلامة معتكف على الخبز ، فما يحضر صلاة ولا مسجدا ، وقد أفسد فتیان العسكر ، فلو أمرته بالصلاة معك لأجرت فيه وفي غيره من فتیان عسكرك بقطعه عنهم . فلما دخل عليه أبو دلامة قال له ما هذا المجنون الذي يبلغني عنك ؟ فقال يا أمير المؤمنين ؛ ما أنا والمجنون وقد شارفت باب قبري ! قال دعني من استكانتك وتضرعك ، وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعصر في مسجدي ، فلئن فاتتاك لأحسنن أدبك ولأطيلن حبسك ! فوقع في شر ، ولزم أياما ثم كتب قصته ودفعها إلى المهدي فأوصلها إلى أبيه ، وكان فيها :

لم تعلم أن الخليفة لزي (٢)	بمسجده والقصر ، مالى وللقصر !
أصلى به الأولى جميعا وعصرها	فويلي من الأولى وويلي من العصر
أصليهما بالكره في غير مسجدي	فألى في الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان في قومي مساجد جمة	ولم ينشرح يوماً لغشيانها صدرى
يكلفني من بعدما شبت خطة	يحط بها عنى الثقل من الوزر
وما ضره - والله يغفر ذنبه -	لو أن ذنوب العالمين على ظهري

فقال قد أعفيناك من هذه الحال على أن تصلى في مسجد قبيلتك ولكن على ألا تدع القيام معنا في ليالي شهر رمضان فقد أظل (٣) فقال أفعل قال فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمت ذلك والله لئن فعلت لأحدنك (٤) فقال أبو دلامة : البلية في شهر أخف منها في طول الدهر سمعاً وطاعة ! فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد وكان المهدي يبعث إليه في كل ليلة حرسياً يحجى به فشق ذلك عليه وفزع إلى الخيزران وإلى أبي عبيد الله (٥) وكل من يلوذ بالمهدي ليشفعوا له في الإعفاء من القيام فلم يجيبهم ، فقال له أبو عبيد الله (٥) الدال على الخير كفاعله فكيف شكرت ؟ قال أتم شكر ، قال عليك بربطة (٦) ، فانه لا يخالفها قال صدقت ثم رفع إليها رقعة ، يقول فيها :

(١) مذهب الأغاني ص ٣٣ ج ٩ ، الأغاني ص ٢٤٦ ج ١٠ ، ذيل زهر الأدب ص ٩١ (٢) اللز - لزوم الشيء بالشيء وإلزامه به
(٣) أظل : قرب وأشرف (٤) حده : أقام عليه الحد (٥) هو أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله ، كان من رجالات المنصور ثم المهدي
(٦) ربططة ، هي ابنة الخليفة أبي العباس وزوج المهدي

أبلغا ربطة أنى	كنت عبدا لأبيها
فضى برحه الله	وأوصى نى إليها
وأراها نسيتهى	مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشى	مشية ما أشتهيها
قائداً لى ليلة القدر	ر كأنى أبتغيها
ولقد عشت زمانا	فى فيافى وجيها
فى ليال من شتاء	كنت شيخا أصطليها
قاعداً أوقد ناراً	لضباب (١) أشتويها
وصبح وغبوق	فى علاب (٢) أحتسيها
ما أبالى ليلة القدر	ر ولا تسمعنيها
فاطلبي لى فرجا منها	ما وأجرى لك فيها

فلما قرأت الرقعة ضحككت ، وأرسلت إليه : اصطبر حتى تمضى ليلة القدر .
فكتب إليها : إنى لم أسألك أن تكلميه فى إعفائى عاما قابلا ، وإذا مضت ليلة
القدر فقد فى الشهر وكتب تحتها أبياتا :

خافى إلهك فى نفس قد احتضرت	قامت قيامتها بين المصلينا
ماليلة القدر من همى فأطلبها	إنى أخاف المنايا قبل عشرينا
ياليلة القدر قد كسرت أرجلنا	ياليلة القدر حقا ما تمنينا ؟
لا بارك الله فى خير أومله	فى لياة بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأت الرقعة ضحككت ، ودخلت إلى المهدي ، فشفعت له إليه ، وأنشدته
الآيات ، فضحك حتى استلقى ، ودعا به وريطة معه فى الحجلة (٣) ، فدخل فأخرج
رأسه إليه وقال : قد شفعتنا ربطة فيك ، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم فقال :
أما شفاعة سيدتى فى حتى أعفيتنى فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف
فأما أن تتمها بثلاثة آلاف فتصير عشرة ، أو تنقصنى منها ألفين فتصير خمسة
آلاف ؛ فأنى لا أحسن حساب السبعة ، فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال : أعينك

(١) الضب : دويبة من الحشرات تحرض العرب على صيده وأكله وجمعه ضباب

(٢) جمع علبة ، وهى قدح ضخم من جلد الابل أو من خشب يحلب فيها

(٣) الحجلة - بيت يزين بالثياب والاسرة والستور

بالله أن تختار أدنى الحالين ، وأنت أنت ! ثم تكلمت فيه ربيعة فأتىها له عشرة آلاف درهم .

ابن وهيب

هو محمد بن وهيب الحميري صليبة ، شاعر من أهل بغداد من شعراء الدولة العباسية وأصله من البصرة ، وله أشعار كثيرة يذكرونها فيها ويتشوقها ويصف إيطانه إياها ومنشأها بها

ومن قوله يمدح المعتصم وفيه غناء :

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

يحكي أفاعيله في كل نائبة الغيث والليث والصمصامة الذكر

ومن قوله من كلبة يمدح بها الحسن بها رجاء بن الضحاك :

أجارتنا إن التعفف بالياس وصبراً على استدرار دنيا يابس (١)

حريان ألا يقذبا (٢) بمنزلة كريماً وألا يحوجاه إلى الناس

أجارتنا إن القداح (٣) كواذب وأكثر أسباب النجاح مع الياس

ودخل محمد بن وهيب على أبي دلف القاسم بن عيسى فأعظمه جداً ، فلما انصرف قال له أخوه معقل : يا أخى فعلت بهذا ما لم يستأهله ، ما هو في بيت من الشرف ولا في جمال من الأدب ولا بموضع من السلطان ، فقال : بلى يا أخى إنه لحقيق بذلك ، ألا يستحقه ؟ وهو القائل

يدل على أننى عاشق من الدمع مستشهد ناطق

ولى مالك أنا عبد له مقر بأنى له واطق

إذا ما سموت إلى وصله تعرض لى دونه عائق

وحاربني فيه ريب الزمان كأن الزمان له عاشق

(١) أبس الحالب بالناقة : دعاها للحلب (٢) أقذى عينه ألقى فيها القذى

(٣) جمع قدح بالكسر وهى السهام التى يستقسم بها فيما بينهم الانسان به حتى يقدم أو يحجم

ولما قدم المطلب بن عبد الله بن مالك من الحج لقيه محمد بن وهيب مستقبلاً
مع من تلقاه ودخل إليه مهنئاً بالسلامة بعد استقراره ، وعاد إليه في الثانية فأنشده
قصيدة طويلة مدحه بها يقول فيها

وما زلت أستدعي لك الله غائباً	وأظهر لإشفاقا عليك وأكرم
وأعلم أن الجود ما غبت غائب	وأن الندى في حيث أنت مخيم
إلى أن زجرت الطير سعداً سوانحاً	وحم لقاء بالسعود مقدم
وظل يناجيني بمدحك خاطري	وليل بمدود الرواقين أدهم
وقالوا طواه الحج فاخشع لفقده	ولا عيش حتى يستهل المحرم
سيفخر ماضم الحطيم (١) وزمزم	بمطلب لو أنه يتكلم
ولو رد مخلوق إلى بدء خلقه	لأنك كنت جسماً بينهن تقسم
سما بك منها كل خيف فأبطح	نما بك منه الجوهر المتقدم
وحن اليك الركن حتى كأنه	وقد جثته حل عليك مسلم

فوصله صلة سنية وأهدى له هدية حسنة من طرف ما قدم به وحمله ، وكان
محمد بن وهيب لما قدم المأمون من خراسان مضاعاً مطرحاً إنما يتصدى للعامة
وأوساط الكتائب والقواد بالمديح ويسترفدهم فيحظى بالسير ، فلما هدأت الأمور
واستقرت واستوسقت (٢) ، جلس أبو محمد الحسن بن سهل يوماً منفرداً بأهله
وخاصته وذوى مودته ومن يقرب من أنسه فتوسل إليه محمد بن وهيب بالحسن بن
رجاء حتى أوصله مع الشعراء ، فلما انتهى إليه القول استأذن في الإنشاد ، فأذن له ،
فأنشده القصيدة التي أولها :

ودائع أسرار طوتها السرائر	وباحت بمكنوناتهن النواظر
ملسكت لها طي الضمير وتحتته	شبالوعة غضب الغرارين (٣) باتر
فأعجم عنها ناطق وهو معرب	وأعجبت العجم الجفون المواطر
ألم تقذني السراء في رنق (٤) الهوى	غير برأ بما تجنى على الدوائر
تسلمني الأيام في عنفوانه	ويكثوني (٥) طرف من الدهر ناظر

(١) الحطيم : جدار حجر الكعبة

(٢) استوثق لك الأمر - أمكنك (٣) الغرار - حد الريح والسيوف وغضب

قاطع وكذلك باتر (٤) الرنق - الكدر ، والغريز - الشاب لا تجر به له . وأقضى

عينه - جعل فيها القذى وأخرجه منها ضد (٥) يكثرني يحفظني

إلى الحسن الباقى العلا حين يمت
إلى الأمل المبسوط والأجل الذى
ومن أنبت عين المسكارم كفه
تعصب تاج الملك فى عنفوانه
ولو لم تكن الا بنفسك فاخراً
لما انتسبت إلا لليك المفاخر

فطرب أبو محمد حتى نزل عن سريرته إلى الأرض وقال: أحسنت والله وأجملت.
ولو لم تقل قط ولا تقول فى باقى دهرك غير هذا لما احتجت إلى القول، وأمر له
بخمسة آلاف دينار، فأحضرت، واقطعه إلى نفسه فلم يزل فى جنبته أيام ولايته
وبعد ذلك إلى أن مات ما تصدى لغيره.
وله فى مدح للمأمون:

ياخير منتسب لمكرمة فى المجد حتى ينتج العدد
فى كل أنملة لراحته نوء يسح وعارض حشد (٢)
واذا القنا رعت (٣) أسنته علقا وضم كعوبه قصد
قكأن ضوء جبينه قمر وكأنه فى صولة أسد
وكانه روح تدبرنا حركاته وكأننا جسد

وقد استحسنا المأمون وأمر بأن تعد آيات قصيدته ويعطى لكل بيت ألف
درهم فعدت فكانت خمسين، فأعطاه خمسين ألف درهم، وله فى المأمون والحسن
ابن سهل خاصة مدائح شريفة نادرة، من عيونها قوله للمأمون:

العذر ان أنصفت متضح وشهد حبك أدمع سفح
فضحت ضميرك عن ودائع إن الجفون نواطق فصح
وإذا تكلمت العيون على إعجابها فالسر منفضح
وبما أبيت معانتي قمر للحسن فيه مخايل نصح
نشر الجبال على محاسنه بدعا وأذهب همه الفرح

(١) أطلت: صوتت. (٢) الحشد: الجماعة من الناس.

(٣) رعت الرجل: سال الدم من أنفه وهو هنا على المجاز. والعلق: الدم.
والكعوب جمع كعب وهو العقدة من عقد الرمح. والقصد جمع قصدة وهى
القطعة مما يكسر.

يحتال في حلل الشباب به مرح وداؤك أنه مرح
ما زال يلثمني مرأشفه ويعلني الابريق والقدر
حتى استرد الليل خلعتة ونشا خلال سواده وضع
وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

أبو تمام

١٩٠ - ٢٣١ هـ

هو حبيب بن أوس الطائي ، مولده ومنشؤه منبج (١) بقرية منها يقال لها جاسم . كان كما يقول أبو الفرج شاعرا مطبوعا ، لطيف الفطنة دقيق المعاني ، غواصا على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره ، وله مذهب في المطابق (٢) هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فإن له فضل الاكثر فيه والسلوك في جميع طرقه ؛ والسليم من شعره النادر لا يتعلق به أحد ، وله أشياء متوسطة وردية رذلة جدا . وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضل على كل سالف وخالف ، وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم إنهم لم يبلغوا علم هذا وتميزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب . وهذا ما يتكسب به كثير من أهل هذا الدهر ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معانيهم سببا للترفع وطلباً للرياسة ، وليست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مسقطة لإحسانه ، ولو كثرت إساءته أيضا ثم أحسن لم يقل له عند الاحسان أسأت ولا عند الصواب أخطأت ؛ والتوسط في كل شيء أجمل ، والحق أحق أن يتبع . وقد روى عن بعض الشعراء أن أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن في جميعها إلا في بيت واحد ، فقال له : يا أبا تمام لو ألقيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب ، فقال له : أنا والله أعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل أولاده فيهم الجليل والقبيل والرشيد والساقط وكلهم حلوا في نفسه ، فهو وإن

(١) منبج : مدينة بين الفرات وحلب ، وجاسم : قرية بينها وبين دمشق ثمانية

(٢) المطابق : نوع من البديع .

فراسخ

أحب الفاضل لم يبغيض الناقص ، وإن هوى بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر .
واعذاره بهذا ضد ما وصف به نفسه في مدحه الواثق حيث يقول :

جاءتك من نظم اللسان قلادة	سمطان (١) فيها اللؤلؤ المكنون
حذيت حذاء الحضرمية أرهفت	وأجادها التخصير والتلسين (٢)
إنسية وحشية كثرت بها	حركات أهل الأرض وهى سكون
ينبوعها خضل وحلى فريضها	حلى الهدى ونسيجهاموضون (٣)
أما المعاني فهى أبكار إذا	نصت ولكن القوافى عون (٤)
أحذا كما صنع الضمير يمدده	جفر (٥) إذا نضب الكلام معين
ويسىء بالاحسان ظنا لا كمن	هو بابنه أو شعره مفتون

فلو كان يسىء بالاحسان ظنا ولا يفتن بشعره كنا فى غنى عن الاعتذار له ،
وقد فضل أباً تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشق الطاعنون عليه
غباره ولا يدركون وإن جدوا آثاره ، وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له
فى جده نظيراً ولا شكلاً ، ولولا أن الرواة قد أكثروا فى الاحتجاج له وعليه
وأكثر متعصبوه الشرح لجيد شعره ، وأفرط معادوه فى التشهير برديته والتنبيه
على رذله ودينه ، لذكرت منه طرفاً ولكن قد أتى من ذلك ما لا مزيد عليه .

وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقول : أشعر الناس طرا الذى يقول :

وما أبالى وخير القول أصدقه حقنت (٦) لى ماء وجهى أوحقنت دى

فقيل له : من أشعر أهل زماننا هذا ؟ فقال الذى يقول :

مطر أبوك أبو أهلة وأئل	ملا البسيطة عدة وعديدا
نسب كأن عليه من شمس الضحى	نوراً ومن فلق الصباح عمودا

(١) السمط : خيط النظم . (٢) الملسنة من النعال : ما فيها طول ولطافة

كهيئة اللسان . والمختصرة منها : مستدقة الخصر ، وأرهفت . رقت . والحضرمية .

نسبة إلى حضرموت . (٣) موضون . مثنى بعضه على بعض . والخضل . كل

شئ ند يترشف نداه . (٤) العوان من النساء التى لها زوج ، والجمع عون .

(٥) الجفر . البئر لم تطو أو طوى بعضها . (٦) حقنت أى صنت .

ورثوا الأبوة فالحظوظ وأصبحوا جمعوا جدوداً (١) في الملا وجدودا
والناس على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه .

وقدم عماره بن عقيل بغداد ، فاجتمع الناس اليه فكتبوا شعره وشعر أبيه
وعرضوا عليه الأشعار ، فقال بعضهم : هاهنا شاعر يزعم أنه أشعر الناس طرا
ويزعم غيره ضد ذلك ، فقال : أنشدوني قوله ، فأنشدوه :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غـد وعاد قتادا (٢) عندها كل مرقد
وأقنذها من غمرة الموت أنه صدود فراق لا صدود تعمد
فأجرى لها الاشفاق دمعاً مورداً من الدم يجري فوق خد مورد
هي البدر يغنيها توردها وجهها إلى كل من لاقت وان لم تودد
ثم قطع المنشد ، فقال له عماره زدنا من هذا ، فوصل نشيده وقال .

ولكنني لم أحو وفراً مجعاً ففزت به إلا بشمل مبدد
ولم تعطني إلا يام نوماً مسكناً ألد به إلا بنوم مشرد

فقال عماره : لله دره ! لقد تقدم في هذا المعنى من سبقه اليه على كثرة القول فيه
حتى لقد حجب الاغتراب ، هيه ، فأنشده :

وطول مقام المرء في الحى مخلق لديبا جتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

فقال عماره : كل والله ، ائن كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعاني واطراد
المراد واتساق الكلام فان صاحبكم هذا أشعر الناس ، وكان على بن الجهم يصف
أبا تمام ويفضله ، فقال رجل : والله لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مدحك
هذا ، فقال : ان لم يكن أخاً بالنسب فانه أخ بالأدب والمودة ، أما سمعت ما خاطبني
به حيث يقول :

إن (٣) يكدم طرف الإخاء فأننا نغدو ونسرى في إخاء تالد

(١) الجدود الاولى جمع جد بالفتح وهو أبو الأب ، والثانية جمع الجد
وهو الحظ .

(٢) القتاد : شجر صلب له شوكة كالابر . (٣) أكدي : وصل الى الكدية
وهي الارض الغليظة ويكنى بذلك عن ضياع الفائدة . والمطرف : الطريف وهو
الحديث وضده التالد .

أو يختلف ماء الوصال فإؤنا عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا أدب أقنأه مقام الوالد
وجرى ذكر أبي تمام في حلقة دعبل فقال : كان يتبع معاني فيأخذها ، فقال له
رجل في مجلسه . وأى شيء من ذلك أعزك الله ؟ قال قولى :

وان أمراً أسدى الى بشافع اليه ويرجو الشكر منى لاحق
شفيحك فاشكر فى الحوائج إنه يصونك عن مكروها وهو يخلق (١)
فقال الرجل : فكيف قال أبو تمام ؟ فقال : قال :

فلقيت بين يديه حلو عطائه ولقيت بين يدى مر سؤاله
واذا امرؤ أسدى اليك صنيعه من جاهه فكأنها من ماله
فقال الرجل : أحسن والله ، لن كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك ،
وان كنت أخذته منه فما بلغت مبلغه ، فغضب دعبل وانصرف . وكان محمد بن
حازم الباهلى يقدم أبا تمام ويفضله ويقول : لو لم يقل إلا مرثيته التى أولها :
أصم بك الناعى وان كان أسما وأصبح مغنى الجود بعدك بلمعها
وقوله :

لو يقدرון مشوا على وجناتهم وجباههم فضلا عن الأقدام
لكفاه . وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : كان عمارة بن عقيل عندنا يوما
فسمع مؤدباً كان لولد أخى يرويه قصيدة أبى تمام :

الحق أبلج والسيوف عوار خذار من أسد العرين حذار
فلما بلغ إلى قوله :

سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدي السموم مدارعاً من قار (٢)
بكروا وأسروا فى بطون ضوامر قيدت لهم من مربوط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبدأ على سفر من الأسفار

فقال عمار لله دره ، ما يعتمد معنى إلا أصاب أحسنه كأنه موقوف عليه ، وقال

(١) خلق الثوب كفرح : بلى .

(٢) القار : الزفت . والمدارع جمع مدرعة بكسر الميم وهى جبة مشقوقة المقدم
ولا تكون إلا من صوف ، وهى هنا مجاز .

ابراهيم بن العباس ما اتكلت في مكانتي قط الا على ما جاش به صدرى إلا أنى
قد استحسن قول أبى تمام :

إذا مارق بالغدر حاول غدرة فذاك حرى أن تنيم (١) حلانله
فان بأشرا الاصحار (٢) فالبيض والقنا قراه وأحواض المنايا مناهله
وان بين حيطاناً عليه فانما أولئك عقالاته (٣) لا معاقله
ولإ فاعله بأنك ساخط ودعه فان الخوف لا شك قاتله

فأخذت هذا المعنى في بعض رسائل فقلت : ما كان يحرزهم يبرزهم وما كان يعقلهم
يعتقلهم ؛ ثم قال : ان أباً تمام اخترم وما استمتع بخاطره ولا نزح ركي (٤) فكره
حتى انقطع رشاء عمره ، وقال محمد بن جابر الأزدي — وكان يتعصب لأبى تمام —
أنشدت دعبل بن على شعراً لأبى تمام ولم أعلمه أنه له ، وقلت له : كيف تراه ؟ قال .
أحسن من عافية بعد يأس ، فقلت : انه لأبى تمام ، فقال ؛ لعلمه سرقة .

وقال يزيد المهلبى : ما كان أحدهم الشعراء يقدر أن يأخذ درهما بالشعر في حياة
أبى تمام فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه ، ولما قدم أبو تمام خراسان اجتمع
الشعراء وسألوه أن ينشدهم ، فقال : قد وعدنى الأمير أن أنشده غداً وستسمعوننى ،
فلما دخل على عبد الله أنشده :

أهن عوادى يوسف وصواحيبه فعزماً ، فقدماً أدرك السؤل طالبيه
فلما بلغ قوله :

وقلقل (٥) نأى من خراسان جاشها فقلت اطمئنى أنضر الروض عازبه
وركب كأطراف الأسنة عرسوا (٦) على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه
فصاح الشعراء بالأمير أبى العباس : ما يستحق هذا الشعر غير الأمير حفظه الله ؛

(١) تنيم من آمت المرأة : مات زوجها . (٢) الإصحار : ملاقة العدو في
الصحراء أى برز لقتاله . (٣) عقالاته جمع عقال وهو داء في رجل الدابة ، إذا
مشى ظلع ساعة ثم انبسط ، ويخص بالفرس . (٤) الركبة : البئر ذات الماء .
والرشاء : جبل البئر . (٥) قلقل الشيء : حركه . والثأى : البعد ، والجأش :
رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع . (٦) التعريس : النزول ليلاً .

وقال شاعر منهم — يعرف بالرياحى — لى عند الأمير أعزه الله جائزة وعدنى بها وقد جعلتها لهذا الرجل جزاء عن قوله للامير ، فقال : بل نضعفها لك ونقوم له بما يجب علينا ، فلما فرغ من القصيدة نثر عليه ألف دينار فلقطها الغلمان ولم يمس منها شيئاً ؛ فوجد عليه عبد الله وقال : يترفع عن برى ويتهاون بما أكرمه ! فلم يبلغ ما أراد منه بعد ذلك ، فقال أبو تمام :

لم يبق للصيف لا رسم ولا طلل	ولا قشيب فيستكسى ولا سمل (١)
عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما	يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت	يسراه وهى لباس بعده بدل

فدخل أبو العميشل شاعر آل طاهر الى عبد الله فقال : أيها الأمير أتهاون بمثل أبى تمام وتحفوه ؟ فوالله لو لم يكن له من النباهة فى قدره والاحسان فى شعره ، والشائع من ذكره ، لكان الخوف من شره والتوقى لذمه يوجب على مثلك زعايته ومراقبته ، فكيف وله بنزوعه اليك من الوطن وفراقه السكن وقد قصدك عاقداً بك أمهله ؛ معملاً إليك ركابه ؛ متعباً فيك فكره وجسمه ؛ وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى ينصرف راضياً ؛ ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه ما سمع إلا قوله .

يقول فى قومس (٢) صحبى وقد أخذت	منا السرى وخطا المهرية القود
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا	فقلت كلا ولكن مطلع الجود

لكفى ، فقال له عبد الله : نهيت فأحسنيت ، وشفعت فلطفت ، وعاتبت فأوجعت ، ولك ولأبى تمام العتبى ، وأمر له بألفى دينار وما يحمله من الظهر وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر ببذرقته (٣) الى آخر عمله .

ومدح أبو تمام أبا دلف ، فقال أبو دلف لقومه : يامعشر ربيعة مامدحتم بمثل

(١) السمل : الثوب الخلق وجمعه أسمال . والقشيب هنا : الجديد .

(٢) قومس . كورة كبيرة واسعة فى ذيل جبل طبرستان والقود جمع أقود ،

وهو من الخيل والابل . الذلول والمهرية . منسوب الى مهرة وهى بلد أو قبيلة .

(٣) البذرة الخفارة .

هذا الشعر قطفا عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم (١) يرمون بها اليه ، فقال أبو دلف :
قد قبلها منكم وأعاركم لبسها وسأنوب عنكم في ثوابه ، تتم القصيدة يا أبا تمام ،
فتممها ، فأمر له بخمسين ألف درهم وقال : والله ما هي بإزاء استحقاقك وقدرك
فاعذرنا ، فشكره وقام ليقبل يده ، خلف ألا يفعل ، ثم قال له أنشدني قولك في
محمد بن حميد :

وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فردّه اليه الحفاظ (٢) المر والخلق الوعر
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
كأن بني نيهان يوم مصابه نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو يعزى به العلا ويكي عليه الجود والبأس والشعر
فأنشده إياه ، فقال . والله لوددت أنها في ، فقال . بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى
وأكون المقدم ، فقال : إنه لم يميت من رثى بهذا الشعر أو مثله
وقدم أبو تمام مádحا للحسن بن رجا ، فاستنشده قصيدته اللامية التي مدحه بها
فلما انتهى إلى قوله :

أنا ذو (٣) عرفت فإن عرتك جهالة فأنا المقيم قيامة العذال
عظفت ملامتها على ابن ملة كالسيف جأب الصبر (٤) شخت الآل
عادت له أيامه مسودة حتى توهم أنهم ليال
فقال له الحسن : والله لا تسود عليك بعد اليوم ، فلما قال :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسبل حرب للكان العالى
وتنظرى خبب الركاب ينصها (٥) محي القريض إلى عيت المال

(١) مطارفهم جمع مطرف وهو رداء من خز مربع ذو أعلام وهو على وزن
اسم المفعول أو بكسر الميم وفتح الراء . (٢) الحفاظ الانفة .
(٣) ذو فى لغة طي كالذى . (٤) جأب الصبر : غليظه ، وشخت الآل :
ضعيف الشخص . (٥) نص ناقته : استحثها واستقصى آخر ما عندها من السير .

قام الحسن على رجله وقال : والله لا أتمتها إلا وأنا قائم ، فقام أبو تمام لقيامه وقال :

قد قلت وهى تنال من عرض الفلا بملاطس (١) فى الوخد غير أوالى
أحوامل الأثقال إنك فى غد بفناء أحمل منك للأثقال
لما وردنا ساحة الحسن انقضى عنا تعجرف (٢) دولة الإحمال
أجيا الرجاء لنا برغم نواب كثرت بهن مصارع الآمال
أغلى عذارى الشعر ، إن مهورها عند الكرام وإن رخصن غوالى
ترد الظنون بنا على تصديقها ويحكم الآمال فى الأمـوال
أضحى سى أليك فيك مصدقا بأجل فائدة وأمين قال
ورأيتنى فسألت نفسك سيبها (٣) لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى
كالغيث ليس له ، أريد نواله أو لم يرد ، بد من التهمال

فتعانقا وجلسا ، فقال له الحسن : ما أحسن ما جلوت هذه العروس ! فقال :
والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها . وكان دعبل عند
الحسن بن رجاء يضع من أبى تمام ، فقال له قائل : يا أبا على اسمع منى ما قاله ، فإن
أنت رضيته فذاك ، وإلا وافقتك على ما تدمه منه ، وأعوذ بالله فيك من
ألا ترضاه ، ثم أنشده :

أما انه لولا الخليط المسودع ومغنى عفا منه مصيف ومربع
فلما بلغ إلى قوله :

هو السيل إن واجهته انقدت طوعه وتقتاده من جانبيه فيمتبع
ولم أر نفعا عند من ليس ضائرا ولم أر ضراً عند من ليس ينفع
معاد الورى بعد الممات وسيه معاد لنا قبل الممات ومرجع
فقال له دعبل : لم ندفع فضل هذا الرجل ، ولكنكم ترفعونه فوق قدره ،

(١) الملاطس : الأخفاف ، والوخد : الاسراع ، وأوال : مقصرات .

(٢) التعجرف : التكبر .

(٣) السيب : العطاء .

وتقدمونه على من يتقدمه ، وتنسبون إليه ما قد سرقه ، فقال له : إحسانه صيرك له عائباً وعليه عائباً .

وأنشد أبو تمام أبا الحسن محمد بن الهيثم بالجبل (١).

أسقى ديارهم أجش (٢) هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم
فلما فرغ أمر له بألف دينار وحلح عليه خلعة حسنة .

وجاء دعبل إلى الحسن بن وهب في حاجة بعد وفاة أبي تمام ، فقال له رجل في المجلس : يا أبا علي ، أنت الذي تظعن على من يقول :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى ومحت كما محت وشائع (٣) من برد
وانجذتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد
فصاح دعبل : أحسن والله ! وجعل يردد : فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد ،
ثم قال : رحمه الله ، لو كان ترك لى شيئاً من شعره لقلت إنه أشعر الناس ! .

وقال الواثق لأحمد بن أبي دؤاد : بلغنى أنك أعطيت أبا تمام الطائى في قصيدة مدحك بها ألف دينار ، قال : لم أفعل ذلك يا أمير المؤمنين وإسكنى أعطيته خمسمائة دينار للذى قاله للمعتصم :

فاشدد بهارون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار
فتبسم وقال : إنه لحقيق بذلك .

وقال محمد بن موسى بن حماد : كنا عند دعبل أنا والقاسم سنة خمس وثلاثين ومائتين بعد قدومه من الشام ، فذكرنا أبا تمام فثبته وقال : هو سروق للشعر ، ثم قال لغلامه : يا نفنن ، هات تلك المخلاة ؛ فجاء بمخلاة فيها دفاتر ، فجعل يمرها على يده حتى أخرج منها دفتراً فإذا فيه قال مكنت أبو سلمى من ولد زهير ابن أبي سلمى يرثى ذفافة العبسى :

أبعد أبا العباس يستعيب الدهر وما بعده للدهر عتبى ولا عذر

(١) الجبل : اسم للبلاد المعروفة بالعراق العجمى . (٢) الأجش من الرعد ، الغليظ الصوت . والغيث الهزيم : الذى لا يستمسك .

(٣) نسج الثوب بالوشيع والوشائع أى بهذا القصب الملفوف عليه .

ثم قال : سرق أبو تمام أكثر هذه القصيدة فأدخلها في قصيدته :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
وقال أبو تمام الطائي (١) : خرجت يوما إلى سر من رأى ، حين ولى الواثق ،
فلقيني أعرابي وقد قربت منها ، فأردت أن أسأله عن شيء من أخبار الناس بها ،
فخاطبته ، فإذا أفصح الناس وأفطنهم . فقلت : بمن الرجل ؟ قال : من بني عامر ،
قلت : كيف علمك بأمر المؤمنين ؟ قال : قتل أرضا عالمها ! قلت : فما تقول فيه ؟
قال : وثق بالله فكفاه ؛ أشجى العاصية ، وقمع العادية ، وعدل في الرعية . قلت :
فما تقول في أحمد بن أبي داود ؟ قال : هضبة لا ترام ، وجندلة لا تضام ، تشحذ له
المدى ، وتحبل له الأشراك ، وتبغى له الغوائل ، حتى قيل كأن قد ، وثب وثبة
الذئب ؛ وختل ختل الضب . قلت : فما تقول في محمد بن عبد الملك ؟ قال : وسع
الداني شره ، وقتل البعيد ضره ، له كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا ندب
مخلب (٢) . قلت : فما تقول في عمرو (٣) بن فرج ؟ قال : ضخم لهم (٤) مستعذب
للذم . قلت : فما تقول في الفضل بن مروان ؟ واستعذبت خطابه . قال : ذاك رجل
نشر بعد ما قبر ، فعليه حياة الأحياء وخفنة الموتى . قلت : فما تقول في أبي الوزير ؟
قال : كبش الزنادقة الذي تعرف ؛ ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله سنع ورتع ،
فإذا هزه أمطر فأمرع . قلت : فابن الخصيب ؟ قال : أكل أكلة نهم ، فذرق ذرقة
بشم (٥) . قلت : فما تقول في إبراهيم أخيه ؟ قال : أموات غير أحياء وما يشعرون
أيان يبعثون . قلت : فما تقول في ابن إسرائيل ؟ قال : لله دره ! أى قلقل (٦) هو !
غرس في منابت السكرم حتى إذا اهتز لهم حصدوه . قلت : فما تقول في إبراهيم
ابن رباح ؟ قال : أوبقه (٧) كرمه ، وأسلمه حسبه ، وله معروف لا يسلمه ، ورب
لا يخذله ، وخليفة لا يظلمه . قلت : فما تقول في نجاح بن سلمة ؟ قال : لله دره !

(١) أخبار أبي تمام للصولي ص ٨٩ .

(٢) الذئب : جمع ندبة . وهي أثر الجرح الباقي على الجلد .

(٣) عمرو بن فرج : كان من علية السكتاب . وسخط عليه المتوكل سنة ٢٣٣ هـ

(٤) اللهم : الرغبة الرأي . الجواد : العظيم الكفاية .

(٥) البشم : التخمة . (٦) القلقل : المعوان السريع التقلقل وهو التحرك .

(٧) أوبقه : ذلله وأهلكه .

أي طالب وتر ومدرك نار ، يتلمب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة جلسة تزيل
نعماً ، وتحل نقماً .

قلت : يا أعرابي ؛ أين منزلك ؟ قال : اللهم غفراً ، إذا اشتمل الظلام فحيثما
أدركني الرقادر قدت ! قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟ قال : لا أخلق
وجهي بمسألهم ، أو ما سمعت قول هذا الفتى الطائي ، الذي قد ملأ الدنيا شعره :
وما أبالي وخير القول أصدقه حقنت لي ماء وجهي أو حقنت دمي
قلت : فأنا الطائي قائل هذا الشعر ! فدنا مبادراً فعاقني ، وقال : لله أبوك !
أألس ، الذي يقول :

ما جود كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهي إذا أخلقته عوض

قلت : نعم ، قال : أنت والله أشعر أهل الزمان فرجعت بالأعرابي معي إلى
ابن أبي دؤاد ، وحدثته بحديثه ، فأدخله إلى الواثق ، فسأله عن خبره معي ، فأخبره
به ، فأمر له بمال ، وأحسن إليه ، ووهب له أحمد بن أبي دؤاد ، فكان يقول :
قد عظم الله بركتك على !

ولما قصد أبو تمام عبد الله بن طاهر بخراسان وامتدحه بقصيدته التي أولها :
أهن عوادي يوسف وصواحيه فعزماً فقدماً أدرك السؤل طالبه
أنكر عليه أبو العميشل وقال له : لم لا تقول ما يفهم ؟ فقال له : ولم لا تفهم
ما يقال ؟ فاستحسن منه هذا الجواب على البديهة

وامتدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدة سينية فلما انتهى إلى قوله فيها :
إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
قال له يعقوب الكندي الفيلسوف — وكان حاضراً — : ما صنعت شيئاً ،
شبهت ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين بصعاليك العرب ، ومن هؤلاء الذين
ذكرت ؟ وما قدرهم ؟ فأطرق أبو تمام يسيراً ثم رفع رأسه وأنشد :

لا تنكروا ضربني له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس
فمجبوا من فطنته وسرعة بديهته .

ونقدوا أبا تمام في قوله :

تكد عطاياه يحن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب
قالوا : وما بالها يحوجها إلى الجنون ويلتمس لها العوذ والرقى ، هلاك أسرها
وقدم خلاصها ولم ينتظر بها نعمة الطالب ! ففعل مثل ما قاله أبو الطيب :
وعطاء مال لو عداه طالب أنفقته في أن تلاقى طالباً
وقد تداول الناس هذا المعنى فقال مسلم :
أخ لي يعطيني إذا ما سأله ولولم أعرض بالسؤال ابتدانياً ،
وقال أبو العتاهية :

ولنا إذا ما تركنا السؤال فلم نبغ نائله يبتدينا
وإن نحن لم نبغ معروفه فمعروفه أبداً يبتغينا
وقال أبو تمام أيضاً :

فأضحت عطاياه نوازع شرداً تسائل في الآفاق عن كل سائل
ومما عيب على أبي تمام قوله :

فلويت بالمعروف أعناق الورى وحطمت بالانجاز ظهر الموعد
فإن حطم ظهر الموعد بالانجاز استعارة قبيحة جداً ، والمعنى أيضاً في غاية
الرداءة ، فالإخلاف هو الذى يحطم ظهر الموعد لا الانجاز ، وكان ينبغى أن يقول
وحطمت بالانجاز ظهر المال لا الموعد ، وحينئذ فالموعد كان يصح ويسلم ،
ويتلف المال .

وقوله :

تحملت ما لو حمل الدهر شطره لفكر دهرأ أى عبأيه أثقل
فجعل للدهر عقلاً وجعله مفكراً فى أى العباين أثقل ، وليس معنى أبعد من
الصواب من هذه الاستعارة ، وكان الأشبه والاليق بهذا المعنى — لما قال
« تحملت ما لو حمل الدهر شطره » ، أن يقول : لتضعضع ، أو : لانهد أو لآمن
الناس صروفه ونوازله ، ونحو هذا .

وقوله :

بيوم كطول الدهر فى عرض مثله ووجدى من هذا وهاذك أطول

فجعل للدهر عرضا ، وذلك محض المحال .
وقوله :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

والغلبة الحكمة عليه قيل إن أبا تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري ، ولم يرزق أحد السعادة في شعره وتناول الناس له نقداً وشرحا واستشهاداً مثل أنى تمام والبحتري والمتنبي ، وقد نال أبو تمام هذه الشهرة الذائعة وأثر عنه هذا الشعر الكثير ولم تنيف سنه على الأربعين ، فكيف به لو عمر ... وأجاد أبو تمام القول في كل فن من فنون الشعر . وأما مراثيه فلم يعلق بها أحد جاش صدره بشعر ويعد أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، انتهت إليه معاني المتقدمين والمتأخرين ، وظهر والدنيا قد ملئت بترجمة علوم الأوائل وحكمتها من اليونان والفرس والهند ، فحصف عقله ولطف خياله بالإطلاع عليها ، واستخرج من جملة ذلك طريقة التي آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان أول من أكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكنايات الخفية ، ولو أفضى ذلك إلى التعقيد أحيانا . ولما رأى أن قد فاتته سلامة اللفظ وحسن ديباجته أراد أن يجبر الكسر بانتحاء طريقة بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد في الجناس والمطابقة والاستعارة من أنواع البديع ، فسلم له بعضها واعتل عليه بعضها ، فأتى من الجناس بما التاث به شعره ، وصار كالسكف في صفحة البدر ، ومع هذا سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها شاعر سابق ، وعجز عن محاكاتها كل لاحق ، لما حوته من عيون المعاني المبتكرة ، وصيغت فيه من الألفاظ الرائقة ، وضممته من الأمثال والحكم التي زادت في ثروة الأدب العربي ، ومهدت لمن خلفه طرقا لم تكن لولاه معبدة ، ومنها سلك أبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعري وغيرهما إلى حكمهم . ومن مراثيته لمحمد بن حميد الطوسي الطائي المشهورة :

توفيت الآمال بعد محمد	وأصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله	وذخرا لمن أمسى وليس له ذخ
وما كان يدري مجتدى جود كفه	إذا ما استهلكت أنه خلق العسر
ألا في سبيل الله من عطلت له	فجاء سبيل الله واثغر الثغر

(١٢ — الحياة الأدبية)

دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
تقوم مقام النصر إن فاته النصر
من الضرب واعتلت عليه القنا السم
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
وقال لها من تحت أخمصك الحشر
فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
ولكن كبرا أن يقال به كبر
وبزته نار الحرب وهو لها جمر

فتى كلما فاضت عيون قبيلة
فتى دهره شطران فيما ينوبه
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
وما مات حتى مات مضرب سيفه
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه
ونفس تعاف العار حتى كأنما
فأثبت في مستنقع الموت رجله
غدا غدوة والحمد نسج ردائه
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها
وله من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجا :

فالسيل حزب للسكان العالى
بحي القريض إلى ميمت المال

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى
وتنظرى خيب الركاب ينصها
ومن قوله فى الحجاب :

وجوده لمرجى جوده كشب
إن السماء ترجى حين تحتجب

يأبها الملك النأى بغرته
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا
ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صورت نفسك لم تزدها
ومن أنخم قصائده قصيدته البائية التى هنا بها الخليفة المعتصم بفتح عمورية
ويسخر فيها بالمنجمين ، وأولها :

فى حده الحد بين الجد واللعب
متونهن جلاء الشك والريب

السيف أصدق انباء من الكتب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى

دعبل الخزاعى

المتوفى سنة ٢٤٦ هـ

هو دعبل بن على بن رزين الخزاعى الأزدي يكنى أبا على . شاعر متقدم
مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم عليه أحد من الخلفاء ولا من وزراءهم ولا أولادهم

ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن ولا أفلت منه كبير أحد ، وكان شديد التعصب على النزارية (١) للقحطانية . وقال قصيدة يرد فيها على السكيت بن زيد ويناقضه في قصيدته المذهبة التي هجا بها قبائل اليمن : ألا حييت عنا يا مدينا . وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى على صلوات الله عليه ، وقصيدته « مدارس آيات خلت من تلاوة ، مشهورة .

وهي من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت عليهم السلام . وقصد بها على بن موسى الرضا بخراسان ، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه ، وخلع عليه خلعة من ثيابه أعطاه بها أهل (٢) قم ثلاثين ألف درهم فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها . فقال لهم : إنما تراد لله عز وجل وهي محرمة عليكم فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم ، خلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفته فأعطوه فكان من أكفانه . وها هي ذى القصيدة :

مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزل وحى مقفر العرصات (٣)
لآل رسول الله بالخيف من منى	وبالركن والتعريف والجرات
ديار على والحسين وجعفر	وحزة والسجاد ذى الثغفات
ديار عفاها كل جون (٤) مبادر	ولم تعف للأيام والسنوات
قفا نسأل الدار التي خف أهلها	متى عهدا بالصوم والصلوات

ودخل دعبل على على بن موسى الرضا فقال له أنشدني شيئا عما أحدثت فأنشده :

مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزل وحى مقفر العرصات
-------------------------	------------------------

حتى انتهى إلى قوله

إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم أكفا عن الأوتار منقبضات
فبكي حتى أغمى عليه . وأوماً إليه خادم كان على رأسه أن اسكت ، فسكت ساعة ثم قال له - أعد - فاعد حتى انتهى إلى هذا البيت أيضا فاصابه مثل الذي أصابه في المرة الأولى وأوماً الخادم إليه أن اسكت فسكت - فكث ساعة أخرى ثم قال له : أعد فاعد ، حتى انتهى إلى آخرها فقال له أحسنت ثلاث مرات ثم أمر له

(١) النزازية : ولد نزار بن معد بن عدنان . والقحطانية : ولد قحطان وهم عرب اليمن (٢) قم : مدينة ببلاد الفرس (٣) العرصات جمع عرصة وهي وسط الدار . (٤) يريد بالجون السحاب الأسود المكفهر

بعشرة آلاف درهم بما ضرب باسمه ولم تكن وقعت إلى أحد بعد وأمر له من منزله بحلى كثير أخرجه إليه الخادم فقدم العراق فباع كل درهم منها بعشرة دراهم اشتراها منه الشيعة فحصل له مائة ألف درهم فكان أول مال اعتقده

قال دعبل بن علي : (١) حججت أنا وأخى رزين ، وأخذنا كتبنا إلى المطلب ابن عبد الله بن مالك ، وهو بمصر يتولاهما . فصرنا من مكة إلى مصر ، فصحبنا رجل يعرف بأحمد بن السراج ، فإزال يحدثنا ويؤنسنا طول طريقنا ، ويتولى خدمتنا كما يتولاهما الرفقاء والاتباع ، ورأيناه حسن الأدب - وكان شاعراً ولم نعلم - وكنتمنا نفسه ، وقد علم ما قصدنا له ، فعرضنا عليه أن نقول في المطلب قصيدة ننحله إياها ، فقال : إن شئتم ، وأرانا بذلك سروراً وتقبلاً له ، فعملنا قصيدة ، وقلنا له تشدها المطلب وانك تنتفع بها . فقال : نعم . ووردنا مصر به ، فدخلنا إلى المطلب وأوصلنا إليه كتبنا كانت معنا ، وأنشدناه فسر بموضعنا ، ووصفنا له أحمد بن السراج هذا ، وذكرنا له أمره ، فأذن له فدخل عليه ، ونحن نظن أنه سينشد القصيدة التي ننحله إياها ، فلما مثل بين يديه عدل عنها وأنشده :

لم آت مطلباً إلا بمطلب وهمة بلغت بي غاية الرتب
أفردته برجاء أن تشاركه في الوسائل أو ألقاه في الكتب
رحلت عيسى إلى البيت الحرام على ما كان من وصب فيه ومن نصب
ألقى بها وبوجهي كل هاجرة (٢) تكاد تقدح بين الجلد والعصب
حتى إذا ما قضت نسكى ثنيت لها عطف (٣) الزمام فأمت سيد العرب
فأتمت (٤) وقد ذابت مفاصلها من طول ما تعب لاقت ومن نقب (٥)

فصاح مطلب : لبيك ! لبيك ! ثم قام إليه ، فأخذه بيده وأجلسه معه ، وقال : يا غلام ، البدر (٦) فأحضرت ، ثم قال : الخلع ، فنشرت ، ثم قال : الدواب ، فقيدت ، فأمر له من ذلك بما ملأ عينه وأعينا وصدورنا ، وحسدناه عليه ؛ وكان حسدنا له بما اتفق له من القبول وجودة الشعر ، وغیظنا بكنتمه إيانا نفسه ، واحتیاله .

(١) الأغاني ص ٤٧ ج ١٨

(٢) الهاجرة : إنما تكون في القيظ نصف النهار .

(٣) عطف الشيء : جانبه (٤) يقال . أمه وأمة بمعنى قصده .

(٥) نقب البعير إذا حفي (٦) البدر جمع بدرة (بفتح الباء) وهي عشرة آلاف درهم

علينا أكثر وأعظم ، فخرج بما أمر له ، وخرجنا صفراً . ومكث دعبل أياماً ثم ولاء المطلب أسوان ، ولكن دعبلا كان قد هجاه غيظاً منه فقال

أطلب أنت مستعذب حياً (١) الأفاعى ومستقتل
ستأتيك إما وردت العراق صحائف يأثرها دعبل
منمقة بين أثنائها مخاز تخط فلا ترحل
وضعت رجلاً فما ضرهم وشرفت قوما فلم ينبولوا
إذا الحرب كنت أميراً لها فحظهم منها أن يقتلوا
شعارك في الحرب يوم الوغى إذا انهزموا : عجلوا عجلوا
هزائمك الغر مشهورة بقرطس (٢) فيهن من ينضل
فأنت إذا ما التفتوا آخر وأنت إذا انهزموا أول

وبلغ المطلب هجاؤه إياه بعد أن ولاء ، فعزله عن أسوان ، وأنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له ، وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة ، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه ، وامنعه من الخطبة وأنزله عن المنبر ، واصعد مكانه ؛ فلما أن علا المنبر وتنحج ليخطب ناوله الكتاب ، فقال له دعبل دعني أخطب فإذا نزلت قرأته ، قال لا ، قد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأ فقرأه ، وأنزله عن المنبر معزولاً وقال محمد بن موسى الضبي (٣) ، وكان نديماً لعبد الله بن طاهر : بينما نحن عند عبد الله بن طاهر ذات ليلة ؛ يذاكرنا بالآدب وأهله ، وشعراء الجاهلية إذ بلغ إلى ذكر المحدثين حتى انتهى إلى ذكر دعبل فقال ويحك يا ضبي ! إني أريد أن أحدثك بشيء على أن تستره طول حياتي ، فقلت له أصلحك الله ، أنا عندك في موضع ظنة؟ قال لا ، ولكن أطيب لنفسى أن توثق لي بالإيمان ؛ لأركن إليها ويسكن قلبي عندها ، فأحدثك حينئذ . قال قلت إن كنت عند الأمير في هذه الحال فلا حاجة به إلى إفشاء سره إلى ، واستعفيته مراراً فلم يعفني ، فاستحييت مراجعته وقلت فلير الأمير رأيته ، فقال لي يا ضبي ، قل : والله ، قلت والله فأمرها على غموساً مؤكدة بالبيعة والطلاق وكل ما يحلف به مسلم . ثم قال : أشعرت أن دعبلا مدخول

(١) الحميا من كل شيء شدته .

(٢) قرطس أصاب القرطاس ، أى الغرض

(٣) الأغاني ص ٥٦ ج ١٧ .

النسب؟ وأمسك ، فقلت أعز الله الأمير ، أفي هذا أخذت العهود والمواثيق ومغلظ
الآيمان ! قال : إى والله ، فقلت : ولم ؟ قال : لأنى رجل لى فى نفسى حاجة ودعبل
رجل قد حمل نفسه على الممالك وحمل جذعه على عنقه ، فليس يجد من يصلبه عليه .
وأخاف إن بلغه أن يقول فى ما يبقى على عاره على الدهر ، وقصاراى إن ظفرت به
وأسلمته اليمن — وما أراها تفعل ؛ لأنه اليوم شاعرها والذاب عنها ، والمحامى لها
دونها . أن أضربه مائة سوط وأثقله حديداً ؛ وليس فى ذلك عوض على بما سار
فى من الهجاء وفى عقبى من بعدى . فقلت : ما أراه يفعل ويقدم عليك . فقال لى :
يا عاجز ؛ أترأه أقدم على الرشيد والأمين والمأمون وعلى أبى ولا يقدم على ! فقلت :
فإذا كان الأمر كذا فقد وفق الأمير فيما أخذه على ، قال : وكان دعبل صديقاً لى .
فقلت : هذا شيء قد عرفته ، فمن أين ؟ قال الأمير : إنه مدخول النسب ، وهو
فى البيت الرفيع من خزاعة ؟ فقال : اسمع ، إنه كان أيام ترعرع خاملاً لا يؤبه له
وكان ينام هو ومسلم بن الوليد فى إزار واحد لا يملكان غيره ، ومسلم أستاذه ، وهو
غلامه يخدمه ، ودعبل حينئذ لا يقول شعراً يفكر فيه حتى قال :

لا تعجبي ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
وغنى فيه بعض المغنين وشاع . فغنى به بين يدى الرشيد ، فطرب وسأل عن قائل
الشعر ف قيل له : دعبل بن على وهو غلام نشأ من خزاعة ، فأمر بإحضار عشرة آلاف
درهم وخلعة من ثيابه . فأحضر ذلك فدفعه مع خادم من خاصته وقال له : اذهب
بهذا إلى خزاعة فاسأل عن دعبل بن على فإذا دلت عليه فأعطه هذا وقل له : ليحضر
إن شاء ، وإن لم يحب ذلك فدعه ، وأمر البغى بجائزة .
فسار الغلام إلى دعبل ، وأعطاه الجائزة ، وأشار عليه بالمسير إليه ، فلما دخل
عليه وسلم أمر بالجلوس فجلس ؛ واستنشد الشعر فأنشده إياه فاستحسنه ، وأمره
بملازمته ، وأجرى عليه رزقا سنيا ، فكان أول من حرصه على قول الشعر ، فوالله
ما بلغه أن الرشيد مات حتى كافأه ؛ وقال فيه من قصيدة مدح بها أهل البيت
وهجا الرشيد :

وليس حى من الأحياء نعله من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء فى دماهم كما تشارك أيسار (١) على جزر

(١) أيسار . جمع ياسر ، وهو الذى يلى قسمة الجزور . نوق تذيب وتقسم
أقساماً للبقارة

قتل وأسر وتحريق ومنهبة
أرى أمية معذورين إن قتلوا
أربع بطوس (٢) على القبر الزكي إذا
قبران في طوس : خير الناس كلهم
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا
هيات كل امرئ رهن بما كسبت
فعل الغزاة بأرض الروم والخز (١)
ولا أرى لبني العباس من عذر
ما كنت تربع من دين على وطر
وقبر شرم هذا من العبر
على الزكي بقرب الرجس من ضرر
له يداه نخذ ما شئت أو قدر

فهذه واحدة ، وأما الثانية فإن المأمون لم يزل يطلبه وهو طائر على وجهه حتى
دس إليه قوله :

أنى يكون وليس ذاك بكائن يرث الخلافة فاسق عن فاسق
إن كان إبراهيم (٣) مضطلعا بها فلتصلحن من بعده لمخارق (٤)

فلما قرأهم المأمون ضحك وقال : قد صفحت عن كل ما هجانا به ، إذ قرن
إبراهيم بمخارق في الخلافة ، وولاه عهده ، وكتب إلى أن يكاتبه بالأمان ،
ويحمل إليه مالا ، وإن شاء أن يقيم عنده أو يصير إلى حيث شاء فليفعل ، فكتب
إليه أبى بذلك ، وكان واثقا به ، فصار إليه ، فحمله وخلص عليه ، وأجازه وأعطاه
المال ، وأشار عليه بقصد المأمون ففعل ، فلما دخل وسلم عليه تبسم في وجهه ،
ثم قال : أنشدنى :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر (٥) العرصات

فجزع ؛ فقال له : لك الأمان فلا تخف ؛ وقد رويتها ولكنى أحب سماعها
من فيك ؛ فأنشده :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجرات (٦)

(١) الخز : جميل من الترك ، بلادهم شمال فارس (٢) طوس

مدينة عظيمة بخراسان تعرف الآن بمشهد ؛ دفن بها الرشيد وعلى بن موسى الرضا.
واربع : أقم ؛ والوطر : الحاجة ،

(٣) يريد إبراهيم بن المهدي (٤) مخارق : مغن معروف (٥) المقفر :
الخالى من الناس ؛ والعرصات . ساحات الدار (٦) أسماء مواضع بمكة

ديار على والحسين وجعفر
ديار عفاها (٢) كل جون مبادر (٣)
قفا نسأل الدار التي خف أهلها :
وأين الآلى شطت بهم غربة النوى
وما الناس إلا حاسد ومكذب
وحزة والسجاد ذى الثفنيات (١)
ولم تعف للأيام والسنوات
متى عهدا بالصوم والصلوات ؟
أفانين فى الآفاق مفترقات
ومضطعن ذو إحنة وترات

ومضى فيها حتى أتى على آخرها . والمأمون يسكى حتى اخضلت لحيته بدمعه ؛
فوالله ما شعرنا به إلا وقد شاعت له أبيات يهجو بها المأمون بعد إحسانه إليه
وأنسه به ؛ حتى كان أول داخل وآخر خارج من عنده .

وقال عمرو بن مسعدة (٤) : حضرت أبا دلف عند المأمون — وقد قال له
المأمون : أى شيء تروى لأخى خزاعة ؟ فقال : وأى خزاعة يا أمير المؤمنين !
قال : ومن تعرف فيهم شاعراً ؟ فقال : أما من أنفسهم ؛ فأبو الشيص ودعبل
وابن أبى الشيص ، وداود ابن أبى رزين ؛ وأما من مواليهم فظاهر وابنه عبد الله
فقال : ومن عسى فى هؤلاء أن يسأل عن شعره سوى دعبل ! هات ؛ أى شيء
عندك فيه ؟ فقال وأى شيء أقول فى رجل لم يترك أهل بيته حتى هجاهم ، فقرن
إحسانهم بالإساءة ، وبذلهم بالمنع ، وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل حسنة منهم
بازاء سيئة ! قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول فى المطلب بن عبد الله ابن
مالك ، وهو أصدق الناس له ، وأقربهم منه ، وقد وفد إليه مصر ، فأعطاه الجزيل
وولاه ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

اضرب ندى طلحة الطلحات متتداً بلؤم مطلب فينا وكن حكماً

تخرج خزاعة من لؤم ومن كرم فلا نخس لها لؤماً ولا كرمأ

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغرضه وألفه وأدهاه ! وجعل يضحك . ثم
دخل عبد الله بن طاهر ، فقال له : أى شيء تحفظ يا عبد الله لدعبل ؟ فقال :
أحفظ أبياتاً له فى أهل بيت أمير المؤمنين ؛ قال : هاتها ، ويحك ! فأنشده
عبد الله قوله :

(١) الثفنة: الركبة ومجتمع الساق والفخذ ؛ والسجاد ذو الثفنيات هو على بن الحسين ؛
لأن طول السجود أثر فى ثفنياته (٢) عفاها : محاسنها (٣) الجون المبادر :

(٤) أغاني ص ٤٤ ج ١٨

السحاب الماطر .

سقياً ورعياً لأيام الصبايات أيام أرفل في أنواب لذاتي
 أيام غصني رطيب من ليانته أصبو إلى غير جاراتي وكناتي (١)
 دع عنك ذكر زمان فات مطلبه واقذف برحلك عن متن الجهالات
 واقصد بكل مديح أنت قائله نحو الهداة بنى بيت الكرامات
 فقال المؤمنون : إنه قد وجد والله مقالا فقال ، ونال ببعيد ذكرهم مالا يناله
 في وصف غيرهم ، ثم قال : لقد أحسن في وصف سفر سافره ، فطال ذلك السفر عليه
 فقال فيه :

ألم يأن (٢) للسفر الذين تحملوا إلى وطن قبل المات رجوع !
 فقلت - ولم أملك سوابق عبرة نطقن بما ضمت عليه ضلوع (٣)
 تبين ! فكم دار تفرق شملها وشمل (٤) شتيت عاد وهو جميع
 كذاك الليالي صرفهن (٥) كما ترى لكل أناس جدبة وريبع (٦)
 ثم قال : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفرى وهجيراي
 ومسليقي حتى أعود !

قال أبو خالد الخزازي لدعبل : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد
 ووترت الناس جميعاً ، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كففت
 عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك ، فقال : ويحك ! إني تأملت ما تقول
 فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالي بالشاعر وإن كان
 مجيداً إذ لم يخف شره ، ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك في تشريفه ،
 وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من
 وصفته بالجلود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك ، فإذا رآك
 أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك

(١) السكنة : امرأة الابن والأخ

(٢) يأن يقرب ويحضر ، والسفر : المسافرين .

(٣) العبرة : الدفعة ، وما ضمت عليه الضلوع : الحزن والشوق إلى الوطن
 والأهل (٤) الشمل : ما اجتمع من الأمر أو ما تفرق منه ، والشتيت :
 المنفرد ، والجميع : المجتمع (٥) صرف الليالي : أحداثها (٦) جدبة وريبع :
 حالتا خير وشر .

يا أبا خالد ! إن الهجاء المقذع (١) آخذ بضبع الشاعر من المديح المضرع (٢) ، فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حتف أنفه .

قال دعبل : قال لي أبي رزين ما قلت من الشعر قط إلا هذين البيتين :

خليلي ماذا أرتجى من غد امرئ طوى الكشح عنى اليوم وهو مكين
وإن امرأ قد ضن منه بمنطق يسد به فقر امرئ لضنين
وبيتين آخرين وهما :

أقول لما رأيت الموت يطلبني ياليتنى درهم فى كيس مياح (٣)
فياله درهما طالت صيانتة لا هالك ضيعة يوماً ولا ضاح (٤)

وكان سبب خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطر (٥) ويصحب الشطار فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة فجلسا على طريق رجل من الصيارفة ، وكان يروح كل ليلة بكسبه إلى منزله ، فلما طلع مقبلا إليهما وثبأ إليه فخرجاه وأخذوا ما فى كفه فاذا هى ثلاث رمانات فى خرقة ، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه ، ومات الرجل مكانه ، واستتر دعبل وصاحبه ، وجد أولياء الرجل فى طلبهما ، وجد السلطان فى ذلك ، فطال على دعبل الاستتار فاضطر إلى أن هرب من الكوفة فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد .

وكان دعبل جالساً بالبصرة وعلى رأسه غلامه نقنف فر به أعرابي يرفل فى ثياب خز ، فقال لغلامه : أدع لى هذا الاعرابى ، فأومأ إليه الغلام فجأة ، فقال له دعبل : بمن الرجل ؟ قال : من بنى كلاب ، قال : من أى ولد كلاب أنت ؟ قال : من ولد أبى بكر ، فقال أتعرف القائل :

ونبتت كلباً من كلاب يسبنى ومحض كلاب يقطع الصلوات
فان أنا لم اعلم كلاباً بأنها كلاب وانى باسل النعمات

(١) المقذع من أقذعه : رماء بالفحش وسوء القول وشتمه .

(٢) المضرع : المذل

(٣) المياح : الذى يميح الماء أى يستقيه . (٤) ضاح : ظاهر . (٥) يتشطر

يعيش عيشة الشطار ، الشاطر : من أعيا أهله خبثاً .

فكان إذا من قيس عيلان والدى وكانت إذا أمى من الحبطات (١)
وهذا الشعر لدعبل يقوله في عمرو بن عاصم الكلبي ، فقال الاعرابي : من
انت ؟ فكره ان يقول له من خزاعة فيهمجهم ، فقال : انا أتمى الى القوم الذين يقول
فيهم الشاعر :

أناس على الخير منهم وجعفر وحمة والسجاد ذو الثففات (٢)
إذا فخرُوا يوما أتوا بمحمد وجبريل والفرقان والسورات
فوثب الاعرابي وهو يقول : مالى الى محمد وجبريل والفرقان والسورات مرتقى ،
ومن قول دعبل وفيه غناء :

أين الشباب وأية سلكا لا أين يطلب ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي
يا ليت شعري كيف يومك يا صاحبي إذا دى سفكاً
لا تأخذوا بظلامتي أحداً قلبي وطرفي في دى اشتراكاً
أخذ البيت الثاني من قول مسلم بن الوليد :

مستعبر يسكي على دمنة ورأسه يضحك فيه المشيب
نجاء به أجود من قول مسلم ، فصار احق به منه . وقال الأصمعي : سرقة من
قول الحسين بن مطير الأسدي :

أين أهل القباب بالدهناء (٣) أين جيراننا على الأحساء
فارقونا والأرض ملبسة نو ر الأقاحي (٤) تحاك بالأنواء
كل يوم بأفحوان جديد تضحك الأرض من بكاء السماء
وقال البحترى : دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد لأن كلام

(٢) الحبطات : قبيلة من بني تميم ، وقد تكسر باؤها (٢) الثففات جمع ثفنة
وهي من الانسان الركبة وكان بها آثار من كثرة سجوده .

(٣) الدهناء : واد في بلاد بني تميم ببادية البصرة ، والأحساء جمع حسي بكسر
فسكون وهو الماء الذي تنشفه الأرض من الرمل فإذا صار إلى صلابة أمسكته وهو
علم لمواضع شتى ببلاد العرب .

(٤) الأقاحي : جمع الأفحوان وهو نبات له زهر أبيض في وسطه كتلة صغيرة
صفراء وأوراق زهرة مفلجة صغيرة ، يشبهون به الأسنان .

دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم وكان يتعصب له .
وقال أبو تمام ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقرا باستاذيته حتى ورد
عليه بجرجان ، فجفاه مسلم وكان فيه بخل ، فمجره دعبل وكتب إليه :

أبا مخلد كننا عقيدي مودة هوانا وقلباننا جميعا معا
أحوطك بالغيب الذي أنت حاطي وأجزع لإشفاقا من أن تتوجعا
فصيرتني بعد انتكائك منهما لنفسى عليها أرهب الخلق أجما
غششت الهوى حتى تداعت أصوله بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا
وأنزلت من بين الجوانح والحشى ذخيرة ود طالما قد تمنعا
فلا تلحيني ليس لي فيك مطمع تحرقت حتى لم أجد لك مرقعا
فبهك يميني استأكلت فقطعتها وجشمت قلبي صبره فتشجعا
ثم تهاجرا فما التقيا بعد ذلك .

وحدث دعبل الشاعر (١) أنه اجتمع هو ومسلم وأبو الشيص وأبو نواس
في مجلس ، فقال لهم أبو نواس : إن مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه ، ولهذا
اليوم ما بعده ، فليات كل واحد منكم باحسن ما قال فلينشده ، فانشد
أبو الشيص :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيدة حبا لذكرك فليلبني اللوم
وأهنتني فاهنت نفسي صاغرا ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت احبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضى عجبته ، ثم انشد
مسلم ابياتاً من شعره الذي يقول فيه :

فاقسمت أنسى الداعيات إلى الصبا وقد فاجأتها العين والستر واقع
فغطت بايديها ثمار نخورها كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع (٢)
قال دعبل : فقال لي أبو نواس : هات ابا على ، وكأني بك قد جئتنا بأمر
القلادة ، فانشدته :

اين الشباب ؟ واية (٣) سلكا ؟ ام اين يطلب ؟ ضل بل هلكا

(١) العقد ص ٤ ج ٢ ، مذهب الأغاني ص ٢٢٤ ج ٧ ، ديوان مسلم ص ٢٠٩
طبعة اوربا . (٢) هي الغل تجمع اليدين إلى العنق .
(٣) أية : أية سبيل .

لا تعجبي ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي
ياليث شعري كيف صبركما يا صاحبي إذا دمي سفكا ؟
لا تطلبا بظلامتي أحدا قلبي وطرفي في دمي اشتركا
ثم سألتاه أن ينشد ، فأنشد :

لا تبك هنداً ولا تطرب إلى دعد واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً إذا انحدرت في كف شاربها أخذت بحمرتها في العين والحد
فالخر يا قوته ، والكأس أولوة في كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من عينها خمرًا ومن يدها خمرًا فما لك من سكرين من بد
لي نشوتان وللندمان واحدة شئ خصصت به من بينهم وحدي
فقاموا كلهم ، فسجدوا ! فقال : أفعلتموها لا كلمتكم ثلاثا ولا ثلاثا !

يزيد المهلبى

شاعر عباسى بليغ . كان أخص الناس بالمنتصر ، وكان يجالسه قبل مجالسة المتوكل ، فدخل المتوكل يوماً على المنتصر على غفلة فسمع كلامه فاستحسنه ، فاخذه إليه فجعله في جلساته . وكان المنتصر يريد منه أن يلازمه كما كان فلم يقدر على ذلك لملازمته أباه ، فعتب عليه لتأخره عنه على ثقة بمودته وأنس به . فلما أفضت إليه الخلافة استأذن عليه ، فخجبه وأمر بان يعتقل في الدار ، فحبس أكثر يومه ، ثم أذن له فدخل وسلم وقبل الأرض بين يديه فامره بالجلوس ثم استأذنه في الانشاد فاذن ، فأنشده :

ألا يا قوم قد برح الخفاء وبان الصبر منى والعزاء
تعجب صاحبي لضياح مثلى وليس لدام محروم دواء
جفاني سيد قد كان برا ولم أذنّب فما هذا الجفاء
حللت بداره وعلت أنى بدار لا يخيب بها الرجاء
فلما شاب رأسى في ذراه (١) حجبت بعقب ما بعد الرخاء
فان تنأى ستور الاذن عنا فما نأت المحبة والثناء
وإن يك كاذبى ظلما عدو فعند البحث ينكشف الغطاء
ألم تر أن بالآفاق منا جماجم حشو أقبرها الوفاء

(١) ذراه : ظله وكنفه

وقد وصف الزمان لنا زياد (١) وقال مقالة فيها شفاء
 ألا يارب مغموم سيحظى بدولتنا ومسرور يساء
 أمنتصر الخلائف جدت فينا كما جادت على الأرض السماء
 وسعت الناس عدلا فاستقاموا بأحكام عليهم الضياء
 وليس يفوتنا ما عشت خير كفانا أن يطول لك البقاء

ابن أبي عيينة

هو ابن أبي عيينة بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي ، شاعر
 مطبوع ظريف غزل هجاء ، أنفذ أكثر شعره في هجاء ابن عمه خالد . وكان من
 شعراء الدولة العباسية من ساكني البصرة . وأبو عيينة من أطبع الناس وأقربهم
 مأخذا من غير أدب موصوف ولا رواية كثيرة ، وكان يقرب البعيد ويحذف
 الفضول ويقل التكاف ، وكان يتعشق فاطمة بنت عمر ويسر عشقها ويلقبها دنيا ،
 كتبنا لأمرها وكانت امرأة جليلة سرية من النساء ، وكان أبوها من أشد الفرسان
 وشجعانهم ، وقال في فاطمة هذه :

عيشها حلو وعيشك مر ليس مسرور كمن لا يسر
 كديم الحب تسخن فيه عينه أكثر مما تقر
 قلت للآثم فيها اله عنها لا يقع بيني وبينك أمر
 أتراني مقصراً عن هواها ؟ كل مملوك إذا لي حر

ومن قوله فيها :

ألم تنه قلبك أن يعشقا ومالك والعشق لولا الشقا
 أمن بعد شربك كأس النهى وشك ريحان أهل التقى
 عشقت فأصبحت في العالمين بن أشهر من فرس أبلقا
 أدنيائ من غمر بحر الهوى خذى بيدي قبل أن أغرقا
 ومن مختار ما قاله في فاطمة :

قل لدنيا بالله لاتقطعينا واذكرينا في بعض ما تذكرينا
 لاتخونني بالغيب عهد صديق لم تخافيه ساعة أن يخونا

(١) يريد قول زياد بن أبي سفيان في خطبته بالكوفة : رب مسرور بقدمنا
 سيبتئس ، ومبتئس بقدمنا سير .

واذكري عيشنا وإذ نقض الريد
 حفظ الله اخوتي حيث كانوا
 فتية نازحون عن كل عيب
 وهم الاكثرون يعلم ذاك الله
 أزعجتني الاقدار عنهم وقد كنه
 وتبدلت خالدا لعنة الله
 رجل يقهر اليتيم ولا يؤ
 ويصون الثياب والعرض بال
 نزع الله منه صالح ما أء
 فلعمر المبادرين إلى مكة
 إن أضياف خالد وبنيه
 وتراهم من غير نسك (٣) يصومو
 يابني خالد دعوه وفروا
 ح علينا الخيري (١) والياسمينا
 من بلاد سارين أم مدلجينا
 وهم في المكارم الاولونا
 ساس والاطيبون للاطيينا
 ت بقربي منهم شحيحا ضئينا
 له عليه ولعنة اللاعنينا
 تي زكاة وينهر المسكيننا
 ويرائي ويمنع الماعونا (٢)
 طاه آمين عاجلا آمينا
 وفداً غادين أو رائحيننا
 ليجوعون فوق ما يشبعونا
 ن ومن غير علة يحتمونا
 كم على الجوع ويحكم تصبرونا

وقال الرشيد للفضل بن الربيع : من أهجى المحدثين عندك يا فضل في عصرنا هذا؟
 قال الذي يقول في ابن عمه

لو كما ينقص يزدا
 خالد لولا أبوه
 أنا ما عشت عليه
 أن من كان مسيئاً
 د إذا نال السماء
 كان والكلب سواء
 أسوأ الناس ثناء
 لحقيق أن يساء

ووفد الى طاهر بن الحسين يسأله أن يعزل أمير البصرة وكان من قبله
 فحمله وأجزل صلته ، فقال :

ياذا اليمينين قد أوقرتني مننا
 ولست أستطيع من شكر أجيء به
 لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة
 أخلصتها لك من قلبي مهذبة
 ت ترى (٤) هي الغاية القصوى من المنة
 إلا استطاعة ذي روح وذو بدن
 أوفى من الشكر عند الله في الثمن
 حذوا على مثل ما أوليت من من

(١) الخيري : هو المنشور الاصفر (٢) الماعون : المعروف أو كل ما انتفع به
 (٣) النسك : العبادة . (٤) ت ترى : متابعة

وكان أمير البصرة إسماعيل بن سليمان قد أساء مجاورة ابن أبي عيينة حتى تباعد ما بينهما وقبح ؛ وأظهر إسماعيل تنقصه وعتبه ، فخرج يشكوه الى طاهر ؛ فلما دخل عليه سأله عن حوائجه وأدناه وأمره برفعها ؛ فأنشده :

انى من الله فى مراح غنى	ومتدى واسع وفى نعم
زارتك بى همه منازعة	الى العلا من كرائم الهم
واننى للجميل محتمل	فى القدر من منصبى ومن شيمى
وقد تعلقت منك بالذمم الـ	كبرى التى لا تخيب فى الذمم
فان أنل بغيتى فانت لها	فى الحق حق الرجاء والرحم
وان يعق عاتق فلست على	جميل رأى عندى بمتهم
فى قدر الله ما أحمله	تعويق أمرى فى اللوح والقلم
لم يضق الصبر والفجاج على	حر كريم بالصبر معتصم

وكان ابن أبي عيينة قد قصد قبضة بن روح بن حاتم المهلبى واستماحه فلم يجد عنده ما قدره فيه ؛ فانصرف مغاضبا ؛ فوجه اليه داود بن يزيد بن حاتم ، فترضاها وبلغ ما أحبه ورضيه من بره ومعاونته . فقال يمدحه ويهجو قبضة .

أقبيص لست وان جهدت بمدرك	سعى ابن عمك ذى العلا داود
شتان بينك يا قبيص وبينه	ان المذمم ليس كالجمود
اختار داود بناء محامد	واخترت أكل شبارق (١) وثريد
قد كان مجد أبك لو أحييته	روح أبى خلف كمجد يزيد
لكن جرى داود جرى مبرز (٢)	لخوى المدى وجريت جرى بليد
دواد محمود وأنت مذمم	عجبا لذلك وأتما من عود

وولى خالد بن حاتم بن قبضة بن المهلب جرجان (٣) فأمر ابن أبي عيينة أن يصحبه ويخرج معه ووعداه الاحسان والولاية وأوسع له المواعيد وكان ابن أبي عيينة جندياً فجرد اسمه فى جريدته وأخرج رزقه معه ، فلما حصل بجرجان أعطاه رزقه لشهر واحد واقتصر على ذلك وتشاغل عنه وجفاه ؛ فبلغه أنه قد هجاه وطعن عليه وبسط لسانه فيه وذكره بكل قبيح عند أهله ووجوه رعيته ؛ فلم يقدر على معاقبته لموضع أبيه وسنه

(١) الشبارق : ما اقتطع من اللحم صغيراً وطبخ (٢) المبرز ؛ السابق

(٣) جرجان : مدينة عظيمة فى الشمال من بلاد الفرس

ومحله في أهله ، فدعا به وقال : إنه قد بلغني أنك تريد أن تهرب فاما ان أقمت لي كفيلا برزقك أورد دته ، فأتاه بكفيل ، فأعنته (١) ولم يقبله ولم يزل يردده حتى ضجر ؛ فجاءه بما قبض من الرزق ، فاخذه ، ولج أبو عينة في هجائه وأكثر فيه حتى فضحه فقال فيه :

دنيا دعوتك مسرعا فأجيبني وبما اصطفتك في الهوى فأثبي
دوى آدم لك بالصفاء على النوى إلى بعدك واثق فثقي بي
ومن الدليل على اشتياقي عبرتي ومشيب رأسي قبل حين مشيب
أبكي إليك إذا الحمامة طربت (٢) يا حسن ذاك إلى من تطرب
تبكي على فنن الغصون حزينة حزن الحبيبة من فراق حبيب
وأنا الغريب فلا ألام على البكا إن البكا حسن بكل غريب
أفلا ينادى للفتول برحلة تشفي جوى من أنفس وقلوب
مالي اصطفت على التعسف خالداً والله ما أنا بعدها بأريب
تبسا لصحبة خالد من صحبة ولخالد بن يزيد من مصحوب
يا خالد بن قبيصة هيئت به حرب فدونك فاصطبر لحروبي

البحرئى واسا عمار

هو الوليد بن عبيد الله بن يحيى البحرئى الطائى من بحر بن عتود ثم من طيء ؛ ويكنى أبا عبادة ، وهو كما يقول أبو الفرج : شاعر فاضل حسن المذهب نقي الكلام مطبوع ؛ كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء ؛ وله تصرف حسن فاضل نقي في ضروب الشعر سوى الهجاء فإن بضاعته فيه نزرة ؛ وجيده منه قليل . وكان ابنه أبو الغوث يزعم أن السبب في قلة بضاعته في هذا الفن أنه لما حضره الموت دعا به وقال له : اجمع كل شيء قلته في الهجاء ، ففعل ؛ فأمره باحراقه ؛ ثم قال له : يا بني هذا شيء قلته في وقت فشفت به غيظي وكافأت به قبيحاً فعل بي ؛ وقد انقضى أربي في ذلك ؛ وان بقي روى ؛ وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة ؛ وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك ومباشك لا فائدة لك ولا لي منه ؛ قال : فعلت

(١) أعنته : أوقعه في العنت وهو المشقة .

(٢) طرب صوته : مده ورجعه وحسنه .

أنه قد نصحنى وأشفق على فأحرقته . والذى وجدناه وبقي في أيدي الناس من هجائه فأكثره ساقط لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه وتنبؤ بركاكتها وغثائه ألفاظها عن قلة حظه في الهجاء . وكان البحترى يتشبهه بأبي تمام في شعره ويحذو مذهبه وينحو نحوه في البديع الذى كان أبو تمام يستعمله ؛ ويراه رائداً وإماماً ويقدمه على نفسه ، ويقول في الفرق بينه وبينه قول منصف : إن جيد أبي تمام خير من جيده ووسطه خير من وسط أبي تمام ورديته ؛ وكذا حكم هو على نفسه .

وحدث البحترى قال قال أبو تمام : بلغنى أن بنى حميد أعطوك ما لا جليلا فيما مدحتهم به فأنشدنى ، فأنشدته بعض ما قلته فيهم ، فقال لى : كم أعطوك ؟ فقلت : كذا وكذا ، فقال : ظلموك ، والله ما وفوك حقك ، فلم أستكثر ما دفعوه اليك ، والله لبيت منها خير مما أخذت . ثم قال : لعمري لقد استكثرت واستكثر لك لما مات الناس وذهب السكرام وفاضت المكارم ، فكسدت سوق الأدب ؛ أنت والله يا بنى أمير الشعراء غداً بعدى ! فقلت فقبلت رأسه ويديه ورجليه وقلت له : والله لهذا القول أسر لقلبي وأقوى لنفسى مما وصل إلى من القوم .

وكان البحترى من أبغض الناس إنشاداً ، يتشادق ويتزاور في مشيه : مرة جانباً ومرة القهقرى ؛ ويهز برأسه مرة ومنكبیه أخرى ؛ ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله ! وقال الوليد بن عبيد الله البحترى :

كنت في حدائتي أروم الشعر وأرجع فيه إلى طبعى ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه حتى قصدت أبا تمام ، وانقطعت فيه إليه ، واتكلت في تعريفه عليه . فقال لى :

تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، وأحسن الأوقات لتأليف شيء أو حفظه وقت السحر ، لأن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق وإذا أخذت في مديح سيد ذى أباد ، فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معاملة وشرف مقامه ونضد المعانى ، واحذر المجحول منها . وإياك أن تشين شعرك بالالفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام . وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين ؛ وجملة الحال أن تعتبر

شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .

وقال له أبو تمام يوما وقد سمع شعره وأعجب به :

نعت والله إلى نفسي ، فقال : أعيدك بالله من هذا القول ، فقال : إن عمرى
 أن يطول وقد نشأ في طي مثلك ، أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيب بن شبا
 وهو من رهطه يتكلم فقال : يا بني ؛ لقد نعى إلى نفسي إحسانك في كلامك ؛
 لانا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب قط إلا مات من قبله . فقال : بل يبقيك الله
 ويجعلني فداك ، ومات أبو تمام بعد سنة .

وقال عبد الله بن الحسين بن سعد — وقد أنشد البحتري شعراً لنفسه وقد
 كان أبو تمام قال في مثله — : أنت والله أشعر من أبي تمام في هذا الشعر ، فقال :
 كلا والله ، إن أبا تمام للرئيس والاستاذ ، والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له
 المبرد : لله درك يا أبا الحسن فإنك تأبى إلا شرفاً من جميع جوانبك ! وقيل
 للبحتري : إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمام ، فقال : والله ما ينفعني هذا
القول ولا يضر أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ولوددت أن الأمر كما قالوا ،
 ولكني والله تابع له آخذ منه لائذ به ، نسيمي يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض
 عند سمائه .. وقال البحتري : كان أول امرى في الشعر ونباهتى ان صرت إلى
 أبي تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعري ، وكان الشعراء يعرضون عليه
 أشعارهم ، فأقبل على وترك سائر من حضر . فلما تفرقوا قال لى : أنت أشعر من
 أنشدنى ، فكيف بالله حالك ؟ فشكوت خلة ، فكتب إلى أهل معرة (١) النعمان
 وشهد لى بالخذق في الشعر وشفع لى إليهم ، وقال : امتدحهم ، فصرت إليهم ،
 فأكرموني بكتابته ووظفوا لى أربعة آلاف درهم ، فكان أول مال أصبته ، وكانت
 نسخة كتاب أبي تمام : « يصل كتابى هذا على يد الوليد بن عبادة الطائى وهو على
 بذاذته (٢) شاعر فأكرموه » .

(١) معرة : مدينة بين حلب وحماة ، كان منها أبو العلاء أحمد بن عبد الله
 المعرى .

(٢) البذاذة : سوء الحال .

قال البحرى : أول ما رأيت أبا تمام أنى دخلت على أبى سعيد محمد بن يوسف وقد مدحته بقصيدتى :

أأفاق صب من هوى فأفبقا أم خان عهداً أم أطلاع شفقفا

فسر بها أبو سعيد وقال : أحسنت والله يا فتى وأجدت ، وكان فى مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس فوق من حضر عنده تكاد تمس ركبته ركبته ، فأقبل على وقال : يا فتى ، أما تستحى منى ؟ هذا شعر لى تنتحلّه وتشدّه بحضرتى ، فقال له أبو سعيد : أحقاً تقول ؟ قال : نعم ، وإنما علقه منى فسبقنى به إلك وزاد فيه ، ثم اندفع فانشد أكثر القصيدة حتى شككنى علم الله فى نفسى وبقيت متحيراً ، فأقبل على أبو سعيد فقال : يا فتى ، قد كان فى قرابتك وودك لنا ما يغنيك عن هذا ، فجعلت أحلف له بكل محرّجة الأيمان أن الشعر لى ما سبقنى إليه أحد ولا سمعته منه ولا انتحلته ، فلم ينفع ذلك شيئاً ، وأطرق أبو سعيد وفضع بى حتى تمنيت أنى سخت فى الأرض ، فقامت منكسر البال أجرة رجلى ، فخرجت ، فما هو إلا أن بلغت الدار حتى خرج الغلمان فردونى ، فأقبل على الرجل فقال : الشعر لك يا بنى ، والله ما قلته ولا سمعته إلا منك ، ولكننى ظننت أنك تهافتت موضعى فأقدمت على الانشاد بحضرتى من غير معرفة كانت بيننا تريد بذلك مضاهاتى وتكأثرنى حتى عرفنى الأمير نسبك وموضعك ، ولوددت ألا تلد أبدا طائفة إلا مثلك ؛ وجعل أبو سعيد يضحك ، ودعانى أبو تمام وضمنى إليه وعانقنى وأقبل يقرظنى ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به ، ثم حظى البحرى بابى سعيد وكان مداحاً له طول أيامه ولابنه بعده ورثاهما بعد مقتلهما فاجاد ، ومراثيه فيهما اجود من مدائحه ؛ وروى انه قيل له فى ذلك ، فقال : من تمام الوفاء ان تفضل المراثى المدائح ، لا كما قال الآخر ، وقد سئل عن ضعف مراثيه ، فقال : كنا نعمل للرجاء ونحن اليوم نعمل للوفاء وبينهما بعد . وكان البحرى من اوسخ خلق الله ثوباً وآلة وأبخلمهم على كل شىء ، وكان له اخ و غلام معه فى داره ، فكان يقتلها جوعاً فاذا بلغ منهما الجوع أتياه يبيكان ، فيرمى إلهما بشمن اقواتهما مضيقا مقترا ويقول : كلا أجاج الله أكبادكما ، وأطال إجهادكما .

وقد توارد البحرى والشرىف الرضى على ذكر الذئب فى قصيدة للبحرى دالية اولها :

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد اما لكم من هجر احبابكم بد

ومقطوعة للشرىف الرضى أولها :

وعارى الشوى والمنكبين من الطوى اتىح له بالليل عارى الاشاجع
وقد أجاد البحترى فى وصف حاله مع الذئب ، وأجاد الشرىف فى وصف
الذئب نفسه .

وقصيدة البحترى طويلة ومنها :

وأضلاعه من جانبيه شوى نهى	وأطلس ملء العين يحمل زوره
ومتن كمن القوس أعوج منأد	له ذنب مثل الرشاء يحره
فما فيه إلا العظم والروح والجلد	طواه الطوى حتى استمر مريره
كقضضة المقرور أرعده البرد	يقضض عصلا فى أسرتها الردى
بيداء لم تعرف بها عيشة رغد	سما لى وبى من شدة الجوع ما به
بصاحبه والجد يتعمسه الجد	كلانا بها ذئب يحدث نفسه
فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد	عوى ثم أقمى فارتجزت فهجته
على كوكب ينقض والليل مسود	فأوجرته خرقاء تحسب ريشها
وأيقنت أن الأمر منه هو الجد	فما ازداد إلا جرأة وصرامة
بحيث يكون اللب والرعب والحق	فأتبعها أخرى فأضلت نصلها
على ظمأ لو أنه عذب الورد	نخر وقد أوردته منهل الردى
عليه وللرمضاء من تحته وقد	وقمت فجمعت الحصى فاشتويته
وأقلعت عنه وهو منعفر فرد	ونلت خسيسا منه ثم تركته

أما قصيدة الشرىف الرضى فى وصف الذئب ، فهى :

أتىح له بالليل عارى الاشاجع	وعارى الشوى والمنكبين من الطوى
أنيس باطراف البلاد البلاقع	أغبر مقطوع من الليل ثوبه
ونص هدى ألحاضه بالمطامع	إذا جن ليل طارد النوم طرفه
على النوم أطباق العيون الهواجع	يرواح بين الناظرين إذا التقت
ككشطة أفى ينفذ الطل واقع	له خطفة حذاء من كل ثلة
يشرذ فراط النجوم الطوالع	ألم وقد كاد الظلام تقضيا
وكل امرئ ينقاد طوع المطامع	طوى نفسه وانساب فى شملة الدجى
وإن فات عينيه رأى بالمسامع	إذا فات شئ سمعه دل أنفه

تظالغ حتى حك بالأرض زوره
إذا غالبت إحدى الفرائس خطمه
جرى يسوم النفس كل عزيمة
إذا حافظ الراعى على الضان غره
يخادعه مستهزئاً بلخاظه
ولما عوى والرمل بيني وبينه
تأوب والظلماء تضرب وجهه
له الويل من مستطعم عاد طعمة
وراع وقد روعته غير ظالغ
تداركها مستنجداً بالأكارع
ويمضى إذا لم يمض من لم يدافع
خفي السرى لا يتقى بالطلائع
خداع ابن ظلماء كثير الوقائع
تيقن صحى أنه غير راجع
إلينا بأذيال الرياح الزاعزاع
لقوم عجال بالقسى النوازع

ويكاد يكون من المجمع عليه أنه لم يأت بعد البحرى من هو أطبع منه على الشعر ولا أبدع للخيال الشعرى . قال له يوماً أبو تمام أنت والله يا بنى أمير الشعراء غداً بعدى ، وسئل هو عن أبى تمام فقال : جيده خير من جيدى وردبى خير من رديته . وسئل المعرى عن أبى تمام وأبى الطيب فقال المتنبي وأبو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحرى . وقد نشأ البحرى فى بلاد أشبه بالبدو منها بالحضر بنزلها كثير من بطون طى وقضاة وتغلب ، ولم تكن ألسنتهم فسدت بعد فتخرج عليهم مطبوعاً على فصاحتهم وسهولة أساليبهم ، ولم يؤثر عنه أنه جالس إلى درس العلماء ولازم المتفلسفة ، فابتعد بذلك عن مذاهب الحضريين وتعمقهم وفسفتهم فكان شعره كله حسن الديباجة ، صقل اللفظ ، سلس الأسلوب ، ينحدر إلى الاسماع انحدار السيل إلى القاع ، وقلت فيه المعانى المعقدة العويصة التى تنشأ عن تراحم العلوم العقلية فى ذهن المعبر عنها ، كما كان يقع من أبى تمام والمتنبي والمعرى ، فسهل فهم شعره على جميع طبقات الناس من الخاصة والعامة ، وتغنى به الغلبان والجوارى والقيان .
وبذلك الشعر كان البحرى محبوباً للناس قليل الخصوم منهم عامة حياته .
أن خالف طريقته السمحة فى قصيدة يقول فيها يصف الدنيا :

أخى متى خاصمت نفسك فاحتشد
أرى علل الأشياء شتى ولا أرى التـ
أرى العيش ظلاً توشك الشمس نقله
أرى الدهر غولاً للنفوس وإنما
فلا تتبع الماضى سؤالك لم مضى
ولم أر كالدنيا حليلة صاحب
تراها عياناً وهى صنعة واحد
لها ومتى حدثت نفسك فاصدق
جمع إلا علة للتفرق
فكس فى ابتغاء الرزق كيسك أو مق
بقى الله فى بعض المواطن من بقى
وعرج على الباقي فسانله لم بقى
مح متى تحسن بعينه تطلق
فتحسبها صنعي لطيف وأخرق

فأوهم بيته الأخير المناقضة في أفعال الخالق الحكيم المنزه عن الحكمة حتى
ليحسب الناظر في أحوال الدنيا أنها من خلق اثنين أحدهما حكيم يؤثر الخير
والأصلح في صنعه والآخر أخرق يؤثر الفساد والشر ، وهذا ما يشبه عقيدة المجوس
القائلين بالهين للعالم إله خير وإله شر ، فأول حساده البيت بهذا المعنى ، فأشاعوه
في العامة من الخنابلة وكانت غالبية على بغداد تخاف على نفسه وقال لابنه أبي الغوث
قم يا بني حتى نطفئ هذه النائرة بمخرجة نلم فيها ببلدنا ونعود ، فخرج ولم يعد
وللبحتري تصرف حسن فاضل نقى في صنوف الشعر سوى الهجاء ، فان بضاعته
فيه نزرة ، وجيده فيه قليل ، وأهم ما اشتهر به البحتري من الأغراض النسيب والمدح
والوصف .. ومن شعره في الغزل قوله

حبيبي حبيب يكتم الناس أنه لنا — حين تلقانا العيون — حبيب
يباعدني في الملتقى وفؤاده — وإن هو أبدى لي البعاد — قريب
ويعرض عني والهوى منه مقبل إذا خاف عينا أو أشار رقيب
فتنطق منا أعين حين نلتقى وتخرس منا ألسن وقلوب

وقال في المدح

دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشأنك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وقوله في الحكمة

إذا ما نسبت الحادثات وجدتها بنات زمان أرصدت لبنيه
مى أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه

ابن الرومي

٢٢١ - ٢٨٣ هـ - ٨٣٥ - ٨٩٦ م

حياته وشاعريته :

ابن الرومي شاعر مجيد ، وعلم من أعلام القريظ في القرن الثالث الهجري ،
ويعد في الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهي الطبقة التي كان من أبطالها
أبو تمام والبحتري وابن المعتز ، وورثت مجد الشعر بعد طبقة أبي نواس ، وكان لها
منهجها الأدبي الخاص ، الذي يقوم على العناية بالصناعة الشعرية ، وعلى توليد المعاني
وعمق الخيال (١) ولد أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي عام ٢٢١ هـ

من أبوين مختلني الأرومة ، فأمه تنحدر من عنصر فارسي ، وأبوه ينحدر من عنصر رومي كان يحتفظ بطبيعته الشعرية ويمتز به طول حياته ، كان مولى لحفيد من أحفاد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وولد في بغداد في دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده في طفولة الشاعر ، فنشأ ابن الرومي في ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هو وأسرتة على مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزود بقسط من ثقافة عصره ، فلم يلبث أن أحاط بكل ما يمكن أن يحاط به من العلوم والآداب ، ونبغ في الشعر ونظم القريض وطارت شهرته في سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تنفعه ، كان فقيراً يريد أن يعيش ، وجاءنا يريد أن يأكل ، وظمان يريد أن يروي ، وخلق الثياب يبحث عما يلبسه ، وقصد بشعره رجالات الدولة في عصره مادحاً فخرموه العطاء ، فعاش ساخطاً على الحياة والأحياء

في دولتي أنا مغضوب وفي زمني عودي ظمى بلا رى ولا بلل
كان شاباً جميلاً قوى الملكات ، مزوداً بثشي ألوان الثقافة ، فلم يغنه ذلك شيئاً في حياته ، وكان يسمع ويرى حياة الترف التي يحياها في عصره كثير من الناس ، فتعنى لنفسه حظاً من النعمة ، فلم يحظ بطائل ، وهو الشاب الذي ذاق ألم اليتيم والشاعر المرهف الاحساس فاشتد سخطه على الناس ، وأمطرهم وابلاً من أهاجيه التي بغضته لدى الناس ، وزادت من آلامه في الحياة .

كان أبو الحسن علي بن العباس إذن مزيجاً من الدم الفارسي والرومي يعتز باتهما
للروم اعتزازه بانتسابه إلى الفرس :

كيف أغضى على الدنية والفرس خؤولى والروم هم أعمامى
نزع أجداد الشاعر إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية إبان نشأتها ، فأقاموا بها مع موالهم بنى العباس ، وكان ابن الرومي كأجداده وآبائه مولى من موالى العباسيين له بهذا الولاء اعتزاز :

مولاهم وغذى نعمتهم والروم حين تنصني أصلى
ونشأ في كنف أخيه محمد بن العباس ، وفي ظلال مواليه ؛ لم يكن محمد بن العباس صاحب ثروة ؛ ولا ذا جاه ؛ إنما كان أديباً يكتب لولاية بنى العباس وقوادهم ، فعاش ابن الرومي اليتيم يرقل في عطفه وبره ونعمته .. ثم دار الزمن دورته ، فإذا الطفل شاب عريض الخيال ؛ طويل الآمال ؛ لكن اليتيم قد هاض جناحه ، وراض جراحه ، فاعتصم الشاب الصغير بالأماني العذاب ، وأقبل على حلقات العلم وبجامع

الأدب ، يطنى بهما غلته ، ويرضى بالإقبال عليهما همته ، ويجد فيهما قبساً من الأمل
الباسم والمستقبل المرموق ، وجميل السلوى والعزاء . . . الدولة دولة العباسيين
وأصفيائهم من الموالى ، الذين صعدوا بالعلم والأدب إلى ذروة المجد والجلال ، وهذا
ابن الرومى يتسلح بالعلم والأدب ، ليدرك بهما ما أدرك أفذاذ الموالى من عزة ورفعة ،
وعكف الشباب الطموح على الدرس والتحصيل ، فغذى عقله وروحه بالثقافات
العربية والفارسية واليونانية ، وقرأ ما ترجم من لغة الفرس واليونان ، وما ألف
فى شتى العلوم والمعارف ، حتى برع فى كل فن ونبغ فى كل علم ، وبذا أترابه فى
ميدان اللغة وأدبها ، كما حصل علوم الفلسفة والفلك والكلام . وكما كان شاعراً كان
كاتباً صاحب رسائل ، ومفكراً ينفذ فكره إلى كل شىء ، وعالماً يشار له فى علوم
اللغة والأدب بالبنان .

وظل ابن الرومى ينهل من معين الثقافة العذب شاباً ورجلاً وكهلاً ، تساعده على
ذلك ذاكرة قوية وذهن خصب وعبقريّة نادرة ، وإحساس عميق . وأخذت شهرة
ابن الرومى الأدبية تطفئ على جوانب شخصيته الأخرى ، وأصبح اسم ابن الرومى الشاعر
يردد فى حلقات الأدب ببغداد ، فالتفت الناقد ، وبغضب الحاسد ، ويرتفع الشاعر
فى رأى النصف إلى قمة المجد والنبوغ . . . ولكن الأحداث لم تهادن الشاعر ،
فبرزى وهو فى الثلاثين بوفاة أخيه ، فحزن عليه وراثه بشعره ، ثم رزى بوفاة أولاده
واحداً بعد واحد ، فجزع عليهم وراثهم . ثم توفيت زوجته بعدهم ، فأمضه الحزن ،
وبعد ذلك ماتت أمه ، فذابت نفسه حسرات ، وفاضت عينه عبرات :

رجعنا وأفردناك غير فريدة	من البر والمعروف والخير والكرم
فلا تعدى أنس المحل فطالما	عكفت فأنسيت المحاريب فى الظلم
نبأ ناظرى يا أم عن كل منظر	وسمى عن الأصوات بعدك والنغم
وأصبحت الآمال مذنبت والمنى	غوادرن عندى غير وافية الذم

وقضى ابن الرومى أيامه فى بغداد ، ظاهر البؤس ، كثير الألم والشكوى ،
يطلب الحياة فلا تلى نداه الحياة ، ولا تذوب لشكاته نفوس أهل المروءة
والأريحية . ولما نبأ به حظه فى بغداد هجرها ، وطاف ببعض المدن ينشد فيها
الآمل الضائع ، بيد أنه لم يعثر فيها على أمانيه المنشودة ، فعاد إلى بغداد مشوقاً
إليها ، مشوقاً إليه :

بلد صحبت به الشيبية والصبا ولبست ثوب العمر وهو جديد
 فإذا تمشل في الضمير رأيت وعليه أغصان الشباب تميد
 وقنع برزقه الضيق ، وحياته الشقية ؛ كارها الغربة والسفر :
 أذاقتني الأسفار ما كره الغنى إلى وأغرائى برفض المطالب
 فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد وإن كنت في الإثراء أرغب راغب
 لقيت من البر التباريح بعدما لقيت من البحر ايضاض الذوائب
 ومدح آل وهب وآل طاهر ينشد الثراء والجاء ، ولكنه لم ينل منالا ، حتى
 إذا وهن عظمه وناء بأحداث الزمن الجائر ، أخذ يذكر الشباب في لوعة وأسى :
 وعزاك عن ليل الشباب معاشر فقالوا: نهار الشيب أهدي وأرشد
 أيام لهوى هل مواضيك عود وهل لشباب ضل بالأمس منشد؟
 ولكن هيهات أن يعود الشباب .. وأخيراً مات الشاعر ، سمى أحد أتباع
 القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد ، فسكنت النفس الشاعرة ،
 وصمتت العبقريّة الصادقة ، وأوى شهيد الآمال إلى جداث أوت إليه معه العبقريّة
 ورفقت عليه العظمة وجلال الذكريات .

هذا هو ابن الرومي : يتيماً حائراً ، وشاباً معذباً ، ورجلاً طامحاً شقيقاً بطموحه
 وشيخاً خاصته الأيام ، وحالته الآلام . وذلك هو الشاعر : متعلماً يقبل على الدرس
 والتحصيل ، وعالماً متعمقاً في فروع الثقافة والمعرفة ، وشاعراً ذاع صيته في بغداد ،
 وكاتباً يبذ الكتاب والأدباء .

وقد عاصر ابن الرومي المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز
 والمهتدي والمعتضد وتوفي في عهد المعتضد عام ٢٨٣ هـ ... واشتهر ابن الرومي في
 عصره بالتشاؤم والطيرة ، وتروى له في طيرته قصص كثيرة . وينطق شعره
 بتشائمه في الحياة ، وأفرط الشاعر في تشائمه ففتح ذلك باباً لطيرته لم يسده عليه
 إلا الموت ، فتطير من كل شيء ، حتى من الأسماء ، ومن ركوب الماء ، بل حتى
 من شربه :

وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بأمنيه على نفس راكب
 وليس بدعا من ابن الرومي هذه الطيرة ، فقد نزلت به خطوب فادحة ، أضلت
 صوابه ، فسكن إلى هواجس النفس ، ووساوس الشعور . .
 وكان ابن الرومي حاد المزاج ، مرهف الشعور ، كثير الطيرة ..

روى على بن ابراهيم قال : كنت بدارى جالسا (١) فاذا حجارة سقطت بالقرب منى فبادرت هاربا ، وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح ، والنظر إلى كل ناحية من أين تأتينا الحجارة ؟ فرجع إلى وقال لى : امرأة من دار ابن الرومى الشاعر اقد تشوفت (٢) ، وقالت : اتقوا الله فينا ، واسقونا جرة من ماء ! وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشا ! فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخطبها ، ففعلت وبادرت بالجرة ، واتبعتها شيئا من الطعام ، ثم عادت إلى فقات : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل منذ ثلاثة أيام بسبب تطير ابن الرومى ، وذلك انه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ . ثم يصير إلى الباب ، والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب ، فتقع على جاره له كان نازلا بازائه ؛ وكان أحذب يقعد كل يوم على بابه ، فاذا نظر إليه رجع ، وخلع ثيابه ، وقال : لا يفتح أحد الباب !

فعجبت لحديثها وبعثت بخادم لى كان يعرفه ، فأمرته أن يجلس بإزائه - وكانت العين تميل إليه - وتقدمت إلى بعض أعوانى أن يدعو الجار الاحدب ، فلما حضر عندى أرسلت وراء غلامى لينهض إلى ابن الرومى ويستدعيه ، فأتى لجالس ومعى الاحدب ، إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسى ومعه برذعة الموسوس ، صاحب المعتضد ، ودخل ابن الرومى ؛ فلما تحطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع شسع (٣) نعله ، فدخل مذعورا ! وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظرا يدل على تغير حاله ، فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه ، فقلت له : يا أبا الحسن . أليكون شئ فى خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال : قد لحقنى مارأيت من العثرة لأنى فكرت أن به عادة ! وهى قطع أنثييه (٤) . قال برذعة : وشيخنا يتطير ؟ قلت : نعم ويفرط ! قال : ومن هو ؟ قلت : على بن العباس (٥) . قال الشاعر ؟ قلت : نعم ! فأقبل عليه وأنشده :

(١) زهر الآداب ص ١٧٧ ج ٢ - ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ - معجم الأدباء ص ٢٩٦ ج ١٣ . (٢) تشوفت : نظرت وتطاوت .
 (٣) الشسع : أحد سيور النعل وهو الذى يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه فى الثقب الذى فى صدر النعل المشدود فى الزمام (٤) يعنى أنه محبوب .
 (٥) هو اسم ابن الرومى

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه بتفريق ما بيني وبين الحبايب (١)
رجعت إلى نفسي فوطنتها على ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها فأيامه مخفوقة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه وكن حذرا من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واط — رح تطير جار أو تفاؤل صاحب!

فبقي ابن الرومي باهتا ينظر إليه ! ولم أدر أنه قد شغل قلبه بحفظ ما أنشده ،
ثم نهض أبو حذيفة وبرذعة معه .

فحلف ابن الرومي لا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره ، وعجب من جودة الشعر
ومعناه ، وحسن ما ناه ، فقلت له : ليتنا كتبناه ؟ ! قال : اكتبه فقد حفظته
وأملأه على .

شاعريته وخصائصها :

كان للدم الرومي وأثر الوراثة والحياة الشاعر وبؤسه وثقافته وبيئته ولشاعره
المرهفة ووجدانه الرقيق ، كان لذلك كله أثره البعيد في شاعرية الشاعر وقنه الأدبي
الذي كان صورة مكبرة لكل ألوان هذه الحياة . اجتمعت له دقة الملاحظة والاحساس
وعمق الشعور بالمتناقضات في نفسه وفي زمنه ، فولدت في نفسه روح السخرية ،
وأشاعت في فنه هذا اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور ، وهو فن الهجاء الذي
امتاز به الشاعر وأجاده حتى حين يهجو من لم يؤذ به شيء ، كما يقول يهجو معنياً من
قصيدة طويلة :

ومسمع لا عدمت فرقه فانها نعمة من النعم
مجلسه مآتم اللذات والقصف وعرس الهموم والسدم
وكأنني من طول ما أشاهده أشرب كأسى ممزوجة بدى
إذا الندامى دعوه آونة تنادموا كأسهم على الندم

وكان لبؤسه في الحياة وفقده كثيراً من الاعزاء أثر واضح في إجادته فن الرثاء
وداليته في رثاء أبنيه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها :

بكاؤ كما يشنى وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظير كما عندى

وكذلك جيميته في رثاء يحيى العلوى الذى قتل عام ٥٢٥٠ هـ ، وميميته في رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٥٢٥٧ هـ (١) .. وشغف قلب ابن الرومى بالحياة ، وتطلعه إلى متعها ولذا ذاتها ، وحياته في مظاهر الحضارة التى كانت تغمر عصره ، وأثر الوراثة في نفسه ، كل ذلك جعله من أعظم الوصافين في الشعر العربى ، وقصيدته في وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الإجادة ويقول منها :

يا خليلى تيمتى وحيد	ففوادى بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد	ومن الظبي مقنتان وجيد
تتجلى للناظرين إليها	فشقى بحسنها وسعيد
تتغنى كأنها لا تغنى	من سكون الأوصال وهى تמיד
مد فى شأ وصوتها نفس كاف	كأنفاس عاشقها مديد
فتراه يموت طورا ويحيى	مستلذ بسيطه والنشيد
خلقت فتنة غناء وحسنا	مالها فيهما جميعاً نديد
هى شىء لا تسام العين منه	ولها كل ساعة تجديد
منظر مسمع معان من اللهو	عناد لما يحب عتيد

ومن وصفه كذلك :

وقيار كأنها أمهات	عاطفات على بنينا حوانى
مطفلات وما حملن جنينا	مرضعات ولسن ذات لبان
كل عود يدعى بأسماء شتى	بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه	وهو بادى الغنى عن الترجمان

إلى غير ذلك من روائع قصائده في الوصف والتصوير ، كما أجاد في وصف الخمر ، وفي وصف الأخلاق والعواطف ، ويبلغ في العتاب الغاية في الجودة ، كما في قصيدته في عتاب أبى القاسم الشطرنجى ، التى مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك اللقاء أين ما كان بيننا من صفاء

وله آيات في المدح تحوز الإحسان والإجادة ، ومنها نونيته في أبى الصقر ، ومطلعها :
أجنت لك الوجد أغصان وكشبان

فهن نوعان تفاح ورماني

(١) ذاد عن مقتل لذيد المنام

، إمامك فانظر أى نهجيك تنهج

شغلها عنه بالدموع السجام

طريقان شتى : مستقيم وأعوج

ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابت ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان

ويمتاز ابن الرومي بتفضيله المعنى على اللفظ كما كان المتنبي ، فهو يطلب صحة المعنى
ولا يبالي حيث وقع من هجوة اللفظ وخشونته ، كما يقول ابن رشيق (١) .. كان
بديع المعاني بعيدها ، كثير الاختراع والتوليد فيها ، والاستقصاء لها لا يترك فيها
بقية لغيره ، والقدرة التامة في تشقيق المعاني وتفصيلها هي أخص خصائص شاعرية
ابن الرومي ، ويقول ابن رشيق فيه : « إنه أكثر الشعراء اختراعا للمعاني » : أما أسلوبه
فجمع بين الجيد والردى وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت في شعره أقل منها
في شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومي يعنى بهذيب شعره وتنقيحه ، ولو أسقط
رديته لكان في ذلك أجود الشعراء ؛ وفي الغالب أن شعراء المعاني كابن الرومي
وأبي تمام قلما تنهض ألفاظهم بأداء معانيهم ، وقد كان ابن الرومي لا يحفل باللفظ
إلا بقدر أداء المعنى . ويمتاز قصائده بطول النفس مما لا يجاريه فيه إلا ابن هاني
الأندلسي ، وقد ساعده على الإطالة أسلوبه الخاص في تناول كل معنى من معانيه
بالإفاضة والشرح ، وتقليبه على كل نواحيه ؛ كما تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة في
تأليفها ، حتى لكانها قطعة واحدة مؤلفة تأليفا منطقيا لا عوج فيها ولا ضعف
ولا استطراد ، وخياله خياله يقظ ، حسي في غالب شعره ؛ يترك الحس إلى عالم العقل
أحيانا ، أوتي ملكة التصوير ولطف التخيل ، وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال .
ولا تكاد تجد شاعرا اختلف النقاد في منزلته الأدبية مثل ابن الرومي ؛ أهمله
صاحب الأغاني إهمالا يعلله بعض بالخصومات الأدبية التي كانت بين الرومي
والأخفش أستاذ أبي الفرج ، ويعلله آخر بأن ابن الرومي كان شعوبيا وأبا الفرج
كان أمويا ؛ وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومي كانت لا تزال متأججة
اللب ؛ لأهاجيه في رجالات الدولة . وأعلله أن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومي
في الشعر ، ونهجه في نظم القريض . ويقول القاضي الجرجاني عنه في وساطته :
« وقد نجد كثيرا ينتحل تفضيل ابن الرومي ، ويغلو في تقديمه ، ونحن نقرأ القصيدة
الواحدة من شعره ، وهي قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نعرف فيها إلا بالبيت الذي
يروق أو البيتين ، ثم قد تنسلخ قصائده منه ، وهي واقفة تحت ظلم جارية على

رسلها (١) ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي ، وانتظار الفراغ منها (٢) ، ويقول ابن رشيق في عمدته : « وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه ، وحسن اقتنائه ، وقد غلب عليه الهجاء (٣) » . ويقول ابن شرف القيرواني فيه : « وابن الرومي شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله في الهجاء ، ما ليس له في الإطراء . ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن (٤) » . ويقول المعري عنه في رسالة الغفران : « وابن الرومي أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة (٥) » . ويقول فيه ابن خلكان : « هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يفوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها في أحسن صورها ، ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » . ويقول المسعودي فيه : « كان من مخلق معاني الشعر ، والمجودين في القصير والطويل ، وكان الشعر أقل أدواته » ، وقد أشاد به أدباء العصر الحديث ، وعدوه شاعر الفن والتصوير في الشعر العربي ؛ ويقول ناقد من المحدثين : « إنما جنى عليه وغر به عند أهل عصره ، وفي أذواقهم ، تفرده ، ووحدته ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألفوه ولم يطربوا له ، طربهم لأشباهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعاني على طريقتهم (٦) » ، وقد صور ابن الرومي رأيه في شعره في قصيدة يقول فيها :

قولا لمن عاب شعر مادحه	أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء (٧) والخشب	اليابس والشوك دونه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق	رب الأرباب لا البشر
فليعذر الناس من أساء ومن	قصر في الشعر إنه بشر

(١) الرسل : التؤدة

(٢) ٥٤ وساطة

(٣) ١/٢٥٥ العمدة

(٤) رسائل الانتقاد

(٥) ١٦١ — ١٦٤ رسالة الغفران

(٦) مقدمة ديوان ابن الرومي للعقاد

(٧) قشر الشجر

وشعر ابن الرومي صورة لثقافته الواسعة المتعددة الألوان والعناصر ، فهو
طويل النفس في قصائده ، بديع المعاني ، كثير التحليل والتوليد والاختراع فيها ،
جميل التنسيق والاستقصاء ، جزل الأسلوب ، متين الأداء ، سلس الالفاظ ، بعيد
عن زلات اللسان وسقطات البيان وأخطاء اللغة . وكذلك ترى شعره صورة
صادقة لنفسه وحياته ، نرى فيه الغث والسمين ، لأنه لم يكن يكر عليه بالتجويد
والتهذيب ، كما كان يفعل سواه من الشعراء ؛ ومعانيه أكثرها مبتكر مبتدع ،
وقل أن ترى له معنى أخذه من غيره ، أو سرقة عمد إليها كما يفعل سواه من
الشعراء ، وكان إذا تناول معنى قيما أفاض عليه من شاعريته أثوابا من التجديد
والبيان ، قال أبو تمام :

غربته العلى على كثرة الآهـ لـ ، فأضحى في الأفريقين جنينا
أخذه ابن الرومي فزاد فيه وأبدع في قوله :

غربته الخلائق الزهر في النسا س ، وما أوحشته بالغريب
وقد شهر ابن الرومي بالهجاء والإفداع في السخرية ، يسخر من بخيل فيقول :
يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد
ويقول في أصلح :

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله
وهذه المقدرة البارة في الهجاء والسخرية نشأت من سخطه على المجتمع والناس ،
بيد أنك تلح في هجائه العفة والشرف والنبل .

وبمتاز ابن الرومي بدقة الوصف دقة متناهية ، حتى لتلح فيه قدرة الشاعر
وبرأته وقوة شاعريته ، فإذا وصف جلي لك صورة ما يصف حتى لترأها أمامك
في تمثال من الصور والتعابير .

صور فنية من شعره :

قال ابن الرومي في امرأة ورقبيها :

ما بالها قد حسنت ورقبيها أبدا قبيح ، قبح الرقباء
ما ذاك إلا أنها شمس الضحى أبدا يكون رقبها الحرباء

وهي صورة شعرية غنية بنفسها عن الإعجاب والشرح ؛
وأجود ما قيل في الريق قوله :

يارب ريق بات بدر الدجى بمجه بين ثناياها
يروى ولا ينهك عن شربه والماء يروى وينهاها
فليس لهذا البيت نظير فى معناه
وقال فى الخمر والنرجس :

ويحانهم ذهب على درر وشرابهم درر على ذهب
فأجاد وأبدع فى إخراج هذه الصورة الساخرة .
وقال فى خبو الشمس حين غروبها :

كان خبو الشمس ثم غروبها وقد جعلت فى مجنح الليل تمرض
تخاوص عين بين أجفانها الكرى يرنق (١) فيها النوم ثم تغمض
وهى صورة جيدة الشبه للشمس عند الغروب

ومن جيد تشبيهات أبى نواس وقد نبه نديما للصبح قوله :
فقام والليل يجلوه الصباح كما جلا التسم عن غر الثنيات
ولابن الرومى التقدم عليه بقوله فى الراح ، وقد أخذ أصل المعنى ونقله إلى وصفها
فقال : يفتر ذاك السواد عن يقق من ثغرها كاللآلىء النسق
كانها والمزاج يضحكها ليل تعرى دجاء عن فلق
وقال أبو نواس :

تبكى فتذرى الدر من نرجس وتلطم الورد بعناب
أخذه سعيد بن حميد فقال .
وكانما أثر الدموع بخدها طل تساقط فوق ورد يانع
وقال البحتري فى هذا المعنى :

شقائق يحملن الندى فكانه دموع التصابي فى خدود الخرائد
وقال ابن الرومى فى دموع المحبين وقت الوداع :
كان تلك الدموع قطر ندى تقطر من نرجس على ورد
فأجاد وأبدع باختصار اللفظ وحسن السبك
ومن الابيات الجامعة فى المدح قول ابن الرومى :

هو الغرة البيضاء من آل هاشم وهم بعده التحجيل والناس أدهم
ومن أجود ما قيل فى الثريا قول بعض الشعراء :

(١) رنقه : كدره

ولاحت لسارها الثريا كأنها على الأفق الغربي قرط مسلسل
أخذه ابن الرومي فقال :

طيب طعمه إذا ذقت فاه والثريا في جانب الغرب قرط
ومن أحسن ما قيل في شروق الكأس قول ابن الرومي ، وأتى بشيء لم يسبق
إليه ، وهو تشبيه الحجاب بفلق اللؤلؤ ، فقال :

لها صريح كأنه ذهب ورغوة كالآلء الفلق (١)
وقال ابن الرومي :

وقبلت أفواها عذابا كأنها ينابيع خمر خضبت لؤلؤ البحر
قال أبو هلال في ديوان المعاني (١) : البحر زيادة لاحتاج إليها لأن اللؤلؤ
لا يكون إلا في البحر ، فلو كان في غير البحر لؤلؤ فليس انسبته إليه فائدة .. وأخيرا
فلا بن الرومي القدرة الفائقة على تهجين ما أجمع الناس على استحسانه ، كما فعل في
الورد من تهجينه وتفضيل النرجس عليه في صورة جميلة مؤثرة (٢)
وقال امرؤ القيس :

وتعطو برخص غير شسن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل
وحول هذا المعنى يقول أبو نواس :

تعاطيكها كف كأن بنانها إذا اعترضتها العين صف مدارى
ويقول ابن الرومي :

أشار بقضبان من الدر رقعت يواقيت حرا ، فاستباح فؤادى
ويقول ابن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضة مقومة أثمارهن عقيق
وقال ابن الرومي :

أعانقه والنفس بعد مشوقة إليه ، وهل بعد العناق تدان ؟

(١) الفلق : الصبح

(١) ٢٣٩ / ١ (٢) وذلك في قطعة شعرية طويلة أولها :

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد
وقد حللها عبد القاهر وبين منزلتها في البيان وفي جودة التخييل وحسن التعليل ،
حتى قال فيها : إنه جاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا لـ (٢٤٨ أسرار)

كأن فوادي ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان
 وفي هذا المعنى يقول ابن المعتز :
 يارب إخوان صحبتهممو لا يملكون لسوة قلباً
 لو تستطيع قلوبهم فقـدت أجسادها وتعانتت حباً
 وقال أبو نواس في الراح :
 إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا
 أخذه ابن الضحاك وأحسن :
 كأنما نصب كاسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلك
 وقال ابن الرومي فيه ، وكان أحسن منهما :
 فكانتها وكائن شاربها قمر يقبل عارض الشمس
 وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعاً :
 وكأنه وكائن الكاس في فمه هلال أول شهر غاب في شفق
 وهو أحسن ما وصف به كأس على فم ...
 ومن أحسن ما قيل في وصف مغن قول ابن المعتز :
 ومغن ملحق كل نفس بهواها ، وهو للسکر عذر
 وأجمع من ذلك قول ابن الرومي :
 تتغنى كأنها لا تغنى من سكون الأوصال وهي تميد
 ولها الدهر لائم مستزيد ولها الدهر سامع مستجيد
 وقال ابن الرومي :
 كأن نسيمها أرج الخزامى ولاها بعبد وسمى ولي
 إذا أنفاسها نسمت سحيراً تنفس — كالشجي — لها الخلى
 وحول هذا المعنى يقول ابن المعتز :
 وما ربح قاع عازب طله الندى وروض من الريحان ذرت سحائبه
 فجاءت سحيراً بين يوم وليلة كما جر في ذيل الغلالة ساحبه
 وقال ابن الرومي من قصيدة في وصف مجلس الراح :
 شمس من الحسن في معصرة ضاهت بلون لها معصرها
 في وجنات تحمر من خجل كأن ورد الريحع حمرها
 يسمى إليها بكأسه رشاً أنه الله وذكرها

في كفه كالشهاب لاح على ظلما ليل دجت فنورها
إن برزت للهواء غبرها أو قرعت بالمزاج كدرها
ويقول ابن المعتز في مجلس الراح أيضا من قصيدة :

ومجلس جل أن نشبهه جن به مزهر ومزمار
وزانه من بنى العباد رشا بالجيد والمقلتين سحر
قد ركبت كفه مشعشة لإبريقها في الكأس هدار
يلع فيها من كل ناحية كوكب نوره اليك نظار
فظلت في يوم لذة عجب وافي به للسعود مقدار
وقابل الشمس فيه بدر دجى يأخذ من نورها ويمتار

١ - ففي هاتين القطعتين وصف للساقى والراح ، وفي قطعة ابن الرومي زيادة وصف للقينة التي تغنى في مجلس الراح .

٢ - ووصف ابن الرومي الساقى بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر .

٣ - شبه ابن الرومي نور الراح في الكأس ، بالشهاب في ظلام الليل .. أما ابن المعتز فقد شبه الكأس بالبدر ، والراح بالشمس . وجعل الكأس يأخذ من نورها ويمتار

٤ - ووصف ابن الرومي الراح بأنها أصفى من الماء وألطف من الهواء ، ووصفها ابن المعتز بكوكب نور متوقد .

٥ - وألفاظ ابن المعتز موسيقية ، وأعذب من ألفاظ ابن الرومي .

٦ - وابن الرومي في جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير لا يعمد لمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض بل يزجها بجمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧ - وابن الرومي يفوته أحيانا ما هو أبلغ في الوصف ، وأروع في أداء الغرض ، من حيث لا يفوت ذلك ابن المعتز ، كما رأينا في وصف ابن الرومي للساقى بالأنوثة ، ووصف ابن المعتز له بالسحر

وروى صاحب العمدة والبغدادى في خزنة الأدب والعباسى في معاهد التنصيص أن لائما لام ابن الرومي ، وقال له : لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت

أشعر منه ، فقال : ألا تنشدني شيئاً من قوله ؟ الذي استعجزتني عن مثله ، فأنشده قوله في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
فقال له : زدني ، فأنشده قوله في الآذريون (وهو زهر أصفر في وسطه خل
أسود و ليس بطيب الرائحة) :

كان آذريونها والشمس فيها كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية
فصاح : واغوثاه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون
بيته . لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف ،
أين يقع قولي من الناس ، هل لأحد قط مثل قولي في الغمام :

وساق صبيح للصبح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا على الجودكنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب باخضر على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
وقولي في صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء يلقي فيه بالحجر
نماذج من شعره :

أأيام لهوى هل مواضيك عود وهل لشباب ضل بالأمس منشد؟ (١)
أقول وقد شابت شواتي ، وقوست قناتي ، وأضحت كدنتي تتمدد (٢)
ولدت أحاديثي الرجال ، وأعرضت سليمي ورأيا عن حديثي ومهدد (٣)

(١) منشد : مكان أنشده فيه وأطلبه .

(٢) الشواة : جلدة الرأس ، والمراد شاب شعرها والقناة هنا صلبه . السكدنة
الشحم واللحم يريد أن سمته أضحت تهزل .

(٣) أي أصبحت أحاديثي تلذ الرجال بعد ما أعرض عني الغواني لشبيبي وكان
حديثي لذيقاً لديهن .

وبدل إعجاب الغواني تعجباً ،
لما تؤذن الدنيا به من صروفها
وإلا فما يبيكه منها ، وإنها
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه
وللنفس أحوال تظل كأنها
وقال يرثي ابنه محمداً :

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي
ألا قاتل الله المنـايا ورميها
توخى حمام الموت أوسط صبيتي
على حين شمت الخير من لمحاته
طواه الردى عنى فأضحى مزاره
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها
لقد قل بين المهد واللحد لبثه
أح عليه النزف حتى أحاله
وظل على الأيدي تساقط نفسه
فيالك من نفس تساقط أنفساً
عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له
وما سرتني أن بعتـه بثوابه

فجودا فقد أودى نظيركما عندى (٤)
من القوم حبات القلوب على عمد
فله كيف اختار واسطة العقد (٥)
وآنست من أفعاله آية الرشد (٦)
بعيداً على قرب قريباً على بعد (٧)
وأخلفت الآمال ما كان من وعد
فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد
إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد (٨)
ويذوى كما يذوى القضيبي من الرند (٩)
تساقط در من نظام بلا عـد
ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
ولو أنه التخليد فى جنة الخلد

-
- (١) الإعجاب بالشيء : السرور منه . والتعجب : الاستغراب والانكار
روان: دأئمت النظر بسكون الطرف . صدد : معروضات .
- (٢) استهل الصبي : رفع صوته بالبكاء .
- (٣) يورد هذا البيت تأكيداً لحسن تعليله .
- (٤) بكاؤكما : الخطاب لعينيه . ولا يجدي : لا ينفع . وأودى : هلك .
- (٥) توخى : تحرى . شمت الخير : توقعت .
- (٦) يريد بالقرب قرب المكان وبالبعد بعد اللقاء .
- (٨) الجادى : الزعفران وهو أصفر .
- (٩) الرند : الغار وقد يسمى به الأس وهو نوع من الريحان .

ولا بعته طوعا ولكن غصبته
ولاني وإن متعت بابني بعده
وأولادنا مثل الجوارح أيها
لكل مكان لا يسد اخته — لاله
هل العين بعد السمع تكفي مكانه
لعمري لقد حالت بي الحال بعده

نسكت سروري كله إذ نسكته
أريحانة العينين والأنف والحشا
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به
أعيني جوداً لي فقد جدت للثرى
كأنى ما استمتعت منك بضمة
الأم لما أبدى عليك من الآسى
محمد ما شئ توهم — لوه
أرى أخويك الباقيين كليهما
إذا لعبا في ملعب لك لذعاً
فما فيهما لي سلوة بل حرازة
وأنت وإن أفردت في دار وحشة
عليك سلام الله مني تحية —
وقال يعاتب أبا القاسم التوزي الشطرنجي ويمدحه :

يا أخى أين عهد ذاك الإخاء
كشفت منك حاجتى هنوات
تركنتي ولم أكن سيء الظن
يا أخى هبك لم تهب لي من سعد
أفلا كان منك رد جميع —
أين ما كان بيننا — من صفاء ؟
غطيت برهة بحسن اللقاء (٦)
أسيىء الظن كسائر البخلاء
فيه للنفس راحة من عناء

- (١) معد من أعدى بمعنى نصر وأعان
المسنة . (٣) الجوارح : أعضاء الانسان
أعانت : (٥) الرشد : العطاء والصلة .
(٦) الهنوات : جمع هنة ، وهى الشئ الصغير .

أجزاء الصديق إيطاؤه العش
تاركاً سعيه اتكالا على سعي
كالذي غره السراب بما خي
يا أبا القاسم الذي كنت أرجو
لا أجازيك عن غرورك إيا
بل أرى صدقك الحديث وماذا
أنت عيني وليس من حق عيني
ما بأمثال ما أتيت من الأمان
بذل الوعد للأخلاء سماحا
فقدنا كالحـلاف يورق للعي
ليس يرضى الصديق منك ببشر

ولقد هجا ابن الرومي البحرى الشاعر هجاء مقذعاً
ومن قوله فى هجائه :

قد قلت - إذ نخلوه الشعر - : د حاش له
د وحسبه من حباء القوم أن يهبوا
د الحظ أعمى ؛ ولولا ذاك لم تره
قبجا لأشياء يأتى البحرى بها
كأنها - حين يصفى السامعون لها
رقى العقارب أو هذر البنائة إذا
وقد يحىء بخلط : فالنحاس له
سمين ما نخلوه من هنا وهنا ،
يسىء عفا ، فإن أكدت وسائله
عبد يغير على الموتى فيسلبهم
ما إن تزال تراه لابسا حللا
شعر يغير عليه باسـلا بطلا

(١) العشوة النار ، وأوطاه العشوة : كناية عن أنه أضله ولم يهده ، والعشواء
الناقة لا تبصر أمامها .

(٢) جماعات الناس .

كما هجا ابن الرومي الأخفش بقصيدة منها :

« قلت لمن قال لي « عرضت على الأخفش ما قلته فما حمده . »
 قصرت بالشعر حين تعرضه على مبین العمى إذا انتقده
 ما قال شعراً ولا رواء ، فلا ثعلبه كان ، لا ولا أسده
 فإن يقل « إنني رويت ، فكالد » تر جهلا بكل ما اعتقده
 أرمت زيني بأن تعرضني لمدحه فالذليل من عضده
 أم رمت شيني بأن تعرضني لثلبه ؟ فالسليم من قصده . »
 إلى أن قال :

« شعري شعر ، إذا تأمله الإزد سان ذو الفهم والحجا ، عبده
 لكنه ليس منطقاً بعث الله به آية لمن ججده
 ولا أنا المفهم البهائم والطير ، سليمان قاهر المردة
 ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقرده ،
 لا رحم الله أم أخفشكم ولا سقى قبر والد ولده
 ماذا عليه وقد رأى ولداً أعور جم العوار - لو وأده ،
 سأسمع الناس ذمه أبداً ما سمع الله حمد من حمده ،
 وقال من قصيدة أخرى :

لا يأمن السفينه بادرقي فإني عارض لمن عرضا
 عندي له السوط إن تلوم في السي - ر وعندي اللجام إن ركضا ،
 « أصحى غيظاً على أن غضب الله عليه وثلت منه رضا
 قولاً له ينطح الجدار إذا أعيا ، ا ، رسم الصفا إذا امتعضا
 ولا يحمل ضعيف منته حربي ، فما مثله بها نهضا ،
 « أقسمت بالله لا غفرت له إن واحد من عروقه نبضا ،

ابن المعتز شاعر الحب والجمال

٢٤٧ - ٢٩٦ هـ

أديب ساحر ، وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التي نبغت في القرن الثالث الهجري ، وهو أمير التشبيه في الشعر العربي : القديم والحديث .

يعد في الطبقة الثالثة من المحدثين ، وهى الطبقة التى خلفت طبقة أبى نواس ، وطبقة بشار زعيم المحدثين . ويعدون معه فى طبقته أباً تمام والبحترى وابن الرومى ، وإن كان بعض النقاد يجعل أباً تمام والبحترى طبقة وحدهما ، ويجعل ابن الرومى وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين . ويقول ابن رشيق : طبقة حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومى طبقة متداركة ، وتلاحقوا ، وغطوا على من سواهم من الشعراء (١) . . ويقول : « وليس فى المولدين أشهر اسماً من أبى نواس ، ثم حبيب والبحترى ، ثم تبعهما فى الاشتهار ابن الرومى وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كأبى نواس فى المحدثين ، وامرؤ القيس فى القدماء (٢) » .

ولد أبو العباس عبد الله ابن المعتز فى شعبان سنة ٢٤٧ هـ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلكان ، فى بيت الخلافة ، وولى والده المعتز بن المنوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ ، ومكث فيه ثلاث سنين قتل بعدها بيد الأتراك ، الذين كان فى يدهم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة ، وكان لنعبة والده أثر عميق فى حياته ونفسيته . وقد تلقى ثقافته فى الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها ، الذين حفل بهم هذا العصر الزاخر بألوان العلوم والثقافات والآداب ، وكان من أساتذته المبردم سنة ٢٨٥ هـ ، وتعلبم سنة ٢٩١ هـ وسواهما من فحول العلماء . وظهرت شاعريته فى أول عهده بالشباب ، فامتلات بها حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البليغ الساحر ، والشاعر المجيد ، والناقد الواقف على خصائص الأدب والبيان ، وله مؤلفات كثيرة جيدة ، منها : كتاب البديع ، وفصول التماثيل ، وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع فى جزئين فى مصر والشام .

عاصر ابن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسيين هم : المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦) ، والمعتد (٢٥٦ — ٢٧٩) ، والمعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩) ، والمستنصر (٢٨٩ — ٢٩٥) ؛ وعاش بينهم معتزاً بشخصيته ؛ نبيل النفس ؛ عظيم الخلق ؛ يظهر انصرافه عن الخلافة وهو فى نفسه ناظم على الحياة التى ملكتها سواه مقاليدها ؛ وقبض عليه عدة مرات أطلق فيها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول فى شعره :

(١) ١/٨٣ العمدة .

(٢) ١/٨٣ العمدة .

من يشتري حسبي بأمن خمول من يشتري أدبي بحظ جهول ؟

ولما مات المكتفى عام ٢٩٥ هـ ولى الأثرأك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا ، فثار الناس فى بغداد ، وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام ٢٩٦ هـ ، ومكث فيها ليلة واحدة . حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة ، تؤيده القوة الحربية فى الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ هـ ، وبذلك انتهت حياة شاعر كبير من شعراء العربية المعدودين .

وقد عاش ابن المعتز فى بغداد وسر من رأى ، فى البيئة العامة التى امتاز بها القرن الثالث ، والتى حففت بألوان الحضارة ، وشقى فنون العلوم والثقافات والآداب ، كما عاش فى بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعم والمجد فى قصور الخلفاء والأمراء . وكان لذلك كله أثره الواضح فى شخصيته وشاعريته .

ولقد أرهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته مشاعره ووجدانه وإحساسه ، فنشأ شاعراً بطبعه ملهم الشاعرية قوى الملاحظات .

ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره وما يحتلج فى صدره من آمال وآلام ، وما تزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة ، فشعره إذا صورة لحياة الخاصة أولا ، ولحياة الطبقة المترفة ثانيا ، والاتجاهات العليا فى السياسة والاجتماع والآداب أخيرا . وهو فوق ذلك صورة صادقة للفن الخالص ، الذى يؤمن بالفن للفن لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنية خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو لمال ، أو لرضاء خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه . أجاد فى الشعر السياسى ، كما أجاد فى الفخر ، والأخوانيات ، والغزل . وخبرياته فيها دقة معان ورقة تصوير ، وكثرة تشبيهات ، وكذلك كان فى الصيد والطرد مجيداً مبدعاً ، يقتفى فيه آثار امرئ القيس وأبى نواس . والعتاب والشكوى من الفنون الشعرية التى تفوق فيها ، وكذلك بلغ ابن المعتز فى الوصف حد الجودة والابداع ورسم صوراً صادقة لكل ما وقعت عليه عينه من مناظر الطبيعة ومظاهر الحضارة ، ووصفه وصف وجدانى ، له موسيقى عذبة وفيه رقة وسلاسة ، وروح وطبع ، ودقة وعمق وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة ، وقد نمت ملكته فى نفسه دقة حسه ولطف شعوره ، وامتلاء ذهنه

بمشاهد الجمال وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويرا لحسه ، مما صرفه إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس ، ومطارد الصيد . أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلا . ترك الزهد لأنى العتاهية ، والرثاء لأنى تمام ، والهجاء لابن الرومى ، والمدح للبحترى . وعاش هو شاعر الترف والفن والجمال ، وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيقي (١) . ومعانى ابن المعتز تتصل بنفسه وحسه وحياته وهو فيها دقيق الفكرة بعيد المنزع ، بحكم التصوير مجدد مبتكر حيناً ومقلد أحيانا أخرى . وخياله الشعري خيال واقعى يستمد من صور الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ما ينطق به من معنى ووصف وتصوير ، وخياله النشاط يعنى بمحسرات الأمور ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجرى وراء عالم المثل والمعنويات . ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته وبالرونق والعذوبة فى جزالة تشيع فى أعطافه حيناً وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحيانا ، ومع جمال فى ترف البيان وألوان البديع مما أخذ فيه حذو بشار ومسلم وأبى تمام ، وتشيع فى أسلوبه الصياغة الفنية المتمثلة روحا وحياة وموسيقى ووضوحا فى دقة تصوير وقرب مأخذ وجودة قريحة فى بعد فكرة وحدة خيال كما يقول :

والصبيبا ممتلىء حاجبة وأملا

والمدرسة الأدبية التى يمثلها ابن المعتز هى مدرسة المحدثين التى قاد زمامها أبو تمام والبحتري ، والتى امتازت بميزتين :

الأولى هى التعمق فى المعانى واستنباطها ، مما يتجلى لك فى شعر أبى تمام وابن الرومى واضحا ملموساً .

والثانية هى الصناعة الشعرية المتأنقة التى تطلب ألوان الجمال فى الأداء وتعتمد على الترف البياني فى الأسلوب : من جناس وطباق وتشبيه واستعارة وتمثيل . وكانت العرب — كما يقول ابن رشيقي — « لاتنظر فى أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل أو تترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما فعل المحدثون ، ولكن كان نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وما وقع فيه من هذا النوع فعن غير قصد ولا تعمد ، مما عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التثقيف . وأول من فتح البديع للمحدثين

بشار وابن هرمة ، ثم قلدهما فيه مسلم والعتابي والنرى وأبو نواس . واتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وابن المعتز . فأنتهى علم البديع والصنعة إليه وختم به (١) . فابن المعتز إذا هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المتكلفة . فقد كان يحب الفن للفن ، وينظم الشعر ليلهو به ، وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين ، وكان متكلفاً مجيداً فى تكلفه بقدر ما كان الوليد مطبوعاً مجيداً فى طبعه ، ويصف ابن رشيق صنعته فيقول : « وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من ابن المعتز فإن صنعته خفية لطيفة ، لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى أطف أصحابه شعراً وأكثرهم بديعاً واقتنائاً ، وأقربهم أوزاناً وقوافي . ولا أرى ورامه غاية لطالبها فى هذا الباب (٢) . ويقول الجرجاني فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أنى تمام ، ولم يكن من المطبوعين (٣) . وكان الجرجاني يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع . ويقول أبو الفرج فى وصف شعره وخصائصه : هو وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلملة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين . وليس يمكن واصفاً لصبوح فى مجالس اللهو بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والرياحين إلى غير ذلك أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق ، الذى يفهمه كل من حضر ، إلى جيد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البید والمهامه ، والظبي والظليم ، والناقة والجل ، والديار والقفار ، . والأصفهاني يشير بذلك إن أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد جزل كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالباً ترجع إلى حياة الملك التى تستلزم الترف ، وإلى وصفه لألوان اللهو التى تستدعى رقة الأسلوب ، وإلى بعد نفسية الشاعر غالباً عن أغراض الشعر البدوى ، فرقة شعر ودقة تشبيهاته إذا أثر من آثار البيئة فيه .

ولابن المعتز منزلة كبيرة فى البيان العربى فقد ألف فيه كتابه « البديع » ، الذى عدد فيه شتى أساليب البديع ومحاسن الشعر كما عرفها ابن المعتز وعصره ، وهذا الكتاب ليس قاصر على البديع بالمعنى الضيق المحدود ، لأن ابن المعتز يذكر فيه الكناية والاستعارة والتشبيه وهى من صميم البيان العربى ، ويذكر فيه الكناية ولكنه يريد بها معناها اللغوى وهو أعم من المعنى الاصطلاحى المعروف ، فإذا قلنا إن ابن المعتز ألف فى البيان فقد سرنا مع الحق والتفكير السليم ، وإذا قلنا إنه ألف البديع فقد ضيقنا دائرة البحث بغير مبرر ، وإن كان البديع فى

الاصطلاح المتأخر جزءا من البيان ، وإن كان البديع بالمعنى القديم المعروف عند بعض علماء البلاغة يرداف كلمة البيان أو البلاغة . فابن المعتز إذا ذو أثر كبير في البديع ، وعلى وجه الدقة له أثره في البيان العربي ودراساته ، وذلك ما سنتناوله الآن بالتحليل . كان ابن المعتز من أئمة البيان في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وله فيه آراء عظيمة الأهمية ناضجة التفسير (١) ؛ وقد اهتم بنوع خاص من انواع البيان ، هو أساليب البديع والوان الترف في الأداء .

كان ابن المعتز يحتذى حذو ابى تمام في صنعة البديع ، ويوشى شعره بشتى ألوانه ، يقصدها قصدا ويتعمدها تعمدا ، ويصوغ شعره فنا تغلب روح الصناعة فيه ملكات الطبع والقطرة ، وكان مع ذلك ، يتحقق بعلم البديع تحققا ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته ، (٢) ، والى فيه عام ٢٧٤ هـ كتابة « البديع » (٣) وسنه إذ ذاك سبعة وعشرين عاما ، مما يدلنا على ان ابن المعتز لم يتمش في العقد الثالث من عمره حتى كان قد قتل الشعر العربي حفظا ورواية ودرسا وفهما . وكان لكتابه البديع دوى في المجامع الأدبية ؛ ثم شاع وذاع وتلقفته الأيدى ، وعكف العلماء والأدباء عليه وصار مصدرا ممتازا من مصادر الدراسات البيانية بعد عصر ابن المعتز ، ثم فقدت نسخ الكتاب الخطية وقل تداوله ولم يبق له اثر إلا ما نقرأ عنه في شتى كتب البيان والبديع ، ولكن العناية شاعت ان تحفظ من الكتاب نسخة خطية واحدة في الاسكوريال نشرها كراتشكو فسكى عام ١٩٣٥ . وقد قمت بشرح هذا الكتاب والتعليق عليه وتصحيحه ونشرته عام ١٩٤٥ ، فكان ذلك إحياء لكتاب ابن المعتز ، وخدمة للثقافة البلاغية ، وسعيا لتداول أهم مصدر ألف في البديع . والكتاب أول مؤلف في البديع وصنعة الشعر كما أجمع على ذلك جميع

-
- (١) راجع وصفه لبلاغة القرآن (٦٣ وسائل ابن المعتز) . وتعريفه للبلاغة بأنها بلوغ المعنى ولم يطل سفر الكلام (٦٤ رسائل ابن المعتز ، ١/١٥٧ زهر ، ١/٤٦٢ وفيات ، ١/٢١٧ العمدة ، ٢/٢٢٣ شذرات ، ٢٩٦ الأوراق ، ١/١٢٨ حاشية السبكي على التلخيص) ، وله كلمة في الحكمة والبلاغة (٦٣ رسائل ابن المعتز ، ١/١٤٩ زهر) . (٢) ١٠ رسائل ابن المعتز ، ٤/١٢٣ زهر .
(٣) راجع ١٠٦ البديع .

الباحثين (١) . وهو أهم كتب ابن المعتز بالنظر إلى اختصاصه في هذا الفن (٢) ويعرف فتحاً جديداً (٣) ، ويقول ابن المعتز نفسه : وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد (٤) .

ولقب البديع ليس لقباً مستحدثاً في عهد ابن المعتز واسكنه اسم لهذه الألوان الساحرة في الأسلوب ، ولهذا الترف البياني في الأداء : من تشبيه واستعارة وتجنيس وتطبيق وسوى ذلك ، سماه به مسلم بن الوليد الشاعر م ٢٠٨ هـ ، وكان يعرف قبل ذلك باللطيف (٥) ، ودرج على هذا اللقب من بعده من العلماء والادباء وفي الأغاني أن الأصمعي م ٢١٦ هـ كان يفضل بشاراً لأنه أكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً (٦) ، وذكر الجاحظ البديع وبعض المشهورين به من الشعراء وأنه مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم على كل لغة (٧) ، وذكر كثيراً من الشعراء الذين أكثروا منه في شعرهم ورأى أن لم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة (٨) . ويقول ابن المعتز : البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فاما العلماء بالشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو (٩) ، والبديع ونشأته في اللغة العربية موضوع عناية الباحثين المحدثين ، فرأى مسيو مرسيه أن الزخرف الفني وألوان البديع قد وصلت إلى العرب من اليونان (١٠) ، ورأى باحث أنه عنصر أصيل في اللغة العربية وإن شاركتها في ذلك بعض اللغات (١١) . وشاهد ذلك القرآن

-
- (١) ١/٢٣٥ العمدة . ١/١٤٦ معاهد التنصيص . ٢٧٦ الزيات . ٤٥٠ ج ٢
أدب اللغة لمحمد بك دياب ط ١٩٠٠ ، ١/١٤٨ كشف الظنون ، ١/٦٩٣ البستاني ،
١٩١ الاسكندري ، ١٠٥ أدب اللغة للظواهري . (٢) ٢/١٦٣ زيدان .
(٣) ٢٨٠ المجلد الأول من دائرة المعارف الإسلامية ، وراجع في الاشارة به
٩٢ — ١٠١ الصبغ البديعي في اللغة العربية للاستاذ أحمد موسى ، ١٠٣ — ١٠٧
تاريخ البلاغة العربية للاستاذ الشعراوي ، وهما مخطوطان بمكتبة كلية اللغة .
(٤) ١٠٦ البديع .

(٥) ١٠ ج ٢ معاهد التنصيص . (٦) ٢٥ ج ٣ الأغاني .

(٧) ٣/٢٤٢ البيان . (٨) ٥٤ و ١/٥٥٥ البيان .

(٩) ١٠٦ البديع (١٠) ١/٤٤ النثر الفني (١١) ١/٤٥ وما بعدها النثر الفني

السكريم فهو أثر عربي صرف وهو مع ذلك يشتمل على ألوان من البديع ،
والخواص الفنية الموجودة في القرآن توجد كذلك في الشعر الجاهلي كما أثبتته
صاحب جمهرة أشعار العرب في مقدمتها ، وهي موجودة كذلك في الآثار الأدبية
التي عاصرت القرآن كالحديث وخطب الخلفاء والولاء الذين شهدوا عصر النبوة (١).
والحق أن البديع أصباغ عربية خالصة كثرت ألوانه وتطورت زمنا بعد زمن ،
وزادت قوة هذا التطور بتأثير الفرس واليونان ، فالاستعارة والتشبيه وكثير من
هذه الأساليب تشترك فيها سائر اللغات (٢) ولقد عرف البديع فنا منذ نشأ الأدب
العربي ، وأما معرفته علميا فابتدأ من عصر بشار وإبي نواس ومسلم ، ثم عرف
بصورة أوضح في عهد إبي تمام والبحرئى وابن المعتز ، وبما كتبه عنه الجاحظ
مؤلف البيان .

وموضوع كتاب البديع ذكر لآلوان البديع وشواهدا في الأدب العربي
شعرا ونثرا ، يذكر مؤلفه ما أثر اللون البديعي من شاهد في كتاب الله ثم في حديث
رسوله ثم في كلام الصحابة الأعراب وبلغاء الكتّاب ثم في الشعر الجاهلي
فالإسلامي فشعر المحدثين ، ويختتم كل لون بذكر ما عيب من شواهد المتكلمة
السقيمة ، والكتاب حافل بشتى النصوص التي جمعها ابن المعتز وساقها في عرض
جميل ونظام محكم . وكان الباعث لابن المعتز على تأليفه هذا الكتاب أن يعلم كما
يقول : د أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلمهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى
هذا الفن — البديع — ، ولكنه كثّر في أشعارهم فعرّف في زمانهم حتى سمي بهذا
الاسم فأعرب عنه ودل عليه ، ثم إن حبيب بن أوس الطائي شغف به حتى غلب
عليه وأكثر منه فأحسن في بعض وأساء في البعض الآخر، وإنما كان يقول الشاعر
من ذلك الفن البييت والبيتين في القصيدة، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من
غير أن يوجد فيها بيت بديع (٣)، فالغرض الأول منه د تعريف الناس أن المحدثين
لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع (٤) . ولقد نشأ ابن المعتز في عصر
لم يخل من آثار التعصب للتراث الأدبي القديم ، ومن المنكرين لمذاهب المحدثين
في البيان والنوعين عليهم ما افتنوا فيه من ألوان البديع ، التي أكثر منها بشار
ومدرسته ، ثم مسلم وأبو تمام ومن جاء بعدهما ، فكان لابد لابن المعتز أن يدافع

(١) ١/٤٧ النثر الفني (٢) راجع : نقد النثر ، مراجعات للعقاد

(٣) ١٥ و ١٦ البديع و ٧ و ٨ الموازنة . (٤) ١٨ البديع .

ويناضل هؤلاء المتعصبين ، نعم لقد وقف ابن المعتز بين مذهبين في البيان متناقضين : مذهب المحدثين الذي يؤثره ويسير عليه في الشعر وفهمه ونظمه ، ومذهب القدماء المتعصبين للقديم الذين كانوا يزدرون نهج المحدثين وقصدهم وتكلفهم للبديع ، ولكنه انتصر بفطرته وذوقه للذهب الأول الذي أحبه وشغف به ، فأخذ يدافع عنه ، وألف في ذلك كتابه البديع المذى أثبت فيه أن ألوان البديع كانت معروفة عند الشعراء القدامى والاسلاميين ، وألوا بها في شعرهم كما ألم بها المحدثون ، فهي ليست غريبة على الشعر الجاهلي والاسلامى وليست جديدة على أساليب البيان في شعر المحدثين ، وليست بدعا جديدا في الأدب والشعر كما ذهب إليه من تعصبوا للأدب القديم واعتزوا بفحولة الشعر الجاهلي وجزالته ، وأنكروا مذاهب المحدثين في صناعة الشعر وسهولته وتكلف البديع فيه .

وكان دفاع ابن المعتز رائعا قويا موقفا استحق عليه تقدير المنصفين من النقاد ، ولون الثقافة الشائعة في الكتاب هي الثقافة العربية العميقة الخالصة عن شوائب الثقافات الأخرى ، فقد ألفه ابن المعتز وهو في سن الشباب قبل أن يطلع ويلم ويتعمق في دراسة آثار الثقافات الأخرى . وإذا ما وازنا بين البديع لابن المعتز وفصول النمايل أحد مؤلفاته في أواخر حياته ، وجدنا الأول عربيا خالصا في ثقافته من حيث كان الثاني مظهرا لثقافة متنوعة مختلفة الأصباغ والألوان .

وألوان البديع عند ابن المعتز خمسة :- الاستعارة - التجنيس - المطابقة - رد العجز على الصدر - المذهب الكلامي . ويجعل ماعدا ذلك من محاسن الكلام والشعر ، ويقول أنها كثيرة ولا يرى حرجا في إضافة هذه المحاسن أو غيرها إلى البديع (١) ، وذكر من المحاسن : الالتفات . الاعتراض . الرجوع . حسن الخروج . تأكيد المدح بما يشبه الذم . تجاهل العارف . الهزل الذي يراد به الجد . حسن التضمين . التعريض والكناية . الإفراط في الصفة . حسن التشبيه . لزوم ما لا يلزم . حسن الابتداء . فابن المعتز جمع من ألوان البديع ثمانية عشر لوناً ، ولقد عاصرة قدامة ابن جعفر السكاك الذي جمع منها عشرين نوعا ، اشترك مع ابن المعتز في سبعة منها وهي : الغلو أو الإفراط - التشبيه - الاستعارة - الكناية ويسمى قدامة الإرداف مريدا بها المعنى الاصطلاحي للكناية في حين أن ابن المعتز يريد بها المعنى اللغوي -

التكافؤ وهو عند ابن المعتز المطابقة - المطابق والمجانس وهو عنده باب التجنيس -
 الالفاظ .. وانفرد قدامة بثلاثة عشر هي: التصريح - المقابلة - المساواة - الإيغال -
 الاستطراف . صحة التقسيم . صحة التفسير . المبالغة وهي غير الغلو عند قدامة .
 الإشارة (الايجاز) - التمثيل - التتميم - التصريح وهو أن تكون أجزاء البيت مسجوعة
 - الترويض (١) ... وهذه هي الأنواع الثلاثة عشر التي استقل بها قدامة إذا أضيفت إلى
 السبعة عشر نوعا التي جمعها ابن المعتز يكون البديع قد وصل في عهد قدامة إلى ثلاثين
 نوعا ، ثم تذهب الناس هذه الألوان ، فجمع أبو هلال منها في الصناعتين سبعة وثلاثين
 نوعا : منها ٢٩ ذكرها أبو هلال في باب أنواع البديع (٢) ، ومنها التشبيه الذي ذكره
 في باب مستقل (٣) غير الباب الذي عقده للبديع وإن كان لا يشير إلى أنه من البديع
 فيكون الجميع ثلاثين نوعا يضاف إليها سبعة من زياداته (٤) وهي: التشطير والمجاورة
 والاستنهاد والمضاعفة (التورية) والتطريز والتلطف والمشتق ... ثم جمع ابن رشيق
 من ألوان البديع مثل ما جمع أبو هلال وأضاف إليها في عمده خمسة وستين بابا في
 بحث الشعر ، وتلاه شرف الدين الشاشي فبلغ بها أكثر من ذلك ، ثم تكلم فيها
 ابن أبي الأصبع المصري م عام ٦٥٤ هـ فأوصلها إلى التسعين في كتابه الجيد ، تحرير
 التحجير في علم البديع ، ثم صنف ابن منقذ كتابه التفريع في البديع جمع فيه خمسة
 وتسعين نوعا ، ثم جاء صفي الدين الحلبي م ٧٥٠ هـ فجمع ١٤٠ نوعا في بديعته في مدح
 الرسول التي سماها ، الكافية البديعية ، وشرحها بنفسه ، ثم حذا الناس حذوه ونظموا
 كثيرا من البديعيات . وأما السكاكي فذكر تسعة وعشرين نوعا من البديع ، وقد
 ذكر صاحب التلخيص من البديع المعنوي ثلاثين نوعا ومن اللفظي سبعة ، وقد ألم
 بتطور البديع في اختصار كثير من الباحثين (٥)

ولكتاب البديع أهمية كبيرة في فهم نشأة البديع وتطوره في البيان العربي على مر عصورنا
 الأدبية ، وهو ينحوي في دراسة ألوان البديع إلى الدراسة التطبيقية الواسعة التي لها

(١) سماء علي بن هارون المنجم تسهيا ، وسماء ابن وكيع المطمع وسماء المتأخرون

إرصادا وهو أن يدل صدر البيت على قافيته (٢) ٢٥٨ صناعتين وما بعدها

(٣) ٢١٦ - ٢٤٩ صناعتين (٤) ٢٩٩ - ٤١٧ صناعتين

(٥) راجع ٩٢ عقود الجمان للسيوطي : ٤٦٧/٤ وما بعدها حاشية السبكي على

التلخيص ، ٢/٤٥ تاريخ آداب اللغة لمحمد دياب

آثرها في تكوين الملائكة والذوق ودعم الفكرة والرأى في نفس القارىء ، ويشتمل الكتاب على ٣١٢ شاهدا من عيون الشعر العربي تبلغ نحو ٤٢٥ بيتاً أو تزيد ، فوق ما اشتمل عليه من بليغ النصوص والشواهد من الذكر الحكيم وحديث رسول الله وكلام الصحابة والأعراب وبلغاء الكتاب ، والكتاب مع ذلك خلو من الاصطلاحات العلمية الدقيقة وتحديدات المنطقيين العميقة ، وهو يكتفي في توقيفك على مدلول اللون البديعي بشرح أدبي موجز حيناً وبما تدل عليه الشواهد حيناً آخر ، وبأسلوب يفيض بلاغة وسهولة ، مما يدل على ذوق سليم وفطرة عربية مطبوعة ، وأهم سمة يمتاز بها الكتاب بعد ذلك كله هو النظام الدقيق في العرض مما يتجلى في جميع أبواب الكتاب ، مع حصافة الذوق وسعة الاطلاع وحسن الاختيار في جميع شواهد الكتاب ، وهو فوق ذلك أظهر خطوة علمية موفقة في للتأليف في البديع والبيان ، وإذا أغمضنا النظر عن الخطوة الأولى التي خطاها ثعلب في كتابه «قواعد الشعر» كان عمل ابن المعتز جديداً مبتكراً من كل نواحيه

نماذج من شعر ابن المعتز :

ومن شعره في وصف سحابة :

وسارية لا تمل البكا	جرى دمعها في خدود الثرى (١)
سرت تقدح الصبح في ليلها	بهرق كهنديّة تنتضى (٢)
فلما دنت جلجلت في السما	رعداً أجش كجرس الرحا (٣)
ضمان عليها ارتداع اليفاع	بأنوارها واعتجار الربا (٤)
فما زال مدمعها باكياً	على الترب حتى اكتسى ما اكتسى (٥)
فأضحت سواء وجوه البلاد	وجن النبات بها والتقى (٦)

(١) السارية : السحابة تسرى ليلاً . ويريد بالبكاء الأمطار . الثرى : الأرض
(٢) تقدح : تهرق . والاصل قدح بالزند : أى حاول لإخراج النار منه . هندية
سيوف منسوبة إلى الهند ، لأنها كانت تجيد طبعها . تنتضى : تسيل . يقول : إن برقها
يلع في الليل كأنه صباح .

(٣) جلجلت : رعدت . أجش : غليظا . الجرس : الصوت .

(٤) الارتداع : الصمغ . اليفاع : ما ارتفع من الأرض . الاعتجار : لف

العمامة . الربا جمع ربوة : الأرض المرتفعة . الأنوار جمع نور بفتح النون : الزهر
(٥) اكتسى ما اكتسى : أى اكتسى رداء جميلاً .

(٦) وجوه البلاد : جوانبها ونواحيها . جن النبات : زكا وطال .

وقال يصف سيفه :

ولى صارم فيه المنايا كوامن فما ينتضى إلا لسفك دماء (١)
ترى فوق متنيه الفرند كأنه بقية غيم رق دون سماء (٢)
وقال يصف غديراً :

غدير ترجرج أمواجه هبوب الرياح ومر الصبا (٣)
إذا الشمس من فوقه أشرقت توهته جوشنا مذهبا (٤)

وقال يحذر الطالبين من طلب الخلافة ويتوعدهم :

أبى الله إلا ما ترون فما لكم عتاب على الأقدار يا آل طالب (٥)
تركناكم حيناً فهلاً أخذتم تراث النبي بالقنا والقواضب (٦)
زمان بنو حرب ومروان مسكو أعتة ملك جائر الحكم غاصب (٧)
ألا رب يوم قد كسوكم عماثما من الضرب فى الهامات حمر الذوائب (٧)
فلما أراقوا بالسيوف دماءكم أيننا ولم نملك حنين الأقارب
فحين أخذنا نأركم من عدوكم قعدتم لنا تورون نار الجباحب (٩)
وحزنا التى أعتيكم قد علمتم فما ذنبنا ؟ هل قاتل مثل سالب ؟
عطية ملك قد حباننا بفضلته وقدرة رب جزيل المواهب

-
- (١) الصارم : السيف القاطع . المنايا جمع منية : الموت . كوامن : ساكنة
(٢) فرند السيف : وشيه وجوهره . دون : أسفل . والفرند للسيف :
كالغيم للسماء (٣) الصبا : ريح شرقية .
(٤) الجوشن : الدرع . مذهب : بموه بالذهب .
(٥) يريد أن الله أبى عليكم أن يوليكم أمر المسلمين ويجعل الخلافة فيكم .
(٦) التراث : الميراث . والقنا : الرماح . والقواضب : السيوف .
(٧) زمان : مضاف إلى الجملة الاسمية بعده . ويريد ببني حرب ومروان دولة
بني أمية .

- (٨) الهامات : الرؤوس . والذوائب : جمع ذؤابة وهى هنا طرف العمامة .
(٩) الجباحب : ذباب يطير بالليل له شعاع فى ذنبه وما اقتدح من شرر النار
فى الهواء من تصادم الحجارة ونحوها ، وأورى نار الجباحب كناية عن الفتن
لاتفيد شيئاً .

وليس يريد الناس أن تملكوهم
ولماكم إياكم وحذار من
ألا إنها الحرب التي قد علمتم
وقال في الطرد : (٣)

لما تفرى الأفق بالضياء	مثل ابتسام الشفة للمياء (٤)
وشمطت ذوائب الظلماء	وهم نجم الليل بالإغفاء (٥)
قدنا لعين الوحش والظباء	داهية مخدورة اللقاء (٦)
شائلة كالعقرب السمراء	مرهفة مطلقة الأحشاء (٧)
كدمة من قلم سوداء	أوهدة من طرف الرداء (٨)
تحملها أجنحة الهواء	تستلب الخطو بلا إبطاء
ومخطفها موثق الأعضاء	خالفا بجلدة بيضاء (٩)
كأثر الشهاب في السماء	ويعرف الزجر من الدعاء
بأذن ساقطة الأرجاء	كوردة السوسنة الشلاء (١٠)
ذا برثن كمنقب الحذاء	ومقلة قليلة الأقدام (١١)
صافية كقطرة من ماء	ينساب بين أكم الصحراء

-
- (١) الجنادب : جمع جندب : حيوان كالجراد كثير القفز .
 (٢) الضراغمة : الأسود . والغاب : مأوى الأسد . والمخالب : الأظفار .
 ويريد بالضراغمة العباسيين وجنودهم .
 (٣) الطرد بفتح طين : مزاولة الصيد .
 (٤) تفرى : تشقق ، والشفة للمياء المشربة سمرة في حسن .
 (٥) شمطت : اختلط سوادها ببياضها .
 (٦) العين : جمع أعين وهو ثور بقر الوحش ، ويريد بالداهية كابة الصيد .
 (٧) شائلة : مرتفعة الذنب . ومرهفة : مدببة .
 (٨) المدة : الواحدة من المداد . والهدبة : الطرف .
 (٩) المخطف : الضامر ، وهو عطف على داهية السابقة .
 (١٠) الأرجاء : الأنحاء . والسوسن : الزنبق .
 (١١) البرثن : المخلب . والحذاء : الإسكاف .

مثل انسياب حية رقطاع آنس بين السفح والفضاء (١)
سرب ظباء رنع الاطلاع في عازب منورة خلاء (٢)
أحوى كبطن الحية الخضراء فيه كنفش الحية الرقشاء (٣)
كانها ضفائر الشمطاء يصطاد قل الآين والعناء (٤)

خمسين لا تنقص في الإحصاء

✓ أبو الطيب المتنبي

المتوفى سنة ٣٥٤ هـ

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الكندي الجعفي الكوفي المعروف بالمتنبي. ولد أبو الطيب سنة ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م بالكوفة في محلة تسمى كندة فنسب إليها، وليس هو من قبيلة كندة المشهورة، بل هو جعفي القبيلة، وقيل له المتنبي لأنه ادعى النبوة في بادية السيادة وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم فخرج عليه أولو أمير حمص نائب الامراء الاخشيدية فاسره وفرق اصحابه وجبسه، ثم استتابه واطلقه وعاش أبو الطيب في ضيق عيش الى ان لحق بالامير سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب سنة ٩٤٨ م. فصار يمتدحه ويسير في صحبته. وله فيه القصائد العديدة، وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء فيتكلمون بحضرته فوق مرة بين أبي الطيب وابن خالويه النحوي كلام قوثب ابن خالويه على المتنبي وضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه وخرج ودمه يسيل على ثيابه ولم ينتصر سيف الدولة لأبي الطيب، فغضب وفارقه، ودخل مصر سنة ٩٥١، ومدح كافورا الاخشيدى وكان كافور صاحب مصر، فأكرم ابا الطيب وانعم عليه بصلات جزالة ووعدته بولاية بعض اعماله، ولكن لما رأى كافور تفاخر ابي الطيب بشعره وسموه بنفسه خافه ولم يعطه ولاية، ولما لم يرضه هجاءه وفارقه سنة ٩٦١ م.. ولما عاتب كافور في أبي الطيب قال: يا قوم من ادعى النبوة مع محمد أما يدعى المملكة مع كافور ففسبكم، ووجه كافور خلفه رواحل الى جهات شتى فلم تلحقه، وقصد أبو الطيب بلاد فارس

(٢٠١) السفح: عرض الجبل. وآنس: أبصر. والفاعل ضمير يعود على المخطف. وسرب ظباء في البيت بعده مفعوله.. عازب أى مرعى خصيب مزهر.
(٣) الأحوى: شديد الخضرة في سواد وهو وصف للعازب قبله.
(٤) الآين: التعب

ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمي : فأجزل جائزته ورجع من عنده قاصداً بغداد ثم إلى السكوفة ، فعرض له في طريقه فاتك بن أبي جهل الاسدي في عدة من أصحابه ، وكان مع أبي الطيب أيضاً جماعة من أصحابه فقالوا له ، قتل لما رأى أبو الطيب أن الغلبة عليه أراد يفر فقال له غلامه مفلح : لا يتحدث عنك الناس بالفرار أبداً وانت القاتل :

(فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم)

فكر راجعاً حتى قتل ، وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٩٦٥ م . وقد اشتغل أبو الطيب بفنون الادب ومهر فيها ، وكان من المطلعين على غريب اللغة وحواشيها ، وقد عاش في صباه مدة طويلة بين اهل البدوفا كتب الحرية وشرف النفس ، وترى ذلك في كثير من اشعاره ، وما يدل على ذلك انه لم يلتحق بسيف الدولة حتى شرط عليه أن لا يقبل الأرض بين يديه حين يدخل عليه وأن لا يقول الشعر الا جالساً ، وكان أبو الطيب يقف بين يدي كافور وفي رجله خفان وفي وسطه سيف ومنطقة ، وكان يحب الصدق والعفاف ويعاب عليه التكبر وحب الذات والبخل ... أما شعره فهو في غاية البلاغة حتى انه يعد في درجة امرى القيس ، وكان ينتقد شعره قبل ان يقول ، واشتهر في وصف وقائع الحرب والمدح والشجاعة وفي الحكم ، وحكمه أشهر من ان تذكر ، وقد اعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ويقال إنه يوجد أكثر من اربعين شرحاً لديوانه - ولي دراسة مفصلة عنه في كتابي : قصص من التاريخ ،

شعر المتنبي :

صاغ أبو الطيب شعره صياغة فنية تتجلى فيها روح القوة والحرية والحياة ، وقوة التعبير سمة من سمات شعر أبي الطيب نجدها في ألفاظه وأساليبه ، كما نجدها في معانيه ، وقد أفاضت روح القوة في نفس الشاعر على شعره وفنه هذه السمة الواضحة ، وكذلك حرية التعبير من أهم خصائص المتنبي الفنية ، فقد كان مع إحاطته التامة باللغة وأساليبها يطلق نفسه وفنه من كل قيد لا يتلأم مع شعوره وإلهامه الشعري وذوقه الفني الحساس ، ويختار من الصيغ اللفظية أو البيانية ما يوائم شعوره ، ويعبر عن عواطفه ، ويطرد مع روحه وشخصيته وأمانيه ، يرسل القصيدة إرسالاً لا يبالي بنقد النقاد :

أنا ملء جفوني عن شوازدها ويسهر الخلق جراها ويختصم
وهو في ذلك نظير الفرزدق وأبي تمام اللذين كانا ينهجان هذا الأسلوب ، ولقد
هب النقاد في عصر المتنبي وبعد عصره بؤاخذونه على ما أسرف فيه من استكراه
لفظ ، وتعقيد معنى ، وخروج على قواعد اللغة ، أو على الوزن الشعري ، ومن
استعماله الوحشي النابي ، وهبوطه أحيانا إلى مستوى الركافة والسفسفة ، ومن
إفراطه في المبالغة والأغراق ، وخروجه على المنهج العربي ، وذلك ما أخذه عليه
الثعالبي في اليتيمة ، فقد لاحظ شدة التفاوت في شعره وأنه يجمع بين البديع النادر
والضعيف الساقط ، هذا إلى تعسفه في اللغة والتراكيب وقبح المطلع أحيانا . . غير
أن هذه الحرية كشفت لنا عن نفس الشاعر وآرائه وآماله في أسلوبه ، ولم تستطع
قيود البيان والشعر أن تحد من نزعاته ، وتقيد من حريته ، أو تخفي في ثناياها
اتجاهاته وأفكاره ، لا ولم تستطع هذه القيود أن تطمس روح الشاعر في شعره ،
أو تضعف شخصيته في أسلوبه ، بل تستطيع أن تقرأ أية قصيدة من قصائده ،
أو بيت من أبياته ، فسترى فيما تقرأ روح الشاعر تطل عليك . وتتحدث إليك ،
ونتناجى بآمالها وآلامها لديك ، فتهمز من عواطفك ، وتدعك مؤمنا بما آمنت به
من : نزوع إلى المثل العليا ، وثورة صاخبة على الحياة ، ثم تحفز همتك إلى السير
في النهج الذي يريده الشاعر التأثير الداعية .

وفي شعر أبي الطيب تظهر سمة أخرى لها خطرها وأثرها ، فالشاعر لا يترك
هذا المذهب الفنى الذى رفع لواءه من قبل أبو تمام ، إذ يؤثر تجويد المعنى على
تسهيل العبارة ، فهو من شعراء المعانى ، وشعره امتداد لمذهب أبي تمام الشعري ،
والخصائص الفنية البارزة تتجلى بوضوح في شعر الشاعرين ، لا سيما في روعة
التعليل ، وسمو التخيل ، ودقة الطباق ، وجمال الجناس ، وسحر الاستعارة
والكناية والتشبيه ، وبلاغة التقسيم والمقابلة والتفسير ، والتورية والتوجيه ،
ونحو ذلك .

وهو كأبي تمام في كثرة الحكم والأمثال حتى قيل : دأب أبو تمام والمتنبي حكمان
والشاعر البحترى ، ، غير أن أبا الطيب كما قلنا خرج على أساليب العرب المعروفة
في اللغة والتراكيب في بعض شعره ، وأطلق الشعر من بعض القيود التي قيده بها
أبو تمام ، ومن ثم أطلق عليه زعيم الطريقة الابتداعية في الشعر العربي لخروجه على
هذه الأساليب وقلة كلفه بالقيود الصناعية .

على أن في شعر المتنبي روح العمق والقوة التي لا تظهر على أسلوبه سمات التكلف ، وإن كان بيته يضيق أحيانا بمعناه فيعسر فهمه . ولقد سئل أبو الطيب عن صلته بأبي تمام فقال (١) :

« أولاً يجوز للاديب أن يعرف شعر أبي تمام ، وهو أستاذ كل من قال الشعر ، ويقول ابن الأثير : « إن أبا الطيب أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، وكان المتنبي ينشد بدائع أبي تمام ويروي جميع شعره » ، ولقد امتاز أبو الطيب كما أسلفنا بعمق الفكرة الشعرية ، وبقظة العقل الأدبي ، الذي وعى التراث الشعري ، للقدايم والمحدثين ، ففضمه وأخرجه أدبا حيا جديدا ، رائعا في فكرته وحكمته ، روعته في مادته وصياغته ، قويا في دعواته ومراميه ، قوته في أسلوبه ومعانيه .

وبذلك الطبع وفي هذه الأساليب نظم أبو الطيب روائع فنه وإلهامه ، داعيا إلى حياة اجتماعية وقومية قوية ، تتحرر فيها نفوس بني قومه من أغلال الذل والاستعباد ، وتطلع إلى حياة العزة والكرامة ، لتسترد الروح العربية نفوذها ومجدها ، ويستعيد أبناء الشعوب العربية تراثهم المفقود ، ومجدهم المنشود .

وكان شعره مثالا رائعا للحياة القومية في عصره ، وصورة بارزة للحياة الفكرية والأدبية ، ثم كان فيه تصوير للنزاع بين المثل العليا والحقائق الواقعية ، ونضال بين الأمل والامل ، وبين اليأس والرجاء ، والسخط والرضاء ، والحب والبغض ، وفيه صورة زاهية لثورته النفسية المتشائمة ، ودعوته الاجتماعية النظرية الداعية إلى القوة والطموح التي دعى إليها « نتشه » في العصر الحديث ، ولقد حارب أبو الطيب الضعف الانساني في جميع مظاهره كما حاربه « نتشه » ، ودعى إلى الثقة بالنفس والعمل للحياة بأقصى ما يمكن من قوة وإقدام كما دعى إلى ذلك « نتشه » .

وأصل الفضائل جميعها عند الرجلين هو إرادة القوة والسعى إليها والظفر بها في شتى صورها ، وذلك هو السعادة المنشودة المرتجاة ، وبين أرائهما كثير من ألوان الاتفاق تراها في « مطالعات » للعقاد (١٥٧ — ١٦٣) . وشعر المتنبي يتحدث كثيرا عن منازع الحياة البشرية ويصف الطبائع الانسانية وصف المحيط بها الذي أكلها تجربة وبجتها ، وقد امتاز شعره بسمو الحكمة الانسانية ودقة تغلغلها في صميم

الحياة وإدراكها لبواطن الأمور وتمشيها مع ثمرات التجربة والواقع .
وشعره فوق ذلك تصوير بارع لحياة الشاعر نفسه ، بما كان يحتاج في صدره من
طموح إلى المجد وثورة على نظم السياسة والاجتماع ، ودعوة إلى القضاء على مظاهر
الضعف فيها بظبا السيف أو بشبابة اليراع . . . وأبو الطيب رائع في رثائه كما هو
رائع في مدحه وفخره وهجائه ووصفه وحكمته .

وعلى رثائه مسحة من الفلسفة الخائرة التي يستمدّها الشاعر من ثقافته وحياته ،
ويضمّنها فلسفة الحياة والموت والفناء والخلود . كما يودعها فلسفة الحزن والبكاء
والصبر والعزاء . . . ومدحه ليس تفانياً في شخصيات ممدوحه ، إنما هو اعتزاز
بشخصيته ونفسيته ، والشاعر يتخذة سلباً يصعد عليه إلى ذروة المجد والسلطان . —
وتشيع في أعطاف هجائه روح التهكم والسخرية والاقناع ، وفلسفة السخرية
نشدتها المتنبي في ثورات غضبه وسخطه فأجاد الحديث فيها في دقة وخفاء ، ولكنها
عند ابن الرومي نزعة طبيعية في نفسه ظهرت في شعره ، فكان أبعد الشعراء منزعا
في تصويرها ، وإبعاد مرماها ، وإصاء وقها . وترى روح السخرية عند المتنبي
في أهاجيه لكافور ، وفي مدائحه التي كان يثني بها عليه وكان يطوى فيها المدح على
الهجاء حذقاً منه بصنعة الشعر كما يقول ابن جني (١) . . ويمكننا أن نرجع روح
الشاعرية عند المتنبي إلى بعد آماله ، وطول إخفاقه فيها ، وسخطه على الناس
والحياة ، وإلى روح العظمة وشذوذ العبقرية في نفسه ، وإلى نهمة في الانتقام من
يتعرض له بشر ، أو يحول بينه وبين غاياته ، وهي في وضوحها وغلبتها على شعره
لا يعادلها إلا دعواته الساخطة وآراؤه المتشائمة الناقمة على الحياة والأحياء ،
وأبو العلاء يستمد من أبي الطيب هذا الاتجاه ، وإن كان يخالفه في بواعثه وفي
نتائجه ، فسخط أبي العلاء وتشاؤمه يقوم على شعور وثيق ببعد الإنسانية عن
حياتها المثلى ، أما تشاؤم أبي الطيب فراجع إلى إخفاقه في آماله ، وسخط أبي الطيب
بنتهى به إلى خوض غمار الحياة دون مبالاة بالحياة ، وسخط أبي العلاء ينتهى به
إلى الزهد فيها والانصراف عنها .

وقد كان هجاء أبي الطيب معولاً هدم به صروح المجد التي أقامها من هجاءهم ، فإذا
هم صورة مشوهة هي سخرية الأجيال وحديث القرون .

ويبلغ وصفه مبلغ الروعة والقوة حين يصف به معارك القتال وحومات
الوغي ، وروح البطولة واضحة من قصائد المتنبي لاسيما في الفترة التي قضاها في بلاط
سيف الدولة حيث الصراع الدائم والكفاح الطويل بين سيف الدولة وأعدائه .
ونفره حديث عن عصاميته واعتزاز بشخصيته وكرامته وتصوير لآماله
وغاياته . والتمني نسيب ولكنه متكلف مصنوع ضئيل في معانيه ، بعيد عن
روح الغزل في أسلوبه ، لأنه لم يكن بين الغواني وقلب أبي الطيب صلة ، فهو طالب
مجد وداعى قوة وشاعر سيف ورمح ورسول فضيلة ومثل ، فماله وللغواني والنسيب
بهن ؟ والنسيب إنما هو وحي الحب الصادق والروح الوداعة والعواطف المتيمة
حين يقع القلب في أسر الهوى ، وما أبعد المتنبي عن ذلك ، وهل عرف الحب
من يقول :

وما العشق إلا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغواني رمية وغير بئاني للرخاخ ركاب
وهو الذي يدعو على الغواني مثل هذا الدعاء الجاف :
أياخذد الله ورد الحدود وقد قدود الحسان الغيد
وليس لنسيب المتنبي خطر في روحه ، إنما أثره في فنه وأسلوبه كقوله :
سقاك وحيانا بك الله إنما على العيش نور والحدود كآئمه
وقوله :

نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبا
نذم الحسان الغر في فعلها به وتعرض عنه كلما طلعت عتبا
ذكرت به وصلا كأن لم أفز به وعيشاً كأنى كنت أقطعه وثبا

ونسيبه على العموم تقليدى بحث ، ولم يكن المتنبي بمن شغفوا بجمال الطبيعة
وأسرارها ، ولا بمن تأصلت في نفوسهم روح المرح والفكاهة ، ولكنه جاد
أقبل بجملته على جهاد الحياة ، وشعره صورة لما يختلج في النفوس المجاهدة من
آمال ، وروح الخيال عنده كما هو عند أبي العلاء ضعيف ، إذ كانا رجلا حقيقة
ونفكير لا خيال وتصوير .

شهرته :

رشته المتنبي الأدبية الذائعة ترجع إلى خصائص فنه الأدبي كما ترجع إلى عوامل
أخرى سياسية واجتماعية .

خياة أبي الطيب في قصور ملوك الشرق وأمرائه : الحمدانيين والأخشيديين والبويهيين ، وفي عواصم العالم الإسلامي إذ ذاك : حلب ودمشق ومصر والسكوفة وبغداد وشيراز ، وتعرفه برجالاتها وزعماء النهضة الثقافية والفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية فيها ، بما أذاع في العالم الإسلامي شهرته ، ثم هذه الخصومات العنيفة التي منى بها المتنبي في كل بلد حل فيه ، وتضاؤل الشعراء عن مجاراته أو تحديه في سحر القريض ، ثم ذلك التجاوب بين عواطفه وشتى العواطف الإنسانية ، وهذا التساوق بين آرائه وتجاربه وحكمة الحياة ، والتمازج بين مشاعره ومشاعره خاصة الأدباء والمفكرين ، وهذا السمو بنفسه وبالفن الذي يؤدي رسالته ، كل ذلك كان من عوامل إذاعة شهرته الخالدة .

وقد تأثر بشعره الكتاب والشعراء والأدباء في عصره وبعد عصره ، فالصابي والصاحب وسواهما من الكتاب المعاصرين له اقتبسوا من شعره في رسائلهم ، وكذلك نسج الشعراء على منواله وحاكوه في شتى العصور ، لاسيما في حركة الأحياء الأدبي في العصر الحديث ، وعصبية شاعر كأبي العلاء له هي عصبية للفن والأدب قامت برغم بعد الزمن وانتفاء المؤثرات بينهما .

المتنبي والنقد الأدبي :

ولا نكاد نجد شاعراً اختلفت الناس في منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء ، في عهده وبعد عهده ، مثل المتنبي ، فقد افرق النقاد فيه فرقاً ثلاثاً :
فطائفة بالغت في التعصب له ورفعته إلى منزلة كبيرة في الأدب وعلى عرش القريض وطائفة بالغت في التحامل عليه والوضع من شأنه وشعره . فوضعت في مكانة دون مكانته ، ومنزلة دون منزلته لخصومة خاصة بينهم وبين الشاعر وحده ، أو لخصومة عامة بينهم وبين المحدثين جميعاً ، وأغلب هذه الخصومات نشأت بتأثير عواطف شخصية ومنافسات أدبية وأغراض سياسية ، والقليل الأقل منها كان بريئاً من الغايات ، لم تدفعه إلا يد النقد الأدبي النزيه .

وطائفة أخرى جعلت تعصبها للأدب ، لاله فعرضت ووازنت ونقدت وحكمت على ضوء العدالة الأدبية ، وكانت هذه الخصومات سبباً في كثرة الدراسات الأدبية التي تدور حول شعره ، وكان فيها ثروة كبيرة للنقد الأدبي خاصة وللأدب والشعر والبيان عامة ، وحسبك أن المتنبي شرح شعره وعلق عليه وألف في نقده وكتب عن شعره فحول الأدباء والنقاد والعلماء ، من الشرقيين والمستشرقين ... كتب عن

المتنبى الثعالبي م ٤٢٩ في الجزء الاول من اليتيمة كتابه فيها دراسة لحياته ونقد شعره ، وترجم له ياقوت م ٦٢٦ هجرية (١) ، وابن خلكان م ٦٨١ هجرية (٢) ، وألف البديعي م ١٠٧٣ هجرية في حياته وشعره كتابه « الصبح المتنبى » ، وكذلك فعل كثير من الكتاب والادباء في العصر الحديث فنحن منهم المرحوم السيد محمد توفيق البكري في كتابه « أخبار أبي الطيب المتنبى » ، والمتنبى ، الأستاذ جبرى ، و « مع المتنبى » في جزأين للدكتور طه حسين ، و « ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام » للدكتور عبد الوهاب عزام ، و « المتنبى » الأستاذ محمود محمد شاكر وقد نشرته مجلة المقتطف في عدد خاص ، ومجلة الهلال العدد العاشر عام ١٩٣٥ الخاص بالمتنبى ، وصحيفة دارالعلوم ، وسواها من الدراسات للؤلف ، وكان العيد الاثني لذكرى أبي الطيب عام ١٩٣٥ هو المثير لهذه الدراسات فامتلات الصحف والمجلات بالحديث عن حياته وشعره وظهرت المؤلفات الحافلة بالبحوث الادبية فيه ، وفي « مطالعات » للعقاد و « حصاد الحشيم » للمازني دراسة واسعة للمتنبى وفنه ، وقد شرح ديوانه شرح دراسة وتحليل ونقد : ابن جنى م ٣٩٢ هجرية في ثلاثة مجلدات وله كتاب في « معاني أبياته » ، ولابن فورجة : « التلجنى فى الرد على ابن جنى » ، و « الفتح فى الرد على أبي الفتح » ، ورد على ابن جنى كذلك على بن عيسى الربعى المتوفى سنة ٤٣٥ هـ في كتابه « التنبيه » وشرح ديوانه كذلك ابن الافليل م ٤٤١ هـ وأبو العلاء م ٤٤٩ هـ في كتابه « اللامع الغريرى فى معجز أحمد » ، والواحدى م ٤٨١ هـ ، وعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ ، والتبريزى م ٥٠٢ هـ ، والعسكري م ٦١٦ هـ ، والبرقوقي فى عصرنا الحديث .

ونقد شعره كثير من النقاد فى مختلف العصور ، فللصاحب م ٣٨٥ هـ فى نقد شعره رسالته « الكشف عن مساوى شعر المتنبى » ، وللخوارزمى م ٣٨٣ هـ كتاب مفقود (٣) ، ولابى الحسن الجرجاني م ٣٩٢ هـ كتابه الممتع « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، وللحاتمى م ٣٨٣ هـ رسالته الخاتمة ، وكتابه « جهة الادب » ، تحدث فى الاولى عن مناظرته للمتنبى ، وفى الآخر عن سرقاته من أرسطو (٤) ، ولمحمد ابن وكيع المصرى الشاعر م ٣٩٣ هـ كتابه « المنصف » فصل فيه سرقات المتنبى (٥)

(١) ٣٦٦ ج ١ طبقات الادباء . (٢) ٣٦ ج ١ ابن خلكان .

(٣) ١٦١ صبح ، ٢٦١ ج ٢ النثر الفنى .

(٤) ١١١ - ١١٩ ج ٢ المرجع . (٥) ١٥٨ و ١٦١ صبح

وللعبيدي كتابه «الأبانة» وقد نقل عنه البديعي كثيراً من نقده وناقشه (١)، ولا بن حسنون المصري كتابه «نزهة الأديب في سرقات المتنبي من حبيب»، وألف أديب آخر كتاب «الماخذ الكندية من المعاني الطائفة»، أي سرقات المتنبي من أبي تمام، وغير ذلك من كتب النقد التي تدور حول شعر المتنبي.

وقد أبدى علماء الأدب في شتى العصور رأيهم في المتنبي وشعره: كالشريف الرضي م ٤٠٥ هـ (٢)، وابن رشيق له ٤٥٦ هـ في «عمدة»، وابن خلدون م ٨٠٨ هـ في «مقدمته» عن الشعر، (٣)، وسيف الدرلة الحمداني م ٣٥٦ هـ (٤)، وابن العميد م ٧٦٠ هـ وأبو فراس الحمداني م ٣٥٧ هـ (٥)، وابن خالويه النحوي (٦)، وسيبويه المصري (٧) والحامى (٨). وقد عرض الكيلاني في كتابه «صورة جديدة من الأدب العربي»، مناظرة الحامى لأبي الطيب، وغير هؤلاء من الباحثين، ونقده كثير من الكتاب المحدثين، وكثير من المستشرقين مثل: وايسكى. دى ساسى، بولمين، بركلمان، نيكلسون، هامر، ديتريشى، وكتب المستشرق الانجليزى هندلى في تاريخ حياة أبي الطيب مجوئاً قيمة نشرها في القرن التاسع عشر.

بين المتنبي وابن هانىء شاعر المعز

— ١ —

عاش المتنبي (٣٠٣ — ٣٥٤) في العصر الذى عاش فيه ابن هانىء الشاعر (٣٢٠ — ٣٦٢) هـ. ولقد كان أبو الطيب المتنبي شاعراً، ولكنه أراد أن يكون ملكاً على عرش من العروش، أو أميراً على ولايات من الولايات، فأخفق؛ أراد أن يترك الشعر إلى السياسة، فردته الأيام عن السياسة إلى الشعر، فبرم أبو الطيب بحياته التي لم يدرك فيها آماله وأحلامه، ففلا شعره سخطا على الناس، وغضباً على المجتمع، وبرما بالحياة، بعد أن كان يذيعه أنغاماً حية من الطموح والأمل والأفهام، وأخذ يدعو إلى مذاهب جديدة متشائمة، أو حتى بها إليه

(١) ١١١٤ - ٥٩ صبح (٢) ١٠٣ صبح

(٣) ٤٣ صبح (٤) ٤٦ - ٤٨ صبح

(٥) ٤٥ و ٩٠ - ١٠٣ صبح (٦) ٦٣ صبح

(٧) ٧١ - ٨٠ صبح، ١٠٦ - ١٣٧ صور جديدة لكيلاني.

سخطه وغضبه ، وآرائه وتجاربه ، وآماله وآلامه ، بعد أن كان يدعو إلى القوة والطموح والتفاؤل ، وظل كذلك حتى خر صريعاً بالدماء .

وأخطأ أبو الطيب من حيث أصاب القدر ، فهذا المجد السياسي الفاني الذي طلبه المتنبي في حياته ما قيمته وما جدواه وما شاوه أمام هذا المجد الأدبي الخالد ، الذي كتبت له الأيام بعد وفاته ، وفقدته عروشه الباقية الخالدة .

فالمتنبي كشاعر هو هو ، هو الذي عصف في حياته بخصومه وأقرانه في مصر والشام والعراق وإيران ، وذهب شعره في أرجاء العالم الإسلامي إذ ذاك نائراً مدوياً :
فشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب
يردده الناس ، وتشدو به الحياة :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
وهو الذي فتن بشعره ، فتنة الفنان بفنه ، حتى رأى أنه يتبعوا في الشعر العربي عروش الامارة ، من حيث حرما هو :
إن هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك
ورأى أهل الجاهلية تقصر عن مداه :

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل
ثم كان أبو الطيب الشاعر الذي نال بعد حياته من المجد الأدبي ما لم ينله شاعر من الشعراء ، فشدت الأجيال بشعره ، وهتفت القرون بذكره ، وعكف كثير من فحول الأدب والبيان في كل عصر وجيل على تراثه الأدبي بحثاً ودراسة ونقداً ، وعدوه شاعر العربية في عصره ، بل جعله كثير من النقاد شاعر العربية الفذ في شتى عصورها الأدبية ، وأحاطوا ذكره بهالة من التقدير والاعجاب ، وجلال الذكر وعظمة الفن ، تشبه الهالة التي يحيط بها الأوريون ذكرى شكسبير وجوته وهوجو وليوباردى من أدباء الغرب الخالدين .

ومن الغريب في البحث الأدبي حقاً أن نرى بين أبي الطيب المتنبي وابن هاني الشاعر وجوها كثيرة من التشابه في العقيدة وفي الشخصية وفي الشاعرية وفي المنزلة الأدبية في عصر الشاعرين :

خياة ابن هانيء تشبه حياة المتنبي في كثير من مظاهرها والعقيدة الفاطمية التي كان يؤمن بها ابن هانيء شبيهة بالعقيدة الاسماعلية التي آمن بها أبو الطيب ! وطموح ابن هانيء لا يعدله إلا طموح المتنبي ، ومكانة ابن هانيء عند الأمراء والملوك في عصره هي مكانة أبي الطيب في بلاط سيف الدلة وكانور وعضد الدولة ، وتوزيع ابن هانيء أميراً على إمارة القريظ في دولة المعز هو ما حدث لأبي الطيب من إمارته على الشعر في المشرق ؛ وشاعرية الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ، فالمدح وأوصاف الحروب تكادان تتعادلان في شعر الشاعرين ، ولكن ابن هانيء لم يصل إلى مكانة المتنبي في الحكمة وضرب المثل وفي الرثاء وفي بعض أغراض الشعر الأخرى ، كما أنه لم يصل إلى مكانته في دقة المعاني وبعدها وعمق الثقافة العقلية وتنوعها ، وإن كان ابن هانيء يجارى أبا الطيب في هذا الميدان إلى حد ما ، وروح الشاعرية في الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ؛ تتشابه من حيث قوة الأسلوب وفولته وجزالته وطبعه ، ومن حيث البعد عن الالفاظ المترفة ؛ والألمام بكثير من الغريب ، وتتشابه في كثير من السمات الفنية الخاصة التي تراها في شعر الشاعرين ، وفي تراث الشاعريتين ، وفي إنتاج هاتين الشخصيتين :

— ٣ —

ويشبهه النقاد وعلماء الأدب ابن هانيء بالمتنبي ، ويلقبونه بمتنبي المغرب ، ويسلمون له زعامة الشعراء في المغرب والأندلس ، ثم حاولوا أن يقارنوا بينه وبين المتنبي ؛ ولكن المقارنة - مع اتحاد العصر وتوافق البيئة والمؤثرات العامة وتوافق الشاعريتين في كثير من مميزاتهما - غير ممكنة ، لأن لكل شاعر طابعه الخاص ، وروحه الفنية المستقلة ، ونزعاته الأدبية المقصورة عليه ؛ وإن كان ابن هانيء أقرب الشعراء إلى المتنبي ، وأقربهم منه مكانة في عصر الشاعرين ، ويكاد المجد الأدبي الذي لاقاه ابن هانيء في حياته يضارع الشقاء الذي لاقاه أبو الطيب في عصره ، كما يكاد الذكر الأدبي السائر الذي ناله المتنبي بعد حياته يضارع الخمول الأدبي الذي لازم اسم ابن هانيء بعد وفاته .

— ٤ —

ولقد كان ابن هانيء بطبيعة سنه تلميذاً أو كالتلميذ لأبي الطيب ، قرأ ديوان

المتنبى وتأثر به فى كثير من معانيه وأساليبه وخيالاته ، وفى كثير من قصائده فقد استعار ابن هانىء ديوان أبى الطيب بعد وفاته ، أى بعد عام ٣٥٤ هـ ، من أديب أساء بعد فى طلبه منه ، فظلم فى ذلك الشاعر قصيدته :

تنبأ المتنبى فبكم عصرا ولو رأى رأيكم فى شعره كفرا
مهلا فلا المتنبى بالنبى ولا أعد أمثاله وشعره السورا
تتم علينا بمرآه وعالمكم لم تدركوا منه لاعتينا ولا أثرا

وابن هانىء فى قصيدته هذه يحاول أن يخفف من غلواء المتعصبين للمتنبى ، ثم يحاول أن يشكر فضله ، فيقول :

ويله شاعرا أخلتموه ولم نعلم له عندنا قدرا ولا خطرا
ثم يصف جناية القوم على شعره ، وتصحيفهم إياه ، ويتهكم بهم ، إلى أن يقول :
أريتمونى مثالا من روايتكم كالأعجمى أتى لايفصح الخبرا
أصم أعمى ، ولكنى سهرت له حتى رددت إليه السمع والبصرا
كانت معانيه ليلا فامتعضت له حتى إذا ما بهرن الشمس والقمر
ضجرتم وأتانا من ملامتكم ومن معارضيتكم ما يشبه الضجرا
ولو حرصتم على إحياء مهجته كما حرصتم على ديوانه نشرنا
وظاهر من هذا أن الديوان الذى كتبه هذا الأديب واستعاره منه ابن هانىء كان كثير التصحيف والخطأ ، وأن ابن هانىء صححه وكتب منه نسخة أخرى ، فاختلفت رواية هذا الأديب وأمثاله ، فأكثرنا من الضجر من ابن هانىء ، وقول ابن هانىء « فلو حرصتم على إحياء مهجته » - أى المتنبى - دليل على أن ذلك كان بعد وفاة المتنبى .

وابن هانىء : فى أول قراءته لديوان المتنبى لم يعترف له - كما يقول - بقدر ولا بخطر ، ولكنه بعد ذلك عكف على احتذاء أبى الطيب وتقليده لاسيما فى أمثاله وحكمته ، وفى شعر ابن هانىء قصائد وأبيات كلها تسير على روح قصائد وأبيات للمتنبى ، ولذلك كانت الحكمة فى شعر ابن هانىء متأخرة جدا فى حياته لم تواته إلا وهو فى نهاية عصر رجولته ، وكذلك أيضا تجد بين ابن هانىء وأبى الطيب تشابها كثيرا فى كثير من الأساليب والمعانى ، مما يطول بنا الحديث لو حاولنا تفصيل ذلك والامام بنواحيه .

وهناك أسطورة أدبية رواها البديعي م ١٠٩٣ في د الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ، ، تحدثنا بأن أبا الطيب عزم وهو فى مصر على أن يهاجر إلى المغرب ، فلقبه ابن هانىء فى الطريق ، فأنشده أبو الطيب شعراً له ، ثم أنشده ابن هانىء من شعره ، ففعل راجعاً إلى مصر ، تاركا المغرب لابن هانىء شاعره .
وهى أسطورة أدبية حافلة بالبواعث التى دعت إلى اختلاقها ، وفيها إشادة بابن هانىء وبفنه وشاعريته .

بين المتنبى والنقاد

هذه مثل لما دار بين النقاد من آراء فى النقد ، ومناقشات فى الحكم على الشعراء .
انكر النقاد على المتنبى قوله :

جللا كما بى فليك التبريح أغذاء ذا الرشا الأغن الشيخ

فقال رجال الاعراب: حذف النون من يكن خطأ ما دام قد وليها اللام ، ورد عليهم الجرجاني بأن ضرورة الشعر تجيز ذلك الحذف . وقال أصحاب المعانى: قطع المصراع الثانى عن الأول فى اللفظ والمعنى ، فقال لهم الجرجاني فى وساطته : إنما يسوغ الانكار لو قطعهما عن بعض قبل تمام المعنى ، فأما أن يستوفى مراده ثم ينتقل إلى غيره فليس بعيب ، والمصراعان فى هذا كالبيتين ؛ يجوز استقلال كل بمعناه . وقال البعض : قد يفعل الشاعر مثل ذلك فى النسيب خاصة ليرى أنه مشغول عن تقويم خطابه بالحب الذى غلبه ، والشوق الذى تمسكن منه ، وقال غيره إن بين المصراعين اتصالاً لطيفاً ، فلما أخبر عن عظم تبريحه وسدة أسفه بين أن الذى أورثه ذلك هو الأغن الذى شككه غلبة شبه الغزلان عليه فى غذائه .

٢ — وأنكروا عليه قوله :

أطعك عنك تشبيهى بما وكأنه فلا أحد فوقى ولا أحد مثلى

لأن ما ليست للتشبيه ، وقد سئل أبو الطيب عن هذا فذكر أن ما تأتى لتحقيق التشبيه ، تقول : هو الأسد وما هو إلا الأسد وإلا كالأسد . فقال الجرجاني راداً على أبى الطيب رأيه : إن التشبيه بما محال . وإنما يقع التشبيه فى هذه المواضع بحرفه ، وما لم تعد موضعها من النفى ، ولكنه لما كانت ما وإلا تأتى لتحقيق المعنى الذى

يفيده أصل التركيب كالتشبيه في مثل ما هو إلا الأسد ، صح أن ينسب التشبيه
تجوزاً إلى ما ، إذ كان لها هذا الأثر ، وباب الشعر أوسع من أن يضيق عن مثله .
٣ — وينكر النقاد على أبي الطيب جمعه بوقا على بوقات في قوله :

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

ولأنما الصحيح جمعه على أبواق ، فقال لهم الجرجاني : إن أصل الجمع التأنيث ،
فمن جمع اسماً لم يجد عن العرب جمعاً له فأجراه على الأصل لم يسغ الرد عليه ، أو أن
ينسب إلى الخطأ لأجله ، وإن كان لأبي الطيب عن مثل هذا مندوحة .

٤ — وما أنكره النقاد على أبي الطيب قوله :

وإني لمن قوم كأن نفوسنا بها أنف أن تسكن اللحم والعظم

وكان الأسلوب يفرض عليه أن يقول : نفوسهم ، ولكنه قطع قبل استيفاء
الكلام واتمام الخير ، وقد رد عليهم بعض النقاد بأن الكلام جرى على أسلوب
الالتفات بحمله على المعنى وصرف الضمير عن وجهه ، وهو أسلوب تنطق به العرب
كثيراً في بلاغاتها وبيانها ، ولكن الجرجاني لا يقبل ذلك الرأي لما في هذا الأسلوب
إذا سير عليه دائماً من تداخل الضمائر والتباس المعاني ، وهو أسلوب له مواضع
تختص بالجواز ، وأخرى تبعد عنه . ويرى القاضي أن بيت أبي الطيب غير مستكره
فما يجوز من أسلوب الالتفات ، ولكنه غير معذور بتركه باب الصحة إلى المشكل
الواهي الضعيف .

— ٢ —

ولقد كان في المتنبي كبر وزهو ، وكان يعتد كل الاعتداد بنفسه وفنه حتى رأى
شعره يتبوأ في الشعر العربي عروش الأئمة التي نشدها لنفسه فأخفق وحرم منها :
إن هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك

ورأى أهل الجاهلية من الشعراء تقصر عن مداه :

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل

وبعد أن بلغ من المجد الأدبي منتهاه ، كان أبلغ شحيح بشعره على رجالات
العالم الإسلامي وشخصياته البارزين : فلم يمدح أحداً إلا في القليل النادر من الذين
تربطهم بالشاعر صلات خاصة ، أو ممن كان يسعى لديهم في سبيل تحقيق مطامحه
في الإمارة .

وفي عام ٣٥٣ هـ كان المتنبي في بغداد فأخذ يفاوضه رجالاتها كالصابي م سنة ٣٨٣

والمهلبى الوزير فى أن يقلدهم مدحة من مدائحه فاعتذر . وانتظر معز الدولة الملك والخليفة العباسى أن يشيد أبو الطيب بدوائهم فلم يفعل ، فأثار وجود المتنبى مشكلات سياسية وأدبية ، خرج من مأزقها أبو الطيب ، فبهم وجهه شطرا شيراز حيث عضد الدولة ينشد منه ولاية يتقلدها أو عرشاً يتبوؤه . وطمع الصاحب بن عباد فى زيارته له بأصفهان ، فكتب إليه يرحب بقدمه ويعلم استعداداه لأن يشاطره ماله ، ولكن أبا الطيب أبى أن يقلد شعره شابا ليس فى يده تحقيق آماله البعيدة ومطامحه الواسعة ، فرفض عرض الصاحب شاخصاً إلى عضد الدولة لنفس غاياته ، لا رغبة فى إشباع شهواته :

ول السلاطين من تولاهما والجا إليه تكن حديها

وكان رفض المتنبى اليد التى مدها الصاحب إليه باعثا على عداوة ابن عباد . له ، ونقده إياه ، وحمله الأدباء والكتاب على ثلبه ومهاجمته بسلاح عنيف من أسلحة النقد الأدبى الجائر ، وألف بباعث العصبية والخصومة رسالته الصغيرة الحجم الكبيرة المغزى والقيمة : «الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره» ، ينقد فيها شعره سواء فى اللفظ والمعنى أم الوزن والقافية أم الأسلوب والخيال أم الفكرة والاتجاه . وكان الصاحب لا ذعا عنيفا فى نقده للتنبى ، وتهمكه بشعره ، غير أنه لجانب الإحسان والروعة فى شعره . ولقد تجاهل الصاحب — عصبية منه على المتنبى — نفسية الشاعر وطبعه ومؤثرات الدم والروح والبيئة والآمال والاتجاه فيه ، وأخذ يحكم عليه أحكاما قاسية لا هوادة فيها ولا رحمة ، وهو فى هذا الاتجاه يناقض الجرجانى ، الذى فهم النقد على أنه البحث فى هدى العدالة والانصاف عن مكانة الشاعر الأدبية على ضوء خصائص فنه وميزات شعره ، ووزن مازل فيه الشاعر وما أجاد فيه بقسطاس مستقيم عادل . ونهج الصاحب فى نقده صورة لاتجاه أستاذ ابن العميد فيه ، مما عبر عنه الصاحب فى رسالته بقوله : « وكان ابن العميد يتجاوز نقد الايات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن (١) » ، فهو نقد لمعانى الشاعر ، وطبعه الأدبى ، وذوقه الاجتماعى ، ونقد لاسلوبه فى صياغته ، واختيار ألفاظه ، وحروفه ، وقافيته ، وموسيقاه .

وذكر أن المتنبى يضؤل أمام أى تمام والبحترى فى صياغته ما كان يقتبس منهما من معان ، كما يضؤل بجانب الفرزدق فى الفخر .. وكانت غاية الصاحب من ورام

ذلك كله هدم مجد المتنبي الادبي ، وتشويه سمعته كشاعر ممتاز من شعراء العربية ، وان كان الصاحب وصل الى بعض ما أراد في حياة أبي الطيب فان مجده قد عصف بكل ما أراد خصومه ؛ فوهب ذبوع الشهرة ومجد الخلود .

وقد نقد ابن رشيق في عمدته في مواضع مفرقة منها آراء الصاحب في نقده ، فرد عليه مثلاً نقده لبيت المتنبي :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال (١)
والانصاف يلزمنا أن نقول : إن نقد الصاحب كله لم يكن مدفوعاً ببواعث الهوى أو بمناهي عن العدالة والانصاف ، وان كان الصاحب يتجاهل لغاية في نفسه شخصية الشاعر وروحه وأثرهما في فنه ؛ فنراه مثلاً ينقد بيت أبي الطيب :

لو استطعت ركبت الناس كلهم الى سعيد بن عبد الله بهرانا

نقدنا لاذعاً (٢) . وللنقاد حق السخط على هذا البيت في بادى الرأي ؛ ولكن النظرة الحصيفة تدعنا نرفع عن الشاعر في بيته هذا إصر كل مؤاخذه ، فهذه هي روح الشاعر المتهمكة الساخرة بالناس الساخطة على المجتمع الذي لم ينل فيه آماله ، المعترزة بنفسها وشخصيتها — تتجلى في البيت في صورة واضحة رائعة وهل أبلغ في السخرية وأمعن في التهمك ، من اتخاذ الناس مطايا يركبها الشاعر إن استطاع ليصل عليها الى مدوحه ؟ إن من الغريب حقاً أن يكون فن شاعر كآبي الطيب رائعا كل الروعة ، بالغاً نهاية القوة والسحر ، حين ينظر اليه كله كائن أدبي حافل ، فيحكم على قصيدة من قصائده ؛ أو على مجموعة منها أو عليها كلها ، حينئذ يرتفع أبو الطيب الى الذروة وينتهي شعره الى الغاية . أما اذا قطعت أوصاله فنظرت الى بعضه كحرف في كلمة من كلامه ، أو لفظ في بيت في قصيدة من قصائده ، أوخذ الشاعر وحوسب حساباً غير يسير . لقد تعمد الصاحب أن ينظر الى فن أبي الطيب هذا النظر الجزئي ، مخفياً وراء نقده ما في نفسه له من إعجاب وتقدير . وقد شاء الجرجاني في وساطته ألا يترك هذه الناحية أو يغفلها ، فطالب بالحكم على فن أبي الطيب كله أو جلّه أو كثير منه ، لا على جزئياته الضئيلة التي لا تحط زلاته فيها من مكانته ومنزلته ، وعرض كثيراً من روائعه ، طالباً الانصاف في الحكومة والعدالة في الرأي .

رسالة الخاتمي في نقد المتنبي:

قال أبو علي الخاتمي (١) : كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام . التحف رداء الكبر ، وأزال (٢) ذيول التيه ، وصغر خده ، ونأى بجانبه ؛ وكان لا يلتقى أحداً إلا نافضا (٣) مذرويه ، رافلا من التيه في برديه ؛ يخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يغترف نثير مائه غيره ، وروض لم يرع نواره . سواه ، فدل بذلك مديدة أجرته رسن (٤) الجهل فيها ، فظل يمرح في تشنيه ، حتى إذا تخيل أنه القريع (٥) الذي لا يقارع ، والنزيع (٦) الذي لا يجارى ولا ينازع ، وأنه رب الغلب ومالك القصب ، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام ! . فطأ طأ كثير منهم رأسه ، وخفض جناحه ، وطامن على التسليم له جأشه (٧) ، وتخيل أبو محمد المهلبى ، أن أحداً لا يقدر على مساجلته وبجاراته ، ولا يقوم لتبعه بشيء من مطاعنه ؛ وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل ، فلا يكون في مملكته أحد يماثله في صناعته ، ويساويه في منزلته !

فهدت (٨) حينئذ متبعها عواره ، ومتعقبا آثاره ، ومطفئاً ناره ، ومهتكا أستاره ، ومقلماً أظفاره ، وناشراً مطاويه ، ومزقاً جلباب مساويه ، متحينا أن تجمعنا دار ، فأجرى أنا وهو في مضمار ، يعرف فيه السابق من المسبوق ؛ حتى إذا لم أجد ذلك قصدت موضعه الذي كان يحله في ربض (٩) حميد . فوافق مصيرى إليه حضور جماعة تقرأ شيئاً من شعره عليه ؛ فحين أودن بحضورى ، واستؤذن عليه لدخولى . نهض عن مجلسه مسرعاً ، ووارى شخصه عني .

* معجم الأدباء ص ١٥٩ ج ١٨ .

- (١) هو محمد بن الحسن بن المظفر الخاتمي من أهل اللغة والأدب . مات سنة ثمان وثمانين وثلثمائة
- (٢) أزال : تبخرت وجر ذيله على الأرض تهباً .
- (٣) نافضا : محركا ، والمذروان : ناحيتا الرأس (٤) الرسن : الحبل
- (٥) القريع الذي يقارعك ، والمقارعة : المضاربة بالسيوف (٦) النزيع : الشريف من القوم الذي نزع إلى عرق كريم (٧) الجأش : النفس وقيل القلب .
- (٨) نهد : نهض ، وعواره : عيبه (٩) الربض : المسكن

مستخفيا ، فنزلت عن بغلة كانت تحتي ، وهو يراني نازلا عنها ، لانتهاى بها إلى أن حاذيته ، فجلست في موضعه ، وإذا تحته قطعة من زيلو (١) مخلقة ، قد أكلتها الأيام ، وتجاوزتها السنون ، فهي رسوم خافية . وسلوك (٢) بادية ، حتى إذا خرج إلى نهضت إليه فوفيته حق السلام . غير مشاح (٣) له في القيام . لأنه إنما اعتمد بنهوضه ألا ينهض لي عند موافاتي . وإذا هو قد لبس سبعة أقبية كل قباء (٤) منها لون ، وكان الوقت آخر أيام الصيف ، وأخلقها بتخفيف اللبس . فجلست وجلس وأعرض عني ساعة لا يعيرني فيها طرفه ، ولا يسأني عما قصدت له ، وقد كدت أتميز (٥) غيظا ، وأقبلت أسخف رأي في قصده ، وأفند نفسي في التوجه نحو مثله ولوى عذاره عني مقبلا على تلك الزعنفه (٦) التي بين يديه ، كل واحد يوصي إليه ، ويوحى بطرفه ، ويشير إلى مكاني بيده ، ويوقظه من سته جهله ، وهو يأبى إلا زوراراً ونفارا ، وجرياً على شاكاة خلقه المشكاة .

ثم رأي أن يشئ رأسه إلى ، فوالله ما زادني على أن قال : أى شيء خبرك ؟ قلت أنا بخير ! لولا ما جنيت على نفسي من قصدك ، وكلفت قدمي في المصير إلى مثلك ! ثم تحدرت عليه تحدر السيل إلى القرار ، وقلت له : ابن لي - عافاك الله - مم تيهك وخيلاؤك وعجيبك ؟ وما الذي يوجب ما أنت عليه من التجبر والتنمر (٧) ؟ أنسب فرعت سماء المجد به ! أم علم أصبحت علما يقع الايمان إليك فيه ؟ هل أنت إلا وتدبقاع (٨) في شر البقاع ؟ وجفاء (٩) سيل دفاع ؟ يا الله ! استنتت الفصال حتى القرعى (١٠) ! وإنى لأسمع جمجمة (١١) ولا أرى طحنا ! فامتقع لونه عند سماع كلامي ، وعصب (١٢) ريقه وجمحت عيناه . وسقط في يده . وجعل يابن في الاعتذار

(١) زيلو : معناها لحاف بالفارسية (٢) السلوك : جمع جمع سلكة ، وهي الخيط الذي يخاط به الثوب (٣) منازع (٤) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب (٥) أتميز : أقطع (٦) الزعنفه : الطائفة من القبيلة تنفرد أو تنضم إلى غيرها ، وكل جماعة ليس أصلهم واحدا . (٧) التنمر : التشبه بالنمر ، والنمر لا يلتقي إلا متنكرا غضبان (٨) القاع : أرض سهلة ممطّنة (٩) مانفاه السيل من الزبد (١٠) يضرب مثلا للرجل يدخل نفسه في قوم ليس منهم ، والقرعى من الفصال : الذي أصابها قرع وهو بر ، والاستنان : النشاط (١١) مثل يضرب للذي يكثر الكلام ولا يعمل ، وللذي يعد ولا يفي ، والجمجمة : صوت الرحي ونحوها ، والطحن : الدقيق (١٢) عصب : جف

لثنا . كاد يعطف عليه عطف صفحي عنه . ثم قلت : يا هذا ! إن جاءك رجل شريف في نسبه ، أو عظيم في أدبه ، صغرت أدبه ، أو متقدم عند سلطانة لم تعرف موضعه ، فهل العز تراث لك دون غيرك ؟ كلا والله ! لسكنك مددت السكبر سترا على نقصك ، وضربته رواقاً دون جهلك ، فعاد إلى الاعتذار ، وأخذت الجماعة في تليين جانبي ، والرغبة إلى في قبول عذره ، واعتاد مياسرته ، وأنا آني إلا استشراء (١) واجترأ ، وهو يؤكد الأقسام ويواصلها أنه لم يعرفني ، فأقول له : يا هذا ألم يستأذن لي عليك باسمي ونسبي ؟ أما في هذه العصابة من يعرفك بي لو كنت جهلتي ؟ وهب ذلك كذلك ، ألم ترني ممتطياً بغلة رائحة يعلوها مركب ثقيل ، وبين يدي عدة من الغلمان ؟ أما شاهدت لباسي ؟ أما شممت نشر عطري ؟ أما راعك شيء من أمري ، أتميز به في نفسك عن غيري ؟ وهو في أثناء ما أكلمه يقول : خفض عليك ! أرفق ! استأن (٢) ؛ فأصحب (٣) جانبي بعض الأصحاب ، ولان شماسي (٤) بعض الليان ، وأقبل على وأقبلت عليه ساعة . ثم قلت : أشياء تختلج في صدرى من شعرك أحب أن أراجعك فيها ! قال : وما هي ؟ قلت : خبرني عن قولك :

فان كان بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول
أهكذا يمدح الملوك ؟ ! وعن قولك :

ولا من في جنازتها تجار يكون وداعها نقض النعال
أهكذا تؤبن أخوات الملوك (٥) ؟ والله لو كان هذا في أدنى عبيدها لكان قبيحا !
وأخبرني عن قولك :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت ذابت في الخدور العواتق (٦)
أهكذا تنسب بالمحبوبين ؟ وعن قولك :

وإذا أشار محدثاً فكأنه قد يقهقه أو عجوز تلطم
أما كان لك في أفانين الهجاء التي تصرفت فيها الشعراء مندوحة عن هذا
السلام الرذل ينفر عنه كل طبع ، ويمجه كل سمع ؟ وعن قولك :
وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

-
- (١) استشراء : لجاجة وعنادا (٢) استأن : لانهجل (٣) أصحب جانبي : انقاد
(٤) شماسي : امتناعي وإبائي (٥) المعروف أن هذا البيت من قصيدة المتنبي
في رثاء والده سيف الدولة وأولها : نعد المشرفية والحوالي
(٦) العواتق : جمع عاتقة : الجارية أول ما أدركت . والخدور : الستور

أفتعلم مرثيا يتناولوه النظر لا يقع عليه اسم شيء ؟ وما أراك نظرت إلا إلى قول جرير :

مازالت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تكرر عليهم ورجالا
فأحلت المعنى عن جهته ، وعبرت عنه بغير عبارته ؛ وعن قولك :
أليس عجيبا أن وصفك معجزا وأن ظنوني في معاليك تظلع (١)
فاستعرت الظلع لظنونك ، وهى استعارة قبيحة ! وتعجبت من غير متعجب ؛
لأن من أعجز وصفه لم يستنكر قصور الظنون وتحيرها في معاليه ، وإنما نقلته
وأنشدته من قول أبي تمام :
ترقت مناه طود عز لو ارتقت به الريح فترا (٢) لاثنت وهى ظالع
وعن قولك تمدح كافورا :

فان نلت ما أملت منك فربما شربت بماء يعجز الطير ورده
إنها مدح أو ذم ؟ قال : مدح ! قلت : إنك جعلته بخيلا لا يوصلك إلى خيره
من جهته ، وشبهت نفسك فى وصولك إلى ماوصلت إليه منه بشربك من ماء يعجز
الطير ورده ، لبعده وتراعى موضعه !
وأخبرنى أيضا عن قولك فى صفة كلب وظي :

وصار مافى جلده فى الرجل فلم يضربنا معه فقد الأجدل (٣)
فأى شيء أعجبك من هذا الوصف ؟ أعذوبة عبارته ؟ أم لطف معناه ؟ أما
قرأت رجز (٤) ابن هانئ وطرد (٥) ابن المعتز ؟ أما كان هناك من المعانى التى
ابتدعها هذان الشعاران وغرر المعانى التى اقتضباها ماتشاكل به عن بنيات صدرك
هذه ؟ وإلا اقتصرت على مافى أرجوزتك هذه من الكلام السليم ، ولم تسف إلى
هذه الالفاظ القلقة والأوصاف المختلفة ؟ فأقبل على ، ثم قال : أين أنت من قولى :
كأن الهام (٦) فى الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد

-
- (١) الظلع : الغمز فى المشى (٢) الفترة : ما بين طرف الإبهام وطرف المشيرة .
(٣) الضمير فى جلده للظي ، والرجل : القدر من النحاس ، والضمير فى معه
للـكـب ، والأجدل : الصقر (٤) الرجز : ضرب من الشعر ووزنه مستعلن
ست مرات (٥) الطرد : مزألة الصيد ، وهو يريد ما قيل فيه من الشعر
(٦) الهام : جمع هامة ، والهيجاء من أسماء الحرب وطبع السيف طرقه

وقد صفت الأسنة من هموم فما يخطرن إلا في الفؤاد
وأين أنت من قولى فى صفة جيش :

فى فيلق (١) من حديد لو رميت به صرف الزمان لما دارت دوائره
وأين أنت من قولى :

لو تعقل الشجر التى قابلتها مدت بحية إليك الاغصنا
وأين أنت من قولى :

أيقده (٢) فى الخيمة العذل وتشمل من دهرها يشمل
وما اعتمد الله تقويضها (٣) ولكن أشار بما تفعل
وفىها أصف كتيبة .

وملومة (٤) زرد ثوبها ولكنه بالقنا يحمل
وأين أنت عن قولى :

الناس مالم يروك أشباه والدر لفظ وأنت معناه
والجود عين وأنت ناظرها والبأس باع وأنت يمناه
أما يلبيك إحسانى فى هذه عن إساءتى فى تلك ؟

قلت ما أعرف لك إحسانا فى جميع ما ذكرته ! إنما أنت سارق متبع ! وأخذ
مقصر ، وفيما تقدم من هذه المعانى التى ابتكرها أصحابها مندوحة عن التشاغل
بقولك ! فأما قولك :

كأن الهام فى الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
فهر منقول من بيت منصور النيرى :
فكانما وقع الحسام بهامه خدر المنية أو نعاس الهاجع

(١) الفيلىق : الجيش . وجعله من حديد لكثرة ما عليه من الدروع ، وصرف
الزمان : حدثانه .

(٢) ضربت خيمة لسيف الدولة فسقطت من ربح هبت .

(٣) تقويضها : هدمها ، واعتمد الأمر : قصده . (٤) ملومة مجموعة مضمومة

والخمل ما جعل له خمل ، وهو هذب القטיפه ونحوها .

وأما قولك :

في فيلق من حديد لو رميت به صرف الزمان لما دارت دوائره
فنقلته نقلا لم تحسن فيه ، من قول الناجم :
ولى في حامد أمل بعيد ومدح قد مدحت به طريف
مدح لو مدحت به الليالى لما دارت على لها صروف
والناجم إنما نظمه من قول أرسطاليس : قد تكلمت بكلام لو مدحت به الدهر
لما دارت على صروفه .

وأما قولك :

لو اتعقل الشجر التى قابلتها مدت بحية اليك الاغصنا
فهذا معنى متداول ؛ تساجلته (١) الشعراء ، وأكثرت فيه ، فمن ذلك قول
الفرزدق :

يسكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
ثم تكرر في أفواه الشعراء ، إلى أن قال أبو تمام :
لو سعت بقعة لاعظام أخرى لسمى نحوها المكان الجديب
وأخذه البحتري فقال :

لو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لمشى إليك المنبر
وأما قولك :
وما اعتمد الله تقويضها ولكن أشار بما تفعل
فقد نظرت فيه إلى قول رجل مدح بعض الأمراء بالموصل ، وقد كان عزم على
السير فاندق لواؤه ، فقال :

ما كان مندق اللواء لريبة تخشى ولا أمر يكون مزيلا (٢)
لكن لأن العود ضعف متنه صغر الولاية فاستقل الموصل
وأما قولك :

وملبومة زرد ثوبها ولكنه بالقننا مخمل

(١) تساجلته : تبارت فيه . (٢) زيله : فرقه .

فمن قول أبي نواس :

أمام خميس (١) أرجوان كأنه قميص محوك من قنا وجياد (٢)
وأما قولك :

الناس مالم يروك أشباه والدهر لفظ وأنت معناه

فمن قول علي بن نصر بسام في عبيد الله بن سليمان يرثيه ؛ (ويروى لابن المعتز) :

قد استوى الناس ومات الكمال وصاح صرف الدهر : أين الرجال ؟

هذا أبو القاسم في نعشه قوموا انظروا كيف تزول الجبال

فقوله : قد استوى الناس ، ومات الكمال هو قولك : الناس مالم

يروك أشباه !

فقال بعض الحاضرين : ما أحسن قوله : قوموا أنظروا كيف تزول الجبال ؟

فقال أبو الطيب : اسكت ! ما فيه من حسن ، ألم يسرقه من قول النابغة

الذياني :

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح ؟

قال الحاتمي ، فقلت : قد سرقه النابغة من أوس حين قال :

ألم تسكف الشمس شمس النهار والبدر للقمر الواجب (٣)

لفقد فضالة لا يستوى القهود ولا خلة الذهب

ثم قلت : والله لئن كان أخذه فقد أحسن ، وأخفى الأخذ فقال الرجل : أجل ،

فقال المتنبى : يا محمد خذ بيده ، وأخرجه — يريد بمحمد ابنه — فرجعت إلى

أن تركه ، ثم قلت له : وأما قولك : والدهر لفظ وأنت معناه .. فنقول من قول

الاخلط — إن كان البيت له — في عبد الملك ابن مروان :

وإن أمير المؤمنين وفعله لك الدهر لا عار بما فعل الدهر

وقد قال جرير حين قال الفرزدق :

فإني أنا الموت الذي هو نازل بنفسك فانظر كيف أنت تحاوله

وقال جرير :

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله

ثم قلت له : أترى أن جريراً أخذ قوله د يغنى الموت ، من أحد ؟ وأن أحداً
شركه في إقناء الموت ؟ ففكر طويلاً ، ثم قال : لا ! قلت : بلى ! عمران بن حطان
حيث يقول :

لن يعجز الموت شيء دون خالقه والموت فان إذا ما ناله الأجل
وكل كرب أمام الموت متضع بالموت ، والموت فيما بعده جمل
فأمات الموت ، وأحياء ، وما سبقه إلى ذلك أحد ثم قلت له : أترى أن البيت
المتقدم ، الذي يقول فيه :

وإن أمير المؤمنين وفعله لسكالدهر لا عاربما فعل الدهر
مأخوذ من أحد ؟ فأطرق هنيهة ، ثم قال : وما تصنع بهذا ؟ قلت : يستدل
على موضعه ، ومواضع أمثالك من سرقة الشعر ! فقال : الله المستعان ، أساء سمعاً
فأساء إجابة ! ما أردت ما ذهبته إليه ، قلت : فانه أخذه من قول النابغة ، وهو
أول من ابتكره :

وعيرتني بنو ذبيان خشيته وما على بأن أخشاك من عار
ثم أخذه أبو تمام فأحسن بقوله :
خشعوا لصولتك التي هي فيهم كالموت يأتي ليس فيه يعار
قال : ومن أبو تمام ؟ قلت : الذي سرقت شعره ، فأنشده . قال : هذه خلائق
السفهاء ، لا خلائق العلماء . قلت : أجل ! أنت سفهت رأيي ولم يكن سفياً ،
ألسنت القائل :

ذى المعالي فليعلون من تعالى هكذا هكذا وإلا فلألا
شرف ينطح الثريا بروقة (١) وفخر يقلقل الأجبالا
قال : بلى ! قلت : فإنك أخذت البيت الأول من بيت بكر بن النطاح :
يتلقى الندى بوجه حي وصدور القنى بوجه وقاح
هكذا هكذا تكون المعالي طرق الجدد غير طرق المزاح
وأخذت البيت الثاني فأنشده من قول أبي تمام :

همة تنطح الثريا وجدد آلف للحضيض فهو حضيض
قال : وبأى شيء أفسدته ؟ قلت : بأن جعلت للشرف قرناً . قال : وأنى لك

بذلك ؟ قلت : ألم تقل : ينطح السماء بروقيه ؟ والروقان : القرنان ؟ قال : أجل !
 إنما هي استعارة . قلت : نعم ! هي استعارة خبيثة .
 قال : أقسمت غير مخرج في قسمي أنني لم أقرأ شعراً قط لأبي تمامكم هذا !
 فقلت : هذه سوء لو سترتها كان أولى ! قال : السوء قراءة شعر مثله : أليس
 هو القائل :

خشنت عليه أخت بني خشين وأنجح فيك قول العادلين
 والذي يقول :

لعمري لقد حررت يوم لقيته لو أن القضاء وحده لم يبرد
 والذي يقول :

تكاد عطاياه يحن جنونها إذالم يعوذها (١) بنغمة طالب
 والذي يقول :

تسعون ألفاً كآساد الشرى (٢) نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب
 والذي يقول :

ولى ولم يظلم وهل ظلم امرؤ حث النجاء (٣) وخلفه التين
 والذي يقول :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا
 والذي يقول :

أقول لقرحان من البين لم يصب رسيس (٤) الهوى بين الحشا والترائب
 ما قرحان البين ؟ أخرس الله لسانه ! فأحفظني (٥) ذلك وقلت : يا هذا من
 أدل الدليل على أنك قرأت شعر هذا الرجل تتبعك مساويه ؛ فهل في الدلالة على
 اختلافك إنكاره أوضح مما ذكرته ؟ وهل يصم أبا تمام أو يسمه بميم النقيصة
 ما عدته من سقطاته ، وتخوته (٦) من آياته ، وهو الذي يقول في النونية :

نوالك رد حسادى فلولا وأصلح بين أيامى وبينى

(١) يعوذها : يحفظها .

(٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل .

(٣) النجاء : السرعة في المشى . (٤) رسيس الهوى : بقيته وأسرته .

(٥) فأحفظني : فأغضبني . (٦) تخوته : تنقصته .

فهلا اغتفرت الأول لهذا البيت الذى لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، وأما قوله :
تسمعون ألفاً كآساد الشرى نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب (١)
فلهذا البيت خبر لو استقرت صحفه لأصرت عما تساوانه بالطن فيه . ثم
قصص الخبر ، وقلت : فى هذه القصيدة ما لا يستطيع أحد من متقدمى الشعراء
وأمراء الكلام وأرباب الصناعة أن يأتي بمثله . قال : وما هو؟ قلت : لو قال قائل :
إن أحداً لم يبتدىء بأوجز ولا أحسن ولا أخصر من قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حدة الحد بين الجد واللعب
لما عنف فى ذلك ، وفيها يقول :

رمى بك الله برجيا فهدمها ولو رمى بك غير الله لم يصب
وفيها يقول :

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض فى أنوابها القشب
وفيها يقول :

بكر فافترعتها كف حادثة ولا ترقى إليها همة النوب
وفيها يقول :

غادرت فيها بهم الليل وهو ضحى يشله (٢) وسطها صبح من اللهب
حتى كان جلايب الدجى رغب عن لونها وكأن الشمس لم تغب
وفيها يقول :

أجبتة معلناً بالسيف منصلاً ولو أجبت بغير السيف لم تجب
وأما قوله : أقول لقرحان من البين . . فإنه يريد رجلاً لم يقطعه أحبابه ولم
يدينوا عنه قبل ذلك ، إذا كانت حاله كذلك كان موقع البين أشد عليه وأفت فى عضده ،
والأصل فى هذا : أن القرحان الذى لم يجدر (٣) قط ، وقد قال جرير :

وكننت من زفرات البين قرحانا

وفى هذه القصيدة من المعانى الرائعة والتشبيهات الواقعة والاستعارات البارعة
ما يغتفر معه هذا البيت وأمثاله . على أنا أبنا عن صحة معناه وعن أمثاله . فن ذلك :

(١) أى أن جيش العدو كان تسمين ألفاً حل أجابهم قبل أن ينضج التين والعنب
وفى هذا تهكم بالمنجمين . (٢) أى يطرده (٣) أى لم يصب بالجدوى

إذا العيس لاقت بي أبا دلف فقد تقطع ما بيني وبين النواذب
يرى أفصح الأشياء أوبة آمل كسته يد المأمول حلة خائب
وأحسن من نور يفتحه الندى بياض العطايا في سواد المطالب
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت (١) حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه فيض العقول إذا انجلت سحائب جود أعقبت بسحائب

فهره ما أوردته بما قصر عنان عبارته ، وحبس بنيات صدره ، وعقل عن
الإجابة لسانه ، وكاد يشغب (٢) لولا ما تخوفه من عاقبة شعبه ، ما عرفه من مكان
في تلك الأيام ، وأن ذلك لا يتم له ، فما زاد على أن قال : قد أكرثت من أي تمام ،
لا قدس الله أبا تمام وذويه ! قلت : ولا قدس السارق منه والواقع فيه . ثم قلت
له : ما ما الفرق — في كلام العرب — بين التقديس والقداس والقداس والقداس ؟
فقال : وأي شيء غرضك في هذا ؟ فقلت : المذاكرة ! فقال : بل المهاترة (٣) ! ثم
قال : التقديس : التطهير في كلام العرب ؛ ولذلك سمي القدس قدساً لأنه يشتمل على
الذي به الطهور ، وكل هذه الأحرف تقول إليه ، فقلت : ما أحسبك أنعمت النظر
في شيء من علوم العرب ، ولو تقدمت منك مطالعة لها لما استجزت أن تجمع بين
معاني هذه الكلمات مع تباينها ، وذلك لأن القداس بتشديد الدال : حجر يلقى
في البئر ليعلم به غزارة مائها من قلته ، حكى ذلك ابن الاعرابي . والقداس : الجمان
حكى ذلك الخليل ، والقداس : السفينة ، قال الشاعر يصف ناقه :

وتهفو بهاد لها متلع (٤) كما اقتحم القداس الاردمونا (٥)

فلما علوته بالكلام قال : يا هذا مسلبة إليك اللغة ! قلت : وكيف تسلبها
وأنت أبو عذرها (٦) وأولى الناس بالتحقق بها والتوسع في اشتقاقها والكلام على
أفانيتها ؟ وما أحد أولى بأن يسأل عن لغته منك . فشرعت الجماعة الحاضرة في إعفائه
وقبول عذره والتواطؤ (٧) له ، وقال : كل منهم : أنت أولى بالمراجعة والمياسرة .

(١) ما قرت : ما جمعت (٢) يشغب : يهيج الشر (٣) المهاترة : المسابة بالقبيح من القول
(٤) من أتلع فلان : مد عنقه متطاولا (٥) الاردمون . جمع أردم : وهو الملاح
الحاذق (٦) أبر عذرها : يريد بمد سبيلها (٧) أي موافقته .

لمثل هذا الرجل من كل أحد . وكنت قد بلغت شفاء نفسى ، وعلمت أن الزيادة على الحد الذى انتهت إليه ضرب من البغى ، لا أراه فى مذهبي ، ورأيت له حق القدمه (١) فى صناعته ، فطأطأت له كتفى ، واستأنفت جميلا من وصفه ونهضت .
فنهض لى مشيعاً إلى الباب حتى ركبت وأقسمت عليه أن يعود إلى مكانه ، وتشاغل ببقية يومى بشغل عن لى ، تأخرت معه عن حضرة المهلب ، وانتهى إليه الخبر ، وأتتني رسله ليلا فأتيته فأخبرته بالقصة ، فكان سروره وابتهاجه بما جرى مما بعثه على مباركة معز الدولة قائلًا له : أعلمت ما كان من فلان والمثني ؟ قال : نعم ! قد شفى منه صدورنا !

— ٤ —

وهذه سرقات شعرية تفاضل من ثناياها بين الشعراء ، قال النابغة :
إذا ما غزا بالجيش حلق فوقه عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى لجمعان أول غالب
وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا ، وأوردوه بضرب من العبارات ، فقال أبو نواس :

تتمنى الطير غزوته ثقة باللحم من جزره
وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها فمن يتبعه فى كل مرتحل
وقال أبو تمام :

وقد ظلت أعناق أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كائنها من الجيش إلا انها لم تقاتل
وقد ذكر هذا المعنى غير هؤلاء إلا أنهم جاءوا بشيء واحد لا تفاضل بينهم فيه إلا من جهة حسن السبك ، أو من جهة الإيجاز فى اللفظ ، ولم تر أحدا أغرب فى هذا المعنى فسلكت هذه الطريق مع اختلاف مقصده إليها إلا مسلم بن الوليد فقال :

أشربت أرواح العدا وقلوبها خوفا فأنفسها إليك تطير
لو حاكمتك فطالبتك بدخلها شهدت عليك ثعالب ونسور
فهذا من المליح البديع الذى فضل به مسلم غيره فى هذا المعنى ، وكذلك فعل أبو الطيب فإنه لما انتهى الأمر إليه سلك هذه الطريق التى سلكها من تقدمه

إلا أنه خرج فيها إلى غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وأبدع وحاز الاحسان بجملة ، وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دين غيره ، فما جاء منه قوله له :

تفدى أتم الطير عمراً سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم
وما ضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت أسيفه والقوائم
ثم أراد هذا المعنى فى موضع آخر من شعره فقال :

سحاب من العقبان ترجف تحتها سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه
وهذا معنى قد حوى طرفى الاغراب والاعجاب ، وقال فى موضع آخر :
وذى لجب لاذو الجناح أمامه بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهى ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوءها لاقى من الطير فرجة ندور فوق البيض مثل الدراهم
وهذا من إعجاز أبى الطيب المشهور ، ولو لم يكن له من الاحسان فى شعره إلا
هذه الأبيات ، لاستحق بها فضيلة التقدم .
وقال أبو تمام :

فنى لا يرى أن الفريضة مقتل ولكن يرى أن العيوب مقاتل (١)
وقال أبو الطيب المتنبى :

يرى أن ما ما بان منك لضارب بأقتل بما بان منك لعائب
فهو وإن لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة ، ومثاله فى ذلك كمن أودع الوشى
شملاً ، وأعطى الورد جملاً ، وهذا من أزدل السرقات ، وعلى نحو منه جاء قول
عبد السلام بن رغبان (٢) :

نحن نعزيزك ومنك الهدى مستخرج والصبر مستقبل
نقول بالعقل وأنت الذى نأوى إليه وبه نعقل
إذا عفا عنك وأودى بنا الد هر فذاك المحسن المجمل
أخذه أبو الطيب فقلب أعلاه أسفله فقال :

(١) الفريضة واحدة الفرائض : أوداج العنق ، أو هى اللحم بين الجنب
والكتف لا تزال ترعد ، وعلى كلا المعنيين فهى من المقاتل .
(٢) المعروف بديك الجن .

إن يكن صبر ذى الرزية فضلا تكن الافضل الأعز الأجلا
أنت يا فوق أن تعزى عن الأحباب فوق الذى يعزىك عقلا
وبالفاظك اهتدى فإذا عزك قال الذى له قلت قبلا

والبيت الأخير من هذه الآيات هو الآخر قدرا وهو المخصوص بالمسخ؛ أما
قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة ، فإن هذا لا يسمى سرقة بل يسمى إصلاحا
وتهديا ، فن ذلك قول أبى الطيب المتنبي :

لو كان ما تعطيه من قبل أن تعطيه لم يعرفوا التأميلا
وقول ابن نباتة السعدى :

لم يبق جودك لى شيئا أومله تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل
وعلى هذا النحو ورد قول أبى نواس فى أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة
والصولجان فقال من جملتها :

جن على جن وإن كانوا بشر كأنما خيطوا عليها بالإبر
ثم جاء المتنبي فقال :

فكأنها نتجت قياما تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

وبين القولين كما بين السماء والأرض ، فإنه يقال ليس للأرض إلى السماء نسبة
محسوسة وكذلك يقال ها هنا أيضا ، فإنه بقدر ما فى قول أبى نواس من النزول
والضعف ، فكذلك فى قول أبى الطيب من العلو والقوة.

مع الشعراء المحدثين

١ — مدح رؤبة بن العجاج (١) عقبة بن مسلم بأرجوزة من أراجيزه وبشار
حاضر يسمعه ، فاستحسن ذلك من رؤبة ، فقال له رؤبة : هذا طراز لانحسنة
أنت يا أبا معاذ ، وكان رجزهم فى ذلك الوقت يتأثر بطريقتهم البدوية إلى غايتها

(١) فى كتاب الشعر والشعراء عقبة بن رؤبة .

في إيثار الغريب ، فتأثر بشار من ذلك ، وأنشأ أرجوزة في مدح عقبة بن مسلم يعارض بها أرجوزة رؤبة ، وهى :

يا طل الحى بذات الصمد بالله خبر كيف كنت بعدى
أحسن من دعد وترب دعد سقيا لآسماء ابنة الأشد
قامت ترأى إذ رأتى وحدى كالشمس تحت الزبرج المنقد
إلى أن قال في مدح عقبة :

اسلم وحييت أبا الملد مفتاح باب الحدث المنسد
مشارك النيل ورى الزند أغر لباس ثياب الحمد
لله أيامك فى معد وفى بنى قحطان غير عد
كل امرئ رهن بما يؤدى ورب ذى تاج كريم الجد
كآل كسرى وكآل برد أنكب جاف عن سبيل القصد
فصلته عن ماله والولد

٢ — وروى عن الأصمعى أنه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وخلف الآخر يأتیان بشارا فيسلبان عليه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ، ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قتيبة ؟ قال هى التى بلغتكما ، قالوا بلغنا أنك أكرت فيها من الغريب ، قال : نعم ، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالوا فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

بكرأ صاحى قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير
حتى فرغ منها ، فقال له خلف : يا أبا معاذ لو قلت مكان ذاك النجاح ، بكرأ فالنجاح ، كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت « إن ذاك النجاح ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت « بكرأ فالنجاح ، كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة ، فقام خلف فقبل بين عينيه .

٣ — وحدث هارون بن سعدان قال : كنت مع أبى نواس فى بعض طرق بغداد ، وجعل الناس يمرون به وهو ممدود الرجل ، بين بنى هاشم وفتيانهم ، والقواد وأبنائهم ، ووجوه أهل بغداد ، فكل يسلم عليه فلا يقوم إلى أحد منهم ،

ولا يقبض رجله إليه ، إذ أقبل شيخ راكبا على حمار ، وعليه ثوبان
ديقيان : قبض ورداء ، قد تقنع ورده على أذنيه ، فوثب إليه أبو نواس ،
وأمسك الشيخ عليه حماره ، واعتنقا ، وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على
رجليه فسكرنا بذلك مليا ، حتى رأيت أبا نواس يرفع إحدى رجليه ويضعها على
الأخرى ، مستريحا من الاعياء ، ثم انصرف الشيخ ، وأقبل أبو نواس فجلس في
مكانه ، فقال له بعض من بالحضرة : من هذا الشيخ الذى رأيتك تعظمه هذا
الاعظام ؟ وتجله هذا الاجلال ، فقال : هذا اسماعيل ابن القاسم أبو العتاهية ، فقال
له السائل : لم أجملته هذا الاجلال ؟ وساعة منك عند الناس أكثر منه ، قال :
ويحك لا تفعل ، فوالله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوى ، وأنا أَرْضَى .

٤ — قال سلم الخاسر : صار إلى أبو العتاهية ، فقال : جئتك زائرا ، فقلت :
مقبول منك ، ومشكور أنت عليه ، فأقم ، فقال : إن هذا لما يشتد على ، قلت :
ولم يشتد عليك ما يسهل على أهل الأدب ؟ فقال : لمعرفتى بضيق صدرك ، فقلت له
وأنا أضحك وأعجب من مكابرتي : دمرتني بدائها وانسلت ، فقال : دعنى من هذا
واسمع منى أبياتا ، فقلت هات ، فأنشدنى :

يا لقومى للبوت ما أوحاه	نغص الموت كل لذة عيش
صد عنه حبيبيه وجفاه	عجبا إنه إذا مات ميت
موت فالموت واقف بجذاه	حيثما وجه امرؤ ليفوت الـ
قام فى عارضيه ثم نعا	إنما الشيب لابن آدم ناع
مات من قبل أن ينال مناه	من تمنى المنى فأغرق فيها
س لإفلاله وما أقواه	ما أذل المقل فى أعين النسا
س إلى من ترجوه أو تخشاه	إنما تنظر العيون من النسا

ثم قال لى : كيف رأيتهما ؟ فقلت له : لقد جودتها لو لم تكن سوقية ، فقال :
والله ما يرغبنى فيها إلا الذى زهدك فيها .

٥ — وذكر ابن رشيق أبا العتاهية فيمن كان يذهب إلى سهولة اللفظ ، ويعنى بها
مع الاجادة وملاحة القصد ، وأنه اجتمع يوما مع أبى نواس والحسين بن الضحاك
الخليع ، فقال أبو نواس : ليذشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه فى مراده ، من
غير مدح ولا هجاء ، فأنشد أبو العتاهية :

يا إخوتي إن الهوى قاتل فسيروا الأكفان من عاجل
ولا تلموا في اتباع الهوى فإنني في شغل شاعل
عيني على عتبة منهلة بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل
بسطة كفى نحوكم سائلاً ماذا تردون على السائل
إن لم تنيلوه فقولوا له قولاً جميلاً بدل النائل
أو كنتم العام على عسرة منه فمضى — إلى قابل

فسلما له وامتنعا من الانشاد بعده ، وقالوا له : أما مع سهولة هذه الألفاظ ، وملاحظة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارات ، فلا ننشد شيئاً . قال ابن رشيق وذلك في بابيه من الغزل جيد أيضاً ، لا يفضلُه غيره .

٦ — وحدث عبد الله بن الحسن قال : جاءني أبو العتاهية وأنا في الديوان ، فجلس إلى فقلت : يا أبا إسحاق أما يصعب عليك شيء من الألفاظ ، فتحتاج فيه إلى استعمال الغريب ، كما يحتاج إليه سائر من يقول الشعر ، أو إلى ألفاظ مستكرهة قال : لا ، فقلت له : إني لأحسب ذلك من كثرة ركوبك القوافي السهلة ؛ قال : فأعرض على ما شئت من القوافي الصعبة ، فقلت : قل أبياتاً على مثل البلاغ ، فقال من ساعته :

أى عيش يكون أبلغ من عي ش كفاف قوت بقدر البلاغ
صاحب البغى ليس يسلم منه وعلى نفسه بغى كل باغ
رب ذى نعمة تعرض منها حائل بينه وبين المساغ
أبلغ الدهر في مواعظه بل زاد فيهن لى عى البلاغ
غيبتنى الأيام عقلى ومالى وشبابى وصحتى وفراغى

٧ — وقال مسعود المازنى : لقيت ابن مناذر بمكة ، فقلت له : من أشعر أهل الاسلام ؟ فقال : أترى من إذا شئت هزل ، وإذا شئت جد ؟ قلت من ! قال : مثل جرير حين يقول في النسيب :

غيضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا
ثم قال حين جد :

إن الذى حرم المكارم تغلباً جعل النبوة والخلافة فينا —

مضر أبى وأبوك الملوك فهل لكم يا آل تغلب من أب كأيننا —
 هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقىكم إلى قطينا
 ومن المحدثين هذا الخبيث الذى يتناول الشعر من كمه ، فقلت من ؟ قال أبو
 العتاهية ، قلت فيماذا ؟ قال قوله :

الله بينى وبين مولاتى أبدت لى الصد والملاات
 لا تغفر الذنب إن أسأت ولا تقبل عذرى ولا مواتانى
 منحتها مهجتى وخالصتى فكان هجرانها مكافأتى
 أفلقتنى حبها وصيرنى أحدى فى جميع جارأتى
 ثم قال حين جد :

ومهمه قد قطعت طامسه	قفر على الهول والمحامة
بحرة جصرة عذافرة	خوصاء عيرانة علنداة
تبادر الشمس كلها طلعت	بالسير تبغى بذاك مرضاتى
يا ناق خبي بنا ولا تعدى	نفسك مما ترين راحت
حتى تناخى بنا إلى ملك	توجه الله بالمهابات
عليه تاجان فوق مفرقه	تاج جلال وتاج إخابات
يقول للريح كلها عصفت	هل لك يا ربيع فى مباراتى
من مثل من عمه الرسول ومن	أخواله أكرم الخؤولات

ويوجد كثير غير ابن منذر يشاركه هذا الرأى فى أبى العتاهية ، ومن ذلك
 بشار بن برد ، وقد سئل من أشعر أهل زمانه ؟ فقال : مخنث أهل بغداد ، يعنى
 أبا العتاهية .

٨ — وقال بعض الأدباء : شهدت أبا العتاهية وأبا نواس فى مجلس ، فكان
 أبو العتاهية أسرع الرجلين جوابا عند البديهة ، وكان أبو نواس أسرعهما فى قول
 الشعر ، فإذا تعاطيا جميعا السرعة فضله أبو العتاهية ، وإذا توقفا وتمهلا فضله
 أبو نواس .

٩ — وروى عن ابن أبى الأبيض أنه قال : أتيت أبا العتاهية فقلت له : إني
 رجل أقول الشعر فى الزهد ، ولى فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب أستحسنه ، لأنى
 أرجو ألا آثم فيه ، وسمعت شعرك فى هذا المعنى ، فأحببت أن استزيد منه ، فأحب

أن تنشدني من جيد ما قلت ، فقال : اعلم أن ما قلته ردىء ، قلت وكيف ؟ قال : لأن الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة ، فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه بما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الأشعار التي في الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامّة ، وأعجب الأشياء ما فهموه ، فقلت صدقت ، ثم أنشدني قصيدته :

لدوا للوت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب
أيا موت لم أر منك بدأ أتيت وما تحيف وما تحبابي
كأنك قد هجمت على مشبي كما هجم المشيب على شبابي
فعلم أبو نواس فقال : والله ما أحسب في شعره مثل ما أنشدك بيتا آخر ، فصرت إليه فأخبرته بقول أبي نواس فأنشدني قصيدته التي يقول فيها :

طول التعاشر بين الناس ملول ما لابن آدم إن قتشت معقول
ياراعى الشاة لا تغفل رعايتها فانت عن كل ما استرعيت مسئول
لنى لنى منزل ما زلت أعمره على يقين بأنى عنه منقول
وليس من موضع يأتية ذو نفس إلا والوت سيف فيه مسلول
لم يشغل الموت عنا مذ أعد لنا وكلنا عنه بالذات مشغول
ومن يمت فهو مقطوع ومجتنب والحى ما عاش مغشى وموصول
كل ما بدا لك فالآكال فانية وكل ذى أكل لا بد ما كول
قال : ثم أنشدني عدة قصائد ما هى بدون هذه ، فصرت إلى أبي نواس فأخبرته ، فتغير لونه ، وقال : لم أخبرته بما قلت ؟ قد والله أجاد ، ولم يقل فيه سوءا .

١٠ — اجتمع مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو الشيص ودعبل في مجلس فقالوا : لينشد كل واحد منكم أجود ما قاله من الشعر فاندفع رجل منهم كان معهم فقال : اسمعوا منى أخبركم بما ينشد كل واحد منكم قبل أن ينشد ، قالوا : هات ، فقال لمسلم : أما أنت يا أبا الوليد فكأنى بك قد أنشدت :

إذا ما علت منا ذؤابة واحد وإن كان ذا حلم دعتة إلى الجهل
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

فقال له مسلم : صدقت ، ثم أقبل على أبي نواس فقال له : كأني بك يا أبا على
قد أنشدت :

لا تبك ليلي ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد
تسقيك من عينها خمرأ ومن يدها خمرأ فداك من سكرين من بد
فقال له : صدقت ، ثم أقبل على دعبل فقال : يا أبا على فكأني بك
تنشد قولك :

أين الشباب وأية سلكا ؟ لا أين يطلب ، ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي
قال : صدقت ، ثم أقبل على أبي الشيص فقال له : وأنت يا أبا جعفر كأني
بك تنشد :

لا تنكري صدى ولا إعراض ليس المقل عن الزمان براض
فقال : لا ، ما هذا أردت ولا هذا بأجود شيء قلته ، قالوا : فأنشدنا
ما بدا لك ، فأنشدهم قوله :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملاحة في هواك لذينة حباً لذكرك فليلني اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا ما من يهون عليك بمن يكرم

وقال أبو خالد العامري لابن المعتز : من أخبرك أنه كان في الدنيا أشعر من
أبي الشيص فكذلك ، والله لكان الشعر عليه أهون من شرب الماء على العطشان ،
وكان من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للولوك ، وليس توجد هذه الصفات
كما ذكر في ديوان شعره ولا هو ساقط ، ولكن هذا سرف شديد .

١١٥ — وقد أكثر أبو نواس من الثورة في شعره على منهج العرب في القصيدة ،
وعاب عليهم بدها بمسألة الأطلال فقال :

هـ صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقال :

لا تبك ليلي ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقال :

سقىا لغير العلياء فالسند وغير أطلال مى بالجرد

وقال :

ياربع شغلك لنى عنك فى شغل لا ناقتى فىك لو تدرى ولا جلى

وقال :

تبكى على طلل الماضين من أسد لادر درك قل لى من بنو أسد
لا جف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

١٢ — وقال بشار فى تأييد إبراهيم بن عبد الله بن حسن حينما خرج على المنصور : نعى فيها على المنصور استبداده فى الرعية ، ونصح إبراهيم أن يقيم حكمه على أساس الشورى :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه فى المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم وأمسى أبو العباس أحلام نانم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى وكان لما أجمرت نزر الجرائم
فأصبحت تجرى سادراً فى طريقهم ولا تتقى أشباه تلك النقايم
تجردت للإسلام تعفو سبيله وتعرى مطاه لليوث الضراغم
فما زالت حتى استنصر الدين أهله فعادوا عليك بالسيف الصوارم
ثم التفت إلى إبراهيم فقال :

أقول لبسام عليه جلالة غدا أريحيا عاشقا البكارم
إذا بلغ رأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينى للضعيف ولا تكن نشوما فإن الحر ليس بنائم

١٣ — ومن روائع المحدثين فى الحكمة أرجوزة أبى العتاهية المزدوجة التى سماها ذوات الامثال ، وتبلغ فى الطول ما لم يبلغه شعر قبلها ، ويقال إن فيها أربعة آلاف مثل ، وقد قال أبو دلف محمد بن هاشم الخزاعى : تذاكروا يوما شعر أبى العتاهية

بحضرة الجاحظ ، إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التي سماها ذوات الأمثال ؛ فأخذ بعض من حضر ينشدها ، حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب
فقال الجاحظ للمنشد : قف ؛ ثم قال انظروا إلى قوله : « روائح الجنة في الشباب » ، فإن له معنى كعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير ، وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه ، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني هذه الأبيات :

حسبك بما تبغيه القوت	ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفا	من اتقى الله رجا وخافا
هي المقادير فلمنى أو فذر	إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
لكل ما يؤذى وإن قل ألم	ما أطول الليل على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله	وخير ذخى المرء حسن فعله
إن الفساد ضده الصلاح	ورب جد جره المزاح
من جعل الثام عيناً هلكا	مبلغك الشر كباغيه لك
إن الشباب والفراغ والجده	مفسدة البرء أى مفسده
يغنيك من كل قبيح تركه	يرتحن الرأى الاصيل شكه
ما عيش من آفته بقاؤه	نقص عيشاً كله فناؤه
يارب من أسخطنا بجده	قد سرنا الله بغير حمده
ما تطلع الشمس ولا تغيب	إلا لأمر شأنه عجب
لكل شىء معدن وجوهر	وأوسط وأصغر وأكبر
من لك بالمحض وكل بمنزج	وساوس والصدر منه تعلاج
وكل شىء لاحق بجوهره	أصغره متصل بأكبره
ما زالت الدنيا لنا دار أذى	ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواج	لذا نتاج ولذا نتاج
من لك بالمحض وليس محض	يخبث بعض ويطيب بعض
لكل انسان طبيعتان	خير وشر وهما ضدان
إنك لو تستنشق الشحيحا	وجدته أنين شىء ربها

والخير والشر إذا ما عدا بينهما بون بعيد جدا
عجبت حتى غمى السكوت صرت كأنى حائر مبهوت
كذا قضى الله فكيف أصنع الصمت إن ضاق الكلام أوسع

موازنات أدبية بين أعلام الشعراء

— ١ —

يقول صاحب المثل السائر ، إنما تقع فيه المفاضلة أن يسلك الشاعران طريقاً واحدة فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين ؛ وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر
١ — فما جاء من ذلك قول أبى تمام فى مريثته لولدين صغيرين :

مجد تأوب طارقاً حتى إذا	قلنا أقام الدهر أصبح راحلاً (١)
نجمان شاء الله ألا يطلعا	إلا ارتداد الطرف حتى يافلا
إن الفجيعة بالرياض نواضرا	لأجل منها بالرياض ذوابلا
لهفى على تلك الشواهد فيهما	لو أخرجت حتى تكون شمائل
إن الهلال إذا رأيت نموه	أيقنت أن سيكون بدرأ كاملا
قل للأمير وإن لقيت موقراً	منه يريب الحادثات حلالاً (٢)
إن ترز فى طرفى نهار واحد	رزأين هاجا لوعة وبلا بلا (٣)
فالثقل ليس مضاعفاً لمطية	إلا إذا ما كان وهماً بازلاً (٤)
لا غرو إن فننان من عيدانه	لقيا حماماً للبرية آكلاً
إن الأشاء إذا أصاب مشذب	منه اتمهل ذراً وأث أسافلاً (٥)

(١) تأوب آتى ليلاً : والطارق الذى يأتى ليلاً .

(٢) د لقيت موقراً منه ، تجريد ؛ ويريب الحادثات يشككها ؛ والحلال

السيد الشجاع .

(٣) ترز : سهات همزته بالقلب ألفا ثم حذفت للجازم ، والبلا بل الوسوس .

(٤) الوهم الجبل الذلول فى ضخامة وقوة ؛ والبازل الذى طلع نابه وذلك فى

التاسعة من سنيه .

(٥) أشاء النخل صفاره واحده أشاءه ؛ والمشذب مصلح الشجر بالقطع ،

اتمهل اعتدل وارتفع ، وأث كثير والتف .

شمخت خلا لك أن يواسيك امرؤ أو أن تذكر ناسيا أو غافلا
إلا مواعظ قادما لك سمحة إسجاح لبك سامعاً أو قائلًا (١)
هل تكلف الأيدي بهز مهند إلا إذا كان الحسام القاصلا (٢)

وقال أبو الطيب في مريثة لطفل صغير (٣) :

فان لك في قبر فانك في الحشا وإن تك طفلا فالأسى ليس بالطفل
ومثلك لا يبكي على قدر سنه ولكن على قدر الفراسة والأصل
ألست من القوم الذي رماحهم ندامهم وعن قتلاهم مهجة البخل
بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن في أعطافه منطق الفصل
تسليمهم علياؤهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل
عزائك سيف الدولة المقتدى به فانك نصل والشدائد للنصل
تخون المنايا عهده في سليله وتنصره بين الفوارس والرجل
بنفسى وليد عاد من بعد حمله إلى بطن أم لا تطرق بالحمل (٤)

بدا وله وعد السحابة بالروى وصد وفيها غلة البلد المحل (٥)
وقد مدت الخيل العتاق عيونها إلى وقت تبديل الركاب من النعل
وربيع له جيش العدو وما مشى وجأشت له الحرب الضروس وما تغلى

فتأمل أيها الناظر إلى ما صنع هذان الشاعران في هذا المقصد الواحد وكيف
هام كل واحد منهما في واد منه مع اتفاقهما في بعض معانيه ، وسأبين ما اتفقا
فيه وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من المفضول فأقول : أما الذى اتفقا فيه فان
أبا تمام قال :

لحنى على تلك الشواهد فيهما لو أخرت حتى تكون شمائلًا
وأما أبو الطيب فانه قال :

بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن في أعطافه منطق الفصل
فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية وهى المطابقة فى

(١) الإسجاح السباحة واللين . (٢) القاصل القاطع .

(٣) ابن لسيف الدولة يسمى عبد الله ويكنى أبا الهيثم .

(٤) يريد بالأم هنا الأرض ومعنى لا تطرق بالحمل لا تخرج الولد من بطنها .

(٥) الروى الماء الكثير يروى وينقع ، والغلة العطش .

قوله صمت اللسان ، ومنطق الفصل . وقال أبو تمام :

نجمان شاء الله ألا يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى يافلا
وقال أبو الطيب :

بدا وله وعد السحابة بالروى وصد وفينا غلة البلد المحل
فوافقه في المعنى وزاد عليه بقوله « وصد وفينا غلة البلد المحل » ، لأنه بين قدر
حاجاتهم إلى وجوده وانتفاعهم بحياته . وأما ما اختلفا فيه فإن أبا الطيب أشعر
فيه من أبي تمام أيضا ، وذلك أن معناه أمتن من معناه ومبناه أحكم من مبناه ،
وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وتقدمه ،
وأبو تمام وإن كان أشعر عندى من أبي الطيب فإن أبا الطيب أشعر منه في هذا
الموضع ، وبيان ذلك أنه قد تقدم القول على ما اتفقا فيه فإن أبا الطيب قال :

عزاؤك سيف الدولة المقتدى به فانك نصل والشدائد للنصل
وهذا البيت بمفرده خير من يبتى أبي تمام اللذين هما :

إن ترز في طرفي نهار واحد رزأين هاجما لوعة وبلا بلا
فالثقل ليس مضاعفا لمطية إلا إذا ما كان وهما بازلا
فإن قول أبي الطيب « والشدائد للنصل » أكرم لفظا ومعنى من قول أبي تمام :
إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا ، وقوله أيضا :

تخون المنايا عهده في سليله وتنصره بين الفوارس والرجل
وهذا أشرف من يبتى أبي تمام اللذين هما :

لا غرو إن فننان من عيدانه لقيما حماما للبرية آكلا
إن الأشياء إذا أصاب مشذب منه اتهمل ذرا وأث أسافلا
وكذلك قال أبو الطيب :

ألست من القوم الذى من رماحهم ندام ومن قنـلام مهجة البخل
تسليمهم علياؤهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

وهذان البيتان خير من يبتى أبي تمام اللذين هما

شمخت خلالك أن يواسيك أمرؤ أو أن تذكر ناسيا أو غافلا
إلا مواعظ قادها لك سمحة إسجاح لبك سامعا أو قانلا

٢ — وما ينتظم بهذا النوع ما توارد عليه أبو عبادة البحتري وأبو الطيب

المتنبى . فى وصف الأسد ، وقصيدتهما مشهورتان فأول إحداهما (١) :
أجذك ما ينفك يسرى لزينا خيال إذا آب الظلام تأوبا
وأول الأخرى (٢) :

فى الخد إن عزم الخليط رحىلا مطر تزيد به الحدود محولا
أما البحرى فانه ألم بطرف مما ذكر بشر بن عوانة فى أبياته الرائية التى أولها
أفاطم لو شهدت بيبطن خبت وقد لاقى الهزير أخاك بشراً (٣)
وهذه الأبيات من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله ، وكل الشعراء لم تسم
قراءتهم إلى استخراج معنى ليس بمذكور فيها ، ولولا خوف الإطالة لأوردتها
بجملتها ، لكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحرى وأبى الطيب فيما أورداه من
المعانى فى هذا المقصد المشار إليه .

فما جاء للبحرى من قصيدته :

وما نقم الحساد إلا أصالة	لديك وفعلأ أريجيا مهذبا
وقد جربوا بالأمس منك عزيمة	فضلت بها السيف الحسام المجربا
غداة لقيت الليث والليث مخدر	يحدد ناباً للقاء ومخلبا
إذا شاء غادى عانة أو غدا على	عقائل سرب أو تقنص ربربا (٤)
شهدت لقد أنصفته يوم تنبرى	له مصلتاً عضباً من البيض مقضباً
فلم أر ضرغامين أصدق منكما	عراكا إذا الهياة النكس كذبا (٥)
هزبراً مشى يبغي هزبراً ، وأغلبا	من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا

(١) هى للبحرى يمدح بها الفتح بن خاقان ويصف مبارزته الأسد .

(٢) هى للمتنبى فى بدر بن عمار وكان قد هاج أسداً عن بقرة افترسها فوثب
الأسد على كفل فرسه فأعجله بضربة من سوطه ودار به الجيش فقتل الأسد

(٣) ذكر البديع قصة بشر هذا فى الملح التى اختتم بها مقاماته وأثبت فيها
القصيدة كاملة .

(٤) العانة الأتان والقطيع من حمر الوحش . والسرب القطيع من الطباء
والربرب القطيع من بقر الوحش .

(٥) الهياة الشديد الخوف ، والنكس بالكسر الضعيف .

أدل بشغب ثم هالته صولة
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا
فلم يغنه أن كمر نحوك مقبلا
حملت عليه السيف ، لا عزمك اثني
وأكد لها أمضى جنانا وأشغبا (١)
وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
ولا يدك ارتدت ، ولا حده نبا

ومما جاء لأبي الطيب المتنبي في قصيدته :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه
ورد إذا ورد البحيرة شاربا
متخضب بدم الفوارس لابس
ما قوبلت عيناه إلا ظنتا
في وحدة الرهبان إلا أنه
يطأ الثرى مترفقا من تبهه
ويرد غفرته إلى يافوخه
قصرت مخافته الخطأ فكأنما
ألقى فريسته وزجر دونها
فتشابه القربان في إقدامه
أسد يرى عضويه فيك كليهما
لمن ادخرت الصارم المصقولا (٢)
ورد الفرات زثيره والنيل (٣)
في غياله من لبدته غيلا
تحت الدجى نار الفريق حلولا (٤)
لا يعرف التحريم والتحילה
فكأنه آس يحس عليلا (٥)
حتى تصير لرأسه إكليلا (٦)
ركب السكى جواده مشكولا (٧)
وقربت قربا خاله تطفيلا
وتخالفا في بذلك المأكولا
متنا أزل وساعدا مفتولا (٨)

(١) الشغب بالفتح ويحرك تهيج الشر .

(٢) يقال عفره إذا رماه في العفر بالتحريك وهو التراب والهزبر السيء الخلق .

(٣) الورد الجريء والبحيرة التي يعينها هنا بحيرة طبرية ، والفرات والنيل

معروفان ، وأولها يقع إلى الشرق منها والثاني إلى الغرب .

(٤) الفريق الجماعة : أكثر من الفرقة ، وحلولا : حالين .

(٥) الآسى الطيب .

(٦) الغفرة شعر العنق . واليا فوخ أعلى الرأس .

(٧) السكى الشجاع المستتر في سلاحه ، وشكل الجواد ربطه بالشكال .

(٨) فسر في العجز العضوين اللذين أرادهما في الصدر ، والأزل الممسوح

القليل اللحم .

ما زال يجمع نفسه في زوره
وكانما غرته عين فادنى
أنف الكريم من الدنية تارك
والعار مضاض وليس بخائف
خذلته قوته وقد كاخته
سمع ابن عمته به وبجاله
وأمر بما فر منه فراره
تلف الذى اتخذ الجراءة خلة
حتى حسبت العرض منه الطولا (١)
لا يبصر الخطب الجليل جليلا
في عينه العدد الكثير قليلا
من حتفه من خاف مما قبيلا
فاستنصر التسليم والتجديلا (٢)
فضى يهول أمس منك مهولا
وكتله ألا يموت قتيلا
وعظ الذى اتخذ الفرار خليلا

فعانى أبو الطيب أكثر عددا وأسد مقصدا ، ألا ترى أن البحترى قد قصر
بمجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح في تشبيهه بالأسد مرة وتفضيله عليه
أخرى ، ولم يأت بشيء سوى ذلك . وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك في بيت واحد
وهو قوله :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا
ثم إنه تغنن في ذكر الأسد فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله في انفراده
في جنسه ، وفي هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته ، وشبه
الممدوح به في الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر
الأنفة والحمية ، التي بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك في
أحسن مخرج وأبرزه في أشرف معنى ، وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات
الرجلين ، عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه . والبحترى وإن كان أفضل من
المتنبي في صوغ الألفاظ وطلاوة السبك ، فالمتنبي أفضل منه في الغوص على المعاني ،
ومما يدل على ذلك ، أنه لم يعرض لما ذكره بشر في أبياته الرائية ، لعله أن
بشرا قد ملك رقاب تلك المعاني واستحوذ عليها ، ولم يترك لغيره شيئا يقوله فيها ؛
ولفظانة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر لأنه
قصر عنه تقصيرا كبيرا ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك هذه
الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزاً .

(١) الزور عظم الصدر .

(٢) التجديل الانطراح على الأرض .

٣ — واعلم أن من أبين البيان في المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصد من المقاصد ، يشتمل على عدة معان كتوارد البحترى والمنتبى هاتما على وصف الأسد ، وهذا أبين في المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا في بيت من الشعر أو في بيتين ، ويصوغه الآخر في مثل ذلك ، فإن بعد المدى يظهر ما في السوابق من الجواهر ، وعنده يتبين ربع الرابع وخسر الخاسر . فإذا شئت أن تعلم فضل ما بين هذين الرجلين فانظر إلى قصيدتيهما في مرأى النساء التي مفتتح إحداها :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب
وهى لآبى الطيب، ومفتتح الأخرى :

غروب دمع من الأجفان ينهمل وحرقة بغليل الحزن تشتعل
وهى للبحترى فإن أبا الطيب انفرد بابتداع ما أتى به في معانى قصيدته والبحترى أتى بما أكثره غث بارد ، والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل ، ومن الواجب أنه إذا سلك الناظم أو الناثر مسلكا في غرض من الأغراض ألا يخرج عنه ، كالذى سلكه هذان الرجلان في الرثاء بامرأة ، فإن حداقة الصنعة أن يذكر هنا ما يليق بالمرأة دون الرجل ، وهذا الموضع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحك إلا أبو الطيب وحده ، وأما غيره من مقلقي الشعراء قديما وحديثا فانهم قصرُوا عنه . وله في هذا المعنى قصيدة أخرى مفتتحها :

نعد المشرفية والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتال (١)

وكفى بهما شاهداً على ما ذكرته من انفراده بالإبداع فيما أتى به . وأبو الطيب أنفذ في المضيق وأعرف باستخراج المعنى الدقيق ؛ وأما البحترى فإنه أعرف بصوغ الألفاظ وحوك ديبا جتها . والحكم بين الشاعرين في اتفاقهما في المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه ، لأنهما مع الاتفاق في المعنى يتبين قولاهما ويظهران ظهوراً يعلم ببديهة النظر ، ويتسارع إليه فهم من ليس بثاقب الفهم ؛ وأما اختلافهما في المعنى فإنه يحتاج في الحكم بينهما فيه إلى كلام طويل يعز فهمه ولا يتفطن له إلا بعض الناس دون بعض ، لا بل لا يتفطن له إلا الفذ الواحد من الناس .

(١) قالها في رثاء والدة سيف الدولة ، وقد توفيت بميفارقين سنة ٣٣٩ وجاهه الخبر بحلب .

— ٢ —

ويقول صاحب المثل السائر عن الشعر في باب السرقات : وكان ختامه على يد
الثلاثة المتأخرين ، وهم أبو تمام والبحترى والمتنبى .. ويعد من باب المعاني الجديدة
قول المتنبى في عضد الدولة وولديه :

وَأنت الشمس تبهر كل عين فكيف وقد بدت معها اثنتان
فعاشا عيشة القمرين يحيا بضوئهما ولا يتحاسدان
ولا ملكا سوى ملك الأعادي ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدو كآثره له يامى حروف أنيسيان

وهذا معنى لأبي الطيب وهو الذي ابتدعه ، أى أن زيادة أولاد عدوك كزيادة
التصغير فإنها زيادة نقص ، وما ينبغى أن يقال إن ابن الرومى ابتدع هذا المعنى
الذى هو :

يشكى المحب ويلبى الدهر شاكيه كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان
فإن علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مبتدع لابن الرومى ، وليس كذلك ،
ولكنه مأخوذ من المثل المضروب وهو قولهم « يلدغ ويصى » ، ويضرب ذلك لمن
يبتدىء بالأذى ثم يشكو ، وإنما ابن الرومى قد ابتدع معانى آخر غير ما ذكرته ،
وليس الغرض أن يوثق على جميع ما جاء به هو وغيره من المعانى المبتدعة ، بل
الغرض أن يبين المعنى المبتدع من غيره .. ومن شعر ابن الخياط بيت فى قصيدة أولها :

خذنا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه

ويزعمون أنه من المعانى الغريبة وهو :

أغار إذا آنست فى الحى أنه حذاراً عليه أن تكون لحبه
وهذا البيت مأخوذ من شعر أبي الطيب المتنبى فى قوله :

لوقلت للدنف المشوق فديته مما به لأغرته بفدائه

وقول أبي الطيب أدق ، معنى وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظاً .. ولعمارة البنى :

فهل درى البيت أنى بعد فرقته ماسرت من حرم إلا إلى حرم

وهذا البيت مأخوذ من شعر أبي تمام فى قوله مادحا لبعض الخلفاء ، فى حجة

حجها ، وذلك بيت من جملة أبيات حسنة :

يامن رأى حرما يسرى إلى حرم طوبى لمستلم يأتى ولملتزم

ثم يقول ابن الأثير : ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأخذت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بجرأ لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تحصى أسماء قائله ؟ ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده وتنشعب مقاصده : ولم أكن من أخذ بالتقليد والتسليم ، في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إبداع المعنى الشريف ، في اللفظ الجزل اللطيف ، فتي وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل . وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس وأبي عبادة الوليد وأبي الطيب المتنبي ، وهؤلاء الثلاثة لات الشعر وعزاه ومنااته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد حوت أشعارهم غزابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء . أما أبو تمام فإنه رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الاغراب ، برز فيه على الاضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقيح ، فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام (١) . فخذ مني في ذلك قول حكيم ، ففوق كل ذى علم عليم . وأما أبو عبادة البحتري فإنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طر في الرقة والجزالة على الاطلاق ، فبينما يكون في شظف نجد ، إذ تشبث بريف العراق ، وسئل أبو الطيب المتنبي عنه وعن أبي تمام وعن نفسه فقال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري ، زلعمرى إنه أنصف في حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة عليه ، فإن أبا عبادة أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بأخلاط الغالية ، ورقى في ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام ، فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنته حظى في شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالابداع في وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولاً لست فيه متأثماً ، ولا منه ملثماً ، وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة ، كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله لك مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ،

(١) امرأة من العرب عرفت بالصدق فيهم حتى ضرب بها المثل .

والسلاحين قد توأصلا ، فطريقه في ذلك تفضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه . ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان ، فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه ومع هذا فأنى رأيت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط ، فاما مفرط في وصفه وإما مفرط ، وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عذرتة ، فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعره ، وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء ، ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداختموا

ولا تبلى بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم
ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى ، وجدته أقساما خمسة ، خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره ، وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره ، وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس في الغاية المتفجرة التي لا يعبأ بها ، وعددها خير من وجودها ، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها ، فإنها هي التي ألبسته لباس الملام ، وجعلت عرضه شارة لسهام الأفوال . وهؤلاء الشعراء الثلاثة لم أعدل إليهم إتفاقا ، وإنما عدلت إليهم نظراً واجتهاداً ، وذلك أنى وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها ، حتى لم أترك ديوانا للشاعر مفلق يثبت شعره على المحك ، إلا عرضته على نظري ، فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة ، ولا أكثر استخراجا منهما للطيف الأغراض والمقاصد ، ولم أجد أحسن تهذيبا للألفاظ من أبي عبادة ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكاً منه ، فاخترت حينئذ دواوينهم ، لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ ، ولما حفظتها أغيت ماسواها ، مع ما بقى على خاطري من غيرها .

أبو العلاء المعري

٣٦٣ - ٤٤٩ هـ - ٩٧٣ - ١٠٥٧ م

أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد سليمان بن داود ، ينتهي نسبه إلى النعمان بن عدى . وهو حكيم العربية وشاعرها الكبير ، كان جده لأبيه سليمان بن داود يلي قضاء المعرة وحمص ومات سنة ٢٩٠ هـ ، فولى بعده أبو بكر محمد بن سليمان عم

(١) لقب النعمان بساطع الجمال ونسبه الأعلى إلى تيم الله إلى قضاء إلى قحطان

أبي العلاء ، فلما مات ولي القضاء بعده أخوه عبد الله بن سليمان والد أبي العلاء ،
فمات سنة ٣٧٧ هـ ، وترك أبا العلاء وأبا المجد محمد بن عبد الله وأبا الهيثم عبد
الواحد بن عبد الله ، وكانوا جميعا من الشعراء . . . وأم أبي العلاء من أسرة بحلب
شهرت بالكرم والعلم ، وهم « آل سيديكة » .

ولد أبو العلاء في يوم الجمعة ٢٨ ربيع الأول عام ٣٦٣ هـ - ٩٧٣ م بمعزة النعمان ،
وكف بصره عام ٣٦٧ هـ على إثر جدري أصابته ذهب يسرى عينيه جملة ، وغشيت
تيناها ببياض ففقدت مافيهما من قوة الإبصار .

درس على أبيه علوم اللغة والنحو والأدب ، ثم رحل إلى حلب حاضرة الحمدانيين ، ثم
إلى إنطاكية وطرابلس الشام حيث أقام فيها عند أخواله . وبدأ يقرض الشعر وهو
في الحادية عشرة من عمره ، وعرف في اللاذقية من الرهبان بعضا من الفلسفة وعلوم
الأوائل وقواعد الأديان . وعاد إلى المعرة بعد أن قضى دراسته في طرابلس ، وتوفي
أبوه وهو في السابعة عشرة من عمره ، فرثاه بشعره ، وعاش بعده على غلة وقف
لأسرته ، كان يدر عليه في السنة ثلاثين دينارا ، دون أن يتكسب بشعره كشعراء
عصره ، ثم رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ طلبا للعلم والثقافة ، ومكث بها إلى رمضان عام
٤٠٠ هـ ، وقدم أول قدومه إلى أبي حامد قصيدة يصف فيها متاعب رحلته ،
ويستعين به على ضيق يده ، ومنها :

وبالعراق رجال قريهم شرف هاجرت في حبيهم رهطى وأشياعى
وقد بهر المعرى الذين اتصل بهم ببغداد بعلبه وكان يسعى إلى دروس العلماء ، ويزور
مكتباتها العامة والخاصة ، ويتصل بمجامعها العلمية والأدبية والفكرية .
ولكن حقد الحاقدين وحسد الحاسدين جعله يرحل من بغداد ، وكذلك
ضيق يده ، وشقاؤه النفسى ، كل ذلك ألجأه إلى العودة للمعرة ، مودعا من أهل
بغداد أجمل وداع ، وبلغه نعي أمه وهو في طريقه إلى المعرة ، فزن أشد الحزن ،
واعزل بعد عودته الناس ، وأقام في داره ، وسمى نفسه رهين المحبين ،
ولكنه فشل في طلب العزلة ، فقد سعى إليه بالمعرة الأمراء والعلماء والادباء
والشعراء والمتكلمون ، وراسله الخلفاء والكبراء فداعت شهرته في الآفاق ، وهجر
أبو العلاء أكل الحيوان والزواج فاتهم بالزندقة ، وظل يعيش في ظلال الهرم
والشيوخة ، حتى توفي في ١٣ ربيع الأول عام ٤٤٩ هـ - ١٠٥٨ .
وكان المعرى شاعرا حكيما من أقدر الشعراء الذين أخضعوا الشعر للفلسفة ، وقد

أضفى التاريخ على اسم أبي العلاء جلالاته ومجدا كان بهما جديرا ، فهو علم من أعلام الأدب ، وشاعر من أنبه الشعراء ، ومؤلف من أكبر المؤلفين . وقد ألف رسالة الغفران ، عام ٤٢٤ هـ في أسلوب قصصى خيالى ، ردا على رسالة ابن القارح التى بعث بها إلى أبي العلاء ، وموضوع رسالة الغفران زيارة خيالية للجنة والنار وحوار طريف بين الأدباء والشعراء والمفكرين وتضمنت الرسالة كثيرا من فلسفة أبي العلاء فى الاخلاق والثقافة والأدب ، وفى الدين والاجتماع ، وفى الشعراء وشعرهم ، ويشابهها فى ذلك الكوميديا الالهية ، لداتى شاعر عصر الإحياء فى ايطاليا

أما ابن القارح فهو أبو الحسن على بن منصور الحلبي ، وتلميذ ابن خالويه وأبى على الفارسي ، أقام فى حلب ثم رحل الى بغداد ومصر ، ورسائله التى ارسل بها من مصر الى أبي العلاء فيها شيء من الهزل والدعابة ، وصور فيها آراءه فى الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين ، كما صور فيها حياته ، وطلب من المعري أن يجيبه عليها ، وكان جواب المعري عليها هو رسالته الخالدة « رسالة الغفران » التى ناقش فيها آراء ابن القارح فى رسالته فى أسلوب جميل من الحوار مع أهل الجنة وأهل النار ، وهو أسلوب جديد فى اللغة العربية .

والمعري ديوانه « اللزوميات » ، وديوان « سقط الزند » ، وبعض المؤلفات الأخرى .

أما مسألة : هل سرق داتى رسالة المعري ؟

فهى مسألة طال حولها الحوار والجدل ، ولم نر دليلا ماديا على السرقة أو على البراءة منها ، ولكن قوما يردونها . . قال الأستاذ محمد كرد على : أن أعمى المعرة كان معلما لنا بة لإيطاليا فى الشعر والخيال . وبعض الباحثين من المستشرقين فى أوروبا على أن داتى فى روايته الالهية قد اقتبسها — ولا سيما الجحيم — من رسالة الغفران للمعري . وقال جورجى زيدان : إن المعري توفى سنة ٤٤٩ هـ وداتى توفى سنة ٧٢٠ هـ ، وملتن الاتجمايى توفى سنة ١٠٨٤ هـ ، فلا بدع إذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه . . وأقدمهما (داتى) لم يظهر إلا بعد احتكاك الافرنج بالمسلمين والإيطاليون أسبق الافرنج إلى ذلك . . ذلك هو رأى جورجى زيدان توسع فيه حتى أدخل ملتن أيضا فى الاقتباس من المعري وحجته تأخر الزمن بداتى وملتن واحتكاك الافرنج بالمسلمين ، وذلك كله لا ينهض دليلا على اقتباس الفكرة ،

ولا يكفي برهاننا على الأخذ؟ والمسألة لا تعدو الحدس والظن. ولما لرى البراهين تنحاز ناحية داتى فتبعده عن الأخذ وعن الاقتباس. فقد بدأ حياته يتعلم الدين، يكمل ثقافته على يد القديس فرانشيسكو، ولقد كان عصره عهد قوة سلطان الباباوات والكنيسة، ولن يقوم هؤلاء سلطان إلا بقوة النزعة الدينية، وإبان ذلك تتكاثر صور الجنة والنار واردة في أخيلة الناس وأذهانهم.. أوليس في نشأته الدينية. وفي عهده الملى بالتعصب الدينى ما يكفي في أن ترد الجنة والنار في خياله؟ على أن فكرة الجنة والنار والنعيم والجحيم تدرر برؤوس الناس منبلج الصباح وأفول الشمس في كل يوم، فهى حق شائع لجميعهم لا يعده الأدباء أخذا، ولو أنهم عدوه لكان كل شعرائنا وأدبائنا سراقا، ولكان امرؤ القيس سارقا لأنه بكى الديار كما بكأها ابن حذام من قبله، إذ يقول امرؤ القيس:

عوجا على الطل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حذام

ولمنا الذى يعده الأدباء سرقة هو أخذ الفكرة النادرة التى ينفرد واحد بها. أو الترتيب الذى لا يستطيعه إلا الشواذ والأفذاذ، فهل سرق داتى الترتيب من رسالة الغفران؟ اللهم لا. فخراس الجحيم فى خيال المعرى ملائكة، وفى خيال داتى شياطين، وأشخاص الرواية عند المعرى شعراء ورواة، وعند داتى رجال دين وعصاة ومذنبون، والجنة عند داتى تسعة أقسام لكل قسم طائفة عملوا الخيرات كل على حسب عمله. وعند المعرى ثلاثة أقسام: دجنة الجن، ودجنة (الرجاز) والجنة الأصلية، وقد بلغ المعرى أسمى خياله لدى وصفه الفردوس، كما كان أخصب النواحي خيالا عند داتى وصف الجحيم.

على أنه إن كان لابد من أن تهتم الشاعر الطليانى بالاقتباس. فأولى أن نعتقد أخذه من فرجيليو الذى كان دليله فى رحلته وهاديه فى ظلمات الجحيم. وفرجيليو هو الآخر رحلة فى أعماق الجحيم هى أقرب لخيال داتى من رسالة الغفران، ولقد كانت لداتى أحلام فيها ملائكة وفيها موتى، هى إرهاب ومقدمة لرسالته العتيدة، فقد رأى فى حلم من الأحلام أنه ضل فى غابة موحشة فأطلت عليه محبوبته بياتريشى فى سحابة من الملائكة وعليها لهب قرمزى كأنه اللهب المتأجج، وخيل إليه أنه يتغافل فى عالم الأموات كما تحدث فى بعض أشعاره قائلا: ها أنذا جالس فى مكانى أذكرها وأذكر أيامها السعيدة، فيلوح لى كأن ملائكة من السماء تهبط من عل، وتأخذ ما كنها على المقاعد الموجودة حولى.

فإذا ضممننا لذلك كله أن حبه ألهمه خيال الجنة ليستمتع بمن أحب ، وأن بغضه لمن حاربوه ونفوه وشرده يوحى إليه أن يتخيلهم في دركات الجحيم ، وأن تلك طبيعة النفس تشره لنيل آمالها ولو عن طريق الخيال ، عرفنا براءته من السرفة . وكان أبو العلاء مفرطاً في الذكاء والفطنة ، ومن ذكاء المعري ما يروى من أنه دخل عليه أبو نصر المنذرى (١) المعري في جماعة من أهل الأدب ، فأنشد كل واحد منهم من شعره ما تيسر ، وأنشده أبو نصر :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه (٢) فحنا علينا حنو الوالدات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا (٣) ألد من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع (٥) حصاه حالية (٦) العذارى فقلس جانب العقد النظيم
فقال أبو العلاء : أنت أشعر من بالشام . ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد ، وأبو العلاء لا يعرف منهم أحداً ، فأنشد كل واحد منهم ما حضره من شعره حتى جاءت نوبة المنذرى فأنشد :

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصفى له ركب تلاحي (٧)
شجى (٨) قلب الخلى فليل : غنى وبرح (٩) بالشجى (١٠) فليل : نأحا
وكم للشوق في أحشاء صب إذا اندملت أجد لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى وسكران الفؤاد وإن تصاحى
بذاك بنو الهوى سكرى صحاة كأحداق الممها مرضى صحاحا
فقال أبو العلاء : ومن بالعراق - عطفاً على قوله : من بالشام - ! ولكن الشعر الأول يروى لغير المنذرى كما يعلم شدة الأدب ودارسوه .

(١) المستطرف ٦٤ ج ١ - والأبيات مشهورة لحدونة الأندلسية

(٢) الدوح : جمع دوحه : الشجرة العظيمة من أى شجر كان .

(٣) ماء زلال : عذب (٤) المدامة : الخمر (٥) يروع : يفزع

(٦) حليت المرأة : صارت ذات حلى فهي حليلة وحالية

(٧) تلاحي : تنازع (٨) شجاء : أطربه

(٩) برح به الأمر : جهده (١٠) الشجى : الحزين

الأمير الشاعر ابن سنان الخفاجي

٤٢٢ - ٤٦٦

- ١ -

عاش ابن سنان في حلب ، وتنقل بين ربوع الشام وأمبراطورية الروم ، وورث النزعات الأدبية عن أسرته العربية الصميمة ، وعن البيئة الأدبية الخصبية التي عاش فيها . فحلب كانت عاصمة سيف الدولة الحمداني (٣٠٣ - ٣٥٦ هـ) ، وعاصمة دولة الحمدانيين عامة ، وكانت تموج في عهدهم بالعلماء والفلاسفة والأدباء والكتاب والشعراء والخطباء . عاش فيها المتنبي حقبة من الزمن ، ونشأ وعاش فيها أبو فراس الحمداني الشاعر م ٣٥٧ هـ ، وأبو عبد الله الحسين بن خالويه م ٣٧٠ وأصله من همدان واستوطن حلباً .. كما أقام فيها حيناً أبو الفتح عثمان بن جني م ٣٩٢ هـ ، والفارابي الفيلسوف م ٣٣٩ هـ . ومن شعرائها : النامي ، والناشيء الأصغر ، وأبو القاسم الزاهي ، وأبو الفرج البغواء ، وكثير من أمراء العرب من بني حمدان وبني عامر وبني عقيل وخفاجة .

وبجوار حلب في معرة النعمان ولد ونشأ وعاش المعري الشاعر الفيلسوف م ٤٤٩ هـ وهو الذي تتلمذ عليه ابن سنان . هذا فضلاً عن بيئة الشام الأدبية عامة ، ومن خفلت بهم من أعلام الأدب والشعر والخطابة : كأبي طالب الرقي والخليع الشامي ، وأبي الفرج الوأواء الدمشقي ، وعبد المحسن الصوري ، وأبي الرقعمق ، وسواهم من الشعراء والأدباء . . . وكان عبد الرحيم بن نباتة م ٤٠٥ هـ خطيب جيوش سيف الدولة المفوه .

فلا عجب أن تبعث هذه البيئة الأدبية في نفس ابن سنان حب الأدب وتذوقه والاجادة في نظمه . أما الذي ربي في نفس ابن سنان حب النقد والبلاغة وملسكة التأليف فيها فهو اتصاله بأستاذه المعري ، وعكوفه على كتب الأدب القديمة قراءة وفهما وتذوقاً : كاليان والتبيين للجاحظ ونقد النثر والموازنة للأمدى ، والوساطة للقاضي الجرجاني ، والبلاغة وإعجاز القرآن للرماني ، والصناعتين لأبي هلال العسكري ، وإعجاز القرآن للباقلاني . فوق تأثره ببحوث المتكلمين في إعجاز القرآن الكريم وفصاحته . فلا بدع أن يكون ابن سنان بعد ذلك كله أديباً ملهماً وشاعراً مطبوعاً ، وناقداً موهوباً ، وعلماً من الأعلام في النقد والبلاغة والبيان .

— ٢ —

وابن سنان كما يدل عليه كتابه سر الفصاحة ناقد متماز ، تشهد بذلك آراؤه وأحكامه الأدبية في هذا الكتاب ، وإذا ذكرنا الموازنة والوساطة والصناعتين فلا بد أن نذكر معها سر الفصاحة لابن سنان ، وله فوق ذلك منزلة كبيرة في البلاغة ، فإذا كان ابن المعتز قد ألف كتابه البديع ، وقدامة قد ألف نقد الشعر ، وأبو هلال قد ألف الصناعتين ، وابن رشيق قد ألف العمدة ، فحسبنا أن نذكر ابن سنان ومؤلفه القيم « سر الفصاحة » ، فإنه حلقة بين هذه الكتب وبين كتب عبد القاهر والسكاكي ومدرسته ، فابن سنان كعبد القاهر : كلاهما بنى البلاغة العربية صرحاً شاهقاً تعز به وتفخر ، وكلاهما أقام بحوثه للبلاغة على نهج جديد ، كان أساساً لبحوث البلاغيين من بعد ، وإذا كانت الفكرة الأولى عند عبد القاهر حين ألف في البلاغة هي الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن الكريم وحقيقته فإنها كذلك هي الفكرة التي كانت تسيطر على عقل ابن سنان وتفكيره ، وكلا الرجلين ابتدأ بقضية الإعجاز ، وخرج منها صفر اليدين ، لم يمتد إلى أمنيته المنشودة ولكن ابن سنان يرى أن سر الإعجاز هو صرف الله الناس عن الاتيان بمثل القرآن الكريم ، وعبد القاهر يرى أن سره هو دقائق ولطائف في نظم القرآن الكريم أعجزت القائلين وأسكتت صوت المتحدين ؛ أو قل إن سر الإعجاز الدفين عنده هو بلاغة القرآن الكريم بكل ما تحتوى عليه هذه الكلمات من معان

— ٣ —

وقد ترجم له صاحب فوات الوفيات ، فقال : عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان ، أبو محمد الخفاجي الشاعر الأديب ، كان يرى رأى الشيعة ، وكان قد عصى بقلعة عزاز من أعمال حلب ، وكان بينه وبين أبي نصر محمد بن الحسن بن النحاس الوزير لمحمود بن صالح مودة مؤكدة ، فأمر محمود أبا نصر بن النحاس أن يكتب إلى الخفاجي كتاباً يستعطفه ويؤنسه ، وقال لا يأمن إلا إليك ، ولا يثق إلا بك ، فكتب إليه كتاباً ، فلما فرغ منه وكتب إن شاء الله تعالى شدد النون من إن ، فلما قرأه الخفاجي خرج من عزاز قاصداً حلب ، فلما كان في الطريق أعاد النظر في الكتاب ، فلما رأى التشديد على النون أمسك رأس فرسه ، وفكر في نفسه ، وقال : إن ابن النحاس لم يكتب هذا عبثاً ، فلاح له أنه أراد أن المملأ يأترون بك ليقتلوك ، فعاد إلى عزاز ،

وكتب الجواب : أنا الخادم المعترف بإنعام ، وكسر الألف من أنا وشدد النون وفتحها ، فلما وقف أبو نصر على ذلك سر وعلم أنه قصد به دإنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، وكتب الجواب يستصوب رأيه ، فكتب إليه الخفاجي :

خف من أمنت ولا تركز إلى أحد فـ نصحتك إلا بعد تجريب
إن كانت الترك فيهم غير وافية فـ تزيد على غدر الأعراب
تمسكوا بوصايا اللوم بينهم — وكاد أن يدرسوها في المحارب

واستدعى محمود أبا نصر بن النحاس ، وقال : أنت أشرت على بتولية الخفاجي وما أعرفه إلا منك ، ومتى لم يفرغ بالي منه قتلته ، وألحقت بك جميع من بينك وبينه صلة وحرمة ، فقال له : مرني بأمر أمثله ، قال : تمضي إليه وفي صحبتك ثلاثون فارساً ، فإذا قاربته عرفه بحضورك ، فإنه يلتقيك ، فإذا حضر سالك النزول عنده والأكل معه ، فامتنع ؟ وقل له : إني حلفتك أن لا تأكل زاده ، ولا تحضر مجلسه حتى يطعمك في الحضور عندي ، وطاوله في الحديث وأخرج هذه الخشكانجتين فكل أنت هذه ، وأطعمه هذه ، فإذا استوفى أكلها عجل الحضور إلى ، فإن منيته فيها ، نفعل ما أمره به ، ولما أكلها الخفاجي رجع أبو نصر إلى حلب ورجع الخفاجي إلى عزاز ، ولما استقر بها وجد مغصاً شديداً ، ورعدة شديدة ، فقال : قتلني والله يا أخي أبو نصر ، ثم أمر بالركوب خلفه ورده ، ففاتهم ، ووصل إلى حلب ، وصبح من الغد محمود ، فجاءه من عزاز (١) من أخبره أن الخفاجي في الرمي الأخير ، ومات . وكانت وفاته في سنة ٤٦٦ هـ ، وحمل إلى حلب (٢) .

(١) بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب . بينهما يوم ، وهي طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة لا يوجد فيها عقرب وليس بها شيء من الهوام (٦/١٦٧ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦) . وجاء في معجم البلدان لياقوت عند ذكر حلب من رسالة لابن بطلان كتبها سنة ٤٤٠ هـ ما نصه : وفيها حدث يعرف بأبي محمد بن سنان قد ناهز العشرين ، وعلا في الشعر طبقة المحنسين ، فمن قوله :

إذا هجوتكم لم أخش صولتكم وإن مدحت فكيف الرى باللهب
خين لم ألق لا خوفاً ولا طمعاً رغبت في الهجو إشفاقاً من الكذب

(٣١٣ ج ٣ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦)

(٢) ٣٩٧ — ١/٣٠٠ فوات الوفيات لابن شاكر ط ١٢٨٢ هـ — وراجع

ترجمة ابن سنان بإفاضة في كتابي د بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي ،

— ٤ —

وثقافة ابن سنان ثقافة واسعة متنوعة . فهو أديب ملم بالأدب متذوق له، وهو علم من أعلام النقد الأدبي كما يتجلى ذلك من كتابه سر الفصاحة ، وهو شاعر مبدع ملهم تتجلى في شعره سمات الشعاعية المجددة الساحرة ، وهو فوق ذلك كله عالم ملم بشتى العقائد والفلسفات والمذاهب العقلية والدينية كما يتجلى ذلك في كتابه «سر الفصاحة» وفي كثير من شعره ، وكان ينتصر للرأى القائل بأن سبب إعجاز القرآن هو أن الله عز وجل صرف العرب وسواهم عن معارضته وقد أيد هذا الرأى في كتابه سر الفصاحة وألف فيه كتابا سماه الصرفة (١) . وهو فوق ذلك العلم الغز في البلاغة ، وكتابه يعد أول تأليف مفصل في علوم البلاغة والبيان وأجمع دراسة لشتى ألوان البلاغة وفنونها وصورها وجميع أسبابها من اللفظ والمعنى والتأليف والنظم ، وكل هذه الثقافات تدل على عقلية واسعة عميقة ولا شك أن ما نماها فيه تلبذته على أستاذه أبى العلاء وسواه من علماء العربية وأدبائها، فوق عكوفه على المطالعة والقراءة والبحث والتأليف ، وفي أستاذه المعرى يقول من قصيدة رثى بها جماعة من أهله وأصدقائه :

ومقما على المعرة تطويه اللىالى وذكره منشور (٢)

وقد ألف ابن سنان الكتب الآتية :

١ — سر الفصاحة .

٢ — كتاب الصرفة ذكر فيه قضية إعجاز القرآن وأن سبب الإعجاز هو صرف الله العرب عن معارضته (٣) .

ومذهب الصرفة ينسب إلى إبراهيم بن سيار النظام المعتزلى وقد جرى الكلام به على السنة قوم قبله من أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار المعتزلى البغدادى . وكان الجعد ابن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين يقول قولا قريبا من ذلك . وقد رجع هذا المذهب ابن سنان في كتابه .

٣ — وله ديوان شعر صغير، إلى غير ذلك من كتبه المفقودة .

— ٥ —

وابن سنان شاعر مشهور وله ديوان شعر يقع فى ست عشرة ومائة صفحة.

(١) راجع ١٣٩ ج ٣ معجم الأدباء وقد نقل عنه ياقوت .

(٢) ص ٣٥ من الديوان . (٣) ١٣٩ ج ٣ معجم الأدباء .

ويمتاز شعره بامتلائه بالمعاني والأفكار العقلية وبقوته وجمال العاطفة فيه وظهور شخصية الشاعر وغلبتها عليه ، وسندرسه دراسة واسعة في كتاب مستقل إذا وفق الله . ونشير في هذا المقام إلى أن البارودي قد جعل في مختاراته ابن سنان من الشعراء الذين نقل عنهم من شعرهم . وكان من الشعراء الذين عاصروا ابن سنان في حلب : أبو الفتح بن أبي حصينة المتوفى عام ٤٥٦ (راجع ١٨٨ ج ٤ أعلام النبلاء) ، ومنهم أبو العباس الملقب بالمشكور (راجع ٣٣٣ و ٣٣٤ ج ١ أعلام النبلاء) وسواهما من الشعراء . ومن ديوانه نسخة خطية بدار الكتب وطبع الديوان ببيروت في ١١٦ صفحة . وشعر ابن سنان الخفاجي كله مختار جيد لا سيما ما نظمه من بعد عصر صباه وهو مظهر لشخصيته في يأسه وأمله وفقره وغناه وظفره وفشله وفي فضائله الخلقية السكرية وفي طموحه البعيد الثواب وفي نظاراته الفلسفية التي استمدتها من أستاذه أبي العلاء . وهو في رثائه وفي عتابه وفي غزله وفي مدحه وفي وصفه وفي التعبير عن وجدانه وعواطفه ، رائع بالغ حدود الجمال الفني والعاطفي . ولا مانع من أن نعرض هنا عدة نماذج لشعر ابن سنان . قال الخفاجي :

أيها النوم ويحكم قد حملنا عنكم السهرا
نحن في ظلماء داجية ما لها صبح فينتظر
فجرها والصبر بعدهم ما سمعنا عنهما خبرا
وقال من قصيدة يرثي بها جماعة من أهله وأصدقائه :

طلب الآمن في الزمان عسير	وحديث المنى خداع وزور
لا تظن الفقيد أفرد البين	فقد أعجل المقيم المسير
إن في جانب المقطم مهجورا	ومن أجله تزار القبور
ومقيا على المعرة (١) تطويه	الليالي وذكره منشور
وضريحين بالعواصم مبدولين	والصبر عنهما محذور
وغريبا بالدير بان له العيش	وغاض الندى ومات السرور
صارم فلت النوائب حديه	وغصن تحت الثرى مهجور
أيها الظاعنون لا زال	للغيث رواح عليكم وبكور
لست أرضى بالدمع فيكم فهل	يملك رى البحور إلا البحور
قد رأينا دياركم وعليها	أثر من عفاتكم مهجور

وسألنا أطلالها فأجابت
 عرصات كأنهن ليال
 ياديار الأحباب غيرك الدهر
 أين أيامنا بظلك والشمل
 نشوة أعقبت خماراً من الهم
 يانجوم العلى غربتم وما فى
 حال عما عهدتموه ولم
 وعفا الجود فالكريم بخيل
 لا يجاوركم الصعيد بسوء
 وسقام من السحاب صناع
 ما أرى الشعر كافياً فى مرثيتكم
 وقال :

يا خجلنى للطيف لما سرى
 زيارة ضاعت ولكنها
 وقال :

لى راحة يفرق منها الغنى
 لا بد أن أعمرها بالقنا
 لأن ما ينزلها يستباح
 فطالما أفقرتها بالسباح

وقال :

تجاهلت حتى أنكرتني خفاجة
 وقالت : وهل ضل الأعز المشيع ؟
 وقال فى صباه :

وحى من خفاجة رحت فيه
 أباح الخمر فيه حى هموى
 على جزءاء حالية الأديم
 فأشربها وتفتك بالنديم

وقال فى مقامه بديار بكر من قصيدة طويلة :

سقى الهضبة الأدماء من أرعن جوشن
 وحل عقود المزن فى حجراته
 سحائب تسدى روضه وتثير
 نسيم بأدواء القلوب خبير
 فما ذكرته النفس إلا تبادرت
 مدايح لا يخفى بهن ضمير

وقال ابن سنان :

هل تسمعون شكاية من عاتب
أم كل ما يتلو الصديق عليكم
أما الوشاة فقد أصابوا عندكم
فللتم من صابر ، ورقدتم
أو تقبلون إناية من نائب
في جانب وقلوبكم في جانب
سوقا تنفق كل قول كاذب
عن ساهر وزهدتم في راغب

وقال على مذهب لزوم ما لا يلزم :

مضى الصبا وأناس في الصبا غرقوا
ولو عقلت لما عنيت بعدهم
وكننت في جانب الغبراء معتزلا
لا أطلب الرزق من سيف ومن قلم
أقول حقاً ولكني أخالفه
أستودع الله إطرابي وأترابي
نفسى وأتعبت آرابي وآرابي
عزى قنوعى وحصى ظل محرابي
ولا أفكر في روم وأعراب
ولو عقلت لكان الصمت أحرى به

وقال :

من مبلغ اللوام أن مطامعى
ركضت على أعراضهم وهى التى
مالى أجادب كل وقت معرضا
وأقيم سوق المجد فى نادىهم
أرأيت أضيع من كريم راغب
ومعسر بركابه فى منزل
عكس الأنام فإن سمعت بناقص
وتفاوت الأرزاق أوجب فىهم
ومعدد فى الفخر طارف ماله
طوقته بأوابد ولطالما
مهلا فإنك ماتعد «مباركا»
بيت له النسب الجلى ، وغيره

وقال :

استغفر الله لا غفر ولا شرف
كأنما نحن فى ظلماء داجية
ولا وفاء ولا دين ولا أدب
فليس ترفع عن أبصارنا السجف

تزيد بالبحث جهلا إن طلبت هدى
وفي الفلاسفة الماضين .عتبر
وقد أتوك بمن من حديثهم
ظن بعيد وأقوال ملفقة
الامر أكبر من فكر يحيط به
أعظم بدائك إن حاولت واضحة
جاءت أحاديث عن قوم أظنهم
يدين قوم بأن الشهب خالدة
وما رضيت بعقلي في جدالهم
ورب قوم أضاعوني وقد فهموا

وهل يضيء لعين المدلج السدف
فطالما قصدوا فيها وما عسفوا
يكاد يضحك منه الخبر والصحف
تخفى على الغمر أحيانا وتنكشف
والعمر أقصر أن يلقي له طرف
ومت به فعلى هذا مضى السلف
عاشوا طويلا وقالوا بعد ما خرفوا
وعند قوم لها وقت ومنصرف
ولا توهمت إلا غير ما وصفوا
قدرى فما أنكر وأفضلى ولا اعترفوا

وقال على طريق الشعر المعروف باستغفر واستغفرى :

استغفر الله القديم وعذبه
وافعل جميلا لا يضيع لك صنعه
واقنع ففى عيش القناعة نعمة
لا تركن إلى المراء فإنه
عاذت بنو حواء من إبليس فى الد
درسوا العلوم ليعملوا بجدالهم
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة
إيوان كسرى صار مرتع ثلة
والخيرة البيضاء بدل أنسها
يا عقل مالك فى اللطائف منهج
عندى لقد ذهب الذين تفكروا
ما قول بطليموس عنها حجة
جار الأنام فلا دلالة ناظر
لا تحفلن بما حوته صحائف

من شر عاو فى الحطام منافس
واسمح بقوتك للضعيف البائس
لا تتقى كفى الزمان الخالس
سبب لكل تنافر وتشاءس
نيا وكم فيهم قنسون أبالس
فيها صدور مراتب ومجالس
فى أخذ مال مساجد وكنائس (١)
ودياره باتت مناخ عرائس
قدر أطاعته مدائن فارس
فإذا عثرت فلا لها للناعس
فيها وما ظفروا بغير وساوس
عندى ولا المروى من رسطالس
تشقى العقول ولا إمارة قابس
لهم وإن وجدت بخط دارس

(١) وينسب هذا البيت والذي قبله لابن خفاجة الأندلسى (راجع ديوان

ابن خفاجة شاعر الأندلس م ٥٣٣ طبعة سنة ١٢٦٦ بمصر ص ٧٨) .

عجبا لهمام ينازع خصمه في آل يربوع وأسرة حابس
هيئات ما شريف الأصول بنافع حتى يكون ذوائب كمغارس
لا تفخرن وإن فضلت فبالتقى ناضل ، وفي بذل المكارم نافس

أسامة بن منقذ

ولد أسامة في يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ هـ - يولييه سنة ١٠٩٥ م ، من أسرة توارثت إمارة شيزر ، وهي مدينة في الشمال الغربي لحما تبعد عنها خمسة عشر ميلا ، وتقع على هضبة يحيط بها نهر العاصي من جهات ثلاث ، وتنهض فيها قلعة شاذخة حصينة ، وكان لهذه القلعة قيمتها في عصر الحروب الصليبية لمركزها الحربي الحصين ، ومكانها بين الولايات السورية ، فكانت مطمح الطامعين من أمراء المسلمين والصليبيين . ولد أسامة لأب صالح ، يقضى وقته بين تلاوة القرآن ، والصيد في النهار ، ونسخ كتاب الله في الليل ، والدة شهرت بالشجاعة ، والنخوة ، والاقدام ، وقد مكره والده منذ صغره يقتحم الأخطار ، ويركب الصعب من الأمور ، فلا ينهيه عن أن يمضى إلى عمل يريده أو عقبة يقتحمها وهو ثابت رابط الجأش ، ولا يحول بينه وبين مصارعة الأسود بشيزر ، وقتل ما يصرفه منها . . . وهكذا شب جريئا لا يهاب . وبما ساعده على ذلك أنه كان يشترك مع أبيه في رياضته المفضلة عنده ، وهي الصيد .

ومع هذه النشأة التي تعد للحرب والنضال تلقى أسامة الثقافة التي كان يتلقاها الأمراء في ذلك العصر ، فدرس الحديث والآداب والفقه والنحو واللغة وحفظ الكثير من الشعر ، وأخذ من ذلك بنصيب واف يشهد له به كتبه وما ضمننت من أحاديث كثيرة منوعة الأغراض

كان أسامة أثيرا لدى عمه أبي العساكر سلطان حاكم شيزر ، ولما لم يكن له عقب اتخذ أسامة أبناله ، وكان يرى فيه أمير المستقبل لشيزر ، ووارث الملك من بعده فكان يكافئه من الأمور ما يتطلب شجاعة وجراً . واشترك أسامة في المعارك التي دارت بين أسرته وبين الصليبيين دفاعا عن مدينتهم شيزر . وعاش أسامة في تلك المدينة بين حب والده وعطف عمه ، غير أن هذا لم يلبث بعد أن رزق أولادا في آخر أمره ، أن دب الوهن والفتور إلى العلاقة التي تربطه بأسامة بدلا من حبه وعطفه عليه ، وبدأ الحسد والحقد يأخذان مكانهما من قلبه خوفا على أولاده من

مكانة أسامة ، وحذرا أن يتول الملك إليه دونهم ، ففضى أسامة إلى الموصل لدى عماد الدين زنكي الذي صار أكبر أبطال الحروب الصليبية في وقته وأول خطر حقيقي داهم للصليبيين ، فانتظم أسامة في جنده وحارب تحت قيادته في عدة معارك ، ولكنه لم ينس وطنه الأول شيزر عند ما هاجمه الفرنج والروم سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٨ م ، فقد مضى إليه وأبلى بلاء حسنا في الدفاع عنه . وربما كان قد عزم على البقاء في شيزر بين أهله الذين فقدوا والده سنة ٥٣١ هـ ، غير أن عمه أبا العساكر لم يرض عن مقام أسامة بشيزر فقد أيقن أنه أصبح خطرا على ملكه وأن ليس لأبنائه سلامة إذا ظل أسامة في شيزر ، فأمره وإخوته بالرحيل فتشتوا في البلاد ، وكان في ذلك الخير لهم ، فإنهم نجوا من الزلازل التي هدمت شيزر وقضت على بني منقذ بأسرهم وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢ هـ .

مضى أسامة يوم أخرج من شيزر إلى دمشق ، واتصل بحاكمها مهين الدين ، واعتمد هذا الحاكم على أسامة في تصريف أمور رعيته بدمشق . ثم سافر إلى القاهرة عام ٥٣٩ هـ ، وبعد حين عاد لدمشق ، وتوفي بها عام ٥٧٨ هـ - ١١٨٨ م وقد ترك أسامة عدة كتب منها :

- ١ — كتاب الاعتبار .
- ٢ — كتاب لباب الآداب .
- ٣ — كتاب العصا ، وقد أورد فيه شواهد نثرية وشعرية تتحدث عن العصا منذ عرفت في التاريخ ، وأثبت فيه أيضاً كثيراً من شعره .
- ٤ — كتاب البديع ، وقد جمع فيه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين ، المصنفة في نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه ، وقد انتقد هذا الكتاب ابن أبي الإصبع في كتاب بدائع القرآن ، ومن الكتاب نسخة خطية بدار الكتب .
- ٥ — كتاب المنازل والديار ، قالت عنه دائرة المعارف الإسلامية : إنه ترجمة كتبها عن نفسه عام ٥٦٨ هـ - ١١٧٢ م في أثناء إقامته في حصن كيفا ، والدافع له على كتابته زلزال أغسطس سنة ١١٥٧ م ، وهو يتضمن شواهد شعرية كثيرة عن المنازل والديار والاطلال والربوع والدمع والرسوم وغيرها ، وبالمتحف الآسيوي بلنغراد نسخة منه .

٦ — مختصر مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي .

٧ — مختصر مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي أيضا .. والكتابان

مخطوطان بدار الكتب .

- ٨ — تاريخ القلاع والحصون .
 ٩ — أخبار النساء .
 ١٠ — التاريخ البدرى ، وقد جمع فيه أسماء من شهد بدرأ من الفريقين .
 ١١ — التجائر المربحة والمساعي المنجحة .
 ١٢ — النوم والأحلام .
 ١٣ — الشيب والشباب .
 ١٤ — التأسي والتسلى .
 ١٥ — ذيل يتيمة الدهر .
 ١٦ — أخبار النساء .
 ١٧ — نصيحة الرعاة .

ومن شعر أسامة :

أشكو زماناً قضى بالجور فى ، ولم يزل يحور على مثلى ويعتسف
 وقد دعوتك مظلوما ومرتجيا وفى يدك الغنى والعدل والخلف
 ومنه :

والندى طبعك الكريم ، فما أه فى نوالا تنيله وتثيب
 جاءنى والبعاد دونى كما جا بت فيافى البلاد ربح هبوب
 وعجيب أن المواهب تسرى ويقم المسترفد الموهوب
 ومن شعره أيضا :

لما رأيت صروف ه ذا الدهر تلعب بالبرايا
 يعلو بها هذا ، ويهبط ذا ، وقصرهم المنايا
 ورأيت مسترجعا نزر المواهب والعطايا
 متغايروا الأحوال تلف الضرائب والسجايا
 لآنمة فيه تدوم به البلايا
 لم أغتبط فيه بفا ندة ، ولم أخش الرزايا

وقال :

إذ ما عدا خطب من الدهر فاضطرب فإن الليالي بالخطوب حوامل
فكل الذى يأتى به الدهر زائل سريعا ، فلا تجزع لما هو زائل

وقال :

والذى أوهم عيني أن فى النوم قذاها
يا ملولا قلبا استرعى عهدا ، فرعاها
يا ظلوما كلبا استعطفته ، صدوتاها
زدت فى تيهك والشئ إذا زاد تنهاى
تنقضى دولة الحسن ، وإن طال مداها
راحتى لو سمع الشكوى إليه ، ووعاها
غير أن الصم لا تسمع دعوى من دعاها
وهو لو نادى عظامى رمة لى صـداها

تراجم الأدباء والكتاب والنقاد

الأصمعي الناقد الراوية

هو الامام أبو سعيد عبد الملك بن قريب (١٢٢ - ٥٢١٦ هـ) ، ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار ، وكان راوية اللغة والأدب ، ذواقة للشعر ، وإماما في الأخبار والنوارد والملح والغرائب ، وكان كثير الحفظ حتى قيل إنه كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة ، وأنه لم يكن يدعى شيئا من العلوم إلا وله به معرفة تامة . . وكان حسن العبارة والرواية . . وهو من أهل البصرة ، قدم بغداد في أيام الرشيد ، وكان المأمون يحله ويكبره ، وطلبه أن يأتي إليه فلم يفعل ، واحتج بكبره وضعفه فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويرسل به إليه ليجيب عنه . وتوفي بالبصرة وقيل بمرو .

وينسب الأصمعي إلى جده أصمع ، وهو من قيس . . ونشأ بالبصرة وتأدب على علمائها وأتمتها ، وكان يقول : « أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة » ، وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر . . وقد امتاز بطلاوة الأسلوب وجمال الحديث وحلاوة التعبير ، حتى قال الشافعي فيه : « ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي » . . وسئل أبو نواس عنه وعن أبي عبيدة (١) فقال : أما أبو عبيدة فاذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعي فلبيل يطربهم بنغماته . . وكان ثقة في روايته وأثنى عليه الشافعي وأحمد بن حنبل ووصفوه بالصدق ، وكان يفضل خلفا (٢) في علم الشعر ونقده ، وكان مقصرا في العروض . . وكان إسحاق الموصلي يعظمه ويأخذ عنه ويتتلمذ له .

(١) هو معمر بن المثنى التميمي بالولاء (١١٤ - ٥٢٠٨ هـ) ، أخذ عن يونس وأبي عمرو بن العلاء وأخذ عنه كثير من الأعلام . . وكان من أعلم الناس باللغة وأخبار العرب وأنسابها ، وهو أول من صنف في غريب الحديث ، وكان أعلم الناس بالانساب والأيام ، وكان أبو نواس يتتلمذ عليه ، قدم بغداد من البصرة في عهد الرشيد . . وله مصنفات كثيرة .

(٢) هو خلف الأحمر المتوفى عام ١٨٢ هـ الراوية الأديب الناقد المشهور .

وقد تتلمذ الأصمعي على أشياخ عصره ، من مثل عبد الله بن عون وشعبة بن الحجاج وحماد بن سلمة وحماد بن زيد والخليل بن أحمد . . وتتلمذ عليه جمهور كثير من الرواة ، وفي مقدمتهم ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله وأبو عبيد بن القاسم بن سلام وأبو حاتم السجستاني وأبو الفضل الرياشي وأحمد بن محمد اليزيدي ونصر بن علي الجهمضي ، والتوزي وسواهم .
وللأصمعي مؤلفات كثيرة بعضها لا يزال مخطوطا ، ومنها كتاب معاني الشعر (٣) وكتاب الأجناس ، وكتاب الأنواء وكتاب ، الصفات ، وكتاب الميسر والقдах وكتاب جزيرة العرب ، وكتاب الغريب وهو مخطوط في الاسكوريال ، وكتاب رجز العجاج وهو مخطوط بدار الكتب المصرية . . وما طبع من آثار الأصمعي هذه الكتب :

- ١ — كتاب النخل والسكرم — طبع بيروت عام ١٩٠٢
- ٢ — كتاب النبات والشجر — طبع بيروت مع مجموعة من كتبه
- ٣ — كتاب الفرق — وهو مطبوع بفيينا
- ٤ — كتاب الدارات — مطبوع بيروت في مجموعة من كتبه
- ٥ — كتاب الشاء مطبوع عام ١٨٩٦م
- ٦ — كتاب الخيل — مطبوع بفيينا
- ٧ — كتاب خلق الإنسان وهو مطبوع بيروت مع مجموعة من كتبه .
- ٨ — كتاب الابل — مطبوع في بيروت
- ٩ — كتاب أسماء الوحوش — مطبوع
- ١٠ — كتاب الأصمعيات وهو مجموع مختارات من الشعر ، طبعت في لبسك سنة ١٩٠٢ .

ولما توفي الأصمعي رثاه بعض الشعراء بهذه الابيات :

أسفت لفقد الأصمعي لقد مضى حميدا له في كل صالحة سهم
تقصت بشاشات المجالس بعده وودعنا إذ ودع الانس والعلم
وقد كان نجم العلم فينا حياته فلما انقضت أيامه أفل النجم
ويقول فيه الشريشي شارح المقامات : د كان الأصمعي حافظا عالما فطنا
بارعا بأشعار العرب وأخبارها ، كثير التطوف بالبوادي لاقتباس علومها ، وتلقى

أخبارها ، فهو صاحب غرائب الأشعار وعجائب الأخبار ، وقدوة الفضلاء وقبله الأدباء ، قد استولى على الغايات في حفظ اللغات ، وضبط العلوم الأدبيات ، صاحب دين متين ، وعقل رصين ، وكان خاصا بالرشيد ، آخذا لصلاته .

وللأصمى كتاب « فحولة الشعراء » وهو كتاب فريد في بابه وموضوعه ، وهو أساس لكتب النقد التي ألفت بعد عصر الأصمى ... وقد عثرنا على نسخة خطية من الكتاب في مكتبة الأزهر ضمن مجموعة محفوظة برقم ١١٨١ مجاميع أباطة ٦٣٢٣ ، كما عثرنا على نسخة خطية أخرى من الكتاب في المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية ، وقد نسخت عام ١٣٣٩ هـ عن نسخة مكتبة الأزهر غالبا ، لأنها النسخة الوحيدة القديمة المخطوطة في مكتبات مصر ، والذي نسخها هو محمد أبو العينين عطية ، وخطها خط النسخ الواسع الجميد ، وقد توليت أنا وزميلي الاستاذ طه محمد الزيني نشر الكتاب عام ١٩٥٣ لأول مرة .

وهو ثابت النسبة للأصمى ، وقد نقل المرزباني عنه بعض دراساته وآرائه النقدية ، وذلك في كتابه المشهور « الموشح » ،

والكتاب برواية الامام الجليل الراوية أبي حاتم السجستاني العالم اللغوى الثقة ، المتوفى عام ٢٥٥ هـ عن الامام الأصمى .

وطريقه طريق الحوار والمساءلة ، يسأل أبو حاتم الأصمى عن أحد الشعراء هل هو فحل أو لا ؟ أو هل هو من الفحول ؟ فيجيبه الأصمى ويرشده إلى ما يرى ، مستدلا على رأيه ببعض ما يؤثر للشاعر من قصائد أو أبيات جيدة تسلكه في عداد الفحول ، وينبه على الشاعر الذي لم يبلغ منزلة الفحول ، مبينا تقصيره وحاجته إلى الزيادة على ما قال حتى يصير فحلا ، وفي بعض الأحيان يتهم الأصمى على بعض الشعراء تهكما لا ذعا كما فعل مع زهير الشاعر الجاهلي المشهور ، الذي قال فيه إنه لا يصلح أن يكون أجيرا للنابعة ، وقد يبالغ الأصمى في تقدير ما يروقه من آثار أدبية شعرية فيرفعه إلى أعلى منزلة ، ويقول : ليس في الدنيا مثل هذا البيت ، أو ليس في الدنيا مثل هذه القصيدة . والكتاب على العموم صورة واضحة لنفس الأصمى وعلمه بالأدب والشعر والنقد .

وموضوع الكتاب ، كما علمنا ، فحولة الشعراء أو فحولهم . ويجمع الفحل على فحول وفحولة ، وفحول الشعراء — كما في اللسان — هم الذين غلبوا على من

هاجهم مثل جرير والفرزدق وأشباههما ، وكذلك كل من عارض شاعرا فغلب عليه مثل علقمة بن عبدة ، وكان يسمى فلا لأنه عارض امرأ القيس في قصيدته البائية المشهورة التي يقول فيها « خليلي مرابي على أم جندب » ، وذلك حيث يقول في قصيدته : « ذهبت من الهجران في غير مذهب » . والفحول أيضا كما في اللسان الرواة ، الواحد فحل . ويريد الأصمعي بالفحل ما كان له مزية على غيره من الشعراء كميزية الفحل على سواء . والكتاب أثر أدبي ونقدي نفيس ، وقيمته في تراثنا الأدبي ثمينة للغاية ، بل إنه أصل نادر ، وكتاب خصب ، وكانت المكتبة العربية في مسيس الحاجة إليه ، خاصة وأنه أقدم الكتب التي ألغت في النقد ودراسة الشعراء في مطلع العصر العباسي .

والأصمعي روايات كثيرة مدونة في مصادر الأدب وأصوله ، وهي تدور حول الأدب والشعر والنقد واللغة وأخبار العرب وأيامهم ، ولا بأس أن نذكر بعضها منها :

قال الأصمعي (١) : قصدت في بعض الأيام رجلا كنت أغشاه لكرمه ، فوجدت على بابيه بواباً ، فمنعني من الدخول إليه ؛ ثم قال : والله يا أصمعي ما أوقفني على بابيه لأمنع مثلك إلا لركة حاله ، وقصور يده ؛ فكتبت رقعة فيها :

إذا كان الكريم له حجاب فما فضل الكريم على اللئيم ؟

ثم قالت له : أوصل رقتي إليه ؛ ففعل وعاد بالرقعة ، وقد وقع على ظهرها :

إذا كان الكريم قليل مال تحجب بالحجاب عن الغريم

ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار . فقلت : والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر ؛ فلما رأيته قال : من أين يا أصمعي ؟ قلت : من عند رجل من أكرم الأحياء ، حاشا أمير المؤمنين . قال : ومن هو ؟ فدفعته إليه الورقة والصرة ، وأعدت عليه الخبر . فلما رأى الصرة قال : هذا من بيت مالي ، ولا بد لي من الرجل ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين إنني أستحي أن تروعه (٢) برسلك ، فقال لبعض خاصته : امض مع الأصمعي ؛ فإذا أراك الرجل ، فقل له : أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج ! فلما حضر الرجل بين يدي المأمون قال له : أنت الذي رفعت لنا بالأمس وشكوت رقة الحال ، وأن الزمان قد أناخ عليك بكلكاء (٣) ؛ فدفعنا إليك هذه

(١) ثمرات الأوراق للحموي ص ٢٣٢ ج ١

(٢) روعه : أفزعه (٣) الكلكل : الصدر

الصرة لتصلح بها حالك ؟ فقصدك الأصمعي بيت واحد ؛ فدفعها اليه ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! والله ما كذبت فيما شكوت لأمير المؤمنين من رقة الحال ، لكنني استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدي إلا كما أعادني أمير المؤمنين ، فقال له المأمون : لله أنت ؟ فما ولدت العرب أكرم منك !

وروى (١) الأصمعي قال : لقيت أعرابيا بالبادية فاسترشدته إلى مسكن فأرشدني وأنشدني :

ليس العمى طول السؤال وإنما تمام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عناك فإيما خلقت أخا عقل لتسأل بالعقل

ثم رجعت إلى البصرة فسكثت بها حيناً ، ثم قدمت البادية ، فإذا الأعرابي جالس بين ظهراني قوم وهو يقضى بينهم ، فما رأيت قضية أخطأت قضية الصالحين من أفضيته ، ثم جلست اليه وقلت : يرحمك الله أما من رشوة أما من هدية ! أما من صلة ! فقال : إذا جاء هذا ذهب التوفيق ، فشكوت اليه ما ألقى من عذل جليلة لي إياي في طلب المعيشة ، فقال : لست فيها بأوحد وإنما لشريكك ، ولقد قلت في ذلك شعراً ، قلت : أنشدني فأنشدني :

باتت تعبرني الافتار والعدما لما رأت لآخيها المال والخدماء
عنف لرأيك ما الأرزاق من جلد ولا من العجز بل مقسومة قسماً
يا أمة الله إني لم أدع طلباً للرزق قد تعلمين الشرق والشاماً

وكان الأصمعي كثير العناية بالرواية ، يذهب إلى البادية ، وإلى كل الجهات ، ليسمع خبراً ، أو يرى أثراً ، أو ينصت للهجة ، أو يحادث عجوزاً ، أو يتحدث مع رجل ؛ وكان يتحدث من ذلك مادة لسمره في مجالس الخلفاء ، وقصور الأمراء .

قال الأصمعي (٢) : دخلت بعض مقابر الأعراب ، ومعى صاحب لي ، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال ، وعليها من الحلى والحلل ما لم أر مثله ، وهي تبكي بعين غزيرة وصوت شجي ! فالتفت إلى صاحبي فقلت : هل رأيت أعجب من هذه ؟ قال : لا والله

(١) أمالي المرتضى ص ١٤٠ ج ٢ .

(٢) العقد الفريد ص ٢٦ ج ١

ولا أحسبني أراه ، ثم قلت لها : يا هذه إني أراك حزينه وما عليك زى الحزن !
فأنشأت تقول :

فان تسألانى فيم حزنى فانى رهينة هـ — ذا القبر يافتيان
وإنى لاستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه حين يرانى
ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول :

يا صاحب القبر يامن كان ينعم بى بالا ويكثر فى الدنيا مواساتى
قد زرت قبرك فى حلمي وفى حلمي كأننى لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه أن قد تسر به من بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى عبرى موهلة عجيبة الزى تبكى بين أموات !

وقال الأصمى (١) : دفعت يوما فى تلسى بالبادية إلى واد خلاء ، لا أنيس به
إلا بيت معتز (٢) ، بفنائنه أدن ، وقد ظمئت ، فيممه فسلمت ، فاذا عجوز قد برزت
كأنها نعامه راخيم (٣) ، فقلت هل من ماء ؟ فقالت : أو ابن ؟ فقلت : ما كان بغيتى إلا
الماء فاذا يسر الله اللبن فانى إليه فقير

فقامت إلى قعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله ثم جاءت إلى الأدن فتغبرتهن (٤) ،
حتى احتلبت قراب (٥) ملء القعب ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطففت ثمألت (٦)
كأنها غمامة بيضاء ، ثم ناولتنى إياه فشربت حتى تحببت (٧) ربا واطمأننت
فقلت : إنى أراك معتزة فى هذا الوادى الموحش والحلة (٨) منك قريب ، فلو
انضممت إلى جنابهم (٩) فألست بهم ، فقالت : يا ابن أخى ! إنى لآنس بالوحشة
وأستريح إلى الوحدة ويطمئن قلبى إلى هذا الوادى الموحش ، فأتذكر من عهدت ،
فكأنى أخاطب أعيانهم وأترأى أشباحهم ، وتتخيل لى أندية رجالهم وملاعب
ولدانهم ومندى أموالهم

(١) الأمالى ص ٧ ج ٢ (٢) معتز : منفرد (٣) الراخم : التى تحضن
بيضا (٤) تغبرتهن : احتلبت الغبر وهو بقية اللبن فى الضرع (٥) قراب :
قريب (٦) الثمالة : الرغوة (٧) تحببت : امتلأت (٨) الحلة : وجمعها
حلال : بيوت الناس (٩) الجناب : فناء الدار

والله يابن أخى ، لقد رأيت هذا الوادى بشع (١) اللديدين (٢) بأهل أدواح (٣) وقباب ، ونعم (٤) كالهضاب ، وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح ، يبارون الرياح ، ويحمون الصباح ، فأحال عليهم الجلاء قما (٥) بغرة ، فأصبحت الآثار دارة ، والمحال طامسة ، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به .

ثم قالت : ارم بعينيك فى هذا الملا (٦) المتباطن (٧) ، فنظرت فاذا قبور نحو أربعين أو خمسين . فقالت : ألا ترى تلك الأجساد ؟ قلت : نعم . قالت : ما انطوت إلا على أخ أو ابن أخ ، أو ابن عم ، فأصبحوا قد ألمأت (٨) عليهم الأرض ، وأنا أترقب ما غالهم . انصرف راشداً رحمك الله !

وقال الأصمى (٩) : سرت فى تطوافى فى العرب بجبل طيء : فدفعت إلى قوم منهم يحتلبون اللبن ، ثم يصيحون : الضيف الضيف ! فان جاء من يضيفهم وإلا أراقوه فلا يذوقون منه شيئاً دون الضيف ، إلا أن يجهدهم الجوع . ثم دفعت إلى رجل من ولد حاتم بن عبد الله ، فسأله القرى فقال : القرى والله كثير ولكن لا سبيل إليه ، فقلت : ما أحسب عندك شيئاً ، فأمر بالجفان ، فأخرجت مكرومة بالثريد ، عليها وذر (١٠) اللحم ، وإذا هو جاد فى المنع ، فقلت : والله ما أشبهت أباك حيث يقول :

وأبرز قدرى بالفناء قليلها يرى غير مضمون به وكثيرها

فقال : إلا أشبهه فى هذا ، فقد أشبهته فى قوله :

أماوى إما مانع فمبين وإما عطاء لا ينهمه (١١) الزجر

فأنا والله مانع مبين . فرحلت عنه . ودفعت إلى امرأة من ولد ابن هرمة فسألته القرى ، فقالت : إني والله مرمة مسنة (١٢) ، ما عندى شيء ، فقلت : أما عندك جزور ؟ فقالت : والله ولا شاة ولا دجاجة ولا بيضة ! فقلت : أما ابن هرمة أبوك ؟ فقالت : بلى والله ! قلت : قاتل الله أباك ! ما كان أكذبه حيث يقول :

(١) بشع : ملان (٢) اللديدان : الجانبان (٣) الأدواح : الأشجار

العظيمة (٤) الهضاب : الجبال الصغار (٥) قما : كنسا (٦) الملا : ما اتسع

من الأرض (٧) المتباطن : المتطامن (٨) ألمأت : احتوت .

(٩) ذيل الأمالى ص ١١١ — الطبعة الأميرية .

(١٠) الوزرة من اللحم : القطعة الصغيرة لا عظم فيها (١١) ينهمه : يكفه

(١٢) أسنتت : أصابتها السنة وهى الجذب .

لا أمتع العوذ (١) بالفصال ولا أبتاع إلا قريسة الأجل
إني إذا ما البخيل آمنها باتت ضموزاً (٢) منى على وجل
ووليت ، فنادت : أربيع أيها الراكب ، فعله والله ذلك أقله عندنا ، فقلت :
إلا تسكوني أو سعتنا قري ، فقد أو سعتنا جواباً !

ابن المقفع

هو أبو محمد عبد الله بن المقفع أحد بلغاء الكتاب الأولين والمترجمين المتأدبين
وهو من سلالة فارسية من أهل خوزستان التي ستمتها العرب الأهواز، وهي ولاية
فارسية شرقي البصرة . وكان أبوه المقفع مجوسياً يسمى داذويه، وسبب تلقيبه بالمقفع
أنه كان يعمل في جباية الخراج لولاية العراق زمن بني أمية ، فاختان بعض مال الخراج
فضربه الوالي ضرباً تنفعت منه يده، وولد له ابنه هذا حوالي سنة ٥١٠ هـ، وسماه روزبه ،
فنشأ بالبصرة وهي يومئذ تعج بفصحاء العرب وخطباءها ونحاتها وشعرائها وبالوافدين
عليها من فصحاء أعراب البادية ، يأخذ ثقافته عن كل هؤلاء وتعلم على أبيه صناعة
الكتابة واللغة الفارسية وآدابها، حتى بذ شبان عصره فاستكتبه داود بن يوسف بن
عمر بن هبيرة أحد ولاية بني أمية على العراق ، ثم اتخذه في عصر الدولة العباسية عم
الخليفة أبي جعفر المنصور كاتباً له أيام ولايته على كرمان من بلاد فارس وعلى
يديه أسلم ، وتسمى عبد الله وتكنى أبا محمد ، ثم ألزمه أخوه إسماعيل بعض أولاده ليؤدبهم
ثم خدم آخر حياته أخاهما سليمان بن علي والي البصرة . واتصل بأبي جعفر
المنصور وهو في خدمة أعمامه ، فكلفه ترجمة كثير من كتب الأدب والفلسفة
اليونانية المنقولة قديماً إلى الفارسية ، واغتاله خفية سفيان بن معاوية والي البصرة
بعد عزل سليمان ، لضغينة عليه ولاتهامه بالزندقة والكيده للإسلام وذلك سنة ١٤٢ هـ .
وكان ابن المقفع نادرة في الذكاء والإحاطة بعلوم اليونان وأدب العرس ، وكان
أمة في البلاغة ، مع الإحكام ورصانة القول وشرف المعاني ، وعبارته في كلفة ردمنة ليس
لها نظير في السهولة ورشاعة الأسلوب مع بيان غرض وصحة مبنى ، وقد مضى على كتابتها
نحو مائتي سنة وألف ، ولا يزال شبان مدارسنا يقرؤونها ويفهمونها معجبين بها كأنما
كتبت لأطفال هذا العصر خاصة ، ولا توصف ببلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة
حيث يقول : « البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن منها ، ولكن عبارته
(١) العوذ : الحديثات النتائج (٢) ضمز البعير : أمسك جبرته في فيه ولم يجتر

في الحكمة المنقولة من اليونان أو الفرس لا تخلو من تصعب ، ولعل لحرصه على المحافظة على المعنى الأصلي أثرا في جعل عبارته فيها ليست ناصعة البيان . وطبع له في مصر كلية ودمنة وكتاب الأدب الكبير وكتاب الأدب الصغير ، وله غيرهما رسائل وكتب وضعها أو ترجمها .. ولابن المقفع رسائل بليغة منها الطوال ، ومنها القصار .

أحمد بن يوسف

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح أحد فحول كتاب الرسائل في دولة بني العباس . وآل صبيح هم أهل بيت اشتهر بالكتابة والأدب والعمل الرفيع في دواوين الخلفاء أكثر من قرن ، وكان جدهم صبيح مولى قبطيا لبني عجل أقام بالكوفة ونشأ بها ابنه القاسم عربي اللسان بليغ الكتابة . وخدم في دواوين بني أمية ، وخلفه في صناعته ابنه يوسف ، حتى جاءت الدولة العباسية فخدم بها ونشأ له ابنه أحمد أبلغ آل بيته ، إذ تخرج على أيدي الرؤساء من البراءة ، وتقلبت به الأحوال حتى صار كاتباً للفضل بن سهل وزير المأمون ، ثم اتخذه المأمون رئيس ديوان رسائله ، فصدرت عنه أبلغ الكتب والتوقيعات ، حتى غضب عليه المأمون غضبة مات في أثرها سنة ١١٣ هـ . وكان أحمد بن يوسف أحد الذين يضرب بهم المثل في البلاغة ، وأحد الذين ملكوا ناصية الكتابة في الإيجاز والاطناب في جزالة لفظ وسلاسة أسلوب وجودة معنى . ومن أشهر رسائله الرسالة التي كانت سبب رقيه في دولة المأمون ، وقد كتبها على لسان طاهر بن الحسين إلى المأمون يخبره بقتل الأمين وهي : « أما بعد فإن الخلع وإن كان قسم أمير المؤمنين في النسب واللحمة ، فقد فرق حكم الكتاب بينه في الولاية والحرمة ، لمفارقته عصمة الدين ، وبخروجه عن إجماع المسلمين . قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في ابنه : « يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » . ولا صلة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت في ذات الله . وكتبت إلى أمير المؤمنين ، وقد قتل الله الخلع وأحصد لأمر المؤمنين أمره ، وأنجز له وعده ، فالأرض بأكنافها أوطأ مهاد لطاعته ، وأتبع شيء لمشيتته » .

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول أبلغ كتاب الإيجاز . وهو ابن عم إبراهيم بن العباس الصولي . وجدهما صول تركي من أشراف جرجان ، أسلم

على يد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة في أثناء فتوحه بخراسان ، وخدم أحفاده في دواوين الدولة العباسية ، فكان عمرو هذا كاتب التوقيعات بين يدي الوزير جعفر البرمكي وزير الرشيد ، وظهرت له نجابته وهو صغير ، قال عن نفسه : كنت أوقع بين يدي جعفر ، فرفع اليه غلامه ورقة يزيدونه في رواتبهم فرمى بها إلى وقال : أجب عنها فكتبت : قليل دائم خير من كثير منقطع ، فضرب بيده على ظهري وقال : أي وزير في جلدك .. وصدقت الأيام فيه ظن جعفر فصار بعد أحدوزراء المأمون الثقات عنده ، وكان يعجبه بلاغته في إيجازه .

وتوفي في غزوة من الغزوات التي غزاها المأمون ببلاد الروم ببلدة ادنة سنة ٢١٧ .. ومن رسائله الموجزة : ما كتب به على لسان المأمون إلى أحد عماله وصية بشخص : « كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب اليه ، معنى بمن كتب له ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية » .. وكتب مرة وهو على رأس جيش نفدت أرزاقه رسالة إلى الخليفة المأمون يستعده بالمال وأرزاق الجند لأنهم هموا بعصيان أوامره : « كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك أحوالهم .. فأعجب المأمون ببلاغته وإيجازه ، وأمر للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر . وحدث أحمد بن أبي خالد الأحول : أنه سمع المأمون يوماً — وعنده على ابن هشام ، وأخواه — قد ذكر عمرو بن مسعدة (١) فاستبطأه ، وقال : أيحسب عمرو أني لا أعرف أخباره ، وما يجبي إليه ، وما يعامل به الناس ! بلى والله ! ونهض وانصرفنا . فقصدت عمرا من ساعتي ، فخبرتة بما جرى ، وأنسيت أن أستحله من حكايته عني ؛ فراح عمرو إلى المأمون ، فظن المأمون أنه لم يحضر إلا لأمر مهم ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة ، فأذن له .

فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا عائد بالله من سخطه ، ثم عائد بك من سخطك . يا أمير المؤمنين ، أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد ، أو يسر على ضعفنا يبعثه بعض الكلام على إظهاره ما يظهر منه ! فقال : وما ذاك ؟ قال عمرو : فخبرتة بما بلغني ولم أسم له مخبري ، فقال لي : لم يكن الأمر كما بلغك ، وإنما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به ، وإنما

(١) وزير المأمون وأحد الكتاب البالغاء توفي سنة ٢١٧ هـ .

أخرج منى ما خرج معنى تجاريناه . وليس لك عندي إلا ما تحب ، فليفرخ روعك ، وليحسن ظنك ، فأعدت الكلام ، فما زال يسكن منى ، ويطيب من نفسى ، حتى تحلل بعض ما كان فى قلبى ، ثم بدأ فضمنى إلى نفسه : وقبلت يده ، فأهوى ليعانقنى ، فشكرته ، وتبينت فى وجهه الحياء والخجل بما نادى إلى . قال أحمد : فلما غدوت على المأمون ، قال لى : يا أحمد ، أما لجلسى حرمة ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، وهل الحرم إلا لما فضل عن مجلسك ! قال : ما أراكم ترضون بهذه المعاملة فيما بينكم ! قلت : وأية معاملة يا أمير المؤمنين ؟ هذا كلام لا أعرفه ، قال : بلى ، أما سمعت ما كنت فيه أمس من ذكر عمرو ! ذهب بمض من حضر من بنى هاشم فخبّره به ، فراح إلى عمرو ومظراً منه ما وجب عليه أن يظهره ، فدفعت منه ما أمكن دفعه ، وجعلت أعتذر إليه منه بعذر قد تبين فى الخجل منه ! وكيف يكون اعتذار إنسان من كلام قد تكلم به ! ألا يتبين فى عينيه وشفتيه ووجهه ، ولقد أعطيته ما كان يقنع منى بأقل منه ، وما حدانى عليه إلا ما دخلنى من الخساسة ، وإنما كان نطق به اللسان من غير روية ولا احتمال مكروه به .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أخبرت عمراً به لا أحمد من ولد هاشم ، فقال : أنت ! قلت : أنا ! فقال : ما حملك على ما فعلت ؟ فقلت : الشكر لك والنصح ، والمحبة لأن تم نعمتك على أوليائك وخدمك ، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يجب أن يصلح له الأعداء والبعداء ، فكيف الأولياء والأقرباء ، ولا سيما مثل عمرو فى دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ، ومكانه من رأى أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ! سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئاً فخبّرت به ليصلحه ، ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ، ويتلافى ما فرط منه ، ولا يفسده مثله ، وإنما يكون ما فعلت عيباً لو أشعت سرا فيه قدح فى السلطان ، أو نقض تدبير قد استتب ، فأما مثل هذا فما حسبته يبلغ أن يكون ذنباً على .

فنظر إلى مليا ، ثم قال : كيف قات ؟ فأعدت عليه ، ثم قال : أعد فأعدت ، فقال : أحسنت والله يا أحمد ! لما خبرتنى به أحب إلى من ألف ألف ، وألف ألف ، وألف ألف .

وعقد خنصره وبنصره والوسطى ، ثم قال : أما ألف ألف فلنفيك عنى سوء الظن ، وأطلق وسطاه ، وأما ألف ألف فلصدك إياى عن نفسك ، وأطلق البنصر ، وأما ألف ألف فلحسن جوابك ، وأطلق الخنصر ، وأمر لى ببال !

الجاحظ شيخ الكتاب والنقاد

— ١ —

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية في النصف الأول من القرن الثالث ، وكان مجده الأدبي الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى في كل أفق ، ويرن صدهاء في سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وعاش الناس في عصره وبعد عصره عيالاً عليه في البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة ، كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلمذة عليه شرفاً لا يعد له شرف ومجداً يدينهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات الثقافة الإسلامية في شتى عصورها ، فألفوا الكتب في الإشادة به — كما فعل أبو حيان التوحيدي في كتابه تقرّيط الجاحظ — ، وبالغوا في الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرّة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يشنون عند ذكره ونهج كبار الكتاب نهجه في الثقافة والبيان ، وكان فخر الرجل في أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتتقفون بثقاتها ويرونها تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامي بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها في البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسممهم بمسم الخزي والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جده منهم فكان هدفاً لسخريته اللاذعة ، سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغفرها الزمن ، كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتمككة « الترييع والتدوير » . . . وحسبك أن المأمون كان يقرأ تأليف الجاحظ ويثني عليها ويستجيدها (١) .

ومجد الجاحظ الأدبي مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة ، وهو مجد بوأه صرحه الخالد : كفاءته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محروماً من كل شيء إلا من مجد الأدب ، وشهوة العلم ، ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التي كان يصعد إليها في عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة في ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، أو قل إنه حورب فيها

(١) ٢١١ ج ٣ البيان نشر السندوبى ط ١٩٢٧ .

من أجله ، حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب كما كان يرى سهل بن هارون ، وهذا الاخفاق في الحياة العامة الذى منى به الجاحظ في عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه في رسالته « الزوابع والتوابع » ، وما جعله يخطئ من يذهب إلى تقديم الجاحظ على سهل بن هارون ، وإن كان تحكيم التوفيق في الحياة في وزن الشخصيات وتقديرها ضلالا وغبنا .

ولكن ما سر هذا الاخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة ، مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس : إما لأنه كان مقصرا في الكتابة رجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط الهممة ، أو لأن دمايته وإفراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريبا ، فذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد تجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة — أي كانت هذه الأداة — من أدوات الكتابة ، فذلك ما ترده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبي وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح ، لا يتطلع إلى مجد ينشده أو جاه سلطان يناه ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح . وأما أن دماية الجاحظ كان لها أثر في هذا الاخفاق فذلك أحدا ما نراه من أسبابه الكثيرة ، حتى أنه ذكر للتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الجاحظ كان عربيا في روحه ودمه وحياته ؛ وكان يتعصب للعرب في كل شيء حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ والسلطان في الدولة فيه للعناصر الأجنبية لا سيما الفرس ؛ وكثيرا ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب ، إلا من اتصل منهم بجبل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير سنة ٢٣٣ هـ ، والذي أهدى له كتابه « الحيوان » ، وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد شيئا من وراء هذه الصداقة ، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد بن أبي دؤاد الذى سبق إليه الجاحظ مغلولاً لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ؛ ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه ، وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولائه .

ثم لا ننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب، لا مواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعت مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا، ما كان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهما حلق في أجوائها ، وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه في معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض في ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته في الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته في مجد السياسة وسلطانها ؛ فالجاحظ أولا وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلي الذي تتلمذ على النظام، ثم عاف تقليد غيره في العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزلين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه، وشيخ العربية الذي وعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات في شتى علوم الدين والدنيا ؛ وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٠ - ٥٢٥٥) ، وكان له في صدر شبابه نغز التلمذة على شيوخها في اللغة والأدب وفي علوم الدين والكلام والتفكير والمنطق، كما كان له نغز صداقة رجال الفكر والسياسة في الدولة ؛ وقد استفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا في عقلية وثقافته، هياها لأن يكون محور الثقافة الإسلامية في عصره ، لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال بديع الزمان الهمداني : فيه من أحدثي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف (١) ، فقد يجيد الرجل في باب من أبواب الأدب دون باب ، ولا يفض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه ؛ ولكن البديع أراد الفخر بنفسه على حساب الجاحظ ، وليته وقب عند هذا الحد فلم يرم الجاحظ بأن كلامه بعيد الاشارات، قليل الاستعارات قريب العبارات، وأنه منقاد لريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة (٢) . وإنما أراد البديع أنه فوق الجاحظ أدبا وبيانا ، وهيئات !

وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة متنوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التي مازجت الثقافة الإسلامية في عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز

(١) ص ٢٨ مقامات البديع - المقامة الجاحظية .

(٢) ص ٨٢ و ٨٣ المرجع .

الأول للمتكلمين وعالم يحيط باللغة وبيانها وإدائها إحاطة لا تقف عند غاية ؛ وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى، التي سرت في تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثاني الهجري ، وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لا نشك أنها أفادت ذلك من أسناذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في البيئة الإسلامية في عصر الجاحظ . ولا شك أن عصر الجاحظ ، وعقليته وشغفه بالدراسة والبحث وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ، وتلقيه اللغة عن عن الأعراب في المربد والعلماء في حلقات البصرة ومجامعها العلمية ، وتلذذه على كثير من أساتذة الثقافة العربية في شتى مناحيها ، كأبي يوسف القاضي والنظام والأصمعي والأخفش وابن الأعرابي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري ، كان له أثره في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب ، المتعددة الألوان .

وشخصية الجاحظ تطالعك في أدبه وكتبه من كل جانب وناحية ؛ وهي شخصية رجل الفكر الواثق بشخصيته وعقليته وثقافته ، المؤمن بها ، الحريص على كرامته ، المعز بن نفسه . يخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم ، فلا يفنى شخصيته في شخصياتهم ، بل يراهم لإخوانه ، ويرى له عليهم حق الصداقة ودالة الأخوة ، ولا يجبن عن توجيه العتاب واللوم إليهم . وأنت حين تقرأ في كتب الجاحظ ومؤلفاته تغيب في جو بعيد تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافته وبعد مكانتها ، وبتوجيهها الساحر لعقل القارئ وفكره وشعوره ، حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعورا صادقا أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة ، تملك عقلك وعاطفتك ، وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتركك صريعا في معارك فكرية ، ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلبه البليغ عصا الساحر المتحدى تسترعى السمع والبصر ، وتبهت الفكر والعقل ، وتلهب العاطفة والشعور .

والعجيب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته في تأليفه جعلت كثيرا ممن لا يفهمون الجاحظ يرونه كاتباً لا شخصية له ، تطمس شخصيات من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه ، وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ، ولا تلبس آثاره بينهم .

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة في فكره وفي كتابته وأسلوبه ، وفي

بحسبه وتأليفه ، فإذا فكر فبعقل الخاصة ، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم ، ولمن يفكر في مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ يستمسك بفائده ويضن بما عنده ، غيرة على العلم ، وشحا بشمرة الفهم ، ولذلك كان كتاب « البيان » موقوفا على أهله ، ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدىء فلا نفع له من كتابه ، كما يقول ابن شهيد ، إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شيء ، ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتابة الموسوعات . كما يرى بعض الباحثين المعاصرين (١) ؛ وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته ، ما داموا لا يستطيعون مجاراته في نواحي ثقافته العقلية والأدبية . وحسب الجاحظ مجدا وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب : البيان والتبيين .

— ٢ —

ألف الجاحظ كتابه « الحيوان » ، وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار . ثم ألف بعده كتاب « البيان » ، وأهداه إلى أحمد ابن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبيين » ضجة كبيرة في الأدب والبيان ، حتى إنه حمل إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات .

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والاعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه ، وينال كتابه الذكر والذبوع ، ومن كثرة الاستطراد الذي يستدر به الجاحظ نشاط القارئ وإعجابه كما يقول الجاحظ في تعليقه له ، والجاحظ حين يعمل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم في كتابه ترتيبا يتمشى مع التاريخ بهجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ كبير ، فالجاحظ لو أراد لما أعجزه شيء ، إنما هو مذهبه في الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله — أو كثيرا

منها — محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبح عليها أحيانا روحا توائم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال ، وأسلوب الكتاب الاستطراذى جعل الجاحظ يعدنا في كتابه بأنه سيد ذكر الشيء ثم لا يذكره ولا يبنى بوعده ، وهذا الأسلوب الاستطراذى أيضا جعل الجاحظ ينقد نفسه في ترتيب فصول كتابه ، وجعله يرسم منهجه في أجزاء كتابه في آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع في أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارئ بمزيد الابتسام ، فهو يعنون فصولا بباب البيان ، وأخرى يسميها باب الصمت ، وأخرى باب اللحن أو باب الزهد ، إلى آخر هذه الألقاب ، التي نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئا منها ولم يضعها إلا للتغيير بالقارئ ، واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته . وكتاب « البيان » ، يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم في البيان كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورسم فيه صورا صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده ، والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصره .

ولكتاب البيان كذلك أثره في النقد الأدبي ، فهو سجل حافل لآراء المختلفة في النقد مما لا يزال إلى الآن موضع البحث والإعجاب . والجاحظ الذي نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء ، وآثر مذهب المطبوعين ، كان يضع بذلك أساسا كبيرا لعلم النقد وتطوره الأدبي . وعصرنا الحديث يؤمن كل الإيمان برأى الجاحظ ويسير في تياره الفكري والأدبي ، كما يسير على ضوئه في البيان العربي وبلاغته .

وكتاب البيان ثمرة من ثمرات الرجولة المسكتملة ، التي أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ؛ وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والاحاطة التامة بالبيان وبلاغته ؛ وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية الفذ وبطلها الكبير . وأثر « البيان » ، وقيمه مما يعسر على الباحث تفصيله وإيفائه فيها حقه من التقدير والانصاف ودقة الحكم : فالكتاب أصل من أصول الأدب ، وهو في أسلوبه وفي نهجه وفي روياته وفي آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين في أدبها . وقيمه في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها ، واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغايتها وأثرها .

والبيان أول كتاب ظهر في الأدب جامعاً لفنون كثيرة من ضروبه ، ويشيد به أبو هلال (١) ؛ ويعدّه ابن خلدون من أركان الأدب (٢) ؛ والكتاب يبحث في فنون الأدب والبلاغة ، ويتناول النقد واللغة ، ويأتى على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين وآثارهم الأدبية ، وهو من أجل وثائق الأدب في الجاهلية والإسلام (٣) ، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا (٤) ، ويذكر أبو أحمد العسكري مثلاً من تصحيف الجاحظ فيه (٥) . وينقد ابن شهيد الكتاب (٦) ورد عليه بعض المعاصرين (٧) . والكتاب يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جميع الجاحظ وروايته أم من رأيه وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة (٨) ، أو كما يصورها بشر ابن المعتز (٩) ، أو كما يراها ابن المقفع (١٠) ، ولهذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربي لما جمعه من النصوص التي توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربي ، وتعطينا صورة بجملة لنشأته (١١) .

وفي الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة (١٢) ، ويتكلم على السجع (١٣) ، ويشير إلى التفصيل والتقسيم (١٤) ، والاستطراد ، والكتابة (١٥) ، والأمثال (١٦) ، والاحتراس (١٧) والقلب (١٨) ، والاسلوب الحكيم (١٩) ،

(١) ٦ و ٧ الصناعتين . (٢) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون . (٣) ٣٥ الجاحظ لمردم . (٤) ٢٢٧ / ١ العمدة . (٥) ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف (٦) ١ / ١٩٨ ذخيرة . (٧) ٥٠ / ٢ النثر الفنى . (٨) ٧٩ / ١ البيان . (٩) ١ / ٤ وما بعدها البيان . (١٠) ٩١ / ١ البيان . (١١) ٣ مقدمة نقد التثر . (١٢) ١١٦ / ١ البيان .

(١٣) ١٩٤ / ١ البيان . (١٤) ١٧٠ / ١ و ٩١ / ٢ البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين . (١٥) ١٨٠ / ١ و ١ و ٢٩ و ٣١ و ٣٥ / ٣ البيان . (١٦) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ / ١ و ٢٢٤ / ٢ البيان . (١٧) ١٦١ / ١ وما بعدها البيان . (١٨) ١٨٠ / ١ البيان . (١٩) ٢٠١ و ٢٠٢ ج ٢ البيان . ويقرب من الاسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ د اللغز في الجواب ، (١١٦ / ٢ البيان

والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب الكلامي بهذا الاصطلاح (١) ، ويرى الجاحظ أن البلاغة في النظم لافي المعاني قال : والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجود السبك (٢) ، وهو ماذهب إليه ابن خلدون (٣) ويقول شيلر : في الفن الشكل هو كل شيء والمعنى ليس شيئاً مذكوراً . وفي البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع في اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لا داعي إلى ذكره هنا خوفاً من كثرة الأسهاب .. والجاحظ يشيد بالإنجاز ويدعو إليه كثيراً في بيانه (٤) ، وبعد فالجاحظ وكتابه البياني أثر في نشأة البيان العربي وأى أثر ، ويعد ابن خلدون الجاحظ من السابقين في التأليف في البيان (٥)

خدم الجاحظ البيان العربي خدمة لا تقدر بالكتابة — في كتبه — في شتى بحوثه ، وجمع مختلف الآراء والمذاهب في عناصره وألوانه ، ولم نعلم أن باحثاً أفراد البيان العربي بتأليف قبل الجاحظ ، إنما كان كل ما هنالك آراء مبتوتة متفرقة لكثير من رجال البيان والأدب ، وكانت خسارة البيان في عدم تدوينها تكاد تكون فادحة بالغة منتهاها ، وما نجد في الكتاب لسبويه ومجازات القرآن لآبي عبيدة والشعر والشعراء لابن سلام فأنما هو قليل من كثير إذا قيس بما جمعه الجاحظ في كتبه ومؤلفاته ، نعم لا يمكن لأي باحث أن يذكر حقيقتين هامتين :

أولاهما أن الجاحظ أظهر من أفراد البيان بمعناه العام بالتأليف في كتابه الكبير (البيان والتبيين) ، وثانيتهما أن له فضل جمع مختلف الآراء والمذاهب فيه ، والجمع والاحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد ، ومنزلة العالم في الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها ، وإذا قرأت كتب الجاحظ لا سيما «الحيوان» و «البيان» عرفت منزلة الجاحظ في هذا السبيل . ومن الغريب أن نرى شخصية الجاحظ واضحة فيما يجمعه وضوحاً فيما يبتسره من آراء ومذاهب ، بعكس كثير من العلماء والباحثين . والجاحظ فوق أثره الكبير في جمع آراء رجال البيان والبلاغة في مذاهبها وعناصرهما في كتابه «البيان» على الخصوص ، له وراء ذلك فضل خاص

(١) ١٠١ البديع ، ٢ / ٧٦ العمدة (٢) ٣ / ٤٠ الحيوان (٣) ٥٧٧

مقدمة ابن خلدون (٤) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ١٩٨ ٢ / البيان

(٥) ٥٥١ مقدمة ابن خلدون

وجهد مستقل ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمددها من عقلية وثقافته ، وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين في البيان العربي وقواعده وقد ظهر الجاحظ في عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان : اتجاه يرمى إلى الظهور بمظهر البداوة التقليدية في الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهي من الأساليب متناسيا روح العصر وذوقه ، واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبألوان الحضارة في العيش والتفكير ، فمال إلى رقة الأسلوب وسهولته ، مع حرص على ارضاء الطبع والذوق ، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأي .

والجاحظ إمام الكتاب وشيخ البيان وعلم من أعلام الأدب والنقد ، وهو من أئمة المعزلة ، تتلمذ على النظام وسواه من فحول عصره ، فخرج واسع الثقافة عميق التفكير ، كثير الاحاطة والاطلاع على شتى المؤلفات والتراجم المنقولة من جميع اللغات إلى العربية.

اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة ، وعن طريق المتكلمين ، وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية (١) . كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه ، وتوسع في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب (٢) ، وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد بعيد ، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمحل وهو المذهب الكلامي عند البديعيين (٣) ، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية ، وخاصة كتاب المنطق ، بأنه في أسلوب سقيم ، فالجاحظ ولا شك قد تأثر بالخطابة ، لأرسطو (٤) . وأنسكرك باحث آخر

(١) ١/٤٠١ ضحى الإسلام (٢) ١/٣٨٧ لمراجع .

(٣) ٦٢٠ و٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة الاستاذ حمودة في أسبوع

الجاحظ ، وإذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابة (٣/١٥ البيان) ، فليس ذلك إلا في مقام الرد على الشعوبيين ، وقد يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص

خطابية لليونان . (٤) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ .

أن يكون كتاب البيان متأثراً بخطابة أرسطو أو صدى له، لأن الجاحظ لم يره (١) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين (٢) .

ومن البدهي أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلما ما واسعا ، ويبدو لي أنه كان يعرف اللغة الفارسية ، ففي البخله يحكي الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق : لو خرجت من جلدك لم أعرفك ، قال الجاحظ وترجمة هذا الكلام بالفارسية د كراز بوسنتت بارون بياقي نشاسيم (٣) .. وأثر ثقافته الفارسية واضح في كتبه وفي مؤلفه د البيان ، .. أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضا في الحيوان وفي كتابه البيان ، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل برأى لأرسطو فيه (٤) وكان مصدرا كبيرا له في كتابه د الحيوان ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيرا (٥) ، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكى اللسان مع علمه بتميز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه (٦) ، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان (٧) ويذكر كتب اليونان في المنطق ، وأن الحكماء جعلتها معياراً للتفكير (٨) ، ويذكر نوادر ريسموس اليوناني (٩) ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم في الخطابة ذكر (١٠) .. وأقسام الدلالة عند الجاحظ (١١) هي من تفكير أرسطو ، ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها، واليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها في المنطق، وللهند حكمها وسيرها وعللها ، ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة (١٢) . وللجاحظ رسالة في نقد السكندی (١٣) .

(١) ٢٦٢ المرجع السابق . (٢) ٣ مقدمة نقد النثر .

(٣) ص ١٩ البخله . (٤) ١/٦١ البيان . (٥) ٦٩ و ١/١٢٨ البيان .

(٦) ٣/١٥ البيان . (٧) ١/٧٥ البيان . (٨) ٣/٧ البيان .

(٩) ١٦٥ ج ٢ البيان . (١٠) ٣/١٥ البيان ، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع

على شيء من خطابهم .

(١١) ١/٦٩ البيان ، وهي في ٤ الرسالة العذراء ، ٩ نقد النثر .

(١٢) ٣/٧ البيان . (١٣) ٤٢ الجاحظ لمردم .

ويذكر الجاحظ في البيان د صناعة الكلام ، ، ويعنى بها حيناً علم الكلام (١) ،
و حيناً آخر البيان (٢) ؛ ويذكر اصطلاحات أخرى : كصناعة المنطق (٣) ، وصناعة
الخطابة ، ويذكر أحياناً د أصحاب الخطابة والبلاغة ، (٤) .

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح
أرسطو ، فدعوته إلى ترك الوحش والسوق (٥) له نظير عند أرسطو الذى دعا
إلى هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها إلا العامة ، (٦) ، وقال د ينبغي ألا تكون
الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه فلا تبلغ
درجة العامة ولا تحوج إلى السكفة المشنومة ، ؛ ودعوة الجاحظ إلى الوضوح (٧)
لها نظير عند أرسطو حيث يذكر د حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الاغراب
مستكره وأنه يجب ألا تمنع فى الاغرابات ، بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها
الأمائل دون أسقاط الجمهور ، .. واللحن وخروجه عن حد البلاغة (٨) موجود
فى خطابة أرسطو ، حيث يوجب أن د يكون اللفظ فصيحاً لا لحن فيه ، ، ويذكر
الجاحظ استعمال المبسوط فى مواضعه والمقصور - المجذوف الموجز - فى مواضعه (٩)
والإيجاز يوم الإيجاز والاطناب يوم الاطناب (١٠) ، وأرسطو أول من أشار إلى
ذلك كله فذكر الإيجاز والاسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقاما . وعلى أى حال
فرجع هذا التشابه فى الأفكار أرجح أن سببه نقل الجاحظ كثيراً عن الذين ألوا
بثقافة اليونان وكتب أرسطو فى النقد ، وعلى الأخص الخطابة والشعر . ومع ذلك
فالجاحظ يجهل كثيراً من النظريات التى شرحها أرسطو فى كتابيه ، فأنواع البيان
والأساليب البلاغية الأنيقة التى ألم بها أرسطو (١١) لا يشير إليها الجاحظ فى بيانه ،

(١) ١/٦٩ البيان (٢) ١/١٠٨ البيان . ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام
(٣ ج ٤ زهر) (٣) ١/٧٩ البيان (٤) ١/١٨٣ البيان (٥) ١١٠ و ١٠٥
و ١/١٧٦ البيان (٦) نقلا من الشفاء لابن سينا (٧) ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦
ج ١ البيان (٨) ١/١٤١ البيان . (٩) ١/٥١ البيان ويشير إلى ذلك
فى مواضع أخرى من كتابه (١٤١ و ١٤٧ و ١٦١ و ١/١٨٠ البيان) .
(١٠) ١٢٠ رسائل الجاحظ وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه وللإطالة
مواضعها (مقدمة ادب الكاتب)

(١١) كدراسته الاستعارية ، وللرباطات (حروف العطف) ، وأنها تجعل الكلام
الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه ، ونظرية أرسطو فى الوصل هى التى يفيض =

وهو على العموم لم يطلع على كتابي أرسطو، ولا نشك في أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في عصره كثيراً، ونقل عن اطلعوا على خطابة أرسطو... ويكفي ذلك التحقيق في هذا المقام .

عبد الله بن طاهر

كان بمحل من علو المنزلة وعظم القدر ولطف مكان من الخفاء، يستغنى به عن التقرُّب له، والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهور عند الخاصة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحل الذي لا يدفع، وفي السباحة والشجاعة مالا يقاربه فيه أحد... ولد سنة ١٨٢ وتوفي عام ٢٣٠ هـ.. أعطاه المأمون مال مصر لسنة خراجها وضياعتها فوهبه كله وفرقه في الناس، ورجع صفرأ من ذلك، فغاظ المأمون فعله، فدخل إليه يوم مقدمه، فأنشده أبياتاً قالها في هذا المعنى وهي :

نفسى فداؤك والأعناق خاضعة للنائبات أيها غير مهتضم
إليك أقبلت من أرض أقت بها حولين بعدك في شوق وفي ألم
أقفو (١) مساعيك اللاتي خصت بها حذر الشراك على مثل من الأدم
فكان فضلى فيها أنى تبع لما سنتت من الانعام والنعم
ولو وكلت إلى نفسى عنيت بها لـكن بدأت فلم أعجز ولم ألم
فضحك المأمون ، وقال : والله ما نفست عليك مكرمة نلتها، ولا أحدثتة حسن
عندك ذكرها، ولكن هذا شئ. إذاعودته نفسك افتقرت، ولم تقدر على لم شعئك (٢)
واصلاح حالك، وزال ما كان في نفسه . ولما فتح عبد الله الله مصر وأعطاه المأمون
خراجها صعد المنبر فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف ألف دينار أو نحوها
فأتاه معلى الطائي (٣) وقد أعلموه ما صنع بالناس في الجوائز وكان عليه وأجداً

== عبد القاهر في شرحها في الدلائل .. ونصيب في نقده للكميت في قوله : تكامل فيها
الانس والشنب ، لأنه باعد في القول (١٣٤ / الأغاني ، ١ / ٣٥٥ الكامل) لاينم
ذلك عن معرفته بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(١) أقفو : أتبع .. الشراك : سير النعل على ظهر القدم .
(٢) الشعث : من شعث أمر فلان كفرح : انتشر
(٣) معلى الطائي :
شاعر مصرى كثيراً ما يذكر في شعره حوادث مصر

فوقف بين يديه تحت المنبر، فقال : أصلح الله الأمير، أنا معلى الطائي، وقد بلغ مني ما كان منك من جفاء وغلاظ، فلا يغلظن على قلبك، ولا يستخفنك الذي بلغك، أنا الذي أقول :

يا أعظم الناس عفواً عند مقدرة	وأظلم الناس عند الجود للبال
لو أصبح النيل يجري مأواه ذهباً	لما أشرت إلى خزن بمثقال
تغلى (١) بما فيه رق الحمد تملكه	وليس شيء أعاض الحمد بالغالى
تفك باليسر كف العسر من زمن	إذا استطال على قوم بأفلال
لم تخل كفك من جود لختب (٢)	ومرهف قاتل في رأس قتال
وما بثت رعي (٣) الخيل في بلد	إلا عصفت بأرزاق وآجال
ان كنت منك على بال مننت به	فان شكرك من قلبي على بال
ما زال مقتضبا لولا مجاهرة	من ألسن خضن في صدري بأقوال

فضحك عبد الله وسر بما كان منه وقال : يا أبا السمراء أقرضني عشرة آلاف دينار، فما أمسيت أملككم فأقرضه، فدفعتها إليه

ولعبد الله ألحان ضاعها، ومن مختارها وصدورها ومقدمها لحنه في شعر أخته عاصية، فانه صوت نادر جيد، صحيح العمل، مزدوج النغم، بين لين وشدة، على رسم الحداق من القدماء، وهو :

هلا سقيتم بنى سهم أسيركم	نفسى فداؤك من ذى غلة صادى (٤)
الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها	مضرج بعد ما جادت بإزباد (٥)

ومن غنائه أيضا :

راح صبحي وعاود القلب داء	من حبيب طلابه لى عناء
حسن الرأى والمواعيد لا يلد	منى لشيء مما يقول وفاء
من تعزى عنى يحب فانى	ليس لى ما حبيت عنه عزاء

(١) أغلى الشيء : جعله غاليا (٢) المختب : سائل المعروف، والمرهف : السيف

(٣) الرعي : القطعة من الخيل .

(٤) الصادى : العطشان (٥) الإزباد : الاتيان بالزبد كما يفعل البعير إذا

هذر . والمضرج : المدمى . والنجلاء : الواسعة

ولما شخص (١) أبو تمام إلى عبد الله بن طاهر ، وهو بخراسان ، أقبل الشتاء وهو هناك ، فاستقبل البلد ، وقد كان عبد الله وجد (٢) عليه ، وأبطأ بجائزته ؛ لأنه نثر عليه ألف دينار فلم يمسسها بيده ترفعا عنها فقال : يحتقر فعلى ، ويرفع على ، فكان يبعث إليه بالشيء بعد الشيء ، كالكفوت . فقال أبو تمام :

لم يبق للصيف رسم ولا طلل ولا قشيب فيستكسى ولا سمل (٣)
عدل من الدمع أن يبكي المصيف كما يبكي الشباب ويبكى اللهو والغزل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت يسراه وهى لنا من بعدها بدل
فبلغت الآيات أبا العميثل شاعر آل طاهر ، فأنى أبا تمام واعتذر إليه لعبد الله ابن طاهر . ثم دخل إلى عبد الله فقال : أيها الأمير : أتناون بمثل أبى تمام ، وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له ما له من النباهة فى قدره ، والإحسان فى شعره ، والشائع من ذكره ، لكان الخوف من شره ، والتوق لذمه ، يوجب على مثلك رعايته ومراقبته ، فكيف وله بزوجه إليك من الوطن ، وفراقه السكن ، وقد قصدك عاقدا بك أمه ، معملا إليك ركابه ، متعبا فيك فكره وجسمه ، وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه ، حتى ينصرف راضيا . ولو لم يأت بفائدة إلا قوله :

يقول فى قومس (٤) صحبى وقد أخذت منا السرى وخطا المهرية (٥) القود (٦)
أطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ؟ فقلت : كلا ولكن مطلع الجود
فقال له عبد الله : لقد نهيت فأحسنيت ، وعاتبت فأوجعت ، ولك ولأبى تمام العتبى (٧) . ادعه يا غلام فدعاه . فزادته يومه ، وأمر له بألفى دينار وما يحمله من الظهر ، وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه ، وأمر ببذرفته (٨) إلى آخر عمله .
وقال أبو السمراء : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين إلى مصر ، حتى إذا كنا بين الرملة (٩) ودمشق ، إذا نحن بأعرابى قد اعترض ، فإذا شيخ فيه

(١) الأغاني ص ١٠٢ ج ١٥ (٢) وجد عليه غضب

(٣) السمل : الثوب الخلق (٤) قومس : إقليم فى طبرستان

(٥) الأبل المهرية : تنسب إلى مهرة : حى فى العرب

(٦) القود : جمع أقود وهو الطويل العنق

(٧) أعتبه : سره بعد ما ساءه والاسم العتبى

(٨) البذرفة : الخفارة

(٩) الرملة : خمسة مواضع أشهرها بلد بالشام

بقية ، على بعير له أورق (١) ، فسلم علينا فرددنا عليه السلام ، وكان معنا إسحق ابن إبراهيم الرافقي ، وإسحاق بن أبي ربيع ، ونحن نساير الأمير ، وكنا يومئذ أفره من الأمير دواب ، وأجود منه كسا (٢) . فجعل الأعرابي ينظر في وجوهنا ، فقلت : يا شيخ ، قد ألححت في النظر ! أعرفت شيئاً أم أنكرته ؟ قال : لا والله ما عرفتكم قبل يومى هذا ، ولا أنكرتكم لسوء أراه فيكم ؛ ولكنى رجل حسن الفراسة فى الناس ، جيد المعرفة بهم ؛ فأشرت له إلى إسحاق بن أبي ربيع ، فقلت : ما تقول فى هذا ؟ فقال :

أرى كاتباً : داهى الكتابة بين عليه وتأديب العراق منير
له حركات قد يشاهدن انه علم بتقسيط الخراج بصير
ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقي ، فقال :
ومظهر نسك ما عليه ضميره يحب الهدايا بالرجال مكور
إخال به جبننا وبخلنا وشيمته تخبر عنه انه لوزير
ثم نظر إلى ، وأنشأ يقول :

وهذا نديم الأمير ومؤنس يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعر والعلم راوياً فبعض نديم مرة وسمير
ثم نظر إلى الأمير ، وأنشأ يقول :

وهذا الأمير المرتجى سيب كفه فما إن له فيمن رأيت نظير
عليه رداء من جمال وهيبة ووجه بإدراك النجاح بشير
لقد عصم الاسلام منه بذائد به عاش معروف ومات نكير
ألا إنما عبد الاله بن طاهر لنا والد بر بنا وأمير

فوقع ذلك، من عبد الله أحسن موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ؛ فأمر له بخمسمائة دينار ، وأمره أن يصحبه .

وقال محمد (٣) بن الفضل الخراساني : لما قال عبد الله بن طاهر قصيدته التى يفخر

(١) الأورق من الابل : ما فى لونه بياض إلى سواد ، وهو من أطيب الابل لحماً لاسيراً .
(٢) جمع كسوة

(٣) الأغاني ص ١١ ج ١٢ ، وكان محمد بن الفضل الخراساني من وجوه قواد طاهر وابنه عبد الله ، وكان أدبياً عاقلاً فاضلاً .

فيها بماثر أبيه وأهله ويفخر بقتلهم المخلوع (١)، عارضه محمد بن يزيد الأموي الحصني (٢)، فأفرط في السب، وتجاوز الحد في قبح الرد. فلما ولي عبد الله مصر ورد إليه تدير أمر الشام علم الحصني أنه لا يفلت منه إن هرب، ولا ينجو من يده حيث حل، فثبت في موضعه، وترك أمواله ودوابه، وكل ما كان يملكه في موضعه، وفتح باب حصنه وجلس عليه، ونحن نتوقع من عبد الله بن طاهر أن يوقع به.

فلما شارفنا بلده، وكنا على أن نصبحه، دعاني عبد الله في الليل، فقال لي: بت عندي الليلة وليكن فرسك معدا عندك. ففعلت، فلما كان السحر أمر غلمانه وأصحابه ألا يرحلوا حتى تطلع الشمس، وركب وركبت معه أنا وخمسة من خواص غلمانه. فسار حتى أصبح الحصني، فرأى بابه مفتوحاً، ورآه جالساً؛ فقصد، وسلم عليه ونزل عنده، وقال له: ما أجلسك هاهنا وحملك على أن فتحت بابك، ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل، ولم تتنح عن عبد الله بن طاهر، مع ما في نفسه عليك وما بلغه عنك؟ فقال: إن ما قلت لم يذهب عني، ولكنني تأملت أُمري، وعلت أني أخطأت خطيئة حملني عليها نزع الشباب وغرة الحداثة، وأني إن هربت منه لم أفته، فباعدت البنات والحرم، واستسلمت بنفسى وكل ما أملك، وإني أتق بأن الرجل إذا قتلني، وأخذ مالي شفي غيظه، ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم، ولا يوجب جرمي أكثر مما بذلته. قال: فوالله ما اتقاه عبد الله إلا بدموعه تجري على خديته. ثم قال له: أتعرفني؟ قال: لا والله، قال: أنا عبد الله بن طاهر، وقد آمن الله تعالى روعتك، وحقن دمك وصان حرمك، وحرس نعمتك، وعفا عن ذنبك، وما تعجلت إليك وحدي إلا لتأمن هجوم الجيش، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك؛ فبكى الحصني وقام فقبل رأسه، وضمه عبد الله وأدناه، ثم قال له: أما بعد فلا بد من عتاب: يا أخى - جماعى الله فداك - قلت شعراً في قومي أغر بهم لم أظعن فيه على حسبك، ولا ادعيت فضلاً عليك، وغفرت بقتل رجل - وإن كان من قومك - فهم القوم الذين تارك عندهم، فكان يسمعك السكوت!

فقال: أيها الأمير؛ قد عفوت فأجعله العفو الذى لا يخالطه ثريب، ولا يكدر صفوه تأنيب. قال: قد فعلت، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجب عليك حقاً

بالضيافة . فقام مسرورا ، فأدخلنا فأتى بطعام كان قد أعدده ، فأكلنا وجلسنا نشرب في مستشرف له . وأقبل الجيش ، فأمرني عبد الله أن ألتقاهم فأرحلهم ، ولا ينزل أحد منهم إلا في المنزل ، وهو على ثلاثة فراسخ ، ثم دعا بدواة فكتب له بتسويغه خراجة ثلاث سنين ، وقال له : إن نشطت لنا فالحق بنا ، وإلا فأقم بمكانك ، فقال : فأنا أتجهز وألحق بالأمير ، ففعل فلحق بنا بمصر ، ولم ينزل مع عبد الله لا يفارقه ، حتى رحل إلى العراق فودعه ، وأقام بببلده !

سليمان بن وهب

هو أخو الحسن بن وهب ، كان أخوه الحسن بن وهب ينتمي إلى بني الحارث ابن كعب ، استوزر سليمان المهتدي ولقبه الوزير حقا ، لأن من كان قبله كان غير مستحق للوزارة ولا مستقل بها ، ولما ولاء قام إليه رجل من ذوى حرفته فقال : أعز الله الوزير ، خادمك المؤمل دولتك ، السعيد من أيامك ، المطوى القلب على ودك ، المنشور اللسان بمدحك ، المرتن بشكر نعمتك ، وقد قال الشاعر :

وفيت كل أديب ودني ثمنا إلا المؤمل دولاني وأيامي
فاني ضامن ألا أكافئه إلا بتسويغه فضلي وإنعامي

وإني لسكا قال القيسي : مازلت أمتطي النهار إليك ، واستدل بفضلك عليك ، حتى إذا جئني الليل ، فقبض البصر ، ومحا الأثر ، أقام بدني ، وسافر أمل ، وإذ بلغتك فهو مرادى فقط . فقال له سليمان : لا عليك فاني عارف بوسيلتك ، محتاج إلى كفايتك ، ولست أؤخر عن أمري النظر في أمرك ، وتوليتك ما يحسن أثره عليك . ولما استوزر سليمان جلس للناس ، فدخل إليه شاعر يقال له هارون بن محمد البسالي فذكر مظلة له بببلده ، ثم أنشده :

زيد في قدرك العلى علو يابن وهب من كاتب ووزير
أسفر الشرق منك والغرب عن ضو من العدل فاق ضوء البدور
أنشر الناس غيشكم بعدما كا نوارفاتاً من قبل يوم النشور
شرد الجور عدلكم فسرشنا بينكم بين روضة وسرور

فوقع في ظلامته ، ووصله بمائة دينار . قال أحمد بن الخصيب : لعهدى يزيد ابن محمد المهدي عند سليمان بن وهب بعدما استوزره المهدي ، وقد أجلسه إلى جانبه وهو ينشد قوله :

وهبتهم لنا يا آل وهب مودة فأبقت لنا جاها ومجدا يؤثل (١)
 فمن كان للآثام والذلل أرضه فأرضكم للأجر والعز منزل
 رأى الناس فوق المجد مقدار مجدكم فقد سألوكم فوق ما كان يسأل
 يقصر عن مسعاكم كل آخر وما فاتكم من تقدم أول
 بلغت الذي قد كنت أملته لكم وإن كنت لم أبلغ بكم ما أومل
 فقطع عليه سليمان الانشاد، وقال له : يا أبا خالد فانت والله عندى كما قال عمارة
 ابن عقيل لابنه :

أفهمه مسروراً اذا أبت سالما وأبكى من الاشفاق حين تغيب
 فقال له يزيد : فيسمع منى الوزير آخر الشعر لا أوله ، وتمم فقال :

ومالى حق واجب غير أننى بجودكم فى حاجتى أتوسل
 وأنكم أفضلتكم وبررتكم وقد يستتم النعمة المتفضل
 وأوليتكم فعلا جميلا مقدما فعودوا فان العود بالحر أجمل
 وكم ملحف قد نال مارام منكم ويمنعنا من مثل ذاك التجميل
 وعودتمونا قبل أن نسأل الغنى ولا بذل للبعروف والوجه يبذل

فقال له سليمان : لا تبرح والله إلا بقضاء حوائجك كائنة ما كانت ، ولو لم أستفد
 من كسبة أمير المؤمنين إلا شكرك ، لرأيت جنابى بذلك ممرعا ، وغرسى مشعرا ، ثم
 وقع له فى رقاع كثيرة .

ومن قوله وقد نكبه الواقع :

نوائب الدهر أدبتنى وإنما يوعظ الأديب نوائب الدهر أدبتنى وإنما يوعظ الأديب
 قد ذقت حلوا وذقت مرأ كذلك عيش الفتى ضروب
 مامر بؤس ولا نعيم إلا ولى فيهما نصيب
 ومن قوله يرثى أخاه الحسن :

مضى منذ مضى عز الليالى وأصبحت لآلى الحجى والقول ليس لها نظم
 وأضحى نجى الفكر بعد فراقه إذا هم بالافصاح منطقهم كظم (٢)

(١) يؤثل : يتأصل ويثبت .

(٢) كظم : سكت وصبر .

ومن قوله وفيه غناء :

أمين الخالق الباري وراعى كل مخلوق
أدر راحك فى المشوق (١) ق من راحة معشوق
ولما قبض الموفق على سليمان بن وهب وابنه عبد الله تذاكر جماعة أنه إنما
استكتبتهما ليقف منهما على ذخائر موسى بن بغا وودائعهم ؛ فلما استقصى ذلك
نكبهما لكثرة ما لهما ، فقال ابن الرومى وكان حاضراً :
ألم تر أن المال يتلف ربه إذا جم (٢) آتبه وسد طريقه
ومن جارر الماء الغزير بحمه وسد مغيض الماء فهو غريقه
ومات سليمان فى محبسه وهو مطالب :

أبو العيناء

١٧١ — ٢٨٣ هـ

يقول الرواة أن أبا العيناء ولد فى آخر المائة الثانية وتوفى سنة ٢٨٢ ، أو سنة
٢٨٣ هـ ؛ فمن ثم يكون قد أظلمت خلافته المأمون والمعتصم والوائق والمتوكل
والمنتصر والمستعين والمعز والمهتدى والمعتمد ، وصدر من خلافة المعتضد بالله
الذى تولى سنة ٢٧٩ وتوفى سنة ٢٨٩ هـ . ولقد كانت الحياة فى عصر
أبي العيناء كلها ترف ولذة ، يسودها المجون والخلاعة ، ويروج فيها العبث واللهو ،
وقد روى لنا المؤلفون كثيراً من مجالس لهُوم ومنادمتهم ، ومساجلات الشعراء
فى خلواتهم .

اتصل أبو العيناء بالمتوكل اتصالاً شديداً ، وسنعمل إلى أى حد أثر فيه هذا
الاتصال ، ولم يقتصر اتصاله بالخلفاء على المتوكل ، وإنما اتصل بغيره كما اتصل به ،
ولكن المتوكل هو الذى رفع له الحجاب ، وجعل يصغى لأحاديثه ، ولقد بهره

(١) المشوق : قصر عظيم بالجانب الغربى من دجلة قبالة سامراء فى وسط
البرية ، عمره المعتمد على الله .

(٢) جم الماء كنصر وضرب : كثر واجتمع .

منه تلك البديهة الحاضرة ، وذاك الذكاء الوقاد ، حتى رأيناه يمزج معه في كثير من مجالسه ، ويرفع التكلفة بينه وبينه .

ويظهر من أقوال الرواة أن أبا العيناء حينما ارتحل إلى بغداد كان الخليفة المأمون على رأس الدولة ، فاتصل به ، وعرف وزيره الحسن بن سهل ، وأخذ منهما الصلات والعطايا ، ولقد أثر ذلك المعروف في نفسه ، حتى قال لما بلغه موت الحسن بن سهل : والله لئن أتعب المادحين ، لقد أطال بكاء الباكين ، والله لقد أصيب بموته الأنام ، وخرست لفقده الأقلام . قال أبو العيناء : حصلت لي ضيقة شديدة فدخلت يوماً على يحيى بن أكرم فقال : إن أمير المؤمنين المأمون جلس للظالم وأخذ القصاص ، فهل لك في الحضور ؟ قلت نعم ومضيت معه ، فلما دخلنا أجلسه وأجلسني ، ثم قال يا أبا العيناء : بالآلفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم تكن لي أسباب أعيش بها ففي العلا لك أخلاق هي السبب

فقال لعلامه : انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين ، فقال بقية من مال ، قال فادفع له منها مائة ألف ، وابعث له بمثلها في كل شهر . فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون ، فبسكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه ، فقال له بعض أولاده : يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء . فقال :

شيئان لو بكك الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وبرواية أخرى : قال أبو العيناء : (١) حصلت لي ضيقة شديدة ، فكستمت عن أصدقائي ، فدخلت يوماً على يحيى (٢) بن أكرم ، فقال : إن أمير المؤمنين المأمون جلس للظالم فهل لك في الحضور ؟ قلت : نعم ! فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين ، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسني ، ثم قال : يا أبا العيناء ، ما الذي جاء بك في هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم تكن لي أسباب أعيش بها ففي العلا لك أخلاق هي السبب

(١) ثمرات الأوراق للحموي ص ٢٤٥ ج ٢ . (٢) ابن يحيى أكرم : قاض

رفيع القدر ، على الشهرة ، مات سنة ٢٤٢ هـ

فقال : لحازنه ، انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين ؟ فقال : بقية
من مال ! قال : فادفع إليه مائة ألف درهم ، وابعث له بمثلها فى كل شهر ! فلما كان
بعد أحد عشر شهراً مات المأمون ، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه ،
فدخل عليه بعض اولاده ، فقال : يا أبتاه ! بعد ذهاب العين ، ماذ ينفع البكاء ؟
ولأبى العيناء شعر ورسائل مشهورة فى البلاغة

المبرد

٢١٠ - ٢٨٥ هـ

المبرد عالم جليل من أعلام اللغة العربية ، عاش فى القرن الثالث (٢١٠-٢٨٥ هـ) ،
يخدم اللغة والثقافة ، ويدرس مذهبه فى النحو وآراءه فيه لتلامذته ، ويبحث
ويكتب ويؤلف ويعلم ، حتى أصبح بحق شيخ العلماء والنحاة وإمام العربية وقطبها ..
وأهم مؤلفات المبرد هو كتابه الكامل ، الذى يعد من أهم مصادر الأدب العربى ،
وضمنه آراءه فى الأدب والنقد والبيان ، وأشار فيه إلى بعض آرائه فى النحو العربى
ودراسته ، وكتاب الكامل مجموعة كبيرة من الأدب العربى ، شعره ونثره ، فى العصر
الجاهلى والإسلامى والأموى وصدر عصر المحدثين ، ساقها المبرد على غير نظام
ولا ترتيب ، وأضاف إليها شروحا وتعليقات وتفسيرات وتوجيهات قيمة فى دراسة
الأدب العربى ، ونحن نعينا هنا أن ندرس كل ما يتصل بالبلاغة والبيان فى كتاب
« الكامل للمبرد » ، لنتبين أثره فى هذا الميدان .. والبيان العربى أو قل البلاغة
العربية دراسة خطيرة لأصول التعبير والآداء والذوق الأدبى فى اللغة العربية ،
وقد ساعد على إنضاج هذه الدراسات مجهود العلماء المتواصل إلى آخر القرن الثالث
الهجرى ، فى كشف أسرار البلاغة العربية ، ودراسة أصولها وعناصرها وألوانها ،
ولكن مجهود هؤلاء كان مفزعا موزعا على المساسبات ، يأتى عرضا حين تحليل بيت
أو ذكر قصيدة ، وأهم العلماء الذين كان لهم أثرهم فى بدء نواة هذه البحوث البليانية
هو الجاحظ صاحب البيان والتبيين ، ثم جاء المبرد ، وألف كتابه « الكامل » ، فجاء
فيه كثير من الآراء فى البيان والبلاغة : بعضها استنبطه وابتكره ، وبعضها

الآخر تابع فيه الباحثين قبله: كالجاحظ وابن فتيبة وسواهما ، هذا فضلا عن أنه ألف كتاب «قواعد الشعر» وكتاب «البلاغة» (١) ، مما لا شك في أثره واتصاله بالبيان ودراسات البلاغة في مرحلة نشأتها الأولى . . ونحن نشير هنا إلى أهم هذه الآراء التي وردت في «الكامل» :

أشار المبرد إلى أسلوب القلب (٢) في كامله ، وذهب إلى جوازه في الكلام للاختصار إذا لم يدخله لبس (٢) ، وعلى نهج المبرد في ذلك سار ابن فارس في الصاحبي (٣) ، ويسمى قدامة هذا الأسلوب (المقلوب) ، ويجعله من عيوب ائتلاف المعنى والوزن معا (٤) .

وأشار المبرد في «الكامل» إلى أسلوب «الالتفات» (٥) ، قال : والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب . وقد سبق أبو زيد في «جمهرة أشعار العرب» المبرد إلى ذكر هذا الأسلوب (٦) . وسار على نهجه ابن فارس (٧) .

وعرف المبرد السجع بأنه ائتلاف أواخر الكلام على نسق ، كما تأتلف القوافي (٨) . وهو روح كلام الجاحظ الذي عرف السجع بأنه الكلام المزدوج على غير وزن (٩) . والسجع يذكره أرسطو في خطابه ، ويوجب أن يكون كل واحد من المصاريح مسوقا إلى المصراع الذي يليه والذي إنما يتم به المعنى (١٠) ، ويذكر الجاحظ آراء رجال البيان في السجع وآثر المطبوع منه (١١) ، كما أشار الجاحظ إلى الازدواج (١٢) . ويذكر قدامة في نقد النثر أن «من أوصاف البلاغة

(١) ٨٨ فهرست ابن النديم .

(٢) ١ / ٢١٧ الكامل للمبرد ، وص ٣٨ من كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه . من القرآن الكريم للمبرد .

(٣) ص ١٧٢ / الصاحبي في فقه اللغة العربية .

(٤) ١٣٠ نقد الشعر .

(٥) ١٧١ / ١ و ٣٠ / ٢ الكامل للمبرد .

(٦) ص ٣ الجمهرة ط ١٩٢٦ (٧) ١٧٢ الصاحبي (٨) ١ / ٣٨٢ الكامل

(٩) ١ / ١٣٣ البيان والتبيين ط ١٩٢٧ (١٠) الخطابة من كتاب الشفاء لابن

سينا (١١) ١ / ١٩٤ وما بعدها من البيان والتبيين (١٢) ٢ / ٩٦ و ٣ / ١٦ البيان

السجع في موضعه وعند سماح القريحة به ، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه (١) .

وقسم المبرد في د كمله ، الكلام إلى الاختصار المفهم والأطناب المفخم ، وقال : « وقد يقع الإيحاء إلى الشيء فيغني عند ذوى الألباب .. وإن قيل : بل الكلام القبيح في الحسن أظهر ، كان ذلك ، ولكن يغتفر الشيء للحسن ، والبعيد للقريب . ويشير المبرد إلى التعقيد اللفظي في بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا ملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

ويشرح البيت وينقده . ويشير إلى أسلوب الاستعارة التمثيلية في قولك « فلان عليه دين أو ركه دين » ، تريد أن الدين علاه وقهره ، ويذكر مثلاً للتمثيل كقوله تعالى « والسموات مطويات بيمينه » ، وسواه . ويشير إلى مثل الاستعارة ويحللها ، ويشير أيضاً إلى الاستعارة ويقول : « والعرب تستعير من بعض لبعض » ، وقد سبقه الجاحظ . بتعريف الاستعارة (٢) الذي هو روح تعريف المبرد ،

ويحلل المبرد في الكامل مثلاً من أمثلة التجريد . . ويشير إلى أسلوب اللف والنشر ، فيقول : « والعرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمي بتفسيرهما جملة ، ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره الخ » ، وسار على نهجه الصاحبى (٣) ، وقدامة يسمى ذلك صحة التفسير (٤) . . ويشير المبرد إلى مثل للكناية الاصطلاحية (٥) ، ويسمياها ابن فارس في الصاحبى الإيحاء (٦) ، ويقسم الكلام إلى مصرح وما يكفى عنه بغيره وما يقع مثلاً فيكون أبلغ في الوصف ، ويذكر أقسام الكناية (٧) وإن كان المبرد يقصد الكناية اللغوية لا الاصطلاحية ، وكذلك فعل ابن فارس في الصاحبى (٨) . ويشير المبرد إلى أسلوب التغليب : كالقمرين للشمس والقمر ، والعمرين لأبي بكر وعمر . . إلى ما سوى ذلك من الآراء البيانية التي تضمنها الكتاب .

وبعد فلاشك أن هذه الآراء كلها وردت مبثوثة مفردة في الكامل ، وخالية من الاصطلاحات العلمية ، وحينما يقف عند أسلوب من أساليب البيان ويحلله ويعجب

(١) ١٠٧ نقد النثر (٢) ١١٤ ج ١ البيان والتبيين .

(٣) ٣٠٦ الصاحبى .

(٤) ٨١ نقد الشعر (٥) ٧٧ و ١٦٦ / ٢٩٢ ، ١ / ١٨١ و ٢ / الكامل

(٦) ٢١٠ الصاحبى (٧) ٦٥٥ ج ٢ الكامل (٨) ٢١٨ و ٢١٩ الصاحبى

به ولا يسميه ، لأن علماء البيان والأدب لم يكونوا قد وضعوا له اسماً ، وإنما بلاغته وسحره لا يخفيان على متذوق .

أبو العباس ثعلب

٢٠٠ - ٢٩١ هـ

إمام الكوفيين في النحو واللغة ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن يسار الشيباني ، المعروف بثعلب (١) ، الامام النحوي اللغوي المشهور .

ولد في الكوفة عام ٢٠٠ هـ ونشأ بها ، والكوفة يومئذ مدرسة جامعة من مدارس العربية والشعر والأدب والنحو ، وعلماءها لهم منزاتهم العالية عند العلماء ، ومكاتبهم الكبيرة في قصور الأمراء والخلفاء والوزراء . وأخذ حب العربية يغلب عليه ، فعمد على دراستها وتفرغ لها وهو في سن السادسة عشرة ، وما بلغ سن الخامسة والعشرين حتى طار صيته في النحو والعربية ، وذاع ذكره ، واختلف الناس إليه (٢) . أخذ عن ابن الأعرابي م ٢٣١ هـ اللغة . وعن سبعة بن عاصم م ٢٣٧ هـ النحو ، وروى عن ابن نجدة كتب أبي زيد الانصاري ، وعن الاشم كتب أبي عبيدة ، وعن أبي نصر كتب الاصمعي ، وعن عمر بن أبي عمرو كتب أبيه أبي عمرو بن العلاء ، وحفظ كتب القراء كلها وسنة لم تتجاوز الخامسة والعشرين ، وكان ثعلب يدرس كتب القراء م ٢٠٧ هـ والكسائي .. وثعلب من أعلام الكوفيين في النحو (٣) ؛ وكان يعاصر ثعلباً من أئمة النحويين : أبو عبيدة م ٢١٣ هـ والاصمعي م ٢١٥ هـ وأبو زيد الانصاري م ٢١٥ هـ وابن سلام الجعفي م ٢٣١ هـ والأخفش الأوسط م ٢١٨ هـ ، والجري م ٢٢٥ هـ ، والتوزي م ٢٣٨ هـ ، والمازني م ٢٤٩ هـ والزبادي م ٢٤٩ هـ ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥ هـ ، والرياشي م ٢٥٧ هـ

(١) راجع ترجمته في : ص ١١٠ - ١١١ فهرست ابن النديم ، و ٢٩٣ نزهة الالباء في طبقات الادباء ، و ١٣٣ - ١٥٤ / ٢ معجم الادباء نشر مرجليوث ، و ١٠٢ - ١٤٦ / ٥ معجم الادباء نشر فريد رفاعي ، و ٥١٢ / ١ وفيات الاعيان لابن خلكان ، و ١٨٠ / ٢ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ، و ٢١٦ / ٤ وما بعدها مروج الذهب للسعودي ، و ١ / ٨٤ كتاب الأعلام و ٤١ كتاب طبقات المفسرين ، و ٥٥ كتاب غاية النهاية و ١٧٢ بغية الوعاة للسيوطي .

(٢) ١٤٠ / ٥ معجم الادباء . (٣) راجع ١٤٣ / ٥ المرجع نفسه .

والمبرد م ٢٨٥ هـ . كما كان يعاصره من أئمة النحويين الكوفيين : ابن حازم المعروف بالبحاني م ٢٢٠ هـ ، وأبو عبيد القاسم ابن سلام م ٢٢٣ هـ ، وابن الأعرابي م ٢٣١ هـ ، وابن سعدان م ٢٣١ هـ ، والطوال م ٢٤٣ هـ ، وابن السكيت م ٢٤٤ هـ ، وأبو جعفر محمد بن قادم م ٢٥١ هـ . كما عاصره : ابن دريد (٢٢٣ — ٣٢١) ، وسواه من العلماء . وكان من أساتذته : محمد بن زياد الأعرابي ولزمه بضع عشرة سنة (١) ، وسلمة ابن عاصم ، ومحمد بن سلام الجحفي ، والزيير بن بكار م ٢٥٦ هـ ، وغيرهم ؛ وكان يعنى بالنحو أكثر من عنايته بغيره ، فلما أتقنه أكب على الشعر والمعاني والغريب ، وقدم الرياشي البصري بغداد عام ٢٣٠ هـ ، فأخذ عنه ثعلب أيام الناس والأخبار والأشعار (٢) . وكان ثعلب ثقة ديناً ، مشهوراً بصدق اللهجة ، والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم ، مقدماً بذ الشيوخ وهو حدث ، ثقة بعله وحفظه ، أصدق أهل العربية لساناً ، وأعظمهم شأناً ، وأبعدهم ذكراً ، وأرفعهم قدراً ، وأوضحهم علماً ، وأرفعهم مقاماً ، وأثبتهم حفظاً ، وأوفرهم حظاً في الدين والدنيا (٣) ، وكان ثقة متقناً حجة ، كما يقول أبو الطيب في مراتب النحويين (٤) ، وتبحر في مذهب البصريين (٥) ، فوق إمامته في النحو على المذهب الكوفي . وكان مشهوراً بغزارة حفظه ، ومع ذلك لم يكن موصوفاً بالبلاغة ؛ وإذا كتب إلى بعض إخوانه من أصحاب السلطان لا يخرج عن طبع العامة ، فإذا أخذ في الغريب والشعر ومذهب الفراء والكسائي رأيت من لا يني به أحد ، وكان هو والمبرد عالين ختم بهما تاريخ الأدب (٦) ؛ وإليه وإلى المبرد انتهى الاجتهاد في النحو (٧) ؛ كما انتهى علم الكوفيين إلى ابن السكيت و ثعلب وكانا ثقتين ، كما يقول أبو الطيب في مراتب النحويين (٨) . وتتلذذ عليه كثير من العلماء وفي مقدمتهم : الأخفش م ٣١٨ هـ ، وابن عرفة نفطويه م ٣٢٣ هـ ، والزجاجي البغدادي النحوي م ٣٠٧ هـ ، والزجاج م ٣١١ هـ ، وابن الأنباري . كما تتلذذ عليه ابن المعتز (٩)

-
- (١) ١٠٩/٥ معجم الأدباء (٢) ١٣٢/٥ المرجع
 (٣) ١٩٣ وما بعدها نزهة الألبا (٤) ١١٩/٥ معجم الأدباء
 (٥) ١٢٠/٥ المرجع (٦) ١٢٢/٥ المرجع
 (٧) نشأة النحو للشيخ محمد طنطاوي (٨) راجع ١٢٧/٥ معجم الأدباء
 (٩) ٣٠١ نزهة الألبا ، ٣٤١ فوات الوفيات ، ١٤٠/٥ التمدن الاسلامي، =

م ٢٩٦ هـ ، وقداة م ٣٣٧ هـ ، والصولى م ٣٣٦ هـ ، وسواهم من الادباء والعلماء والشعراء والامراء . وكان على بن محمد الكوفى أحد أعيان تلاميذه (١) ؛ وكان أبو على أحمد بن جعفر النحوى ختنه زوج ابنته . . ومع ذلك كان يختلف إلى المبرد ويأخذ منه (٢) .

وكان بين المبرد وثلعب الكثير من المناظرات ؛ وتعصب لكل منهما كثير من العلماء . واختلف الناس فى تفضيل أحدهما على الآخر ؛ والمنصفون من العلماء ينوّهون بالرجلين ويرفعون من شأنهما ، وسئل أبو بكر بن السراج تلميذ المبرد م ٣١٦ هـ عنهما أيهما أعلم ؟ فقال : ما أقول فى رجلين العالم بينهما (٣) .

عاصر ثلعب المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكشفي ، وعاش مبجلًا عند الأمراء والخلفاء والعلماء وعامة الناس ، وجمع ثروة كبيرة ، وكان مع ذلك مقترًا على نفسه ، ولم يرزق غير بنت واحدة ، وتوفى ليلة السبت اثنى عشر بقية من جمادى الأولى عام ٢٩١ هـ فى خلافة المكشفي ، ودفن بمقابر باب الشام ، وقبره هناك معروف (٤) . . ولشاعر فى رثائه :

مات ابن يحيى فماتت دولة الأدب ومات أحمد أنحى العجم والعرب
فإن تولى أبو العباس مفتقدًا فلم يمت ذكره فى الناس والسكتب
وترك ثلعب ثروة عليّة كبيرة وكتبها مشهورة متداولة بين الناس فى عصره ، منها :

١ — شرح ديوان زهير ، ومنه نسخة خطية فى الاسكوريال .

٢ — د د د د د الأعشى د د د د د

٣ — كتاب الأمالى ذكره صاحب المزهرة وصاحب خزنة الأدب ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة برلين (٥) ، وفى المكتبة الخديوية نسخة منه (٦) باسم « مجالس

= ١٠/٩٥ تاريخ بغداد ، ١٠٧ و ١١٤ و ١١٦ الأوراق للصوى قسم أشعار أولاد الخلفاء ، ١٧٢ أدب الكتاب الصوى . (١) ٥/١٢٧ معجم الأدباء

(٢) ٥/١٢٠ المرجع (٣) ١٣٨ ج ٥ المرجع (٤) ١٠٥ ج ٥ معجم الأدباء

(٥) ١٨٠ ج ٢ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان

(٦) بنمرة ٢٣ ش لآبى مقسم النحوى ، وهى مجموعة مجالس يروى أكثرها عن أستاذه ثلعب . مجلد مخطوط

ثعلب ، في ١٣٢ صفحة ، وسنشره إن شاء الله .

٤ — كتاب الفصيح ؛ ويعرف بفصيح ثعلب ، وقد نشرناه عام ١٩٤٨ .

٥ — قواعد الشعر ، وقد نشرناه من مدة قريبة ، وقد طبع بليدن عام ١٨٩٠ م طبعة سقيمة محرفة فيها الكثير من الأخطاء . وفيه آراء كثيرة في النقد والبيان .

٦ — ومن كتبه أيضا : حد النحو ، غريب القرآن ، معاني الشعر ، المصون في النحو ، اختلاف النحويين ؛ وغيرها من نقائس المؤلفات التي بددتها الأيام .

وبعد ؛ فثعلب إمام من أئمة العربية ، مقدم عند العلماء . وله مع ذلك كله روايات كثيرة في الأدب ، تجد بعضها في الموشح لمرزباني ؛ كما أن له ذوقا في فهم الشعر ونقده ، عاب قول قيس بن الخطيم : « كأنها عود بانة قصف » :

لأن المرأة تشبه بالعود المتثنى لا المتقصف (١) . وكان يفضل جريرا على الفرزدق (٢) ، وكان هو وابن الأعرابي يتمصبان على أبي تمام (٣) . ويشرح ثعلب بيت العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا
بأن الانسان قد يفارق محبوبه رجاء أن يغنم في سفره فيعود إلى محبوبه
مستغنياً عن التصرف ، فيطول اجتماعه معه (٤) .

وهكذا كان ثعلب بحق إماما جليلا ، وشيخا معدودا من شيوخ اللغة والأدب والشعر والعربية ؛ فرحمه الله وأجزل مثوبته كفاء خدمته للعلم والدين ولغة الكتاب الحكيم .

وثلعلب كتاب قواعد الشعر .. و قواعد الشعر أحد مؤلفات هذا العالم الكبير ، وللبرد كتاب اسمه : « قواعد الشعر » أيضا ، لا ندرى عنه ولا عن موضوعه شيئا ، ولا نعلم من منهما الذي سبق بتأليف كتابه ، وإن كان يغلب على ظني أن ثعلبا هو السابق بتأليف كتابه لتقدمه في السن ، والكتاب جديد في شتى نواحيه :

(١) ٣٤٧ الموشح لمرزباني . (٢) ١١٧ الموشح لمرزباني .

(٣) ٣٢٩ الموشح لمرزباني . (٤) راجع ١٣٤/٥ معجم الأدباء .

أما من حيث موضوعه فقد درس ثعلب في الكتاب هيكل الشعر العربي دراسة عامة جيدة جميلة مبتكرة ؛ فتكلم على قواعد الشعر العامة وأنها أربع : أمر ونهى وخبر واستخبار ، ولا شك أن ذلك لا يختص بالشعر وحده ، بل النثر مثله فيه ؛ كما عرض لفنون الشعر وقسمها إلى : مدح وهجاء ومرثية واعتذار وتشبيه وتشبيب واقصاص أخبار . وذكر شواهد التشبيه الجيد ، وشواهد لرائع المديح . ثم تحدث عن : المبالغة (الإفراط في المعنى) ، وذكر شواهد لها من الشعر العربي ؛ وعن لطافة المعنى (التعريض والكناية بدل التصريح) وشواهدا ؛ والاستعارة ومثلها ؛ وحسن الخروج أو التخلص كما يقول البلاغيون ، ومجاورة الأضداد أو الطباق كما يسميه البلاغيون ؛ والمطابق وهو نوع من الجناس مع ذكر نماذج لكل باب من هذه الأبواب من جيد الشعر الجاهلي والاسلامي والاموي ، دون أن يتخطى ذلك في الاستشهاد إلى شعر المحدثين ؛ ثم عرف الجزالة في الشعر ؛ وتكلم على اتساق النظم ومخترزاته . وأخيراً تجده يقسم الشعر خمسة أقسام ، ويتحدث عن كل قسم ويحدده ويوضحه ، ويذكر شواهد كثيرة له . . وبذلك ينتهي الكتاب .

والكتاب أولى أثر علمي لعالم من علماء القرن الثالث يتحدث فيه مؤلفه عن الشعر بهذا اللون من الدقة والتحديد والوضوح والفهم للشعر والأدب والتذوق لهما ، والوقوف على أثر بلاغتهما . ود البديع لابن المعتز ، م ٢٩٦ هـ لا يشارك كتابنا د قواعد الشعر ، في هذا ، لابن المعتز ألف د البديع ، ليتحدث فيه عن ألوان البديع العامة كما كان يعرفها هو ويعرفها عصره ، لا ليتحدث عن الشعر بمثل هذا الحديث الجيد النقدي . ود الرسالة العذراء ، لابن المدبر م ٢٧٩ هـ لا تشارك د قواعد الشعر ، في ذلك أيضا ، لأنها إلى البلاغة أقرب منها إلى الحديث عن الشعر ، ود الكامل ، للمبرد م ٢٨٥ هـ ليس فيه أثر للتخصص في دراسة الشعر أو البديع أو البلاغة بوجه عام . ود البيان ، للجاحظ . وما فيه من دراسات عن الشعر أو النقد أو البيان هي دراسات عامة لا تخصص فيها ، والكتاب لم يؤلف لها ، وأحكامه الأدبية والبيانية أحكام مقاربة ، ليس فيها مثل هذا الوضوح ولا مثل تلك الدقة .

وأما أثر الكتاب في البيان فهو ولا شك أثر كبير ، فنحن نجد أنفسنا لأول مرة أمام عالم يؤلف ويكتب ويتحدث عن كثير من ألوان البديع والبيان : كالتشبيه ، والاستعارة ، ولطافة المعنى ، أو التعريض والكناية كما نقول نحن ، وكالإفراط في المعنى (المبالغة) ، وحسن الخروج ومجاورة الأضداد (الطباق) ؛

والمطابق (لون من أول الجنس) . والثلاثة الأنواع الأولى هي أصل علم البيان وباقي الأنواع هي أبرز ما في البديع من فنون . وابن المعتز من غير شك أفاد من أستاذه ثعلب في هذه الدراسة ، ونحن تكاد نجزم بأن ثعلباً ألف هذا الكتاب قبل أن يؤلف ابن المعتز كتابه « البديع » ، عام ٢٧٤ هـ لأن ثعلباً عالم ماهر ، ولأنه لو كان ابن المعتز قد سبقه بالتأليف لما أمكن ثعلباً أن يقف عند هذا الحد في عرض ألوان البيان والبديع الساحرة في الشعر العربي والتي ألم بها ابن المعتز ، مثل الالتفات والاعتراض وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن الابتداء وحسن التضمين وتأکید المدح بما يشبه الدم والمذهب الكلامي وغيرها . إذ كان ثعلب ولا شك سيستفيد من دراسات ابن المعتز — لو كان ابن المعتز قد ألف كتابه « البديع » ، قبل أن يؤلف أستاذه « قواعد الشعر » — وسيحاول أن يقتبس منها بعض الاقتباس في كتابه . ومن الغريب أن لا يشير ابن المعتز في « البديع » ، إلى كتاب « قواعد الشعر » ، مع أنه ساق بعض الشواهد الواردة في « قواعد الشعر » ، ومع أنه قريب في تحديد الاستعارة وغيرها من أستاذه ثعلب . بل ومن الغريب أيضاً أن يخالفه في تسمية « المطابق » ، الذي سماه ثعلب « مجاورة الأضداد » ، وفي تسمية « الجنس » ، الذي سمي ثعلب نوعاً منه « المطابق » ، ولكن لا ضير في اختلاف الاصطلاحات ، فلكل مؤلف أو مفكر الحق في تسمية ما يشاء بما يشاء ، ومن قبل ذكر أرسطو أنه مطلق لكل أحد احتياح إلى تسمية شيء ليعرفه به أن يسميه بما شاء من الأسماء (١) . ولكن الغريب حقاً أن يقول ابن المعتز عن نفسه « وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد (٢) » ، فلا شك أن لثعلب الفضل في أنه جمع في « قواعد الشعر » ، بعض ألوان البديع التي ذكرها ابن المعتز في كتابه مثل : التشبيه والاستعارة ولطافة المعنى والتعريض ومجاورة الأضداد والمطابق .. وهذه الأنواع هي أهم ما في كتاب « البديع » ، لابن المعتز من ألوان البديع ، و « قواعد الشعر » ، يمتاز بأنه يعرض لأصل هام في البلاغة العربية بتقسيمه الشعر : إلى خبر واستخبار وأمر ونهى .

وأما أثر الكتاب في الأدب والشعر فلا شك فيه لوضوحه ، فهذا الحديث عن الشعر بهذا الأسلوب قد أفاد دراسات الأدب جميعاً ، فوق ما في الكتاب من شواهد كثيرة من جيد الشعر العربي تبلغ نحو المائتين ، فوق هذا العرض الجميل

لفنون الشعر والوانه العامة . وأما أثره في النقد الادبي بمعناه العام ، فالكتاب نراه يتحدث عن الجزالة في الشعر ، وعن اتساق النظم ، وعن أقسام أخرى للشعر ، في أسلوب جيد ، وعرض هو إلى النقد أقرب منه إلى الشعر أو البلاغة : بما لا شك في قيمته في النقد ، فوق قيمته في دراسات الشعر .

نقد النثر وقـدأمة

— ١ —

« نقد النثر ، كتاب رائع في البيان وأساليبه وفنونه ، من نثر وشعر وخطابة وجدل ومحادثة ، وفي البلاغة وحقيقتها وأوصافها ومظاهر الجمال فيها . والكتاب ينطق عن ثقافة مؤلفه الواسعة ، والمأه البعيد بالكثير من علوم الدين والعربية وعلوم الفلسفة والكلام . وقد تأثر مؤلفه فيه أكثر ما تأثر بكتاب الخطابة لارسطو ، وكتاب البيان للجاحظ ، وهو أول مؤلف كامل في البيان يطلعنا على التطور التألفي في هذا العلم ، وقد تولت كلية الاداب نشره في عام ١٩٣٢ ، وكتب أستاذان من أسانذتها مقدمتين له ، وقد اعتمدا في نشره على صورة فتوغرافية للنسخة الوحيدة المخطوطة والمحفوظة بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ٢٤٢ ، وقد ثارت ضجة كبيرة حول مؤلف هذا الكتاب ، واختلف في ذلك العلماء اختلافا كبيرا ، فالمرحوم الاستاذ الشنقيطي (١) والاستاذ العبادي (٢) يتابعان بعض المستشرقين في أن الكتاب لقدامة بن جعفر م سنة ٣٣٧ هـ ، ولكن بروكلمان ودر نبورغ (٣) يريان أن الكتاب لتلميذ لقدامة ورد اسمه على الصفحة الاولى من النسخة الخطية للكتاب ، وهو أبو عبد الله بن أيوب ، ويتابعهما في ذلك هيوار . . اما الاستاذان لني دلا فيدا وكرتشوفسكي فيريان أن ابن أيوب رجل اندلسي عاش بعد قدامة بعهد طويل ، وأنه استمد نقد النثر من مؤلفات قدامة : ولكن بعض المستشرقين يقفون في بحثهم موقف الشك ، ويتابعهم في ذلك الدكتور طه حسين . . وبين هذا الاختلاف الكثير ، يجد الباحث مشقة عسيرة في الوصول إلى نتيجة حاسمة في ذلك المجال الغامض العسير ، ولكن متابعة البحث والإفادة من البحوث التي كتبها الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة ، والتي اتجه فيها إلى نفي نسبة الكتاب لقدامة ، ودمغ ذلك بحجج قوية ، كل ذلك يؤدي بنا إلى ثلاث نتائج

(١) تقرير رقم ٣٤٣ مكتبات بدار الكتب المصري .

(٢) ص ٤٢ مقدمة نقد النثر للاستاذ العبادي . الطبعة الثانية .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة قدامة .

أولاً ؛ أن الكتاب ليس لقدامة ، ولا يمكن أن يكون له ، وأدلتنا على ذلك :
(أ) لم يذكر عن قدامة فيما وصل إلينا من كتبه أن له كتاباً بهذا الاسم ولا في ذلك الموضوع نفسه ، وقد أرخ لقدامة علماء كثيرون كابن النديم — وهو أقربهم عهداً به — وكالخطيب البغدادي وابن خلكان وسواهم ، ولم يذكر أحد منهم أن له كتاباً بهذا العنوان ، مع أنهم ذكروا كتابه «نقد الشعر» ، وعنوا به ، وحفظوا بهذه العناية بعض العلماء اشرحه والتعليق عليه .

(ب) ومن العسير أن يؤلف مؤلف كتابين في موضوع واحد كالنقد ، ثم لا يحيل القارئ في أحد كتابيه على الآخر ، مع أن مؤلف «نقد النثر» يحيل على كتبه الأخرى كثيراً .

(ج) على أن شك العلماء والباحثين في نسبة الكتاب لقدامة ، وجزم بعضهم جزمًا يعتمد على الدليل بأن الكتاب ليس له ، كل ذلك ينفي أن يكون الكتاب لقدامة .

(د) وشخصية قدامة شخصية المستقل في آرائه ، المجدد في بحوثه ، كما نعرفه في كتابه «نقد الشعر» الثابتة نسبته له ، أما شخصية مؤلف نقد النثر كما تبدو من الكتاب فهي شخصية المحتذى لغيره ، يظهر ذلك في احتذائه للجاحظ وكتابه «البيان والتبيين» وأخذه الكثير عنه في كل فصل وباب ، كما يظهر ذلك في احتجاجه بأراه أرسطو واقتباسه من كتاب «الخطابة» .

(هـ) والاتجاه السياسي والديني لمؤلف نقد النثر هو الاتجاه الشيعي فهو يشيد بعلي وذريته كالحسن والحسين والباقر والصادق والرضا . وقدامة بعيد كل البعد عن ذلك الاتجاه ومظهر ذلك كتابته التأليفية في «نقد الشعر» ، على أن مكانته البارزة في الدولة العباسية ومهامه الإدارية في ديوانها كانت تحول بينه وبين الانضمام إلى أعداء الدولة من الشيعيين ، وليس من المعقول أن يكون ذلك جديداً على قدامة ، قد اضطرت إليه الأحداث السياسية التي حدثت في آخر حياته باستبداد بني بويه بالخلافة العباسية سنة ٣٣٤ هـ ، فخلق قدامة وقصر المدة بين وفاته وقيام الدولة الجديدة بما كان يحول بينه وبين هذا الانقلاب .

(و) وثقافة قدامة ثقافة عقلية صبغت بصيغة الأدب ؛ وهو في نقد الشعر أعمق بحثاً وأكثر فهماً للشعر وعناصره ، وهو فيما وضع من موازين للنقد متأثر باتجاهه العقلي الفلسفي ، وكثيراً ما يخطئ في تطبيقه الموازين العقلية الجامدة على الشعر ،

كما يظهر ذلك في كتاب « نقد الشعر » . أما ثقافة مؤلف نقد النثر ، فهي ثقافة أدبية علمية صبغت بصبغة الفلسفة ، واتجاهه العقلي أكثر تأثراً بثقافة المتكلمين منه بثقافة الفلاسفة ، وثقافته الدينية واسعة فهم البيان ودراسته ، وهذه ناحية جديدة بعيدة عن قدامة كل البعد .

(ز) ومنهج قدامة في النقد - كما تراه في « نقد الشعر » - منهج تفصيلي طريف ، فقد عني فيه أولاً باحصاء مظاهر الأداء البياني التي تمس الفكرة وتعرض العقل وتوجه إلى سلامة المعنى ، مما تأثر به ابن سنان الخفاجي من بعده في بحثه البياني في البلاغة والمعاني . ولكن منهج مؤلف « نقد النثر » في نقد البيان منهج إجمالي خصب ، انجبه فيه صاحبه إلى بحث ألوان البيان وفنونه عامة ، وإلى بحث البلاغة وعناصرها ، وإلى تطبيق نظرية المطابقة لمقتضى الحال على الشاعر والناثر والخطيب ، وهو في هذا الاتجاه الإجمالي لا يجيد البحث التفصيلي في مظاهر الجمال .

(ح) وأسلوب قدامة أسلوب مرسل بعيد عن السجع والازدواج . أما أسلوب مؤلف « نقد النثر » ، فأسلوب أديب حريص على السجع ، فإن لم يواته السجع واتاه الازدواج (١) . والتفاوت بين أسلوبين دليل قوى على أن الكتائين لشخصيتين مختلفتين ، وشأن بين أسلوب رجلين : فيلسوف يتأدب ، وأديب ينفاسف ، والموازنة بين البحوث المشتركة في الكتائين تؤدي إلى ما نذهب إليه - وإن قل ما بينهما من اشتراك - : فبين كل من الكتائين تباين كثير في الموضوعات المشتركة : في الانجاء والروح وفي العرض والتحليل ، فبحث كالتشبيه في نقد الشعر مبين لنفس هذا البحث في نقد النثر (٢) ، والاستعارة عند مؤلف نقد الشعر غيرها عند مؤلف نقد النثر (٣) ، وجمال الشعر عند قدامة غيره مؤلف نقد النثر ، ومن العسير على الباحث أن يأخذ هذا الاتفاق في الموضوعات على علته كدليل على أن الكتائين لمؤلف واحد ، فالدراسة المقارنة لهذه البحوث المشتركة ، هي وحدها الحكم في شخصية المؤلفين ، ومصدر الكتائين .

(١) راجع مثلاً ص ٥ نقد النثر .

(٢) ٦٥ نقد الشعر ، ٥٨ نقد النثر (٣) ١٠٤ - ١٠٦ نقد الشعر ، ٧٠

ثانيا

١ — أبو عبد الله محمد بن أيوب بن محمد الذي ورد اسمه في الصفحة الأولى من النسخة الخطية للكتاب ، والذي لم يمتد لشخصيته الكثير من الباحثين ، والذي زعم بعض المستشرقين أنه مؤلف الكتاب ، هو فقيه وقاض أندلسي عاش ما بين ٥٣٠ — ٦٠٨ هـ (١) : فليس هو تلميذا لقداة كما ذهب إليه بروكلمان وسواه .

ب — وليس ابن أيوب هذا هو مؤلف الكتاب كما ذهب إليه درنبرغ : وهيوار ولني دلافيدا وكرتشو فسكى وسواهم . ودليلنا على ذلك :

١ — ثقافة الكتاب وروحه واتجاهه وبحوثه والأعلام الواردة فيه تؤكد لنا تأكيداً جازماً بأن الكتاب من إنتاج أول القرن الرابع على أقصى تقريب وقد ورد فيه أعلام كابن دريد وكتابه « الملاحن » ، (٢) ، وابن دريد علم لغوي عاش من ٢٢٣ — ٢٢١ ، وكابن التستري (٣) وهو قريب العهد من صنائع بني الفرات (٤) . وكان أدبياً يلتزم السجع ويستعمل الغريب ويتقعر في منطقته (٥) . وعاش في أواخر القرن الثالث (٦) ، ولعله أبو سهل عبد الله التستري المتوفى عام ٥٢٨ هـ . وليس في ذكر المؤلف لابن دريد ولا لابن التستري ومشاهدته لياهما تناقض مع نقول .

٢ — يأخذ ابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه الأسرار والدلائل بعضاً من الآراء المبسوطة في الكتاب ، فمنهج عبد القاهر في الدفاع عن الشعر (٧) وفي تقسيم التشبيه (٨) هو منهج مؤلف نقد النثر (٩) . والرأى الذي ناقشه ابن سنان — من أن للايجاز مواضع وللأطناب مواضع هو الرأى الذى بسطه مؤلف نقد النثر (١٠) . . . ولا يعقل أن يأخذ هذان العالمان من ابن أيوب وهما في القرن الخامس وهو في السادس والسابع

٣ — وليس لابن أيوب صلة بالكتاب سوى أن هذا الكتاب قد نسخ له في آخر القرن السادس الهجرى وكتب الناسخ اسمه على النسخة التى كتبها ، كما ترشدنا إلى ذلك العبارة فى عنوان هذه النسخة الخطية التى حيرت فى فهمها الباحثين ، وهى

(١) تكملة الصلة لابن الأبار ج ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٩

(٢) ٦٩ نقد النثر (٣) ١٠٨ نقد النثر (٤) ١٩٣ فهرست (٥) ١٠٨

نقد النثر (٦) هامش ١٠٨ نقد النثر (٧) ص ١٣ وما بعدها دلائل الإعجاز

(٨) ٧٠ وما بعدها أسرار البلاغة (٩) ٥٨ و ٧٧ و ٧٩ — نقد النثر

(١٠) ٩٧ نقد النثر

كتاب «نقد النثر» مما عني به أبو الفرج «قدامة بن جعفر» الكاتب العراقي رضى الله عنه وأرضاه للفقهاء المكرم أبي عبد الله محمد بن أيوب بن محمد بن محمد نفعه الله به ، وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان

ثالثا : وإذا كان الكتاب ليس لقدامة ، ولا لابن أيوب فلن هو إذأ من العلماء ؟ لقد واليت البحث في ذلك ، وخلصت أن الكتاب قد يكون لتلميذ لقدامة تأثر فيه بأراء أستاذه في النقد والبيان ، فحمل بعد عصره على أن الكتاب لاستاذه ، وسمى «نقد النثر» ، وإن كان اسمه في الحقيقة «البيان» ، ولكن البحوث التي قمت بها أثبتت خطأ هذا الظن ، وقد يكون الكتاب لوالد قدامة : «جعفر بن قدامة بن زياد» المتوفى سنة ٣١٩ هـ ، وليس لابنه قدامة . وجعفر هذا هو أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم وافر الادب حسن المعرفة ، وله مصنفات في صنعة الكتابة وغيرها (١) ، والادلة التي تؤكد هذا الرأي هي :
١ — ثقافة الكتاب العلمية لا تدل على أنه من معين ثقافة القرن الرابع الواسعة وإنما تدل على أنه قد ألف بعد عصر الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ وفي أواخر القرن الثالث الهجري ، والاعلام الواردة في الكتاب والتي لا تتجاوز ذلك التاريخ أصدق شاهد على ما نقول ، وتأليفه في معارضة كتاب البيان للجاحظ (٢) مما يزيد ذلك قوة .
٢ — وكثير من مؤلفات جعفر قد نسب لابنه قدامة خطأ (٣) ، كما أن بعض الباحثين قد شك في نسبة بعض كتب قدامة له ، ورأى انها لأبيه ، كالمطرزي شارح المقامات المتوفى سنة ٦١٠ هـ

٣ — وصنعة الكتابة التي قال الخطيب البغدادي إن لجعفر مؤلفات فيها ترادف كلمة نقد النثر وكلمة البيان ، وهي اصطلاحات كانت تدل في ذلك العصر على قواعد البيان التي يضعها العلماء للكتاب ، يفصلون لهم فيها مشكلات البيان العربي وبلاغته ، ويرسمون فيها المذاهب الادبية التي يجب على الكتاب احتذاؤها ، وذلك كله ما نراه مبسوطا في «نقد النثر» ، مما يدل على أنه من مؤلفات جعفر في صنعة الكتابة

٤ — وظاهرة التشيع التي نراها في نقد النثر لا تنبع إلا من قلب رجل لم يخلص للدولة لإخلاص قدامة ، وعاش بعيداً عن مناصبها كما عاش جعفر

فنحن لا نشك - ولا يستطيع باحث أن يشك - في أن الكتاب ليس لابن أيوب ، بعد ما بسطناه من أدلة دامغة . أما نفي نسبة الكتاب لقدامة فهو ما أيدناه بالحجج الكثيرة القوية ، رغم أن كثيراً من الباحثين يرون غير ما رأيناه ، وقد قرأت أخيراً في الجزء الثاني من الامتاع والمؤانسة تأليف أبي حيان التوحيدي الذي ظهر من حين - نصاً جديداً أراه حرياً بالفهم والبحث والتحقيق (١) : قال أبو حيان - في أثناء كلامه على بلاغة الشعر وبلاغة النثر - ما نصه : « وما رايت أحداً تناهى في وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر في المنزلة الثالثة من كتابه . قال لنا علي بن عيسى الوزير : عرض على قدامة كتابه سنة عشرين وثلثمائة ، وخبرته فوجده قد بالغ وأحسن ، وتفرد في وصف فنون البلاغة في المنزلة الثالثة ، بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى ، بما يدل على المختار المجتبى والمعيب المجتنب ، ولقد شاكه فيه الخليل بن أحمد في وضع العروض ، ولـكني وجدته هجين اللفظ ركيك البلاغة في وصف البلاغة ، حتى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه وكأن ما يدل به غير ما يدل عليه ... وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم وحسن التصور ، ... فأبو حيان على لسانه حيناً ، وعلى لسان ابن عيسى الوزير حيناً آخر يقرر :

١ — أن قدامة بذ سابقه في وصف النثر وفنون البلاغة من طريق اللفظ والمعنى في المنزلة الثالثة من كتابه .

٢ — أنه بتأليفه هذا الكتاب وابتكاره لبحوثه يضارع الخليل بن أحمد في سمو مكانته وابتكاره لعلم العروض .

٣ — أن كتابه هذا عرض على علي بن عيسى الوزير سنة ٣٢٠ هـ .

٤ — أن أسلوب قدامة في كتابه هجين اللفظ ركيك البلاغة في وصف البلاغة ، واعتذار الوزير عنه في ذلك رائع ممتع دال على مدى مكانة قدامة عند معاصريه من المفكرين ، ولكن ما هو هذا الكتاب استحق هذا التقدير والإعجاب من رجلين يعدان من أعظم رجال الفكر الإسلامي في القرن الرابع الهجري : أهو نقد النثر

أم سواء ؟ أجزم جزماً قاطعاً بأنه ليس هو « نقد النثر » ، إنما هو كتاب آخر سأذكر اسمه بعد قليل :

١ — ذلك أن كتاب « نقد النثر » — من ناحيته التأليفية — لم يرتب منازل ، وليس فيه منزلة ثالثة في وصف فنون البلاغة من طريق اللفظ والمعنى عما يدل على الجيد أو الرديء من الكلام ، كما يقول الوزير ، إنما هو في البيان الذي يقسمه إلى بيان بالحال ، وبيان بالاعتقاد وبيان بالكتابة وبيان باللسان . والبيان باللسان عنوانه المؤلف بهذا العنوان : « البيان الرابع العبارة (١) » ، وتكلم فيه على خصائص الأسلوب العربي التي تتفق العربية واللغات الأخرى فيها ، وعلى الخصائص الأخرى التي تنفرد بها العربية ، من : اشتقاق وتشبيه ولحن واستعارة ولغز ووحى ومبالغة وحذف وتقديم وتأخير واختراع ، كما تكلم فيه على تأليف العبارة (٢) ، بالتحدث عن أوصاف الشعر ، وأوصاف النثر بسائر ألوانه : من خطابة وترسل ومجادلة وحديث ... أما ما ذكره الوزير فموضوع نجده مفصلاً في « نقد الشعر » ، وقد يكون في كتب أخرى لقدامة . فأما « نقد النثر » فليس له بذلك صلة ، وليس فيه وصف لفنون البلاغة من طريق اللفظ أو المعنى كما يقول ، وليس فيه تحليل لمذهب قدامة في النقد كما يرى .

٢ — على أن التوحيدى يرى أن قدامة قد استبدت بكتابه — الذى لم يسمه أبو حيان — بشرف ، يسمي الشرف الذى ناله الخليل بابتكاره علم العروض ، فهل يبوى قدامة هذه المنزلة : « نقد النثر » ، إن كان هو الذى يريده أبو حيان أو الوزير ؟ لا ، فإن « نقد النثر » ليس من الابتكار الفكري فى شيء ، كما كان كتاب الخليل فى العروض ، وكما نرى قدامة فى « نقد الشعر » ، إنما هو لون من الاحتذاء الفكرى لأرسطو والملاحظ ، وتدوين لعناصر البيان الأولى التى أثرت فى عصر قدامة وقبيل عصره بقليل .

٣ — على أن الأسلوب الذى ذمه الوزير هو الأسلوب المنطقى المأثور عن قدامة ، الذى يرشدنا إليه كتابه « نقد الشعر » ، أما أسلوب « نقد النثر » فأسلوب بليغ ممتع فيه إشراف البيان . وعليه رونق البلاغة : فلو كان « نقد النثر » هو الذى عناه الوزير

(١) ٤٣ نقد النثر .

(٢) ٨٤ المرجع السابق

لما نقد أسلوبه هذا النقد اللاذع المرير . . . وإذا فليس « نقد النثر » هو الكتاب الذى عناه أبو حيان والوزير . . . ويحق لنا إذا أن نتطلع لمعرفة ، حتى يبعد اللبس ، وتستبين السبيل ، ويخلص لنا الدليل .

رأى أنه كتاب آخر — ولا شك — غير « نقد النثر » الذى لا يمت إلى قدماء بصلة وغير نقد الشعر ، الثابت النسبة إليه والذى نقده الآمدى وشرحه عبد اللطيف ابن يوسف . . وقدماء له — غير « نقد الشعر — كتاب فى صنعة الكتابة (١) وهو غير « نقد النثر » ، لأن هذا المرجع قد ذكر نقد النثر ، وجعله مؤلفاً آخر سواه (٢) ، وإن كان قد نسب إلى قدماء ، ويذكر صاحب كشف الظنون أن لقدماء كتاباً اسمه « سر البلاغة فى الكتابة » (٣) ، وكذلك يذكر ابن زبادى فى كمال البلاغة أن لقدماء تأليفاً فى الكتابة (ص ١٦ كمال البلاغة) . . . فليس من المستبعد إذا أن يكون التوحيدى وعلى بن عيسى الوزير قد قصدا كتاباً من هذين الكتابين : صنعة الكتابة وسر البلاغة فى الكتابة ، وقد يكون هذا الاسمان عنوانا لكتاب واحد لقدماء فى بلاغة الكتابة ، وعلى كل حال فالذى نراه ونجزم به أن نقد النثر لا يمت إلى أحد هذين الكتابين بصلة ، ولبس هو أيضاً من مؤلفات قدماء فى البيان ، وبما يؤيد ذلك وصف الزبادى لكتاب قدماء ، وأنه « فصول مستخرجة من رسائل الكتاب الخ » (١٦ ر ١٩ كمال البلاغة)

ولكن ما مدى صحة نسبة الكتاب لجعفر والد قدماء ؟ من الواجب على أن أقرر أن هذه الفكرة لا تجد إلى الآن الدليل المادى الملموس الذى يؤيدها بقوة الحجة ، إنما هى استنتاج رأيت ، ووجدت من وثاقة أسبابه فى نظرى ما يكفى لأن أومن به وأذهب إليه ، ولم أجد — للأسف — شيئاً من مؤلفات جعفر — التى قال عنها الخطيب البغدادي : إن له مؤلفات فى صنعة الكتابة (٤) — أتخذ موضوعاً لدراسة نقدية بينه وبين كتاب نقد النثر لمعرفة شخصية المؤلف ، والاستدلال عليها بدلالة الأسلوب وثقافة التأليف ، واتجاه المؤلف فيه . وقد يقال إن جعفر عاش

(١) راجع ٢٠٢ ج ٢ كتاب الأدب العربى لجورجى زيدان

(٢) راجع ١٧٣ ج ٢ نفس المرجع

(٣) راجع ٤٧٠ ج ١ كشف الظنون

(٤) ٢٠٥ ج ٧ تاريخ بغداد ، ٤١٢ ج ٢ معجم الأدباء طبعة مجليوث

نصرانيا ، فمن الغريب أن يتشيع — مع نصرانيته — لآل علي ، ومن الغريب أن يكون له مؤلفات مثل : الايضاح أو التعبد أو الحجّة ، ولكن من الواجب أن نعرف أن كثيراً من النصارى في العراق وإيران ، كانوا يتشيعون لأغراض شخصية أو سياسية ، يريدونها ويعملون لها ، على أن الروايات التاريخية الصحيحة لا تثبت لنا أن جعفر أعاش على نصرانيته .

وبعد كتابة كل ما تقدم نشر الأستاذ الدكتور علي حسن عبد القادر مقالة في الرسالة عدد ٨ — ١١ — ١٩٤٨ ، ذكر فيها ما يلي :

١ — كتاب البرهان في وجوه البيان ، لأبي الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، طبع جزء منه قدر ثلثه باسم « نقد النثر » ، حرره وأخرجه الدكتور طه حسين ، والأستاذ عبد الحميد العبادي ، منسوباً إلى أبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفى سنة ٣٣٧ هـ . وقد اعتمد مخرجا « نقد النثر » ، على مخطوطة بمكتبة الأسكوريال رقم ٢٤٣ . وقد عثرنا على مخطوطة لهذا الكتاب بمكتبة تشستر بيتي رقم ٧٦٧ تحت عنوان « كتاب البرهان في وجوه البيان » ، وعند المقابلة بينها وبين كتاب « نقد النثر » المطبوع وجدناهما يتفقان في القدر المطبوع ، وتزيد المخطوطة التي بأيدينا على المطبوعة بمقدار ثلثي الكتاب تقريبا . ولم نشك في أن هذا القدر الزائد إنما هو جزء أصلي من الكتاب قد سقط منه في المخطوطة الأسكوريالية ، ذلك أن المؤلف قد بنى كتابه على أربعة وجوه البيان : البيان بالاعتبار ، البيان بالاعتقاد ، البيان بالعبارة ، البيان الرابع بالكتاب ، وهو غير موجود في النسخة المطبوعة ، وقد علل محقق هذه النسخة المبثورة هذا النقص بادعائه أن المؤلف قد ضمن الباب الثالث (وهو العبارة) الكلام على الوجه الرابع وهو الكتاب . وفي النسخة المخطوطة التي بأيدينا ، جاء فيها ذكر البيان الرابع وهو الكتاب ، واستغرق من أصل الكتاب جزءاً كبيراً ، كما جاء فيها الكلام على باب المعنى وذكر العروض والقافية بتفصيل كامل . وكذلك جاء فيها ما بقى من وجوه الحديث وجوهاً ووجهاً ، وكذلك مراتب المستمعين لمرتبة مرتبة ، فكانت مخطوطتنا بهذا التحقيق هي النسخة الكاملة للكتاب .

٢ — وأهمية مخطوطتنا لا تنحصر في أنها النص الكامل للكتاب كما كتبه مؤلفه ، بل إن لها أهمية أخرى أكبر ، وهي معرفة مؤلف هذا الكتاب على التحقيق .

وهو أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، مما يبطل نسبة الكتاب إلى قدامة بن جعفر ، كما أن مخطوطتنا تحمل الاسم الصحيح للكتاب ، وهو « البرهان في وجوه البيان » . ويؤيد ذلك أيضا أدلة أخرى منها :

أولا : نسب إلى قدامة كتاب في الكتابة ، وليس هو « البرهان » أو « نقد النثر » ، وإنما اسمه « كتاب الخراج وصناعة الكتابة » ، وتوجد مخطوطة منه بمكتبة كوبرلي بالآستانة ، وقد استخرج دى غويه نبذا منها وطبعها تحت عنوان « كتاب الخراج » ، وهذه التبذ هي الأبواب الثاني والثالث والرابع والخامس والحادى عشر من الميزة الخامسة ، والبابان السادس والسابع من الميزة السادسة . وقد وصف ياقوت هذا الكتاب في ترجمة قدامة بقوله : « وله كتاب في الخراج وصناعة الكتابة » ، رتبة مراتب وأتى فيه بكل ما يحتاج الكاتب إليه ، على تسع منازل ، وكان ثمانية فأضاف إليه تاسعا ، ويقول المطرزي في كتاب الايضاح شرح مقامات الحريرى — مخطوطة المتحف البريطانى — : « وله تصانيف كثيرة منها كتاب « الالفاظ » ، وكتاب « نقد الشعر » ، وهو حسن للغاية طالعته ونقات منه أشياء ، وقيل هو لوالده جعفر . ومنها كتاب صناعة الكتابة ظفرت به وعثرت فيه على ضوال منشودة ، وهو كتاب يشتمل على سبع منازل ، وكل منزلة منها تحتوى على أبواب مختلفة ضمنها خصائص الكتاب والباغاء : وقال ابن الجوزى فى المنتظم فى حوادث سنة ٣٣٧ بمناسبة موت قدامة مانصه . « وله كتاب حسن فى الخراج وصناعة الكتابة » . وهذا الوصف لا يتفق مع تبويب كتاب « البرهان » أو « نقد النثر » ، إذ أنه على أربعة أبواب تناولت كل ما قصد المؤلف كتابته عن الخراج وصناعة الكتابة ، فضلا عن هذا فنحن إذا وزنا الجزء المطبوع من كتاب قدامة الخاص بالخراج ألفيناه مختلفاً عن القسم الخاص بالخراج فى كتابنا « البرهان » ، والنتيجة البديهية هي أن قدامة وأبا الحسين كتب كل منهما كتابا فى الموضوع ، ولكن كلا منهما سلك مسلكه الخاص فى علاج الموضوع . وقد ألف قدامة كتابه قبل سنة ٣٢٠ ، أما أبو الحسين فألف كتابه بعد سنة ٣٣٥ حسب ما جاء من نصوص تاريخية فى ثنايا الكتاب .

ثانيا : من الكتب المعروفة على وجه التحقيق لقدامة (نقد الشعر) ، وقد عالج فيه الشعر وفنونه بوجه خاص : وقد عالج صاحب « البرهان » فى كتابه الشعر أيضا ،

فلو أنه كان لقدامة لما احتاج إلى معالجة هذه الموضوعات مرة أخرى بمثل هذا البيان السكافي، وفضلا عن ذلك فإن معالجة الشعر في (البرهان) تختلف اختلافا جوهريا عنها في كتاب (نقد الشعر) من الناحية الفنية والموضوعية .

ثالثا : وصاحب كتاب (البرهان) يصر في كل مناسبة على ذكر الرجال المشهورين من آل وهب، معظما لهم فخورا بهم، كأن يقول : « وقد كان شيخنا أبو علي الحسن بن وهب رحمه الله .. وقال أبو أيوب رضى الله عنه . وكان أبو أيوب رحمه الله رجلا مشهورا بالبلاغة .. ولو لم نتقدم من ذكر البلاغة إلا بهذا القول من شيخنا رحمه الله لسكنى وأجزى .. » وأبو أيوب هذا هو سليمان بن وهب عميد آل وهب وجد المؤلف .

رابعا : وهناك أمر يجب التنويه به وهو أن البطلانيوسى في كتابه (الاقتضاب شرح أدب الكتاب) قد كتب فصولا طويلة بنى عليها مقدمته في شرح الكتاب (ص ٦٦ — ٩٠)، وهذه الفصول تتفق في أفظها مع بعض فصول كتاب البرهان، ولكن البطلانيوسى لم ينسبها إلى أبي الحسين ولا إلى قدامة، وإنما أشعر بنسبتها إلى علي بن مقلة (م ٧٣٢ هـ)، ولا يمكن أن يقال إن هذا الكتاب (البرهان) هو لابن مقلة لأنه ألف بعد سنة ٣٣٥ وبعد وفاة ابن مقلة بنحو ثمانى سنين، والقدر المتيقن أن البطلانيوسى لم يحتسب على أى حال قدامة بن جعفر مؤلفا للكتاب الذى نقل عنه على فرض أنه نقل فصوله من كتابنا هذا . ومن المحتمل أن يكون البرهان قد نسب مرة إلى علي بن مقلة كما نسب إلى قدامة بن جعفر وجعل أمر صاحبه، ومن المحتمل أيضا أن يكون البطلانيوسى ومؤلف كتابنا هذا كلاهما نقل نقولا من كتاب لابن مقلة في هذا الموضوع، وهو أمر لم تساعدنا الظروف على تحقيقه، ومن غريب الأمر أن هذا الكتاب قد نسب إلى قدامة بن جعفر في طرة المخطوطة الاسكوريالية، وكذلك في طرة المخطوطة التى يأيدنا مع ورود اسم المؤلف فى أثناء الكتاب، وهو أمر غفل عنه الناسخ، وتفسير هذا التناقض يسير، فإن الوراقين كانوا يعرفون قيمة قدامة الأدبية ويعرفون شهرة كتابه فى الادب، فلا يستبعد عليهم أن يضعوا اسمه على هذا الكتاب، لتسهيل بيعه وتداوله، وهذه طريقة معروفة عند الناسخ والوراقين، لا تخفى على المحققين

أبو بكر محمد بن دريد

٢٢٣ - ٥٣٢١

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن حنتم بن الحسن بن حماد بن جرو بن واسع بن وهب بن سلمة بن حاضر بن حنتم بن ظالم بن فراهيد بن مالك بن فهم بن غنيم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران ، الأزدي العماني .

إمام عصره في اللغة والأدب والشعر الفائق ، تقف عند كلامه الفحول ، وتستشير آيات بلاغته الفصحاء ، وتستمد من كلامه الخطباء ، وترجع إلى حقائق عليه الأدباء ، قال المسعودي : كان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل فيها ، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين ، وكان يذهب بالشعر كل مذهب ، وشعره أكثر من أن يحصيه أو تأتي على أكثره . ولقد كان ابن دريد منذ شهرته صاحب منزلة كبيرة بين فحول العلم وقد ترجم له غير واحد ، فأظهروا علو مقامه وطول باعه في العلوم العربية ، حتى فاق سائر أقرانه ، إلا أنهم لم يعتنوا فيما رأيت بذكر أرومته ونبعته كما ينبغي .

كان أبو بكر بن دريد عالماً من أعلام اللغة والأدب والرواية والشعر . ومقصودته التي قالها في مدح الشاه ابن ميكال تعد من غرر الشعر العربي وعيونه ، وهو من الشخصيات التي تستحق الدراسة والتقدير في الأدب العربي .

وقد اتفق جميع مؤرخي ابن دريد أن ولادته كانت في مدينة البصرة سنة ٢٢٣ هجرية في خلافة المعتصم بالله العباسي ، ونقل الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد : « أخبرني محمد بن علي الأصمباني قال : نبأنا الحسن بن عبد الله بن سعيد اللغوي قال : سمعت ابن دريد يقول : مولدى بالبصرة بسكة صالح سنة ٢٢٣ ، واسمه محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي .

يتفق مؤرخو ابن دريد على أنه نشأ في البصرة وتأدب فيها ، وتعلم اللغة وأشعار العرب وقرأ على علمائها ، ثم صار بعد ذلك إلى عمان . ولكن ابن الأنباري والخطيب البغدادي يشدان عن هذا الاجماع ، ويذكران أنه نشأ بعمان ... وبقى ابن دريد في البصرة يتأدب على كبار المشايخ فيها مثل الرياشي والسجستاني ، فلما وقعت فتنة الزنج في البصرة سنة ٢٥٧ هـ ودخلها علي بن محمد صاحب الزنج واكتسحها وخربها

خرج منها ابن دريد مع عمه الحسين بن دريد .
ويقول معظم المؤرخين لابن دريد أن انتقاله من البصرة في فتنة الزنج كان إلى عمان ، وينفرد ابن خلكان بالقول بأنه انتقل إلى بغداد أولاً مع عمه ، ثم إلى عمان بعد ذلك .

بقي ابن دريد في عمان اثنتي عشرة سنة ، ثم عاد إلى البصرة فسكنها زمناً ، ثم خرج منها فتنقل زمناً في جزائر البحر ، ثم عاد إلى البصرة . وفي أثناء إقامته الثانية هذه بالبصرة تقلد عبد الله بن محمد بن ميكال ولاية الأهواز من قبل الخليفة المقتدر بالله . وكان ابنه أبو العباس إسماعيل صديداً ، فاستدعى ابن دريد لتأديبه فأجابه وخرج إلى فارس يؤدب إسماعيل بن ميكال ويخدم أباه الشاه ابن ميكال . وهناك ألف لهم كتاب الجهرة في سنة ٢٩٧ هـ ، وقال في مدحهم مقصوده الفريدة ، وبقي معهم حتى صرفوا عن ولاية فارس ، فذهب هو إلى بغداد ودخلها في سنة ٣٠٨ هـ ، وبقي فيها يدرس الأدب والشعر والرواية ، ويحدث في ذلك أكبر علمائها ، ويجلسون إليه إلى آخر عمره ، حيث أصابه فالج وهو في حدود التسعين ، وعاش مع الفالج عامين ثم استشفى منه بالترياق فشفى وصح وعاد إلى أفضل أحواله ، ثم تناول - بعد عام - غذاءً ضاراً فعاوده الداء . وبقي يتعرض حتى مات بعد عذاب ومرض طويل ، وكانت وفاته في يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٣٢١ هـ ببغداد ، ودفن في مقبرة الخيزران - وهي مقبرة أم الرشيد ، ودفن فيها جمهور عظيم من علماء بغداد .

وياقوت في معجم الأدباء والسيوطي في بغية الوعاة يخالفان هؤلاء المؤرخين ويحددان زمن وفاته بيوم الأربعاء الثامن عشر من رمضان في نفس السنة ، أما أبو الفداء فيذكر في تاريخه وفاة ابن دريد في حوادث سنة ٣٢١ هـ وأنها كانت في شعبان من غير أن يحدد يوماً .

ويتفق هؤلاء المؤرخون على أنه دفن في مقبرة الخيزران ، أم الرشيد : ولكن ابن خلكان يقول إنه دُفن بالمقبرة المعروفة بالعباسية من الجانب الشرقي ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم . وينقل ياقوت ذلك منسوباً بصيغة التضعيف إلى المرزباني ، وينفرد الجلال السيوطي بالقول بأنه مات بعمان ، قال : ثم صار إلى عمان فأقام بها إلى أن مات .

والذى نرجحه أن وفاته كانت فى الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٣٢١ هـ . وأنه دفن فى مقبرة الخيزران ، لأن الخطيب البغدادى يروى قصة دفنه عن شهد جنازة ابن دريد ومشى فيها إلى المقبرة . وهو ينص على أنه دفن فى الخيزرانية ، فكان ابن دريد مات عن ثمان وتسعين سنة ، ولكن البستانى يقول فى دائرة المعارف : « وقيل بل عاش ثلاثا وتسعين سنة لا غير » .

هذه خلاصة حياة ابن دريد وتقلبه فى البلاد وقد نشأ ابن دريد كما مر فى البصرة

أول القرن الثالث . وتلقى العلم على كبار المشايخ فيها ، ثم انتقل إلى عمان فبقى يسمع اللغة من الأعراب اثنتى عشرة سنة ثم انتقل إلى جزائر البحر وفارس وبغداد ، وهذا التنقل له ولا شك أثر فى تكوين شخصيته ، ونجد فى أساتذة ابن دريد طائفة من أعظم الرجال فى اللغة والأدب والرواية ، فقد سمع وحدث عن أبى حاتم السجستانى ، وأبى الفضل الرياشى وعبدالرحمن بن قريب — ابن أخى الأصمعى — وأبى عثمان الاشناندانى .. وقد ولد هو ونشأ فى أسرة شريفة فيها رئاسة كما رأينا ، وكان عمه الحسين بن دريد عالما جليلا وهو الذى تولى تربيته كما ذكر ابن دريد نفسه ، وكذلك روت عن ابن دريد وسمعت عليه طائفة عظيمة جليمة ، وكان ابن دريد قوى الحافظة جيدها ، يقول ياقوت : قال الخطيب عمن رأى ابن دريد أنه قال : كان واسع الحفظ جداً ، ما رأيت أحفظ منه وما رأيت قط قرىء عليه ديوان شاعر إلا وهو يسابق إلى روايته لحفظه له ، ويقول أبو الطيب اللغوى عنه فى كتابه « مراتب النحويين » : وكان أحفظ الناس .. وروى الخطيب البغدادى عن حدة حفظه فى صباه هذه القصة العجيبة : « حدثنى على بن الحسن بن يوسف الأزرق قال : حدثنى جماعة أن ابن دريد قال : كان أبو عثمان الاشناندانى معلماً وكان عمى الحسين بن دريد يتولى تربيتى ، فكان إذا أراد ألا كل استدعى أبا عثمان يأكل معه ، فدخل يوماً عمى وأبو عثمان يروينى قصيدة الحرث بن حلزة التى أولها « آذنتنا بدينها أسماء » ، فقال لى عمى : إذا حفظت هذه القصيدة وهبت لك كذا وكذا ثم دعا المعلم ليأكل معه فدخل إليه فأكلنا وتحدثنا بعد الأكل ساعة ، فالى أن رجعت المعلم حفظت ديوان الحرث بن حلزة بأسره . فخرج المعلم فعرفته ذاك فاستعظمه وأخذ يعتبره على فوجدنى قد حفظته ، فدخل إلى عمى فأخبره ، فأعطانى ما كان وعدنى به ، وهذه القصة بعينها يروىها ياقوت

يقول الخطيب البغدادي : « حدثني علي بن محمد بن نصر . قال سمعت أبا بكر الأبهري المالكي يقول : جلست إلى جنب ابن دريد وهو يحدث ومعه جزء فيه ما قال الأصمعي . فكان يقول في واحد : حدثنا الرياشي . وفي آخر : حدثنا ابن أخي الأصمعي ؛ يقول كما يحىء في قلبه ، وقال غيره : كان ابن دريد قد أملى الجهرة في فارس ثم أملاها في البصرة وبغداد من حفظه ، — ياقوت — وقال بعضهم : أملى ابن دريد الجهرة من حفظه سنة ٢٩٧ فما استعان عليها بالنظر في شيء من الكتب إلا في الهزمة والآلف ، « وذكر أبو علي البيهقي في كتاب النتن والطرف أنه صنف كتاب الجهرة للأمير أبي العباس أيام مقامه بفارس ، فأملأه عليه إملاء . ثم قال : حدثني أبو العباس الميكالي قال : أملى علي أبو بكر الدريدي كتاب الجهرة من أوله إلى آخره حفظا في ٢٩٧ فما رأيت استعان عليه بالنظر في شيء من الكتب إلا في باب الهزمة واللفيف — لعله الآلف — فإنه طالع له بعض الكتب ثم قال : وكفاك بها فضيلة وعجوبة أن يتمكن الرجل من علمه كل التمكن ثم لا يسلم — مع ذلك — من الألسن ، ... وقال ابن دريد الشعر في مبتدأ شبابه في حدود العشرين ، يقول الخطيب البغدادي : أخبرنا أحمد بن علي المحتسب ، قال أنبأنا اسماعيل بن سعيد المعدل ، قال أنشدنا أبو بكر بن دريد ، وقال هذا أول شيء قلته من الشعر :

ثوب الشباب على اليوم بهجته فسوف تنزعه عني يد الكبر

وكان ابن دريد حجة في اللغة ، بارعا في الشعر ، وكانت له الصدارة في عصره ، فاعترف له معاصروه بالتقديم ، يقول المسعودي (١) : وكان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد ، « ويقول ابن خلدكان : « إمام في عصره في اللغة والأدب والشعر الفائق ، « ويقول الخطيب البغدادي : « وكان رأس هذا العلم والمقدم في حفظ اللغة والانساب وأشعار العرب ، « ويقول ياقوت : « كان رأس هذا العلم ، « وقال أبو الطيب اللغوي عنه في كتاب مراتب النحويين : انتهت إليه لغة البصريين . وكان أوسع الناس علما رما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد ، « ويقول عنه ابن تغري بردي : « طلب الأدب واللغة حتى صار رأسا فيهما وفي أشعار العرب ، « ويقول ابن الأنباري : « وكان من أكابر علماء العربية مقدما في

اللغة وأشعار العرب وأنسابهم ، ووصف ابن دريد بالتقديم والاستاذية والرياسة بما أجمع عليه كل مؤرخيه ، حتى هو نفسه كان يعتز بعلمه وصدارته ، ويرى أنه كان نسيج وحده ، ووحيد دهره ، وأنه وارث علم الأصمعي ، وقال أبو الحسن الدريدي (١) ، حضرت وقد قرأ أبو علي بن مقلة وأبو حفص كتاب المفضل ابن سلمة — الذي يرد فيه على الخليل بن أحمد — على أبي بكر بن دريد ، فكان يقول : « صدق أبو طالب ، في شيء إذا مر به ، و « كذب أبو طالب ، في شيء آخر ؛ ثم رأيت هذا الكلام وقد جمعه أبو حفص في نحو مائة ورقة فابن دريد هنا ينصب نفسه في منصب الميزان والحكم بين العلماء ، ولا يحجم حتى عن تخطيء الخليل .. وقال تلميذه أبو علي القالي : قال لي مرة وقد سألته عن بيت الشعر : « لن طفئت شحمتا عيني ، لم تجد من يشفيك من العلم ؛ هكذا قال لي أبو حاتم . وكذلك قال لي الأصمعي وقد سألته .

وليس ابن دريد لغويا وراوية فقط ، بل هو شاعر مكثر بارع مبتكر في طريقته الشعرية . كان يقال عنه إنه أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، وله شعر كثير منه الجزل ومنه الرقيق ، يقول ابن خلكان عن شعره : وله نظم رائع جدا ؛ وكذلك يقول البغدادى في خزانة الأدب ، ويقول عنه المسعودى في مروج الذهب : وكان يذهب في الشعر كل مذهب فطورا يجزل وطورا يرق . وشعره أكثر من أن نحصيه ، أو نأتى على أكثره ، أو يأتى عليه كتابنا هذا ، ولكن الدكتور زكى مبارك يقول : إنه كان شاعرا مقلدا .

ونال ابن دريد في حياته مكانة كبيرة عند معاصريه من العلماء والوزراء والملوك ، وقد رأينا طرفا من ذلك ، وبدل عليه ما قدمناه من أن الشاه ابن ميكال اختاره لتأديب ولده اسماعيل . وقد نال عندهما حظوة حتى قلده ديوان فارس ، فكانت السكتب لا تكتب إلا عن رأيه ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه .. وقد بلغ من تبرز ابن دريد في عصره وتقدمه ، بل سطوته على جيله ، أنه أحمل طائفة من العلماء المعاصرين له ، قال ابن خالويه في شرح المقصورة : كان يبغداد عباد بن عمر ابن الخليل الكرماني صاحب لغة ، وكان يطعن على ابن دريد وينقض عليه الجهرة ؛ فجاء غلام لابن دريد فقال : « كتبوا بسم الله الرحمن الرحيم ، قال أبو بكر ابن دريد أعزه الله تعالى ؛ عننت الفرس إذا حبسه بعنانه ، فان حبسته بمقوده فليس

بمعن ، قال السكرمانى الجاهل : أخطأ ابن دريد لانه إن كان من عننت فيجب أن يكون معنونا - وإن كان من أعنت يجب أن يكون معنأ ، وأخطأ لكذا وكذا ، فوقف شاعر على الحلقة فقال : اكتبوا :

أذلت كرماني وعرضتها لجحفل مثل عديد الحصى
وابن دريد غرة فيهم فى بحره مثلك كم غرصا
جثا على الركبة حتى إذا أحس نزرا قعد القرفصا
والله إن عاد إلى مثلها لأصفعن هامته بالعصا

فلم يلتفت إليه السكرمانى بعد ذلك ، ولما دخل ابن دريد بغداد احتفى به أهلها ، وأنزله الوزير على بن محمد فى جواره وأفضل عليه ، وعرف الخليفة المقتدر مكانه من العلم ، فأجرى عليه فى كل شهر خمسين ديناراً لم تزل جارية عليه إلى أن مات ، ويقول أبو الطيب اللغوى : تصدر ابن دريد فى العلم ستين سنة ، روى فيها عنه وتعلم طائفة عظيمة وجليلة من كبار العلماء ، منهم أبو سعيد السيرافى وأبو بكر ابن شاذان وأبو عبد الله المرزبانى وعمر بن محمد بن سيف وأبو الفرج صاحب الاغانى وأبو على القالى .. ويكاد يكون كتاب د الامالى ، كله من أحاديث ابن دريد وروايته .

وقد ذكر أبو إسحاق الحصرى فى زهر الآداب أن ابن دريد أغرب بأربعين حديثاً استنبطها من ينايع صدره واستنتجها من معادن فكره الخ.. وهذه الاجاديت الاربعون غير معروفة ، وقد التفت إليها الدكتور زكى مبارك ، وذهب إلى أنها البذرة الاولى لفن المقامات ، وأن ابن دريد سبق بها بديع الزمان ، فهو يقلده فيها ، فإن صح ما يراه الدكتور - وهو غير بعيد - فإن فضلاً جديداً يضاف إلى ابن دريد ، ويثبت له تبرز جديد فى الادب فوق ما قاله فيه من تفوق وتبريز ، وكان ابن دريد بصرى المذهب فى النحو ، بل رأينا فيما سبق أن أيا الطيب اللغوى يقرل عنه . وانتهت اليه لغة البصريين ، وقد ولد هو فى البصرة ونشأ بها وتعلم على مدرستها وسمع من كبار لغوييها كما تقدم ، وبين مدرستى البصرة والكوفة معارك جامية فى اللغة

وكما نال ابن دريد الصدارة فى حياته ، كذلك بقى اسمه مذكوراً ، وذكره معروفاً ، ومنزلته فائقة فى جميع العصور بعد ذلك ، فمقصودته يعنى بها خلق كثير من المتقدمين والمتأخرين بالشرح ، وبالكلام عن ألفاظها ، ويعارضه بمثلها كثير من الشعراء .

والمرى يذكره فى رسالة الغفران ويلقبه بشيخ الازد ويجعله نديما من ندامى الادباء فى الفردوس، وفى كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب إشارة فى خبر ، تدل على أنه كان معروفا ومذكورا بالصدارة فى بلاد الاندلس للقرن الرابع والخامس، وقل أن نجد كتابا من الكتب المعتبرة فى الادب بما ألف فى حياته أو بعد موته لم يرد فيه اسمه — بكثرة مفسرا أو راوية أو شاعرا

وألف ابن دريد طائفة كبيرة من الكتب يذكرها الجلال السيوطى ويذكر بعضها ابن تفرى بردى ، وبعضها صاحب خزائن الادب ، وبعضها ياقوت ، وهى :
الجمهرة فى اللغة ، ويقول عنه المسعودى وهو من الكتب المعتبرة فى اللغة — الامالى — اشتقاق أسماء القبائل — المجتبى — الملاحن — الوشاح — على حذو المحبر لابن حبيب — المقتبس — المقصور والممدود — الخيل الكبير — الخيل الصغير — غريب القرآن ، لم يتم ، — الانواء — فعلت وأفعل — السلاح — المطر أدب الكتاب . على مثال كتاب ابن قتيبة ، ولم يجرده من المسودة فلم يخرج منه شىء ، — زوار العرب — السرج واللجام — تقويم اللسان — المقصورة وكتابه المجتبى والوشاح يقول عنهما ابن خلكان : إنهما صغيران كثيرا الفائدة مفيدان ، ، ولم يبق معروفا لنا من كتب ابن دريد هذه الاشياء يسير أشهره المقصورة وكتاب الملاحن وهما مطبوعان ، وفى دار الكتب المصرية بعض كتب مخطوطة لابن دريد ، وقد ذكر عبد القادر المغربى كتب الجمهرة والسرج واللجام وكتاب الانواء والمجتبى ، ثم قال : وهذه الكتب عندي والحمد لله والمنة .. وهذا يدل على أن هذه الكتب كانت معروفة متداولة وأنها بقيت موجودة إلى عصر عبد القادر البغدادى — ١٠٣٠ هـ — ويذكر عبد القادر هذه الجملة عند ذكر بقية كتب ابن دريد

ومع هذه المنزلة الكريمة التى نالها ابن دريد عند معاصريه وعند من خلفهم لم يكن بثقة عند طائفة من معاصريه لها خطرهما فى الحكم والتقدير ، قال أبو منصور الازهرى فى مقدمة كتاب التهذيب : « ومن ألف فى زماننا الكتب فرمى بافتعال العربية وتوليد الالفاظ وادخال ما ليس من كلام العرب فى كلامها ، أبو بكر محمد ابن دريد صاحب كتاب الجمهرة وكتاب اشتقاق الاسماء والملاحن ، وسألت عنه ابراهيم بن عرفة ، فلم يعبأ به ولم يوثقه فى روايته ، وقد تصفحت أنا كتابه الذى أعاره اسم الجمهرة فلم أقف ، على معرفة ثاقبة ، ولا قريحة جيدة ، ويقول ابن خلكان :

« سئل عنه الدارقطني سأله حمزة بن يوسف فقال : تكلموا فيه ، وقيل كان يتساح في الرواية فيسند إلى كل واحد ما يخطر له ، ويقول المسعودي في مروج الذهب : « وأورد أشياء في كتب اللغة لم توجد في كتب المتقدمين » ، وكما طعن فيه بالانتحال والوضع : كذلك رمى بالسرفه في شعره وفي تأليفه ، قال فيه شاعر معاصر له :

ابن دريد بقره وفيه عي وشرة
ويدعى من حمته وضع كتاب الجهره
وهو كتاب العين إلا أنه قد غيره ..

وقائل هذه الابيات الثلاثة هو أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة المحدث النحوي المشهور بنفطويه ، وابن دريد عليهم جواب ظريف سنذكره ، ويقول أبو الفرج أنشدني عمي رحمه الله أبيانا لابن دريد يمدح بها رجلا من أهل البصرة :
يا من يقبل كف كل مخرق هذا ابن يحيى ليس بالخرق
قبل أنامله فلسن أناملا لكنهن مفاتيح الارزاق
فقال : يا بني هذا سرقه هو وابن الرومي جميعاً من إبراهيم بن العباس يمدح الفضل ابن سهل :

لفضل بن سهل يد تقاصر عنها الأمل
فباطنها للندی .. وظاهرها للقبيل
وبسطتها للغنى .. وسطوتها للأجل

وسرقها ابن الرومي .. الخ ،

ويصف ابن دريد في مقصورته مسيره إلى فارس ويتشوق إلى البصرة ، ويمدح الشاه ابن ميكال ، وعدد أبياتها ٢٢٩ بيتاً . وأجود شروحها شرح السبتي المعروف بابن هشام اللخمي المتوفى بعد سنة ٥٥٧ هـ ، وعن شرحها القزاز ، وابن خالويه التحوي المتوفى عام ٣٧٠ هـ ، والسيرافي المتوفى عام ٣٦٨ هـ ، وابن الصائغ الدمشقي م ٧٢٠ هـ ، والتبريزي م ٥٠٢ هـ ، والصغاني م ٦٥٠ هـ ، والسخاوي المتوفى بعد سنة ١٠٢٥ هـ .

وفي كتاب الانساب للعلامة الصحاري العتي أن لابن دريد قصائد في وقعة الروضة (١) المشهورة بعمان في عهد الامام راشد بن النضر والعلامة موسى بن موسى

(١) الروضة موضع قرب بلد تنوف من جهة الغرب بين نزوى عاصمة الامامة =

ابن على مرجع هذا الامام ورئيس الحل والعقد لديه — تبين تلك القصائد مقدار صلة ابن دريد بقومه والتعلق بأمورهم ، مما يدلنا على أنه لم يكن بعيد النشأة عنهم ، ولا مباين النزعة لهم ، وما مبارحته لبلاد عمان إلا في سبيل العلم ، حيث كان من صفات العلماء الفحول الخاصة الشغف ببيت العلم والدخول في ميادينه ، ولا سيما ما هم ممتازون به متفوقون على الأقران فيه .

وفي الانساب قصيدتان من قصائد ابن دريد ، وهما على جانب من التحريف عظيم ، نقتطف من واحدة منهما بعض أبيات لبيان اتصاله بقومه وارتباطه بارومته الازدية العمانية .. مطلعها :

نبه نابه وخطب جليل	بل رزايا لمن عبء ثقیل
يا بني مالك بن فهم قتيلا	لا يباريه في الانام قتيل
أى طرف سما إليكم بكيد	لم تردوه وهو عنكم كليل
أقليل عزيزكم فتقولوا	إننا في الوغى نغير قليل
أم ضفاف عن ثأركم فتلدوا	مشرب الذل والمضيف ذليل
أم عبید لراشد ولموسى	أى هذى الأضياف أنتم فقولوا (١)
ليس يسعى لها امرؤ وسدته	معصمها الوهانة العطبول
وفراheid الذى على الرو	ضنة من خيلهم دماء تسيل
وحماة الزمان من آل ده	نان إذا يبرز البرى والحجول
وبنو العلم من جديد خصوصا	وعمادى فى الشدة المأمول
وبنو ظالم يدى ولسانى	وحسامى المهند المصقول
يا بني مالك بن فهم قتيلا	بدهاريس غرهن اللبول
أى يوم لباس موسى بن موسى	ذاك يوم لو يعلون طويل
يوم لا ينفع اتصال بقربى	يوم لا العذر عنده مقبول
فلحاه الله مانع الروح منا	حيث يستصحب الضليل الضليل

== الجبل الاخضر بمجوحة عمان ، وكانت الواقعة بين العتيك واليحمد وفراheid وبني قم وبين غيرها من قبائل عمان

(١) راشد هو الامام راشد بن النضر ، وموسى هو العلامة موسى بن موسى

ابن على .

ومكانته في الشعر يومئذ لا تقل عن مكانته العلمية ، فله المقصورة المشهورة التي مطالعها :

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى
تبارى شرحها أكابر العلماء وسارت بها الركبان في سائر النوادي العلمية .. قيل
إنها احتوت على أكثر المقصور في اللغة العربية . وكان مدح بها الشاه بن ميكائيل
وولديه من أمراء فارس ، وكان ذا منزلة لديهم حتى تقلد ديوان فارس ، وكانت
الكتب منه تصدر عن رأيه ، ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه ، ونال ثروة عظيمة من
ابن مكائيل ، وانتقل إلى بغداد بعد عزلهما عن ولاية فارس وانتقالهما إلى خراسان ،
وكان انتقال ابن دريد إلى بغداد في عهد المقتدر بالله ، ونزل على بن محمد الخوارى
فأكرم جواره ورفع مكانه ، وعرف خبره لامام المقتدر ومكانته من العلم فأجرى
عليه خمسين ديناراً مرتباً شهرياً ، ولم تزل جارية عليه إلى أن مات . عرف بالسخاء
والكرم حتى لا يمسك درهما مع كثرة استفادته .. ولابن دريد خاصة امتاز بها وهي
قوة الحفظ حتى لم يدان أحد فيها ، وكان يقرأ عليه دواوين العرب فيسابق إلى إتمامها
من حفظه ، وكان واسع الرواية ، قال بعض العلماء : ابن دريد أعلم الشعراء وأشهر
العلماء .. وتأليفه كثيرة والمشهور منها بضعة عشر كتاباً سبق ذكرها وهي :

أدب الكاتب ، والاشتقاق في تفسير الأعلام وأسماء القبائل ، والأنواء ،
والجمهرة من الكتب المعتمدة في اللغة ، والخیل الكبير ، والخیل الصغير ، وزوار
العرب ، والسر واللباس ، والسلاح ، وغريب القرآن لم يكمله ، وكتاب اللغات ،
والمجتنى في شرح أحاديث المصطفى ، والمقتبس ، والمقتنى ، والملاحن ، والوشاح
صغير وهو مفيد جداً .

وقد أخذ عن أبي حاتم السجستاني ، والرياشي ، وعبد الرحمن بن عبد الله المعروف
بابن أخى الأصمى ، وأبى عثمان سعيد بن هارون الأشنانداني صاحب كتاب المعاني ،
وغيرهم .. وأخذ عنه كثير منهم أبو سعيد السيرافي ، وأبو عبيد الله المرزباني ،
وأبو على القالى صاحب كتاب الأمل ، وروى أبو على أن ابن دريد أصيب
بالفالج في آخر عمره فتداوى منه فشفاه الله ثم عاوده ، ومع ذلك كان ثابت الذهن
كامل العقل يرد فيما يسأل عنه رداً صحيحاً ، قال : وكنت أسأله شكوكي في اللغة وهو
بهذه الحال ، فيرد بأسرع من النفس بالصواب ، قال : وآخر شيء سأله عنه جاوبني

جأن قال لى : يا بنى حال الجريض دون القريض ، وكان هذا الكلام آخر ما سمعته منه ، وكان كثيراً ما يتمثل بقوله :

فواحزنى أن لآحياة لذينة ولا عمل يرضى به الله صالح
ذكر العتبى عن العتبى أنه قال : دخلت على ابن دريد قبل موته فسمعتة يقول :
ولدت ليلة الجمعة فى أحد الربيعين سنة خمس وعشرين ومائتين .. ومات يوم الأربعاء
ثمان عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ثلاثمائة واحد وعشرين - وهى السنة التى خلع
فيها القاهر بالله أبو منصور محمد المعتضد ، وبويع فيها الراضى بالله أبو العباس
ابن المقتدر بالله - وكان موت ابن دريد وموت أبى هاشم عبد السلام بن أبى على
الجبائى متكلم المعتزلة فى يوم واحد ، فقال الناس : اليوم مات علم اللغة وعلم الكلام ،
ويكون عمره سبعة وتسعين سنة ، وقيل عاش ثمانيا وتسعين ، وموته ببغداد ودفن
بمقبرة العباسية من الجانب الشرقى فى ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم
أو بسواها .. ورثاه البرمكى ..

وقد جمع لابن دريد علامة اللغة الشيخ محمود الشنقيطى كثيراً من مفردات المسائل
اللغوية وطرائفها ، وسماها : « أخبار ابن دريد » ، وهى موجودة فى مكتبته
بالكتبخانة السلطانية . سئل الدارقطنى عن ابن دريد أئفة هو أم لا ؟ فقال :
تكلّموا فيه ، وزعم بعض أنه كان يتساح فى الرواية يسند إلى كل واحد ما يخطر له ،
واتهموه باللهو والخمر ، حتى رروا عنه فى هذا أشياء ، الله أعلم بصحتها ، ولم أر لمن
ذكره من أصحابنا أنه نسب له شيئاً من تلك التهم .

أبو القاسم الأمدى

المتوفى عام ٣٧١ هـ

— ١ —

هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى الأصل ، البصرى المنشأ ، ولد
بالبصرة فلما بلغ سن الشباب توجه إلى بغداد واختلف إلى مجالس العلماء يتلقى عنهم
اللغة والنحو والأدب ، ثم عاد بعد حين إلى البصرة كاتباً للقضاة من بنى عبد الواحد ،
ثم برز فى الأدب وطارت له شهرة واسعة فيه ، وانتهت إليه رواية الشعر القديم
والأخبار فى آخر عمره ، وقد ألف كتباً كثيرة فى اللغة والنقد ذكرها ياقوت فى

الترجمة التي عقدها له ، وكان فوق ذلك شاعرا مجيدا رويت له مقطعات شعرية كثيرة ، وتوفي أخيرا بالبصرة سنة ٥٣٧١هـ (ص ٧٥ - ٩٣ ج ٨ معجم الأدباء - بغية الوعاة) . ومن مؤلفات الأمدى : كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء ، وكتاب تفضيل امرئ القيس على الجاهليين ، وكتاب معاني شعر البحترى ، وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أباتمام ، وكتاب فرق بين الخاص والمشارك من معاني الشعر ، وكتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر ، وكتاب مافي عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . على أن أهم كتبه هو كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحترى ، وهو موضوع دراستنا :

ظهر الأمدى في القرن الرابع والدولة الاسلامية واسعة الرقعة ، والثقافة العربية بعيدة المدى ، قد هضمت شتى الثقافات وأحالتها غذاء عقليا سائغا ، فدرس الأمدى وبجث وثقف عقله وهذب نفسه بهذه الثقافة العربية في روحها ، المتنوعة في ألوانها .. والأمدى كما نراه في موازنته ذو عقل بعيد وفكر ناضج وثقافة واسعة ، وهو لا يسير وراء العلماء والأدباء ، وإنما يجيء في الطليعة مجددا لا مقلدا ، ومتبوعا لا تابعا ، سواء في اللغة أم الأدب أم النقد .

وهو من الذين يؤثرون في الأدب الروح الشعرية المطبوعة التي تميل إلى إيثار اللفظ والأسلوب ، فهو لا يرى الشعر إلا صيحة تأليف وعذوبة لفظ وجمال نظم ، وهو لا يرى هذا الرأي في الشعر وحده ، بل يجعل البلاغة كذلك قاصرة على جمال اللفظ والأسلوب وحدهما وموافقتهما للنهج العربي في صحة التأليف وجودته ، أما المعاني وسموها والحكمة الانسانية وروعتها ، والخيال وإغراقه ، فذلك الترف الزائد عن الحاجة ، والذي إن ألم به الشاعر أو الخطيب فقد زاد في حسن صمته وبهائما ، وإلا فالصنعة باقية قائمة بنفسها ومستغنية عما سواها (١) .

وهو في هذا الاتجاه الأدبي تابع للجاحظ وأضرابه ممن يؤثرون الروح الشعرية المطبوعة على المعاني الشعرية المبتدعة ، ويقولون عليك أن تجتنب السوقى والوحشى ، ولا تجعل همك في تهذيب الالفاظ وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني ، وفي الاقتصاد بلاغ ، (٢) ، ولكنه يبين قدامة الذي ينادى بضرورة العناية بالمعنى كما نغنى باللفظ ، ويجاهر بأن البلاغة في شيئين . معنى مبتدع ، ونظم ساحر ، وهو

لذلك يجعل مادة الشعر المعاني (ص ١٤ س ١٦ نقد الشعر) . أما الآمدى فقد جعل مادته هي الالفاظ (ص ١٨٣ س ٧ موازنة) .

وقد كان هذا الاتجاه الأدبي الذى اتجه الآمدى سببا فيما نراه فى موازنته من مظاهر إيثار البحترى وتفضيله والاشادة بشعره مما سنقص عليك نبأه .

ونقد الآمدى لشعر الطائيين ليس نقدا للروح الشعرية بما فيها من جوانب شتى ومظاهر متنوعة وآراء ذهب اليها الشاعر ، وشخصية فرضت نفسها على إنتاجه ، وحياة تلون هذا الانتاج بلونها ، وعقلية نبغ ذلك الشعر من ينايعها ، واتجاهات جديدة اتجه اليها فنه ، ونغمات جديدة أضافها إلى التراث الشعرى ، وإنما هو نقد للفكرة الشعرية المجردة ، ولأسلوبها الشعرى الذى ظهرت فيه ، إذا كانتا بعيدتين عن النهج العربى ، فهو تحكيم للنهج العربى فى أسلوب الشاعرين وألفاظهما ومعانيهما ، فيرد منها ما يردده الطبع العربى ، ويقبل ما يقبله ، مع عناية باستقصاء سرقانهما الشعرية الكثيرة . فهو نقد عقلى ولغوى أكثر منه نقداً أدبيا شعريا . على أن الآمدى لا يكتفى فى النقد بالناحية السلبية فقط ، بل كثيرا ما يتجه اتجاهها إيجابيا جيلا ، فيأتى بالآليات التى وقع فيها الخطأ - أيا كان نوعه - مصححة أبداع تصحيح .

- ٢ -

وتعطينا الصورة السابقة التى رسمناها الآمدى فكرة عن كتابه الموازنة ، ولكن لا ضير علينا أن نتقل من هذا الإجمال إلى البحث التفصيلي التحليل للكتاب من جميع نواحيه .

ألفت الموازنة فى فترات متقطعة ، يدانا على ذلك عدم تساوق كل جزء من أجزائها فى التأليف مع الذى يليه ، وأن روح الآمدى مختلفة فى ثناياه ، فهو يذكر فى آخر كل فصل من كتابه أنه سيضيف إلى البحث ما سيثير عليه من أخطاء أو سرقات ، وسيلحقه بما كتب . وهو حين يقرر فى أول كتابه (ص ٢٣ موازنة) أنه سيوازن بين شعر الشاعرين فيما يتفقان فيه فى الموضوع والوزن والقافية وإعرابها ، يعود فيجعل الموضوع فقط هو أساس الموازنة (ص ١٨٤ موازنة) . وهو يكرر كثيرا من آرائه ونقده ، فبيت ذى الرمة :

أنخت بها الوجناء لا من سامة لثنتين بين اثنين : جاء وذاهب

يشرحه فى ص ١٦٣ و ١٨٦ . وبيت البحترى :

يخفى الزجاجة لونها فكأنها فى الكف قائمة بغير إناء

ينقده في ص ١٤ و ١٦٤ ، وبيت أبي تمام : طلل الجميع لقد عفوت حميدا .
ينقده في ص ٩٦ و ١٩١ ، الى غير ذلك من التكرار الكثير : فشخصية الآمدى
العالية لم تستطع جعل الموازنة وحدة تأليفية بارزة في روحها التأليفية ، ويصح لنا
أن نقول : لقد جاء على ذلك أغلب التأليف العربية ، فلا داعى للوم الآمدى وحده ،
والنسخة التى بين أيدينا والتي طبعت في مصر ناقصة ، فليس فيها من الموازنة بين
الشاعرين إلا الموازنة في معنى واحد من معانيهما ، وهو بكاء الديار وما يتبعه ،
وليس فيها ذكر لما انفرد به كل من الشاعرين من المعانى ، ولا ذكر لما وقع في
شعرهما من التشبيه والأمثال ، مع أن الآمدى نفسه ذكر في موازنته أنه سيلم
بجميع ذلك (ص ٢٣ موازنة) على أن عبد القاهر الجرجاني أورد في أسرار بلاغته
جملا من الموازنة لاثراها في النسخة المطبوعة (ص ٣٢٩ أسرار) ، وعلى أن يا قوت
ذكر أن الكتاب في عشرة أجزاء ، وليس الذى بين أيدينا يبلغ هذا المقدار
(ص ٨٧ ج ٨ معجم الأدباء) .

والموازنة مع ما أخذنا عليه من هنات ضئيلة في التأليف من أجل الكتب التى
ظهرت في النقد والموازنة : ولقد وضع هذا الكتاب أساس نقد الشعر والموازنة
بين الشعراء ، وهو بحق من أمهات كتب النقد الأدبي وأصوله : وهو أيضا
مصدر من مصادر البيان العربى ومرجع من مراجعه ، وقد اعتمد عليه علماء البيان
كما سنفصل ذلك إن شاء الله . ونحن حين نقول إنه مرجع من مراجع علم البيان لا نقول إنه
كتاب بيان وبلاغة كما زعم ابن الأثير في مثله السائر فأخطأ في ذلك ثم بنى على هذا
الخطأ نقده الموازنة بأن صاحبها أهمل كثيرا من مباحث علم البيان لم يستوف بحثا
أو لم يذكرها أصلا (ص ٢ مثل سائر) ، فالموازنة إنما هو نقد أدبي ، وموازنة بين
شاعرين ، وليس بحثا في البيان العربى وبلاغته .

والكتاب مقسم الى خمسة أقسام ، وكل قسم يسميه المؤلف جزءا :

- ١ — فالجزء الأول (من ١ - ٦٠) ، ويورد فيه الآمدى آراء النقاد في شعر
أبي تمام والبحترى ، ويستقصى رأى المتعصبين لهذا أو ذاك ، ويطلق لهذا الفريق
الحرية في مجادلة ذلك الفريق ، ثم يحصى فيه في إفاضة سرقات أبي تمام الشعرية :
- ٢ — والجزء الثانى من (٦٠ - ١١١) ، وقد ذكر فيه أخطاء أبي تمام في المعانى
والألفاظ والأساليب :
- ٣ — والجزء الثالث يذكر فيه قبيح استعاراته ومستحسن جناسه ومستكره طباقه .

وما ورد في شعره من سوء النظم وتعقيد التركيب ووحشي الألفاظ بما خلا من بهاء الرواق وعذوبة المسمع ، وما حمل التعسف على ديباجته ، وظهرت لفتنة التصنع في أعطافه ، ويذكر ما وقع فيه من كثرة الزخافات التي ضيعت موسيقى أوزانه الشعرية ، حتى قال فيه دعبل : إن كلامه بالخطب والكلام المشهور أشبه منه بالشعر الموزون (ص ١١١ — ١٣١) .

٤ - والجزء الرابع يحلل فيه بإيجاز عيوب شعر البحترى مكثفيا من ذلك ببيان بعض سرقاته مع نفي الكثير منها عنه بدعوى أن الاحتذاء كان في معان عامة لا خاصة حتى ينسب إليه السرقة فيها ، ويذكر قليلا من أخطائه في المعاني مزيفا بعضها ، وبيتا واحدا مما تعسف فيه النظم وعقد فيه التركيب ، قائلا له لا يعرف له سواه ، وقليلا مما جاء له من ردى التجنيس أو من اضطراب الوزن واختلاله (ص ١٣١ — ١٧٦) :

٥ - والجزء الخامس يوازن فيه بين الطائيين في المعاني التي اتفق موضوعها في شعرها ، ويبدأ تلك الموازنة بكلمة يبين فيها صعوبة نقد الشعر ، وأن لهذا الميدان أبطاله ممن عنوا بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول المأبسة له مع الطبع المطيع والملكات المواتية ، وأنه يجب أن يكون إلى هؤلاء المرجع في نقد الشعر وصناعته وهو متأثر في هذا الرأي بابن سلام الجمحي ومقتبس منه (راجع طبقات الشعراء لابن سلام ص ٣ والعمدة ج ١ ص ٩٩ ، والموازنة ص ١٧٨ س ٥) ، ثم يبين الأمدى اتجاهه الأدبي الذي تأثر به في الموازنة وهو الاتجاه الذي جعله لا يرى بلاغة الشعر إلا في نظمه وأسلوبه وصحة طبعه ، ذاكر أن الذين قدموا البحترى إنما قدموه لأن له من ذلك ما ليس لسواه وإن كانوا لا ينكرون على أبي تمام إجادته في المعاني وكثرة استنباطه لها وإغرابه فيها ولا مكانه البارز في حومتها ، ولكنهم يقولون إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه مع كثرة غرامه بالجناس والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع مما ذهب بماء شعره فصار غير متشابه الاطراف ولا متألف الروح الشعرية ، فهم يسلبون له — كما يسلم له أنصاره — ضالة الشعراء جميعا من لطف المعاني وعمقها ، وتنوعها ، وبديع الوصف وجودة التشبيه والنمثيل ، وسمو الحكمة وإغراق الخيال ، وهي التي قدم بها امرؤ القيس في الجاهلية : ألا ترى عمارة بن عقيل ينشد رائيته في الواثق :

عرف الديار رسوما قفر لعبت بها الأرواح والقطار

فلما أتمها قيل له : ماسمعنا أحسن من هذه الرائية ، فقال : والله لقد عصفت رائية طائكم بكل شعر في لحنها ، أفلا تسمعون :

الحق أبلغ والسيوف عواری فحذار من أسد العرين حذار
وأنشدها رجل في المجلس فلما أتمها قال عمارة : د الله ذره لقد وجد ما أضلته
الشعراء حتى كأنه كان مخبوءاً له ، : ولكن خصوم أبي تمام يستكثرون عليه من
أجل ذلك أن يسمى شاعراً ويقولون له : فلتكن إن شئت حكيماً ، ولندعك إن أردت
فيلسوفاً ، أما الشاعر فالبحترى : ويفيض الآمدى في الإشادة بمذهب البحتري وأنه
الشعر وأنه السحر وأنه روعة البلاغة وسحر البيان ، ويقر أن ليس الشعر ولا
البلاغة إلا نظماً وأسلوباً ، وأن أبرز عناصرهما النظم والأسلوب . ثم ينتقل بعد ذلك
إلى الموازنة بين الشاعرين في بكاء الديار والوقوف عليها ووصف الدمن والاطلال
وما إليها وما تبعثه من جوى في صدور الواقفين بها والمسلمين عليها ، وفي الحنين
إلى الربوع والبكاء لفراقها ، ويستمر في هذه الموازنة مفضلاً هذا أو ذاك مكافئاً
بينهما حسب جودة كل شاعر ، ويشرح كل ذلك في إفاضة بيان وقوة عارضة وحسن
نقد وعدالة حكومة .. وإلى هنا ينتهى الكتاب . وهذا الجزء من ١٧٦ — ٢٠٨ :

والآمدى فى معظم ما كتب كان ناقداً محيطاً بأسرار اللغة ودقائق البيان ،
فهو يقف فى نقده عند البيت فى دقة ملاحظة وسعة اطلاع ، إذا وجد فيه خطأ فى
لفظ أو فساداً فى تركيب أو إحالة فى معنى أو بعداً عن النهج المألوف ، بما سنفضله
بعد حين ، وإن كان قد ذلل له هذه الأبحاث من سبقه من النقاد والعلماء .

رأى يافوت فى الموازنة ونقده لها : يقول يافوت فى معجم الأدباء ما نصه :
كتاب الموازنة بين الطائيين فى عشرة أجزاء وهو كتاب حسن وإن كان قد عيب
عليه فى مواضع منه ونسبه إلى الميل مع البحتري فيما أورده والتعصب على أبي تمام
فيما ذكره ، والناس بعد فيه على فريقين : فرقة قالت برأيه حسب رأيهم فى البحتري
وغلبة حبهم لشعره ، وطائفة أسرفت فى التقييح لتعصبه وأنه جد واجتهد فى طمس
محاسن أبي تمام وتزيين مرذول البحتري ، ولعمري إن الأمر كذلك وحسبك
أنه بلغ فى كتابه إلى قول أبي تمام - أصم بك الناعى وإن كان أسماً - فشرع فى إقامة
البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين (١) ، ولو أنصف وقال فى كل واحد بقدر
فضائله لكان فى محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من أبي تمام (٢)

ونحن نرى أن ياقوت مصيب في ذلك إلى حد ما ، وسنفصل ذلك في كلامنا .
بعض مآخذنا على الموازنة :

١ — انتصاره لعلماء الأدب ، المتعصبين للقديم المنكرين فضل المحدثين ، ودفاعه عنهم ، كما فعل مع الأصمعي فيما روى عنه من أن إسحاق الموصلي أنشده :

هل إلى نظرة اليك سبيل فيروى الصدا ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل
فقال لمن تشدني ، فقال لبعض الأعراب ، فقال هذا والله هو الديباج
الحسرواني ، فقال إسحاق إنهما ليلتهما فقال الأصمعي لاجرم والله إن أثر الصفة
والتكلف بين عليهما .

ودفاع الامدى عنه دفاع ضعيف متكلف ، وهل يسوغ لمنصف أن يقول إن ذلك
غير منكر من الأصمعي وابن الاعرابي لأن الذي يورده الاعرابي وهو محتمل على
غير مثال أجلى في النفوس وأشهى إلى الاسماع وأحق بالزيادة والاستجداء مما يورد
سواه على الأمثلة ، كما يحاول الامدى أن يلقى ذلك في روعنا ، ولو أنه اعتذر لها
ولامثالها بأنهم كانوا جلة الرواة وشيوخ اللغة والحفاظ على العربية وأنه لا يجدر بهم
وهم في منزلتهم العلمية الكبيرة أن ينزلوا عن شممهم وكبرياتهم ويرووا شعر المحدثين
الناشئين أو يسيروا شعرهم في مناهج البحث العلمي ، نعم لو قال الامدى ذلك وذهب
اليه لوجد ناله عذراً مقبولاً . ولقد عرض الصولى لهذه الخصومة في كتابه
(١٧٥ و ١٧٦ أخبار أبي تمام) ، وقال ابن المعتز : إنها عيب قبيح ومن فعل ذلك

فإنما غض من نفسه ثم جعل هذا ناشئاً عن جهل بنقد الشعر وتمييزه . ولكن
صاحب الوساطة عرض لهذا التحامل الظاهر ورده إلى سببه الصحيح وهو تعصب علماء
اللغة ورواتها للشعر القديم وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم (٤٩ و ٥٠ وساطة)

٢ — : لإثاره للبحثرى وجنوحه إلى تقديمه وانتصاره له ويتجلى ذلك في ثنايا
كتابه في مظاهرتي ، فهو حيناً يذهب إلى أن جيد البحثرى أكثر من جيد أبي تمام ،
وكلاً أمعنت النظر في ديوان البحثرى تنبته إلى كثير من جيده الذي غاب عنك
قبل حسنه ، بينما لا تظفر إذا أمعنت النظر في ديوان أبي تمام من جيد إلا بالقليل
(٢٢ موازنة) ، وهو حين ينقد البحثرى يمس به برفق ويقف في كثير من الأحيان
موقف المدافع دونه ، أما إذا تعرض لأبي تمام قبض على أخطائه بيد لا تلين ،

يزيف كثيرا من معانيه ويظهر بجافاتها للذوق العربي القديم ، ويهرج كثيرا من أساليبه التي لا يسيغها النهج العربي القويم ، ثم هو يظهر نصرته للذين رأوا البلاغة سحر نظم وجمال سبك ويرى بعد ذلك أن الشاعر البحرى ، أما أبو تمام وأضرابه مثل المتنبي فهم حكام ، وهو يدفع كثيرا من سرقات البحرى التي أخذها من أبي تمام ، وينكر أن تكون سرقة بحجة أن معانيها دامية لا خاصة .

ونحن لا يمكننا - ولو سلمنا بأن هذه معاني عامة - أن ننكر احتذاء البحرى الظاهر - في هذه المثل وسواها بما يكثر تعدادها - لأبي تمام ، ولا نستسيغ أن نقول إنه لم ينهل من المنهل الذى شرعه أبو تمام ولم يشرب من عبابه ولا أن نقول إنه لم يكن فى ذلك عيالا على أبي تمام وتابعاً له ، ثم ما الآمدى رضى الله عنه - لا يترك - وأخذة أبي تمام على سرقاته فى المعاني العامة - كما فعل مع البحرى - مع أن أبا تمام فى كثير مما أخذ يستبد بشرف المعنى لجودة نظمه وحسن تأتبه وارتفاعه بالزيادة على ما أخذه والتأق فى صوغه . . أفليس قول أبي تمام :

أحلى الرجال من النساء موقعا . . من كان أشبههم بهن خدودا - الذى زعم أنه مأخوذ من قول الاعشى : وأرى الغواني لا يواصلن امرأ : فقد الشهاب وقد يصلن الأمردا .
أليس هذا اشتراكا فى معنى عام فلم يعده سرقة ؟ . وأليس قوله : وما الحب إلا للحبيب الأول ، الذى قال الآمدى إنه مأخوذ من قول كثير : وإذا وصلتنا خلة كى نزيلها . . أينا وقلنا الجاحية أول ، . أليس هذا معنى عاميا مشتركا وهذا يدفع أن يكون سرقة . وهكذا شأن كثير مما أخذه الآمدى على أبي تمام فيما يأخذه من المعاني ؟

وكيف وقد جرى حكم نقاد الشعراء بهذه المعاني على أن الشاعر إذا سرق معنى فأداه بأبلغ مما أداه به صاحبه انفرد به ولم يعد ذلك عليه عيبا ، وكان صاحب هذه الزيادة بالتفضيل أحق وبالنزكية أولى (١٥١ وساطة) . ولعمري لقد كان دعبل يضع من شأن أبي تمام فقال مرة فى مجلس : إنه كان يتبع معاني فيأخذها فطلب منه رجل فى المجلس أن يذكر مثالا لذلك : فقال دعبل لقد قلت : شفيقتك فاشكر فى الحوائج إنه . . يصونك عن مكروها وهو يخلق ، فأخذه أبو تمام وقال : وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعا : من جاهه فكأنها من ماله ، . فقال الرجل أحسن والله ، فقال دعبل كذبت قبحك الله ، فقال الرجل : والله إن كان أخذه هذا المعنى وتبعته فما أحسنت وإن كان أخذه منك فلقد أجاده فصار به أولى منك ، فغضب دعبل وقام .

٣ — تحامل الآمدى فى كتابه على أبى تمام ، وذلك ظاهر كما أسلفنا من روح الموازنة واتجاهها ، وقد خضع الرجل فى ذلك لحكم ثقافته الادبية القديمة العربية الخالصة .. على أن ذلك ليس تعصبا أعمى على أبى تمام كما يرى كثير من الناس ، وكما ذهب إليه صاحب معجم الأدباء وسواه ، إنما هو رأى رآه الآمدى ، ومذهب ذهب إليه فأيده ودافع عنه للحق لا للعصية ، وكان عادلا فى مواضع كثيرة من حكومته .. منصفاً أكثر من كثير ممن سواه ، مقراً بفضل أبى تمام غير منكر له .

٤ — يتبيل الآمدى ما وضعه دعبل على أبى تمام ، مع معرفته بحقيقة موقفه منه ، ومع ظهور تحامله عليه ، فهو مثلاً يتبع دعبلاً فى أن قصيدة أبى تمام :

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض مؤثما عذر

مأخوذة من قول أبى سلمى المزنى فى رثاء ذقافة :

أبعد أبى العباس يستعيب الدهر	وما بعده للدهر عتبي ولا عذر
ألا أيها الناعى ذقافة ذا الندى	تعست وشلت من أناملك العشر
ولا مطرت أرضاً سماء ولا جرت	نجوم ولا لذت لشاربها الخمر
كأن بنى القعقاع يوم وفاته	نجوم سماء خر من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذقافة	وأصبح فى شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله	وذخراً لمن أمسى وليس له ذخـر

إلى آخر هذه الأبيات ، مع ظهور التفاوت فى خيال هذه الأبيات ، والتباين بين معانيها القريبة والبعيدة ، والحضرية والبدوية ، مما ينبئ عن وضع واختلاق أو جمع وتلفيق . ونحن إن نذهب إلا أن دعبلاً قد اختلق هذه الرواية ليغض من شأن أبى تمام ، ولكننا نرى ما رأى الحسن بن وهب من قبل من أن لأبى سلمى مرثية رائية من الطويل ، ولكن دعبلاً خلط أبياتها بأبيات من قصيدة الطائي لينفى عن الرجل أن يكون هو المستبد بهذا الإحسان ، والظافر بشرف تلك الروعة ، وفضيلة ذلك السحر الساحر والشعر الشاعر .

ه — يحكم الآمدى فى النقد عاطفته الدينية تارة وعقله تارة أخرى ، تاركا ذوقه الأدبي يتأثر بهذه الحكومة الجائرة ، وعقله يفسد على ذوقه حكمه . ويتجلى أثر عاطفته الدينية فى كتابه فى نقده بيت أبى تمام :

سأحمد نصراً ما حييت وإننى لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد

حيث أخذ على البيت (١) أن الشاعر رفع فيه ممدوحه عن الحمد الذي نذب الله عباده إليه بأن يذكروه به وينسبوه إليه . كما يتجلى جور عقله على ذوقه في نقده بيت أبي تمام :

من حرقة أطلقها فرقة أسرت قلبا ، ومن عدل في نحره غزل

فهو لا يستسيغ هذا البيت لا لظهور أثر كلفة الصنعة عليه وإضاعة البديع مائه ورواقه ، ولكن لأن الفرقة لا تأسر القلب إنما يأسره الشوق . وعقل الآمدى البعيد الأفق يحور في حكومته على العاطفة الشعرية والمعنى الشعرى بهذا النقد العقل البعيد ، أفينكر الآمدى أن الفرقة تدع القلب الوفى في حبه أشد لوعة وأكثر هلمعا من الشوق والحبيب حاضر والخليل مقيم ؟ وهل يجدر بذلك المعنى شيء سوى كلمة الأسر وأن يقع القلب في إسار الفراق وفى لظى الحزن وسعير الذكرى ووثاق اليأس والرجاء ؟ وكذلك ينقد الآمدى بيت أبي تمام :

ورحب صدر لو ان الأرض واسعة كوسعها لم تضق عن أهلها بلد

نقدا ضئيلا ، ومن ناحية غير أدبية بل عقلية محضنة ، يقول الآمدى ما خلاصته : « إن كل بلد يضيق بأهله وليس ضيقه من جهة ضيق الأرض ، إنما ذلك على حسب ما أدى إليه الاجتهاد والاختيار من أسس كل بلدة ومصر كل مصر . وأيضا فإن الجزء من الأرض هو ما يكون فيه من الحيوان والنبات ، ومقداره على ما يقول علماء الهندسة الربع من الأرض وأقل من الربع ، والمسكون من جملة ذلك لعله لا يكون جزءا من ألف جزء من ذلك ، فما معنى جعله ضيق البلدان الضيقة إنما هو من أجل ضيق الأرض ؟ » .

ولعمري لقد أسرف الآمدى في إخراج البيت من دنيا الأدب ، إلى عالم الجغرافيا والهندسة ، وعذره في ذلك غير مقبول .

٦ — ينقد الآمدى بيت أبي تمام :

إلى المفدى أبي يزيد الذى يضل غمر الملوك فى ثمده

وهو من المنسرح ، فيقول : إن أبا تمام أفسد البيت بكثرة الزحاف . والصواب أن الذى يؤخذ على البيت شيء آخر هو عدم طى عروض هذا البيت مع وجوب

ذلك في المنسرح ، لا كثرة الزحاف لعدم وجوده في البيت (١) .
هذه هي بعض المآخذ التي نأخذها على الآمدى .

ولا شك في تأثير الآمدى بآراء النقاد قبله ، فهو يعتمد على آرائهم ويستدل بحكومتهم في النقد ، وهو يروى الكثير عنهم في كل صفحة من صفحات الكتاب وكل موضوع من موضوعاته ؛ نقل عن الأصمعي وعن ابن الأعرابي وأستاذهما أبي عمرو بن العلاء ، ونقل عن ابن سلام وابن قتيبة وسواهما من أئمة الأدب وعلماء اللغة ، وهل هذه الانتقادات الكثيرة التي شحن بها الكتاب إلا صورة لآراء كثير من النقاد التي جمعها الآمدى في موازنته ؟ فأصول كتب الموازنة ترجع إلى نقاد القرن الثالث (٢) ومؤلفيه ، وقد صرح الآمدى بما يدل على ذلك في أكثر من موضع من كتابه ؛ وفضل الآمدى إنما هو في تدوينها وتنسيقها وإضافة آراء معاصريه إليها ، وتديبها بكثير من آرائه هو ، وتعليل ما لم يعلل ، فقد هضمت عقلية الرجل كل ذلك فرتبته وأحسن جمعها والاستدلال به ، والزيادة عليه في التحليل والتعليل ، ولذلك قيمة كبيرة ، لا سيما أن كتب النقد في القرن الثالث قد فقد أكثرها .

ولا شك أيضا في أن الآمدى فيما سار عليه من مناهج في النقد والموازنة قد تأثر باتجاهات النقاد قبله ومناهجهم فيما ينقدون ، وهل كان نقد النقاد قبل الآمدى إلا تحكما للنهج العربي في نثر الأديب ونظم الشاعر ؟ وهل كان ابن العلاء وخلف وحاد والأصمعي وابن الأعرابي وسواهم من الأدباء والنقاد يميزون جيد الشعر من رديئه إلا بعرضه على ميزان الطبع العربي وتحكيم الأسلوب العربي فيما ينقدون ؟ وكذلك فعل الآمدى ، فقد رجع إلى اللغة العربية فجعلها كل شيء أو أهم شيء في النقد ، فهو ينقد شعر أبي تمام وينقد البحتري بتحكيم النهج العربي في شعر الشعارين ، وتحكيم الذوق العربي في كلامهما ، والأساليب العربية في أساليبهما الشعرية ، فيرد ما ترده ويقبل ما تقبله ، فللعرب طريق خاص فيما ينطقون به من أساليب وتراكيب ونظم ، وفيما يتكلمون به من أفكار ومعان ، وخيالات ، وفيما ينظمون فيه شعرهم من أوزان ، ولهم نهج خاص في مجازاتهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وتمثيلاتهم ، وفيما يتفننون فيه من مقابلة أو طباق أو جناس أو سجع إلى غير ذلك ، وذلك النهج

العربي الخاص هو ما يجب على الشاعر أن يلتفت إليه ويسترشد به ويحتذى حذوه وينظم شعره على مثاله ، ثم هو ميزان النقد وأساسه ، والناقد يحكم ذلك النهج الخاص فيما ينقد من شعر ، فيفطن لما فيه من جمال وما فيه من قبح ، ثم هو يدرك ذلك بطبعه وذوقه ، وقد لا يجد إلى تصوير ما في نفسه من شعور بالقبح أو المحال سبيلا .

وكذلك رأى الآمدى النقد ، وعلى هذا الضوء سار في نقد الطائيين ؛ فقد عرض شعرهما هذا العرض ، وفلا هذه التقلية ، وأخذ يظهر ما فيه من عيوب وأخطاء ، ثم وازن بينهما فيما لهما من روائع وحسنات ، حريصا على وحدة الموضوع إذا تعسر عليه مع ذلك مراعاة وحدة الوزن والقافية وإعراها .

وقد سار نقاد الشعر العربي بعد عهد الآمدى في النقد على هذه الطريقة وذلك المذهب ، وصار ذلك الاتجاه خطه عليا مقرر ، وأصبح هو النهج الفني لنقاد العرب جميعاً ؛ ومن الواضح أن هذا المنهج بعيد الصلة عن منهج قدامة بن جعفر سنة م ٣٣٧ الذي فصله في كتابه «نقد الشعر» ، والذي بناه على أساس عقلي بعيد مع عناية بجمع مظاهر الترف الأدبي في التعبير والبيان وجعلها مظهر البلاغة وسر سحر الأداء ؛ نعم لقد حكم قدامة قواعد العقل والمنطق فصدر عن حكمها في النقد ، أما الآمدى فقد حكم الذوق الأدبي وحده والروح العربية والاتجاهات الخاصة بالعرب وبلغتهم العربية .

أما تأثير الآمدى بقدامة في بحوث البيان ونظرياته فقليل : لاختلاف ثقافة الرجلين واتجاههما ، فالآمدى أديب لغوي وقدامة أديب متفلسف ، والآمدى يقف من قدامة موقف النقد للند ، فهو مؤلف كتاب ينقد فيه قدامة ويبين غلطه في كتابه «نقد الشعر» (١) ، وهو ينقد رأى قدامة في الطباق وحقيقته وتسميته نقداً لاذعاً (٢) تبعه فيه ابن الأثير (٣) ، والآمدى يذهب إلى أن البلاغة للفظ وقدامة يجعلها للفظ والمعنى معا ، ويجعل الآمدى مادة الشعر هي الألفاظ ويجعلها قدامة هي المعنى (٤) . ولكن الآمدى على كل حال أقاد من نقد الشعر لقدامة واقتبس منه : فهو يجعل الشعر صناعة ككل الصناعات كما فعل قدامة ومن قبلهما ابن سلام (٥) .

(١) ١٢٥ موازنة (٢) موازنة ١٢٤ (٣) ٢٨٣ مثل سائر

(٤) ١٨٣ موازنة و ١٤ نقد الشعر (٥) ١٧٧-١٧٩ موازنة و ١٤ نقد الشعر

ويعرف الامدى الحوشى من الكلام بما عرفه به قدامة (١) .

ورأى الامدى فى أن الاستعارة إنما تحسن بقربها من الحقيقة وتبعد ببعدها عنها هو رأى قدامة (٢)

وكتاب الموازنة سجل حافل لشتى مناهج النقد ومذاهب النقاد فى تحليل شاعرية أبى تمام والبحترى ، وإن كان الآمدى ينتصر للبحترى فى مواقف كثيرة .

والصلة بين الآمدى والقاضى أبى الحسن الجرجانى صاحب الوساطة م ٣٩٢ هـ لم يتكلم عنها باحث ، وبمتابعة البحث وجدت بين الرجلين اتفاقا فى كثير من الآراء فى النقد والأدب والبيان ، وكثيرا ما نرى أسلوبهما فى شرح بعض الأبيات واحدا أو متقاربا ، على أن اتجاه الرجلين فى النقد واحد أيضا ، فاتجاه الجرجانى فى نقد شعر المتنبي هو اتجاه الآمدى فى نقد شعر الطائيين ، فهو يخصى ما أخذ على المتنبي من سرقات ، وما أخذ عليه من أخطاء ترجع إلى التكلف والتعقيد ، أو إلى الإفراط فى المبالغة ، أو إلى بعد الاستعارة وعدم وضوحها ، أو غموض المعنى والتعثر فى أدائه أو إلى اللحن فى الأداء والخطأ فى التركيب ، وهذا هو الاتجاه الذى اتجه إليه الآمدى فى موازنته مع فوارق ضئيلة ، وهو رجوع بالنقد إلى النهج العربى والذوق الأدبى دون ما عداها ، وكل ذلك يدلنا على وجود صلة أدبية بين الرجلين رغم تباين موطنيهما (البصرة وجرجان) . ومن المرجح عندى أن صاحب الوساطة قد تأثر بالموازنة دون العكس ، وأن الموازنة كانت خطوة أولى فى النقد الأدبى كعلم ، ثم تلتها الوساطة كخطوة ثانية فى مضماره ، يرشدنا إلى ذلك دراسة فن التأليف فى كلا الكتابين فالرقى التأليفي فى كتاب الوساطة المتجلى فى جمال عرضها وتهذيب تأليفها وحسن أسلوبها أكبر دليل على ما أذهب إليه ، ويصعب علينا أن نفسر ما بين الرجلين من تقارب كثير بأنهما عاشا فى عصر واحد وتتقفا بثقافة عصرهما المتحدة ، فإن اختلاف بيئة الرجلين وحياتهما بما لا يجعل لذلك التفسير قوته ولا وجهته .

(١) ١٢٥ موازنة و ١٠٢ نقد الشعر (٢) ١١٤ موازنة و ١٠٤ — ١٠٦

القاضي الجرجاني

المتوفى عام ٣٩٢ هـ

حياته وثقافته :

إذا كان للمتنبّي ولأدبه عاصفة من الشرقة السياسية في بلاط ملوك الشرق الإسلامي على عهده ، وكان له دوره في حلقات العلم ونوادي الأدب في شتى أرجاء العالم العربي حينذاك ، فإن هناك شخصية جليلة لعبت دوراً خطيراً في تطور النقد الأدبي في القرن الرابع . وفي إنصاف المتنبّي من ثورة خصومه الناقدين والحاقدين ، تلك هي شخصية القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبّي وخصومه » ، الذي يعد سجلاً أدبياً هاماً للنقد في القرن الرابع ولا يزال كما كان عنصراً من عناصر الثقافة الأدبية .

ولد الجرجاني في أوائل القرن الرابع بجرجان ، وهي موطن خالد من مواطني الثقافة الإسلامية في بلاد فارس إذ ذاك ، وسلك أبو الحسن السبيل التي كان يسلكها الطامحون من الشباب في هذه البيئة العلمية الحافلة ، فأخذ في دراسة علوم الدين واللغة والأدب ، وانتقل في سبيل دراسته بين جرجان وبغداد والشام حتى صار ناضج الثقافة والعقلية ، ناضجاً في روحه الأدبي نضجه في ثقافته الدينية ، ووطدت الصلات الثقافية والأدبية صلات الصداقة بينه وبين صاحب بن عباد ، فاشتد اختصاصه به ، وحل منه محلاً بعيداً في رفعة كما يقول الثعالبي (١) ، ومدح الجرجاني صديقه صاحب بقصائد ساحرة ، وقلده صاحب قضاء جرجان ، وبعد حين رفعه إلى منصب قاضي القضاة بالرى عاصمة الملك الذي يسوسه ابن عباد ، واستمر في القيام بأعبائه حتى بعد وفاة صاحب ، إلى أن توفي سنة ٣٩٢ هـ .

وثقافة الجرجاني الدينية يدل عليها ثقة صاحب به ، وتوليته إياه مناصب دينية خطيرة ، فوق مؤلفاته في الفقه التي ذكرها الشيرازي في طبقات الشافعية . وثقافته الأدبية تتجلى في الآثار الباقية من شعره ، التي حفظها الثعالبي في يتيمة ، كما تتجلى في الوساطة بأجلى مظاهرها ، وفي كتابته الجيدة فيها عن الشعر

ومذاهبه .

وشعر الجرجاني صورة صادقة لشخصيته التي بالغ الرجل في الاتزان بها ، وفي الاعتماد بكل فضائل الحياة الاجتماعية ، والنفور من رذائلها . كره الملق والرياء والزلفى :

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال بابان حرما على الغنى : نفسي الأبية والدهر
إذا قيل هذا السر عاينت دونه مواقف خير من وقوفى بها العسر
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم بنفس فقير كل أخلاقه وفر
وكذلك كان صورة صادقة للمثل العليا التي لا يحرص عليها إلا القليلون ، كما كان
صورة لنبل عواطفه وجمال طبعه وسعة ثقافته في الأدب ، وهو ينبع من نفس
غذيت بنعيم الحضارة وعاشت في ألوان من المدنية ؛ فتركت البداوة التقليدية
في الشعر ، وأنست إلى رقة الأسلوب الذي يفيض قوة وشعورا ، ويسرى فيه
روح قوى وعاطفة شاعرة ، ترسم كل ما يحيط بنفس الشاعر من مؤثرات وذكريات ؛
وله ديوان ، ذكره الشيرازي في طبقاته ، وابن خلدكان في وفياته ، وضاع مع
ما ضاع من تراثنا الأدبي القديم .

والجرجاني الذي يقول فيه انشعالي : إنه « كان يجمع خط ابن مقلة إلى نثر
الجاحظ ونظم البحترى » ، قد ضاع نثره الأدبي ، ولكن كتابه : « الوساطة »
يرشدنا إلى خصائص فنه الأدبي : من دقة التعبير ، وتمثيل الأسلوب لثقافته الأدبية
التي ترتفع إلى ثقافة الخاصة من الأدباء في عصره ، كما يتجلى فيها الجنوح إلى إثارة
الالفاظ والصيغ الرقيقة ، والبعد عن ترف البيان المتكلف في شتى صورته وألوانه
البديعية ، وعدم إثارة من السجع إلا ما ساوق الطبع واستدعاه المعنى . ولذلك
تردد أسلوبه بين السجع والازدواج ، والارسال ، والتساوق بينه وبين طبعه
وعقله الزاخر بشتى الفكر والآراء الدقيقة ، وتركه أسلوب الرسائل الأدبية التي
تنحى نحو الإطناب والتفصيل والمبالغة . ثم أسلوبه كذلك صورة لاستقلاله
الفكري وجنوحه إلى الحجاج :

شاهد الجرجاني آثار الخصومة الأدبية بين المتنبي وخصومة من النقاد ، وسمع
وقرأ الكثير مما دبحه يراع علماء الأدب في نقده ، كما سمع حجاج أنصار المتنبي وآراءهم
في شعره ، ولما ظهرت رسالة صاحب بن عباد قرأها الجرجاني ، فرأى فيها جورا
(٢٤ - الحياة الأدبية)

على الحق ، وإسرافا في الخصومة . وشططا في النقد ، ففكر وقدر ، ثم ألف بعد حين كتابه « الوساطة » ينصف فيه المتنبى من خصومه ، ويعرض آراءهم نقد شعره ، ويحللها ثم يناقشها ، ويعرض بجانب الصورة الباهتة التي رسمها هؤلاء لابي الطيب صورة مشرقة فيها تقدير وإنصاف ، وذلك مثل جديد في سموزعات القاضي الخلقية واستقلاله في الرأي ، وعدم نزوعه إلى الايمان التقليدي برأى سواه ، ولو كان من أشد من يؤثرهم ويحفظ لهم أو في الذكريات .

والوساطة من أصول كتب الأدب ، وأسلوبها البياني مثل يحتذى ، وكان لظهورها دوى بعيد في عالم الأدب والأدباء ، وحسبنا رأى الثعالبي وابن خلدون (١) إشادة بها ، ورجل الأدب المثقف في العصر الحديث بحاجة ماسة إلى الوساطة ليعرف مناهج الكتابة ، ووزن الأساليب . وقد عرضت الوساطة كثيرا من المشكلات الأدبية عرضا ساعرا ، أملاه الذوق والطبع والوجدان . . وللوساطة أثرها الكبير في النقد ، ويعدها الباحثون من القدامى والمعاصرين ، من أروع مؤلفاته (٢) ، وصاحبها يفهم الشعر فهما جيدا يتجلى في كتابته عنه وعن مذاهبه . وترسم الوساطة المنهج الحق في النقد ، بعرض ما أحسن أو زل فيه الشاعر ، ثم الموازنة والمفاضلة . مع الرجوع في أحكام النقد الأدبي إلى الذوق المطبوع ، الذي هذبته الفطرة الأدبية السليمة وثقفه المران والبحث (٣) ، وذلك ما سار عليه أئمة نقاد الأدب والبيان (٤) ، فالنقد عند ثقات النقاد لإدراة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بما يشابهها أو يقابلها ، ثم الحكم عليها ببيان درجتها وقيمتها ، والنقد الأدبي عند المحدثين هو التقدير الصحيح لاي أثر أدبي وبيان قيمته ودرجته بالنسبة إلى سواه (٥) ، وذلك هو ما فهمه الجرجاني ، وسار عليه في وساطته .

والجرجاني حين يجعل الذوق الأدبي هو الحكم في مشكلات النقد والبيان يرجع إلى مذهب العرب في بيانها ، وما تيسر عليه من مناهج في الأداء والتعبير ، ليقوم بذلك ذوق الناقد ، ويوسع جوانب ثقافته في النقد ، ويقول صاحب الوساطة : وإنما تفاضل العرب بين الشعراء في الجودة والحسن ، بشرف المعنى وصحته ، وجزالة

(١) ص د و ه مقدمة الوساطة طبعة ضبيح .

(٢) ١٧١ مقدمة لدراسة بلاغة العرب . (٣) ١٢ الوساطة .

(٤) ٩٠ - ١٠٠ لدراسة بلاغة العرب (٥) راجع أصول النقد الادبي للشايب

اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولئن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته .. فعناصر الشعر - التي يدور حولها النقد في نظره هي : المعنى وصحته ، والغرض وإصابته ، واللفظ واستقامته ، والانتاج وكثرته وجودته ، وهذه العناصر هي التي يجب أن تجعل الحكم في الحكم على الشعراء والجرجاني فيما عرضه إجمالاً من موازين النقد يتحدث بفطرته الأدبية الخالصة التي لم تستغف من البحوث القوية التي فصلها قدامة في « نقد الشعر » . وأكثر تأثر القاضي على العموم إنما هو بعلباء اللغة والأدب من أولى الثقافات العربية المحضة كالآمدى وسواه .

أبو هلال العسكري

عاش أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري في القرن الرابع ، وتوفي في آخره ، وامتاز بحبه الفضائل الخلقية ، وإيثاره المثل العليا في الحياة ، فماش بجهدا يعمل بساعده ليتمكن من الحياة ، مؤثراً ذلك على زخرف الجاه والمنصب ، متصلاً برجال النهضة الفكرية والأدبية والسياسية في عهده اتصال صداقة وأخوة ، وكان ممن اتصل بهم الصاحب بن عباد الوزير المتوفى عام ٣٨٥ هـ ، وقد قنع أبو هلال بصداقته ، ولم يتطلع إلى ما في يده من مجد وجاه ومال ، واتصال أبي هلال به جعله من مؤيدي مذهبه الفكري والأدبي ، وتأثيره ساء رأى أبي هلال في أبي الطيب المتنبى الشاعر ، وقد عرض بذمه في مواضع كثيرة من كتابه الصناعتين .. وأبو هلال في كتابه كثير الإشادة بالصاحب وأدبه من شعر ونثر ، فكثيراً ما يستشهد بأدبه كلما عن له موضع استشهاد ، ويذكره حيناً بالصاحب ، وحيناً بكافي الكفاة ، وحيناً بالأستاذ ، وله قصائد كثيرة في مدحه (١) ، وتراه يمدح البحرى باختيار القوافي المناسبة لموضوع القصيدة كما مدحه الصاحب من قبل (٢)

وقد نشأ أبو هلال في عصر نضوج الثقافة الأدبية والفكرية في الشرق قاغترف من ينابيعها المتدفقة ، وتتلذذ على كثير من رجال الفكر والأدب ، وكان أظهر أساتذته خاله أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري المتوفى عام ٣٨٢ هـ صاحب كتاب التصحيف والتحريف الذي ينقل عنه كثيراً من شتى

(١) تجد آثاراً منها في ص ٤٤٤ و ٤٤٥ الصناعتين .

(٢) ١٤٢ صناعتين ، رسالة الصاحب في الكشف عن مساوئ المتنبى

الروايات في الأدب والبيان.. وأدب أبو هلال أدب أوحى به إليه عقليته الناضجة التي وعت دقائق الحضارة في عهده ، وجمعت شتى ألوان الثقافات المعروفة في عصره ، وتأثرت بألوان كثيرة من المدنية والعمران والترف العقلي والمادى جميعاً . . فهو أدب عميق الفكرة ، دقيق المعنى والخيال ، ساحر في أسلوبه العذب الرقيق الساحر الموشى بألوان البيان وفنون الأداء ، سواء في ذلك نثره وشعره ، وكثيراً ما ينقل أبو هلال منه في كتابه ، ونثره الأدبي تستطيع أن تعرف خصائصه من القطع التي ذكرها في كتابه (١) . . ونثره العلمي يدل على أسلوبه في كتاب « الصناعتين » ، وقد نجد فروقا بين النثرين : فالأول نثر فيه كثير من دقة الفكرة وجمال الأداء وسحر البيان وترف التعبير ، والثاني يترك فيه صاحبه كثيراً من التعبير العاطفي والخيالي ويلجأ إلى أسلوب يهمل عن الحقائق تعبيراً يظهرها لك بمثلة واضحة . . وشعره يفيض بكثير من المعاني والأخيلة ، وفيه دقة وبعد ، وله روعة وسحر ، وينقل منه كثيراً في كتابه أيضاً وعلى العموم فهو شاعر ذى ثقافة عقلية كبيرة.. وثقافته ثقافة متكلم أجاد اللغة والأدب وكثيراً من العلوم العقلية ، أما أنه متكلم فذلك عليه أنه كثيراً ما ينقل في كتابه مثلاً لبلاغة المتكلمين ، ولا ينسى أن يذكر في أول كتابه أنه سلك به مذهب علماء الأدب لا المتكلمين . وأما إجادته للأدب واللغة والبيان فذلك ما ليس للشك فيه سبيل ، وتجده ينقل في الصناعتين من جميع مصادر الأدب والنقد والبيان شارحاً وناقداً ودارساً ، حتى كلية ودمنة فقد نقل منه مثلاً للتشبيه الجيد . (٢) . . وأبو هلال متأثر بالجاحظ كثير الإفادة منه ومن كتابه « البيان والتبيين » ، وكتابته يسير في السبيل الذي عبده الجاحظ (٣) ، كما تجد كثيراً من آرائه في البلاغة والبيان مأخوذة منه ، وله ميزة شرحها والتعليق عليها وقد ينقلها ، وقد يستدل بها ، فالأصول الأولى لعلم البيان التي ذكرها أبو هلال وأضاف إليها ما جد بعد عهد الجاحظ من آراء في الأدب والنقد والبيان هي الأصول التي دونها الجاحظ من قبل ، ويقول باحث محدث : « ليس أبو هلال إلا شارحاً للجاحظ في كتاب الصناعتين ، جامعاً للتفرق منه ، وقد تحدث عن

(١) ٣٥٨ و ٣٨٧ صناعتين

(٢) ٢٣١ - ٢٣٣

(٣) ٦ و ٧ صناعتين .

كتاب البيان والتبيين بعد أن أورد طرفا من تخليط بعض المتحدثين في البلاغة ، فقال : ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبيل ؛ ووجدت الحاجة إليه ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب « البيان والتبيين » لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمرى كثير الفوائد ، جهم المنافع ؛ إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبعثرة في تضاعيفه ، ومنتثرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير ، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صناعة الكلام : نثره ونظمه ، ويستعمل في محلوله ومعقوده ، من غير تقصير وإخلال . وهذا لون من ألوان التأثير الإيجابي للجاحظ (١)

وكتاب الصنائع ألفه أبو هلال وانهى من تأليفه عام ٣٩٤ (٢) ، فإذا يكون من المحقق أن أبا هلال قد ألف كتابه بعد ظهور الوساطة بزمن يسمح له بالتأثر بها واتخاذها مصدراً من مصادر كتابه ، إن أراد ، ولكن هل فعل ذلك أبو هلال ، وهل اتخذ الوساطة من مراجع كتابه الحافل ؟ الجواب لا ، فقد كان بين الرجلين فوارق كثيرة :

(١) فاتجاههما العقلي والثقافي مختلف ، فالجرجاني أديب يستمد أدبه من ثقافة عربية خالصة ، وأبو هلال أديب يستمد أدبه من ثقافته العربية وثقافته العقلية التي يحذر فيها حذو قدامة وابن العميد والصاحب .

(ب) ومشكلات المنافسة بين الرجلين كانت عاملا في عدم انتفاع أبي هلال بوساطة الجرجاني ، بل كانت سببا في إظهار السخرية بها وبمؤلفها ، وإن كان ذلك لم يحف على أحكام ذوقه الأدبي في تقدير ما يستحق التقدير من شعر القاضي ، كما نرى في ديوان المعاني (٣) ، حيث روى أبياتا للجرجاني واستحسنها . ولكنك تجد في الصنائع (٤) نصا غريبا يستوقف النظر :

قال أبو هلال وهو يعدد أنواع البديع : « فهذه أنواع البديع التي ادعى من رواية له ولا دراية عنده أن المحدثين ابتكروها ، وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفنم أمر المحدثين . فمن هو هذا الرجل الذي يعرض به أبو هلال ؟

(١) ١٧٣ البلاغة العربية في دور نشأتها - سيد نوفل - طبع النهضة ١٩٤٨

(٢) الصنائع ط صبيح ص ٤٤٥ (٢) ١٦٨ ج ١ (٤) ٢٨٥

هو القاضى الجرجانى أبو الحسن صاحب الوساطة ، وليس فى ذلك ريب عندى :
(١) فالجرجانى هو الذى نوه فى وساطته بالمحدثين ، وهتف باسمهم وأشاد
بمكانيهم ، فذهب إلى أن وقوعهم فى الخطأ لا يحط من منزلتهم ، لأنه قد وقع فيه
الجاهليون والإسلاميون ، كما ذهب إلى أن يسيرهم أحق بالاستكثار ، وصغيرهم
أولى بالاكبار .

(ب) والجرجانى هو الذى يرى أن المحدثين فطنوا لجمال ألوان البديع التى ألم
بها القدماء لما فتكفوا الاحتذاء عليها (٢٧ الوساطة طبع صبيح) ، وتكلم
على شتى ألوان البديع وذكر أن المحدثين هم الذين مهدوا سبيلها ، وغيروا اتجاهها
الأدى ، كما ترى مثلاً فى كلامه على السرقة ودقة المحدثين فى إخفاء الأخذ ، وفى كلامه
على الإفراط وأنه مذهب عام فى المحدثين (١) ، وفى الاستعارة وإبعاد مرماها على
يد المحدثين (٢) ، إلى غير ذلك من ألوان الاشادة بالمحدثين فى كتابه .
(ح) وثقافة القاضى دينية ، وأدبية مستمدة من الذوق والطبع أكثر من
استمدادها من العقل أو النقل كما يقول أبو هلال .

على أن أبا هلال قد تحامل فى كلبته على القاضى ، فأسرف فى رميه إياه بأنه
لا رواية ولا دراية عنده ، وفهم من إعجاب الجرجانى بالمحدثين أن ذلك تعصب
لهم ، كما فهم من كلام الجرجانى عن أبواب البديع وفضل المحدثين فى الفطنة إليها
أنه يرى أن القدماء لم يعرفوها بأى شكل من أشكال المعرفة ، مع أنه رأى أن
القدماء عرفوا بعضها معرفة فن وأدب ، وأن المحدثين قد عرفوها معرفة علم وفن
ومذهب ، ولهم الفضل فى تطور صورها وألوانها ، ودقة أخذها وروعة سحرها
فأبو هلال كان يتبع حياة القاضى وانتاجه ، وينظر إليه بعين المنافسة ، وقرأ
الوساطة ، ولكنه لم يعول عليها ، ولذلك لا تجد ظلاً لتأثر أبى هلال بها فى الصناعتين
مع أنه تأثر بالجاحظ وبيانته ، وقدامة وكتابه نقد الشعر ، وبالآمدى وموازنته ،
والبحوث المشتركة فى الكتابين نرى فى اتجاه الرجلين فى بحثها بونا كبيراً ، فيزان
النقد عند الجرجانى (٣) مبين له عند أبى هلال (٤) ، وآراء أبى هلال فى الاستعارة
والتشبيه ليس فيها أى أثر لوساطة القاضى ، وكذلك بحوثه فى السرقات الأدبية (٥)

(١) ٣١١ الوساطة . (٢) ص ٣١٧ المرجع .

(٣) ٢٧ الوساطة . (٤) ٥٤ صناعتين (٥) صناعتين ١٨٩ - ٢٢٥

ليس فيها أى أثر خاص لآراء الجرجاني ، وخفاء السرقة عند الجرجاني بالنقل أو القلب أو تغيير النهج والترتيب ، وهو عند العسكري يجعل النثر نظماً والنظم نثراً وبتغيير الموضوع (١) . وإذا كان تعليق أبي هلال (٢) على البيت :

كنتم كمن أدخل في حجر يدا فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا
هو تعليق صاحب الوساطة (٣) فى نقده له ، فليس ذلك مظهراً لتأثر ، أو دليلاً على احتذاء .

كتاب الصناعتين وأثره الأدبى :

وكتاب « الصناعتين » كتاب مفيد جداً فى الأدب والنقد والبيان : فأسلوبه أنيق جميل ، وعرضه منظم ، مما يدل على عقلية صاحبه الكبيرة . والثقافة التى يمثلها ثقافة عميقة ، تدل على علم غزير وإحاطة واسعة .

وهو كتاب تطبق على قواعد البيان ، ممتاز بكثرة شواهد ومثله كثيرة فائقة ، مع حرص على جودة الاختيار ، وسلامة الطبع ، مما يرشدنا إلى لون من ثقافة أبي هلال وعقليته ، حتى لقد حار بعض الأدباء فى تسمية الصناعتين كتاب أدب أو كتاب نقد أو كتاب بلاغة وبيان . والآراء التى جمعت فيه فى النقد هى خلاصة ثقافات علماء الأدب والشعر حتى وسط القرن الرابع ، وتمتاز بأنها صادرة عن ذوق وطبع وشعور أدبى ، وعن حكم العقل والفكر أيضاً . ولذلك كان الكتاب مادة غزيرة ينتفع بها كل باحث ودارس الأدب والنقد والبيان .

وإن كانت الصبغة الأولى للكتاب ، والهدف الأول من تأليفه ، أن يكون كتاباً فى أصول قواعد البيان العربى ، وقد نحا أبو هلال فيه نحواً جديداً فى التأليف فتكلم على البلاغة ، وما يحتاج إليه الأدب والكاتب والشاعر ، ورسم المذاهب الأدبية والمناهج البيانية التى تسمو بالأدب إلى ذروة البلاغة .. ونلاحظ أن علماء الأدب فى القرن الرابع امتازوا فى مطلع هذا القرن بالكتابة عن الأدب والنقد كما فعل قدامة فى نقد الشعر ، والصولى فى كتاب أخبار أبي تمام ، وأبو الفرج فى

اللاغاني ، والقالى فى كتابه الامالى ، تم مزجوا بحوث النقد والادب بالبيان ، كما فعل الآمدى فى الموازنة ، والقاضى الجرجاني فى كتاب الوساطة ، ثم أفادوا من دراسات النقد فى بحوث البيان ، فظهر أول كتاب كامل فى موضوع البيان ، وواف بجميع بحوث البلاغة ، مع الإيجاز وقرب الفكرة وقلة التحليل وهو « الصناعتين » وخلاصة ما نقول ان كتاب الصناعتين صورة كاملة للبيان العربى حتى آخر القرن الرابع الهجرى ، وأن هذه الصورة اشترك فى تلوينها علماء الادب والنقد والبيان قبل أبى هلال وفى عصره من شتى الطبقات والثقافات والعناصر ..

وان ما وصل اليه فى البيان حتى آخر القرن الربع إنما هو بحوث موجزة تتصل بملكات البيان والادب والنقد ، ويكثر فيها الاستشهاد والتمثيل ، ويعوزها السير فى البحث إلى خاتمة المطاف ونهاية الشوط ، ففى البيان فى القرن الرابع كان يشمل ألوان البديع أيضاً ، ومع ذلك فقد حاول أبوهلال أن يرسم منهجاً جديداً فى نقد الشعر بعد المنهج الذى رسمه قدامة فى كتابه نقد الشعر ، ولكنه لم يظهر بما ظهر به قدامة من نجاح كامل وتوفيق كبير ، فى هذه الغاية العسيرة ، بل لقد كان عالة على قدامة وكتابه وعلى كل حال فللعسكرى الفضل كل الفضل فى أفراد صناعة الكلام بالتأليف والبحث ، مع العناية بالجمع والشرح والاستقصاء فى المثل والشواهد ، ومع إجادة فى العرض ، وتنسيق فى الدراسة ، وحسن الإبانة عن غرضه ..

بديع الزمان الهمذاني

القرن الرابع الهجرى عصر الدول المستقلة فى العالم الاسلامى : من أمثال البويهيين ، والسامانيين ، والدولة الغزنوية ، والزيارية ، والصفارية . وقد عاش البديع فى ظلال أربعة ملوك من ملوك السامانيين وفى عهد جماعة من ملوك بنى بويه : عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) ، ونفر الدولة ، ومجد الدولة ، وشمس الدولة ، وكان لهم سلطان على همذان والبلاد التى أقام بها البديع . وكانت هذه الدول تتنافس فى تشجيع العلم والادب تنافساً كبيراً ، ولمع فى هذا العصر اسم ابن العميد والصاحب ابن عباد والخوارزمى والميكالى والشمعالى والبيرونى والصابى والغنى والقاضى الجرجاني وأبى هلال العسكري وشمس المعالى قابوس وابن نباتة السعدى الخطيب

والحسن بن علي التنوخي .. كالمع اسم المتنبي والمعري وأبي فراس الحمداني والرضي ومهيار والبستي والنأسي والنأشي والزاهي والسري والبغيا وسواهم ومدينة همدان يشرف عليها جبل أورد في سهل خصب ، وهي شديدة البرد ، ظاهرة الخصب .

وكان البديع من أسرة ذات مكانة في همدان ، وقد ولد في ١٣ من جمادى الثانية سنة ٤٣٥٨ هـ ، من أسرة عربية ، وكثيراً ما يقول البديع في رسائله : « ومضر المحتد » ، أو : « تغلب النجار » .. وقد عاش أبواه إلى أن كبر وترك همدان ، وكان له أخ أصغر منه هو أبو سعيد وكان أبو سعيد مفتي همدان ، وكان له كذلك ابن صغير اسمه أبو طالب ، وقد غاب البديع عن أبيه أحد عشر عاماً .

نشأ أحمد بن الحسين في هذه البيئة ، يدرس الدين واللغة وعلوم الأدب ، حتى نبغ فيها .

وهاجر من همدان سنة ٣٨٠ هـ إلى حضرة الصاحب ، وكان زاره قبل ذلك وعرف به نفسه ، قدم جرجان إذا وأقام بها مدة يتصل بالاسماعيلية ويعيش في رعايتهم ، ثم قصد نيسابور عام ٣٨٢ هـ وفي الطريق خرج عليه الأعراب وسلبوه كل ماله ورد نيسابور فكتب إلى أبي بكر الخوارزمي ، وهو شيخ أدبائها وأحد أغنيائها : « أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه كما طرب النشوان مالت به الخمر ومن الارتياح للقاءه ، كما انتفض العصفور بالله القطر ومن الامتزاج بولائه ، كما التقت الصهباء والبارد العذب ومن الابتهاج بمراء كما هتز تحت البارح الغصن الرطب ، فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبي العراق وخراسان ، بل ما بين عتبي نيسابور وجرجان ، وكيف اهتزاه لضيف في بردة جمال وجلدة حمال :

رث الشائل منهج الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب

وهو أيد الله ولي إنعامه ، بانقاذ غلامه ، إلى مستقرى ، لافضى إليه بسرى ، إن شاء الله تعالى . ويؤخذ من كلام البديع أنه ذهب إلى دار الخوارزمي فلم يحسن لقاءه ، أو لم ترض نفس الهمداني بهذا اللقاء ، فكتب إليه فرد الخوارزمي رداً حسناً وسعا سعاة السوء بين الرجلين . ثم جمع بينهما الشيخ أبو الطيب فلم يحمد ذلك الاجتماع . ثم كانت بينهما المناظرة الأولى في دار السيد أبي علي أحد الكبراء في نيسابور ، فتناظرا في ارتجال الشعر مناظرة ظهر فيها غلب البديع وقد غضب من قطع الخوارزمي لإنشاده عليه فصمت برهة .. يقول الهمداني : « ثم عطفت عليه

وقلت يا أبا بكر : ان الحاضرين قد عجبوا من حلى أضعاف ما عجبوا من علمي ،
وتعجبوا من عقلي ، أكثر مما تعجبوا من فضلي ، وبق الآن أن يعلموا أن هذا
السكوت ليس عن عي ، وان تكفي للسفه أشد استمرارا من طبعك ، وغربي في
السفخ أمين عودا من نبعك ، وسنقرع باب السفخ معك ، ونفترع من ظهر
السفه مفترعك ، فتكلم الان . فقال لي أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همدان مع
قلته ، فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته ، فقلت : أما قولك دية أهل همدان
فما أولاني ان لا أجيب عنه ، لكن هذا الذي تتمدح به وتبجح وتتشرف وتتصلف ،
من أنك شحذت فأخذت ، وسألت فحصلت ، واجتديت فاقنيت ، فهذا عندنا صفة
ذم يا عافاك الله . ذهب البديع إلى بيت الخوارزمي واصطالحا . ثم شاع بين الناس
أن البديع غلب ، فكتب إليه الخوارزمي يتهمه بأنه أشاع هذا الكلام ، ويقترح
مناظرة أخرى ، فكانت المناظرة الثانية في بيت الشيخ أبي القاسم الوزير . وحضرها
عظماء نيسابور ، وكانت مباراة في الارتجال والترسل والنحو واللغة ، وقضى بالفاج
للهمداني ، فلما خرج لقيه الناس بالتقبيل ولم يستطع الخوارزمي الخروج حتى جنه الليل ..
وفي رسائل الهمداني تفصيل المناظرة التي قضت له بالفج . وينبغي الايتسى القارىء
أن هذا أحد الخصمين ، ولست أتهم الهمداني بالكذب الصراح ، ولكني لأبرئه
من محاباة نفسه . ثم تتذكر أن الخصمين ليسا سواء : أحدهما شيخ طائر الصيت
يخشى أن يؤخذ عليه ما ينقص من قدره ، والاخر شاب طامح إلى الصيت يريد أن
يبنى مجده على هزيمة قرنه ، وهو لا يخسر كثيرا إن غلب ، وهذا مظنة أن يستعظم
الحاضرون ظفر البديع ولو كان قليلا وهفوة الخوارزمي ولو كانت مما يغتفر أمثاله .
ثم أظن أن بعض النيسابوريين كانوا يحسدون الخوارزمي ، ويودون أن يذهب
بمجده ذلك الضيف الشاب الجميل الطلعة ، الخفيف الروح .

لم تكن المناظرة في صميم الأدب من الشعر والترسل ، بل كانت في البدئية
والارتجال والحفظ . قال الهمداني وهو يتحدثى خصمه : « ومثال ذلك أن أقول لك
اكتب كتابا يقرأ منه جوابه ؟ أو أقول لك اكتب كتاباً على المعنى الذي أقترح
لك ، وانظم شعرأى المعنى الذي أقترح ، وافرغ منهما فراغا واحداً هل كنت تمدله
ساعداً ؟ وأقول لك اكتب كتاباً في المعنى الذي أقول وأنص عليه ، وأنشد من
القصائد ما أريده من غير تشاقل ولا تغافل ، حتى اذا كتبت ذلك قرىء من آخره
إلى أو له ، وانتظمت معانيه اذا قرىء من أسفله ، هل كنت تفوق لهذا الغرض سبها

او تجيل قدحا أو تصيب نجحا ، أو قلت لك اكتب كتابا اذا قرىء من أوله الى آخره كان كتاباً ، فان عكست سطره مخالفة كان جـوابا الخ ، .. وقد أجاب الخوارزمي على هذا كله بقوله : « هذه الابواب شعبذة ، وهى ان لم تكن شعبذة فهى ليست من الادب ، وان دلت على توقد الذكاء وسرعة البديهة .. اغتبط بديع الزمان بنيسابور ، ولقى من سراتها حفاوة واكراما ، يقول فى رسالة الى أبيه عن صديق كان قد وعده اللحاق به : « وكان سألنى أن أرودله منزلا ماؤه روى ، ومرعاه غذى ، وأكاتبه لينهض اليه راحلته . فهاك نيسابور ضالته التى نشدتها ، وقد وجدتها ، وخراسان منيته التى طلبتها ، وقد أصبتها : وهذه الدولة بغيته التى أردتها ، فقد وردتها ، فان صدقتى رائداً ، فليأتنى قاصداً . . وأما أنا وأخبارى بهذه الناحية فتقلب فى ثوب العافية ، موقر بهذه الحضرة ، مرموق بعين القبول . . وقد كتب كثيرا من رسائله الى جماعة من رؤساء نيسابور وهى تدل على ما كان بينه وبينهم من مودة : وفى نيسابور لقي بنى ميكال ومدحهم ، وفى رسائله واحدة الى أبى جعفر الميكالى يشكو فيها تقصيره فى تعظيمه .. ونجد الهمداني فى نيسابور يكتب الى الشيخ العميد مستنجزا وعده فى توليته بعض الأعمال : « فهل للشيخ أن يلفظ بصنيعته لطفاً يحيط عنه درن العار ، وسمة التكبس والافتقار ، ليخف على القلوب ظله ، ويرتفع عن الاحراركة ، ولا يثقل على الاجفان شخصه ، باتمام ما كان عرضه عليه من أشغاله ، ليعلق بأذياله ، وليستفيد من خلاله ، فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله ، والادب عن إذلاله ، واشترى حسن الشاء بجاهه كما يشتريه بماله ، .. وفى نيسابور أُملى المقامات سارالتى ذكرها على وجه الزمان ثم فارق البديع نيسابور سنة ٣٨٣ هـ الى مرو ثم سرخس ، ولم يسم الامير الذى نزل بحضرته فى سرخس ، والظاهر أنه أحد أمراء السامانية ، وقد أكرم الامير مشواه كما قال فى آخر الرسالة نفسها عن الخوارزمي : « وأما مسألة الامير ألا يخرطنى فى سلكه ولا يمسكنى من بساط ملكه ، فقد شملتني على رغمة أطراف النعم ، وبلتني سحائب الهمم ، وللراغم التراب ، وللحاسد الحائط والباب .. وفى سنة ثلاثمائة وثلاث وثمانين مات الخوارزمي ! يقول الثعالبي : « واجاب الخوارزمي داعي ربه بخلا الجو للهمداني ، وتصرفت به أحوال جميلة ، وأسفار كثيرة ،

فراح يفتش عن ربه

وأكثر البديع أسفاره بعد مفارقة نيسابور : يقول الثعالبي : « ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الادخلها وجنى ثمرتها ، واستقاء خيرها

وميرها ، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس الا استمطر منه بنوه ، وسرى معه في ضوء ، ففاز برغائب النعم ، وحصل على غرائب القسم ، .. ويقول الهمداني في رسالته الى القاسم الكرجي . « فاني وان كنت في مستقبل السن والعمر ، قد حلبت شطري الدهر ، وركبت ظهري البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصاغت يدي النفع والضر » ، وفي رسالة أخرى : « واني أيد الله القاضي ، على قرب العهد بالمهن قطعت عرض الارض وعاشت أجناس الناس . » (١) . وليس يمكن بما عندنا من الرسائل غير المرتبة ان نلتبج أسفاره في خراسان وسجستان وغزنة وبوشنج ، وهراة التي مات فيها

لقى بديع الزمان عصا التسيار في هراة ، واتخذها موطناً وأمضى بها بقية عمره .. يقول الثعالبي : « وما زال يرتاد للوصلة بيتا يجمع الأصل والفضل ، والطهارة والستر القديم والحديث ، حتى وفق التوفيق كله ، وخار الله له في مصاهرة أبي علي الحسين بن محمد الحشنامي ، وهو الفاضل الكريم الأصيل ، الذي لايزاد اختباراً إلا زيد اختياراً . فانتظمت أحوال أبي الفضل بصهره ، وتعرفت القرة في عينه » . ويقول الثعالبي : « حين بلغ أشده ، وأربى على الأربعين سنة ناداه الله ، فلباه وفارق دنياه سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . » .. ويقول جامع الرسائل في عنوان رسالة له في تهنئة فتح الجاية بباب بلغ : وهذا آخر كتاب أنشأه . ومات يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . »

وهكذا مات البديع ، بعد أن عاش أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني أربعين عاماً ، أمضى شطرها نائياً عن بلده وعشيرته في طلب المجد والغنى ، فبلغ ما أراد . نبه ذكره واتصل بمعظم الأمراء والوزراء في الشرق : شمس المعالي قابوس بن وشمكير ، وخلف بن أحمد ، وبنى فريغون ، وبنى ميكال ، والسلطان محمود ، والصاحب بن عباد ، والفضل بن أحمد ، وأبى نصر من وزراء الدولة الغزنوية .. وعرف كثيراً من رؤساء نيسابور ، وطوس ، وسرخس ، ونسا ، وبلغ ، وهراة . وصار مطمح أصحاب الحاجات يتوسلون به إلى أولى السلطان والجاه ، يتبين ذلك في كثير من رسائله .

وكان سني الاعتقاد يكره المعتزلة ويلعنهم (٢) .. قال في الديوان متغزلاً :

ذات جفون ضعفت كذهب المعنزلة

وله قصيدة يردفيها على الخوارزمي قوله في الصحابة ؛ ومن أجل ذلك اتهم في نيسابور بميله عن العلويين ، فبرأ نفسه وروى لهم من شعره في رثاء الحسين ، فهو على حبه آل البيت لا يذهب مذهب الشيعة في الخلافة وما يتصل بها .. يقول في الديوان :

يقولون لي لاتحب الوصي فقلت اترى بغم الكاذب
أحب النبي وأهل النبي واختص آل أبي طالب
وأعطى الصحابة حق الولاء وأجرى على السنن الواجب
فان كان نصبا ولأه الجميع فاني كما زعموا ناصبي
وان كان رفضا ولأه الوصي فلا يبرح الرفض من جانبي . الخ
وفي رسائله واحدة كتبها إلى بعض الوزراء يشكو من ظهور التشيع في هراة ، ويحذر أن يصيبها ما أصاب نيسابور وقم والكوفة . .

وكان أحمد بن الحسين الهمداني أعجوبة في ذكائه وحفظه ، فتيسر له علم واسع باللغة والأدب . وهو يقول في حديثه عما شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي : « فقلت يا أبا بكر : هذه اللغة التي هددتنا بها وحدثتنا عنها ، وهذه كتبها وتلك مؤلفاتها ، فخذ غريب المصنف ان شئت ، وإصلاح المنطق إن أردت ، وألفاظ ابن السكيت ان نشطت ، وبجمل اللغة ان اخترت ، فهو ألف ورقة ، وأدب الكاتب إن أردت ، واقترح على أي باب شئت من هذه الكتب حتى أجمعه لك نقداً ، وأسرده عليك سرداً .. وقد أعجب الناس بذكائه وبديته ، وتحدى هو الناس بهما ، فجاء كثير من منشأته عفو البديهة ، ولو روى فيه لجاء خيراً من ذلك . قال الثعالبي في اليتيمة : « ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب ، فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهي أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ولا يخل معنى ، وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهد بها من ظهر قلبه هدأً ، ويسردها سرداً . وهذه حاله في الكتب الواردة عليه وغيرها . وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع ، وباب غريب ، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها . وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطر منه ثم هلم جراً إلى الأول ، ويخرجه كأحسن شيء وأملحه ، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة

الشريفة من إنشائه ، فيقرأ من النظم والنثر ، ويروى من النثر والنظم ، ويعطى القوافى الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيدة ، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف ، على ريق لا يبلعه ، ونفس لا يقطعه ؛ وكلامه كله عفو الساعة . . وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الابداع والاسراع . . إلى عجائب لا تحصى ، ولطائف تطول أن تستقصى . . وبقي من آثار الهمذاني ديوانه ورسائله ومقاماته . فأما الديوان فيتضمن زهاء ثلاثمائة وألف بيت ، منها ست وثلاثون قصيدة وقطعة في المدح ، مدح بها من الملوك والأمراء : شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، والسلطان محمود الغزنوى ، وبنى فريغون ، وخلف بن أحمد ، وبنى ميكال ، ومن الوزراء الصاحب بن عباد ، وأبا نصر بن زيد . . ومدح جماعة من رؤساء جرجان ونيسابور ونسا وهراة . وهو يجزى في المدح على السنن المعروف ، ولكنه لا يلتزم الغزل في أول المدائح ، ولا يطيل في معظمها . ومن جيد شعره في المدح القصيدة التى أولها :

على ألا أريح العيس والقتبا وألبس البید والظلاء واليلبا
وقوله فى بنى فريغون :

لم تر أنى فى نهضتى	لقيت الغنى والمنى والأميرا
ولما اتقينا شملت التراب	وكننت امرأ لا أشم العبرا
لقيت امرأ ملء عين الزما	ن يعلو سجايا ورسو ثيرا
لآل فريغون فى المكرمات	يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حلت بمغناهم	رأيت نعيما وملكا كبيرا

وأما الغزل فله فيه غير ما فى قصائد المدح ست قطع تحوى واحداً وعشرين بيتاً ، والبديع ليس غزلاً ، ولكنه حاكى الشعراء فى ضرب ألفوه واقتنوا فيه وعدوه من فروض الشعر ، وله قطع فى وصف : الأسد ، والليل . وقطعته فى وصف الليل نموذج من شعره المرتجل . ارتجلها حين اقترح عليه الموضوع والقافية :

أنعت ليلا ذا سواد كالسبع	مخدر الصبح خدارى الدعج
لو أدرج العالم فيه لاندراج	أو نسج الحرمان منه لانتسج
ليلا حرون النجم قارى النهج	العمر فيه نقطة لو انقرج
والدهر من أجزائه ولا حرج	أيسر ما فيه الشهور والحجج - الخ

ويجود شعر الهمذاني في الرثاء والمواعظ . وفي ديوانه ست ؟ ويقول في قصيدة
يمدح فيها أبا جعفر الميكالي :

نستبيح الدهر ، والأبى ام منا تسبيح
ضاع مانحمة من أذ نفسنا ، وهو يدب
نحن لاهون وآجال المنى لا تستريح
يا غلام الكاس فاليا س من الناس مريح
أنا يا دهر بأبنا نك شق وسطيح

وللهمذاني قطع كثيرة في الألفاظ والمعانيات ، وكان الرجل نادرة في الذكاء
والبدية ، فكان يختبر الناس ويختبرونه بهذا الضرب ، وفي الديوان منه اثنان وعشرون ..
ويكشرفي شعره الترجمة عن الفارسية وفي الديوان ثلاث عشرة قطعة مترجمة عن
هذه اللغة ، وكانت الترجمة بين العربية والفارسية سنة شائعة بين متأدبي المسلمين في
إيران وما يجاورها ، إذ كان الشعر الفارسي قد بلغ أشده ، وكانت العربية لاتزال
لغة العلم والأدب .. وكثير من شعراء هذا العصر وما بعده نظم باللغتين ، ولقب لذلك
بذى اللسانين ، وفي يتيمة الثعالبي أمثلة من هذا ، وهذه الترجمة تهم دارس الأدبين
العربي والفارسي ، ولكن يقلل خطرهما أننا نجد الترجمة ولا نجد أصلها ، ولا يعرف
من الشعر الفارسي الذي ترجمه البديع الا قطعة أثبتتها محمد عوفي في كتاب لباب
الآل باب في ترجمة المسطقي الشاعر الفارسي ، ويقول عوفي : ان صاحب بن عباد
أمر البديع بترجمتها ، فقال على أية قافية ؟ فقال الطاء ، قال ومن أي بحر ؟ قال أسرع
يا بديع ، في البحر السريع ، فترجمها ارتجالا :

سرت من طرته شعرة حين غدا يمشطها بالمشاط
ثم تدلحت بها متقلا تدلح النمل بحب الحنات
قال أنى من ولدى منكما كلا كما يدخل سم الخياط

ويرى أنه تصرف في ترجمة البيت الثالث . وأصله : ذهبت إلى الدار بالشعرة
فقال أنى : منصور أى الاثنين ؟ . وفي الديوان بيتان قبل هذه الثلاثة . ومن الترجمة
التي يتجلى فيها أسلوب الفارسية هذان البيتان :

فؤادك أين ؟ رباه بماذا بمقلته ، من ؟ غزال ريب
سلابا . نعم . أين ؟ وسط الطريق متى ؟ اليوم هذا سلاب غريب

وهي تذكر دارس الأدب الفارسي بمطلع قصيدة محتشم من شعراء الدولة
الصفوية في رثاء آل البيت

وفي الديوان قطعة فيها كلمات وشطرات فارسية ، والشعر المنظوم بلغتين أو أكثر يسمى الملبع في عرف أدباء الفرس أو الترك وهو كثير عندهم . . ويكثر في شعره المجزوء ، ولا سيما المزج والكامل . وسنعود إلى هذا حين الكلام في سجعته .

ويبدو أن بديع الزمان نظم معظم شعره في أوائل حياته . ففي الديوان أبيات نظمها وهو في الثانية عشرة ، وهو يذكر سن العشرين في بعض شعره :

إني بعشرين تصاريف ما بعد الثمانين تعرفتها
ويذكر الخامسة والعشرين وهو يمدح خلف بن أحمد :

ألم يك في خمس وعشرين حجة تسمنها هاد لمثل الطرائق

ثم هو يلعن النظم في كلامه عن الخوارزمي في بعض رسائله ، وذلك دليل على أنه مال عن الشعر : « هو خوارزمي ، ولست من خوارزم ، وهو شاعر ولعن الله النظم ،

ويلحق بالديوان شعره في الرسائل والمقامات وذلك في معظمه قطع قصيرة جيدة . وشعر البديع عامة سهل جيد المعاني منقح الالفاظ ، يتجلى فيه تهذيب الكتاب ، إذا استثنينا الشعر المرتجل وشعر الألفاظ ونحوه مما لا يقام له في الأدب وزن ، ولكنه لا يبلغ الدرجة العليا إلا قليلا ، وبديع الزمان عند نفسه وعند الناس كاتب يقول الشعر ، ولكنه يرى أن البليغ من أجاد الصناعتين : يقول في المقامة الجاحظية : « إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف . وفي الآخر يقف . والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يذر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعراً رائعاً .. كتابة الهمداني :

في القرن الرابع الهجري بلغت الكتابة العربية درجة من الصناعة والتأنيق لم تخل بسلامتها ولم تذهب بمعانيها - تولاها كتاب قادرون صرفوها في أغراض شتى واختاروا من الالفاظ والاساليب الجميل المحلى ، دون إغرب ولا إخلال بالمعاني ، وتناولت الكتابة كثيراً من فنون الشعر كالمدح والهجاء والغزل والوصف : إلى ما كان لها قبلاً من الموضوعات ، فأتسع المجال لذوى الفكر الثاقب والقلب الشاعر ، لم يقدم في النثر ما قيد الشعراء من الأوزان والقوافي والاصطلاحات . وكان كثير من الكتاب يلتزم السجع ، ومنهم من يكتفى بالازدواج ، وقليل منهم يرسل الكلام لإرسالاً ، وفي هذا العصر نبغ أئمة الكتابة كابن العميد والصاحب والصابي

والمهلب وقابوس ، والخوارزمي ، وبديع الزمان . ولم يكن بديع الزمان كمعظم هؤلاء وزراء أو ذا منصب ، فلم تستغرق كتابته أمور الدولة ، وكثرت في رسائله الموضوعات الخاصة والعامة . واستبان نواح من عصره في السياسة والاخلاق ، والآداب وغيرها . والبديع يلتزم السجع الا قليلا . وهو في الرسائل أسجع منه في المقامات ، وجملة قصيرة وسجعه متقارب . وذلك أحسبه نتاج الطبع الذكي الحساس ، الذي يود أن يسمع الانغام متتابعة رنانة . وذلك ما جعله يؤثر في كثير من شعره الاوزان المجزوءة . وهو في الرسائل يترك السجع أحيانا إلى المزاجية أو الإرسال كقوله في رسالته إلى أبي الطيب عن الأمير خلف بن أحمد : « فلما أيفع وارفع ، طالبتهم المهمة العليا برفض الدنيا ، حتى يؤدي فرض الله في الحج ، فقام عن سرير الملك ، إلى سبيل الذنك ، فحج البيت ، ودرس العلم حتى علم ناسخ الكتاب ومنسوخه ، ومباحه ومحظوره الخ ، وكذلك في المقامات يترك السجع أحيانا ولا سيما في رواية عيسى بن هشام . وقد يأتي بثلاث سجعيات متواليات أو أربع ، بل يتابع في الرسائل عشر سجعيات أحيانا كقوله : « ونادمتهم والمنادمة رضاع ثان ، وطاعمتهم والمواكلة نسب دان ، سافرت معه والسفر والأخوة رضيعا لبنان ، وقمت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان ، وأتيت عليه ، والثناء من الله تعالى بكل لسان ، وأخلصت له والاخلاص محمود من كل لإنسان . ثم أربع سجعيات أخرى على هذا الروي (١) ، وقد يجعل السجع مركبا على رويين في أربع فواصل أو ست كقوله في رسالة خلف بن أحمد : « وكأن هذا العالم قد أحسن عملا فجعل هذا الملك ثوابه ، وكأن هذا الملك قد أساء مثلا فجعل هذا العالم عقابه ، وقوله : فكان ما أضعناه ، كأننا زرعناه ، فأثبت سبع سنابل ، وكان ما فقدناه ، كأننا أقرضناه هذا الملك العادل ... وقد يسجع في أثناء الجملة قبل تمام المعنى كقوله : « حقا أقول إن التمرة ، بالبصرة ، أقل خطرا من البدرة ، بهذه الحضرة ، وأنى أيد الله القاضي على قرب العهد ، بالمهد ، قطعت عرض الأرض ، وعاشرت أجناس الناس ، (٢) ، وبما يكثر في نثر البديع تحليلته بالشعر ، وقد قال الثعالبي في ذلك : « ويوشع القصيدة الفريدة من قوله ، بالرسالة الشريفة من إنشائه ، فيقرأ من

(١) الرسائل ص ١٣٠ .

(٢) الرسائل ص ١٦٣ و ١٦٤ .

النثر والنظم ، وهو لا يكتفى بتفصيل نثره بآيات من الشعر ، بل يصل النثر بالشرحتى يتوقف معنى كل منهما على الثانى ، كرسالته إلى الخوارزمى التى ذكرناها فيما تقدم ، وكقوله فى مدح أبى جعفر الميكالى :

ولو نظمت الثريا والشعرين قريضا
وكامل الأرض ضربا وشعب رضوى عروضا
وصغت للدر ضدا أو للهواء نقيضا
بل لو جلوت عليه سود النوائب يضا
أو ادعيت الثريا لأخصيه حضيضا
والبحر عبد لها عند العطاء مغيضا

لما كنت إلا فى ذمة القصور ، وجانب التقصير (١) . ومن أحسن افتنانه فى ذلك المقامة الوعظية التى لأم فيها بين المنشور والمنظوم أحسن ملاءمة ، ويجد قارىء الرسائل والمقامات قطعا من إحداها فى الأخرى ؛ فمقامة الوصية التى يوصى فيها تاجر ابنه معظمها فى إحدى رسائله (٢) ، وبعض المقامة النيسابورية ومعظم العلوية ، فى رسالة إلى أبى القاسم الكرجى التى وصف فيها بعض القضاة . وبعض المقامة الملوكية التى مدح بها خلف بن أحمد فى رسالة يمدح فيها الملك نفسه ، وكذلك نجد فى الديوان والرسائل والمقامات وصف وقائع واحدة ، كلقاء الأسد فى الديوان والمقامة الأسدية ، وقطع الأعراب طريقه فى هذه المقامة والرسائل . وذلك يثبت أن المقامات تمثل كثيرا من حوادث زمانه .

نشأ البديع فى عصر بلغ فيه الأدب العربى أوجه ، وازدهر فيه الأدب الفارسى ، وقد عرفنا أنه ترجم كثيرا من الآيات الفارسية فى ديوانه . فهل ظهر أثر الفارسية فى معانيه وألفاظه ؟ أثر قليل ؛ فن المعانى الشائعة فى الأدب الفارسى قوله : « أو لم يكفنا الجرح ، حتى ذر عليه الملح ، وقوله : « أنا العبد قرطك فى أذنه مطيعا ، وطوقك فى عنقه ، ، فهى عبارة فارسية شاعت حتى كنى عن العبودية بالحلقة فى الأذن ، وقوله : « هيفاء لا تسع العيون جمالا ، ، فتسع هنا تشبه كنجد بالفارسية ، ومن الألفاظ الفارسية أو العربية المستعملة على الأسلوب الفارسى قوله فى مدح السلطان محمد :

(٢) الرسائل ص ١٧١ .

(١) الرسائل ص ٤٣ .

إذا ماركب الفيل لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطانا على كاهل شيطان

ويجمع ثم بديع الزمان الرسائل والمقامات . . اما رسائله فهي ثلاث وثلاثون
وما تار رسالة تناول فيها أغراضا كثيرة . والبديع مخترع هذه القصص الخيالية التي عرفت في
الأدب العربي باسم المقامات ، وأما روايات اللغويين فقد رويت على أنها حقائق
وأريد بها رواية اللغة قبل أى شيء آخر ، وحديث الراوى فيها مرسل لاصناعة
غيه ، ولا يقصد فى الرواية ، على حين يستوى فى المقامة أو يتقارب من حيث البلاغة
والفصاحة حديث عيسى بن هشام وكلام أبى الفتح الاسكندرى . وأما تسمية هذه
القصص بالمقامات ، فلأن أبا الفتح يقوم فيها واعظا أو مستجديا أو محتالا وهم
جرا ، وفى القرآن « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » . وفى شعر لبيد :

ومقام ضيق فرجته بلسان وبيان وجدل

وقد استعملت كلمة « مقامة » فى معنى مقام . وفى رسائل الخوارزمى « ولكل
مقامة مقالة » (١) . وفى شرح الشريشى لمقامات الحريري « والمقامات : المجالس
واحدثها مقامة . والحديث يجمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ؛ لأن
المستمعين للحدث ما بين قائم وجالس ، ولأن الحديث يقوم ببعضه تارة ويجلس
ببعضه أخرى ، قال الأعلام : المقامة لمجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير .
والحمدانى نفسه يبين ذلك بقوله فى المقامة الوعظية « قال عيسى ابن هشام فقلت لبعض
الحاضرين من هذا ؟ قال شخص قد طرأ لا أعرفه . فاصبر عليه الى آخر مقامته ،
لعله ينبيء عن علامته » يقول الثعالبي إن بديع الزمان أملى المقامات فى نيسابور ،
ويظهر أنه أملى معظمها هناك ، وأنه أملى بعد مقامات أخرى كالمقامات الست التى
مدحها خلف بن أحمد أمير سجستان . والحصرى يدلنا على تاريخ المقامة الحمدانية ،
يقول : إن البديع أملاها فى شهر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة : وأظنه أملى معظم
المقامات قبل هذا . ويروى الشريشى عن بعض أشياخه أن البديع ارتجل المقامات ،
وأنه كان يقول لأصحابه اقترحوا غرضا نبني عليه مقامة فيقترحون ماشاءوا فيملى
عليهم المقامة ارتجالا . ولا أحسب هذا حقا ، فبديع الزمان نفسه لم يدع هذا ، وقد
نفر بالمقامات على الخوارزمى وتحدها أن يأتى بمثلها ، ولم يتحد بذكر الارتجال ،
بل قال إنه أملاها والاملاء لا يقتضى ارتجالا . وأراد البديع بمقاماته أن يدل على

تمكّنه في اللغة ومكانته من البلاغة ، وقدرته على تصريف القول في فنون شتى .
 هذا غرضه الأول ، وقد سلك الى هذا الغرض موضوعات كثيرة . وليست الكدبية
 موضوع المقامات كلها ، بل كثير منها لا كدبية فيه ، وفي كثير منها لا يقف أبو الفتح
 موقف المستجدي ، وأما عيسى بن هشام وأبو الفتح الاسكندري فيقول
 الحريري في مقدماته : « وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . » وكأنه
 يريد أن يقول انهما ليسا كآبي زيد السروجي ، عيسى بن هشام لا ينتسب الى بلد ،
 وفي بعض المقامات كلام يمكن أن يؤخذ منه أنه ينتسب الى الازد ، وأبو الفتح
 انتسب في المقامة العراقية الى عيسى ، وهو منسوب الى الاسكندرية من الثغور
 الأموية وهي نسبة غريبة . ماذا يريد بالثغور الأموية ؟ يرى شارحو المقامات
 أنها ثغور الاندلس ، وكانت بها إذذاك دولة بني أمية . وهذا غريب كذلك فما عرف
 في كتب التاريخ أو تقويم البلدان اسم الثغور الأموية ، ولا الظن بالبديع أنه ينسب
 صاحبه الى الاندلس ويسمّيها الثغور الأموية ، وهو رجل يكره الأمويين كما يؤخذ
 من شعره . نرى في المسألة وجهاً آخر لا أجزم به ؛ ولكنني أرجحه . ذلك أن
 تقرأ (الثغور الأموية) . نسبه الى مدينة آمو أو أموية وهي مدينة أمل الشط على
 نهر جيحون أو نسبة الى جيحون وهو يسمى آمودريا اي نهر آمو . ويقول ياقوت
 في معجم البلدان . وهو يعدد المدن التي سميت الاسكندرية : « ومنها الاسكندرية
 التي على شاطئ النهر الاعظم . » هذا الا أن يكون البديع نسب صاحبه الذي لا
 يستقر في مكان نسبة لا يعرفها أحد . وبعض المقامات لا يسمى فيها أبو الفتح ،
 وان عرف بصفاته كالأهوازية والبصرية ، وبعضها يخلو من أبي الفتح اسماً وفعلاً
 كالمقامة البغدادية والنهدية . وأحياناً يأتي أبو الفتح في آخر المقامة بعد مضي معظم
 حوادثها كالمقامة الاسدية التي تصف لقاء عيسى بن هشام وأصحابه الأسد ، ثم قاطع
 طريق ثم لقاء أبي الفتح بعد ورودهم حصص .

ويقول باحث معاصر عن نشأة المقامات : ويظن أن (الحريري) هو أول
 من تحدث عن المنشئ الأول للمقامة ، فقد كتب في مقدمة مقاماته : « وبعد فانه
 قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركزت في هذا العصر ربحه ، وخبت مصابيحها ،
 ذكر المقامات التي ابتدئها بديع الزمان ، وعلامة همدان ، رحمه الله ؛ وعزا إلى
 أبي الفتح الاسكندري نشأتها ، وإلى عيسى بن هشام روايتها ؛ وكلاهما مجهول
 لا يعرف ، ونكرة لا يتعرف ، إلى أن قال : هذا مع اعترافي بأن البديع سباق

غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدى بعده لانشاء مقامة ، ولو أوتى بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فضائله ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته والله در القائل

فلو قبل مبكاها بكيت صباية بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبل فهاج لى البكاء بكها فقلت : الفضل للتقدم ،

هذا ماقاله الحريرى ، وجرى عليه كثير من المؤلفين ، غير أن هذا الرأى لا يثبت للظرة الأولى ، فان ابن فارس صاحب كتاب المجل ، وأستاذ البديع ، كان قد وضع مقامات ، ولا تزال منها المقامة الفقيمية المتضمنة نحو المائة مسألة ، وبدهى أن التليذ يترسم خطأ أستاذاه وينسج على منواله . لكن الباحثين لم يقفوا عند هذا الحد ، فذهبوا يفتشون فى بطون الكتب عليهم يجدون من هو أسبق من البديع ومن أستاذاه ، وقد كان نص الحصرى فى زهر الآداب مصباحا اهتدى به بعض الباحثين ، فأسند نشأة المقامة الى أبى بكر بن دريد صاحب الجمهرة ، وهذا هو النص د ولما رأى — يعنى البديع — أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنخبها من معادن فكره ، وأبداها للابصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضماير ، فى معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ، الخ ،

وقال الدكتور زكى مبارك معلقا على هذا : « مؤدى هذا الكلام أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وأنه حاكى ابن دريد فى أحاديثه ، ورأى الدكتور طه حسين : أن مقامات ابن دريد قد تكون هى هذه الأحاديث الصغيرة المروية عنه فى كتاب الأمالى لأبى على القالى . ولانقف طويلا عند هذا الرأى أو ذاك ، فقد كفانا الحصرى نفسه مؤونة هذه الوقفة حين قال : « ولا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وإذن فلم يبق إلا أن ابن دريد تخيل بعض الأحاديث على ألسنة الأعراب وهكذا فعل البديع ، وما نظن أن هذا كاف فى سلب البديع فضل السبق فى هذا ، على أنى أظن أن هذه المقالة وقعت للحصرى من بعض أعداء البديع الذين كانوا يكرهونه ، ولا يقدررون على نقده ولا مجابته ، فدرسوا هذه الكلمة ليغضوا من شأن مقاماته ، وهذا جهد الحاسد العاجز . على أننا نرجع إلى عصر ابن دريد فنجد رجلا يشبه البديع والبديع يشبهه إلى حد بعيد ؛ ذلك الرجل هو أبو المطهر الأزدى مؤلف (حكاية أبى القاسم البغدادى) التى يقول فيها : ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلثمائة ، وقطعها المسير ميتس الألمانى . نطالع هذه القصة ثم نطالع بعدها

مقامات البديع وآثاره الأدبية فلا يخالجننا شك في أن الثاني أخذ من الاول وحذا حذوه لعدة أسباب :

١ — نظن أن الازدى أول من أطلق كلمة مقامة على ما يحكى في مجلس المجالس ، وقد وردت هذه الكلمة في مقدمة رسالته قال : هذا الذى أحصله من أدب غيرى وأقتنيه ، وأتخلى به وأدعيه وأرويه ، من ملح مائنة سوا به وتنافسوا فيه ، ويصدق شاهدى عليه أشعار لنفسى دوتها ، ورسائل سيرتها ، ومقامات حضرتها ، ثم إن هذه حكاية رجل بغدادى كنت أعاشره برهة من الدهر ، فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستقبحة ، وعبارات عن أهل بلده مستفصحة ومستفصحة ، فأثبتها خاطرى لتسكون كالتذكرة ، في معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم ، وكالأنموذج المأخوذ من عاداتهم .

٢ — شخصية أبى القاسم البغدادى ، وشخصية أبى الفتح الاسكندرى ، وهما الراويان في القصتين متشابهتان حتى في التسمية ، وهما خرافيتان ، وكل منهما جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق ، فترى الواحد منهما يدارى أهل المجلس وينافقهم ، فيلبس ثوب التقى والصلاح ، حتى إذا رآهم على استعداد للهزل انقلب لاعبا متمردا عارفا بغرائب الخلاعة والمجون .

٣ — ولعلنا نضع يد القارىء على أقوى دليل حين ننقل له كلمة لكل من الرجلين بينهما مشابة قوية نرى فيهما كيف يسرد كل منهما الشنائم المستغربة والمستملحة ، وكيف يتفقان أحيانا على المعنى الواحد ، وقد وصفا ثقيلًا فقال البغدادى : يا أول ليلة الغريب إذا بعد عن الحبيب ، يا طلعة الرقيب ، يا يوم الاربعاء فى آخر صفر ، يا لقاء الكابوس فى وقت السحر ! إلى آخر ما قال على هذا النمط . ويقول البديع : يا أم حنين ، يا غداة البين ، يا رمد العين ، يا فراق المحبين ، يا ساعة الحين ، يا نقل الدين .

٤ — والناظر فى أسلوب الرجلين يجد الطريقة واحدة ؛ فكلهما رقيق الأسلوب عذب العبارة ، يكاد يلتزم السجع والازدواج ، حتى عدد الفقرات يكاد يتساوى عندهما ، كما أن سجع كل منهما قصير الفقرات .

٥ — وصف كل منهما الحياة الاجتماعية فى عصره ؛ فحكاية أبى القاسم وصف الحياة بغداد وما فيها من خلاعة ولهو ، وتدوين لكثير من عادات أهلها ، وقد دون مظاهر الحضارة فى عصره ، وكذلك فعل البديع فى مقاماته ، وكما دونا كثيرا .

من العادات ، دوننا كثيرا من الالفاظ الجارية على اللسنة ، ولها صور فنية رائعة قصدا اليها رغبة في الدعابة .

٦ — ينتقل أبوالمظهر من فن إلى فن في دعابة وظرف والحكاية كلها مجلس واحد ، ولكنها فنون شتى ، وكذلك نرى البديع ينتقل من حال إلى حال .

ويروى كتاب التراجم وعلماء الأدب الذين كتبوا عن بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ أن مقاماته تبلغ أربعمئة مقامة ، ومن بين هؤلاء الثعالبي م ٤٢٩ (١) ، وإياقوت م ٦٢٦ (٢) ، وابن خلكان م ٦٨١ (٣) . ولكن الدكتور زكي مبارك يرجع أنها خمسون مقامة فقط ، بدعوى أنه لم يحفظ له سواها ، وأن الحريري حين عارض البديع لم ينشئ في معارضته غير خمسين مقامة ، وأن البديع قد عارض ابن دريد بأحاديثه الأربعين ، والمعارضة تتقارب (٤) . ولكن شكوك الدكتور لا تعتمد على دليل حسن مقبول ولا تنتهي إلى نتيجة حاسمة . وقد آن أن نصصح رأى علماء الأدب بأدلة دامغة تجعلنا نقبل روايتهم وثق بها ، وأهم هذه الأدلة أن هذا الاجماع الأدبي والتاريخي على أن مقامات البديع أربعمئة مقامة ينفي كل شبهة وظن ؛ ثم إن البديع نفسه يروى لنا أن مقاماته أربعمئة مقامة ، وإن شئت فراجع رسالة البديع إلى أبي المظفر يحذره من إسراف والده في التعصب عليه ، واقرأ الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة :

« ومن أمل من مقامات الكندية أربعمئة مقامة لامناسبة بين المقامتين لفظا ، ولا معنى ، حقيق الانهاج لكشف عيوبه (٥) » ، فسنزداد بعد ذلك يقينا على يقين بأن المقامات أربعمئة لا خمسون .

وهذه مقامة منها ، هي المقامة القريضية للبديع :

حدثنا عيسى بن هشام ، قال : « طرحتني النوى مطارحها ، حتى إذا وطئت جرجان الأقصى ، فاستظهرت على الأيام بضياح ، أجمات فيها يد العمارة ، وأموال وقفتها على التجارة ، وحانوت جمعته مشابة ، ورفقة اتخذتها صحابة . وجعلت للدار

(١) ج ٤ ص ١٦٧ يتيمة الدهر . (٢) ج ١ ص ٩٤ معجم الأدباء .

(٣) ج ١ ص ٣٩ ابن خلكان . (٤) ج ١ النثر الفني .

(٥) ٢٢٧ رسائل البديع .

حاشيتى النهار ، وللجانوت ما بينهما ، فجلسنا يوما نتذاكر القريض وأمله ، وتلقاها شاب قد جلس غير بعيد ، وكأنه لا يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم . حتى إذا مال الكلام بنا ميله ، وجرا الجدال فينا ذيله . قال : « قد أصبتم عذيقه ، ووافيتم جذيله ، ولو شئت للفظت وأفضت ، ولو قلت لأصدرت وأوردت ، ولجلوت الحق فى معرض بيان ، يسمع الصم ، وينزل العصم ، ، فقلت : « يا فاضل ، أدن فقد منيت ، وهات فقد أنثيت . فدنا ، وقال : « سلونى أجيبكم ، واسمعوا أعجبكم .. فقلنا : « ما تقول فى امرى القيس ؟ ، قال : « هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ، واغتدى والطير فى مكاناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، لم يقل الشعر كاسباً ، ولم يجد القول راغباً — ففضل من تفتق للحيلة لسانه ، وانتجع للرغبة بنانه ، قلنا : « فما تقول فى النابغة ؟ ، قال : ينسب إذا عشق ، ويشاب إذا حنق ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب ، ولا يرمى إلا صائباً ، قلنا : « فما تقول فى زهير ؟ ، قال : « يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه ، قلنا : « فما تقول فى طرفة ؟ ، قال : « هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافى ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دقائمه ، ولم تفتح أغلاق خزائنه ، قلنا : « فما تقول فى جرير والفرزدق ؟ وأيهما أسبق ؟ ، فقال : « جرير أرق شعراً ، وأغزر غزراً ، والفرزدق أمتن صخراً ، وأكثر نغراً ، وأشرف يوماً ، والفرزدق أكثر روماً ، وأكرم قوماً ، وجرير إذا نسب أشجى ، وإذا ثلب أردى ، وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إن افتخر أجزى ، وإذا احتقر أزرى ، وإذا وصف أوفى ، قلنا : « فما تقول فى المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ ، قال : المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر من المعانى حظاً ، والمتأخرون ألطف صنماً ، وأرق نسجاً ، قلنا : « فلو أريت من أشعارك ، ورويت لنا من أخبارك ، قال : « خذهما فى معرض واحد ، وقال :

د إما ترونى أتغشى طمرا ممتطياً فى الضر أمراً مرا
مضطرباً على الليالى غمرا ملاقياً منها صروفاً حمرا
أقصى أمانى طلوع الشعرى فقد غنينا بالآمانى دهرا
وكان هذا الحر أعلى قدرا وماء هذا الوجه أغلى سعرا
ضربت للسرا قباباً خضرا فى دار داراء وإوان دكرى ،
فانقلب الدهر لبطن ظهراً وعاد عرف العيش عندى نكرا

لم يبق من وفري إلا ذكرا ثم إلى اليوم هلم جـرا
لولا عجوز لي بسر من را وأفرخ دون جبال بصرى
قد جلب الدهر عليهم ضرا قتلت ، ياسادة ، نفسى صبرا
قال عيسى بن هشام : دأنته ماتاح ، وأعرض عنا فراح . فجملت أنفيه
وأثبته ، وأنكره وكأنى أعرفه ، ثم دلتنى عليه ثنياه ، فقلت : الإسكندرى
والله . فقد كان فارقتا خشفاً ، ووافنا جلفاً . ونهضت على إثره ، ثم قبضت على
خصره ، وقلت : ألسنت أبا الفتح ؟ ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك
سنين ؟ دأى عجوز لك بسر من را . فضحك لى ، وقال :

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور
لا تلتزم حالة ولكن در باليلى الى كما تدور

ألوان من شعره :

قال يمدح أحد امراء :

طرباً لقد رق الظلا	م ورق أنفاس الصباح
وسرى الى القلب العليل	عليل أنفاس الرياح
ومليحة تنو بنر	جسة وتبسم عن أفاح
قامت وقد برد الحلى	تميس فى ثنى الوشاح
تشدو وكل غنائها	برد على كبد الوشاح
ياليل هل لك من صبا	ح أم لنجمك من براح
سأريق ماء شبيبتي	ما بين ريحان وراح
فيم العتاب ولا لهم	غبرى ولا لهم صلاحى
ولعاذلاتى فى الملية	حة عاذ لاتك فى السماح
وهواى للبيض الصبا	ح هواك للبيض الصفا
وولوع كفى بالقدا	ح ولوع كفك بالرماح
وعليك إدمان الندى	وعلى إدمان امتداحى
فليعل رأيك إنه	يلوى يد القدر المتاح
وافخر فانك فى الملو	ك لك المعلى فى القداح

وقال يمدح السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى صاحب السند وخراسان ، المتوفى
سنة ٤٢١ هـ . وقد كان بديع الزمان يتتبع خطواته ، ويتمرف حركاته وسكناته ،

ويهنئه بفتوحاته.. وما قال في مدحه قصيدة شهيرة هي :

تعالى الله ما شاء	وزاد الله إيماني
أفريدون في التاج	أم الاسكندر الثاني
أم الرحبة قد عادت	إلينا بسليمان
أظلت شمس محمود	على أنجم سامان
وأمسى أهل بهرام	عبيداً لابن خاقان
إذا ماركب الفيل	لحرب أو لميدان
رأت عينك سلطاناً	على منكب شيطان
فن واسطة الهند	إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند	إلى أقصى خراسان
على مقتبل العمر	وفي مفتتح الشأن
فيوما رسل الشاه	ويوما رسل الخان
فما يغرب بالمغرب	عن طاعتك اثنان
لك السرج إذا شئت	على كاهل كيوان
أيا والى بغداد	وياصاحب غمدان
تأمل ماتى في—ل	على سبعة (١) أركان
يقـل—بن أساطين	ويلعبن يشعبان (٢)

وقال يمدح ابن فريغون من الأمراء :

ألم تر أنى في نهضتى	لقيت المنى والغنى والأميرا
ولما التقينا شملت الترا	ب وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت امرأ ملء عين الزما	ن يعلو سحاباً ويرسو نبيرا
لآل فريغون في المكرما	ت يد أولاً واعتذار أخيرا
إذا ما حللت بمغناهم	رأيت نعيما وملكا كبيرا

وما قاله في مدح بني ميكال الفضلاء :

يا غلام الكأس فالياً س من الناس مريح

(١) أراد بالسبعة أركان الجيش وهي القلب والميمنة والميسرة والجناحان

والساقة والمقدمة .

(٢) الغرض من الشعبان هو خرطوم الفيلة لأنه يشبه الشعبان في طوله وتلويحه .

يابنى ميكال والجو لعلاتى مريح
شرفا إن مجال الفضل فيكم لفسيح
وعلى قدر سنا الممدوح ح يأتيك المديح
فهناك الشرف الآر فع والطرف الطموح

ومن جيد مدحه قوله :

وكان يحكيك صوب الغيث مذسكباً لو كان طلق المحيا يطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

أبو القاسم الحريري البصري

٤٤٦ - ٥١٦ هـ

كان اديبا فاضلا نحويا منشئا، ومن مصنفاته درة الغواص في اوهام الخواص، وملحة الاعراب وشرحها والمقامات المشهورة، وجاء بها الى بغداد وادعاها فلم يصدقه اداؤها. وهذه المصنفات مطبوعة ومشهورة، وكان يقول نقلا عن شيخه: اذا قلت ما اسود زيدا وما اسمر عمرا وما اصفر هذا الطائر وما ابيض هذه الحمامة وما احمر هذه الفرس فسدت كل مسألة منها من وجه وصحت من وجه، فيفسد جميعها اذا اردت التعجب من الالوان، وتصح جميعها اذا اردت التعجب من سودد زيد وسمر عمرو وهو الحديث بالليل خاصة، ومن صفي الطائر وكثرة بيض الحمامة ومن حمر الفرس وهو ان يثنى قوها.. ومن شعره :

ولما تعامى الدهر وهو أبو الوري عن الرشدي انحائه ومقاصده
تعاميت حتى قيل اني اخو العمى ولاغروا أن يحذو الفتي حذو والده

وتوفي سنة ٥١٦ هـ بنى حرام من البصرة، وقد شرح الشريشي المتوفى عام ٦٥٢ هـ مقامات الحريري شرحا واسعا وترجم ابن خلكان للحريري، فقال: هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصر الحرامي، كان أحد أئمة عصره، ورزق الخطوة التامة في عمله المقامات، وقد اشتملت على كثير من بلاغات العرب في لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها، ومن عرفها حق معرفتها استدلت بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته.. وكان سبب وضعه لها ما حكاه ولده أبو القاسم عبد الله قال: كان أبي جالسا في مسجد بني حرام فدخل شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر رث الحال فصيح الكلام حسن العبارة، فسأله الجماعة من أين الشيخ؟

فقال : من سروج ، فاستخبروه عن كنيته ، فقال : أبو زيد ، فعمل أبي المقامة الثامنة والاربعين المعروفة بالحرامية ، وعزاها إلى أبي زيد المذكور ، واشتهرت ، فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر أنوشروان بن خالد بن محمد الفاشاني وزير الامام المسترشد بالله ، فلما وقف عليها أعجبه ، فأشار على والدي أن يضم اليها غيرها فأتمها خمسين مقامة ، وإلى الوزير المذكور أشار الحريري في خطبة المقامات بقوله : « فأشار من إشارته حكم ، وطاعته غم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وإن لم يدرك الظالع شأوا الضليع . » هكذا وجدته في عدة تواريخ ، ثم رأيت في بعض شهور سنة ست وثمانين وستمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات ، وجميعها بخط مصنفها الحريري ، وقد كتب أيضا بخطه على ظهرها أنه صنفها للوزير جلال الدين عميد الدولة أبي الحسن علي بن أبي العز علي بن صدقة وزير المسترشد أيضا ، ولا شك أن هذا أصح من الرواية الأولى لكونه بخط المصنف ، والله أعلم ، وتوفي الوزير المذكور في رجب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، فهذا كان مستنده في نسبه إلى أبي زيد السروجي .

وذكر القاضي الأكرم كمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني القفطي وزير حلب في كتابه الذي سماه « إنباه الرواة على أنباء النحاة » أن أبا زيد المذكور اسمه المطهر بن سلال ، وكان بصريا نحويا لغويا ، وصحب الحريري واشتغل عليه بالبصرة وتخرج به . وروى عنه القاضي أبو الفتح محمد بن أحمد بن المنداري « ملححة الأعراب » للحريري وذكر أنه سمعها منه عن الحريري ، وقال قدم علينا واسط في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، فسمعتها منه وتوجه منها مصعدا إلى بغداد فوصلها ، وأقام بها مدة يسيرة وتوفي بها رحمه الله تعالى ، كذا ذكره السمعاني في الذيل ، والعماد في الخريدة وقال : لقبه نحر الدين وتولى صدرية المشان ، ومات بها بعد عام أربعين وخمسمائة ، وأما تسمية الراوي لها بالحرث بن همام ، فانما عني به نفسه ، هكذا وقفت عليه في بعض شروح المقامات ، وهو مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم حارث وكلكم همام » ، فالحارث الكاسب ، والهمام الكثير الاهتمام ، وما من شخص إلا وهو حارث وهمام ، لأن كل واحد كاسب ومهتم بأموره .

وقد اعتنى بشرحها خلق كثير ، فمنهم من طول ومنهم من اختصر ، ورأيت في بعض المجماميع أن الحريري لما عمل المقامات كان قد عملها أربعين مقامة ، حملها من البصرة إلى بغداد ، وأبدأها ، فلم يصدقه في ذلك جماعة من أدباء بغداد وقالوا : إنها ليست من تصانيفه ، بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت

أوراقه اليه فادعاه ، فاستدعاء الوزير الى الديوان وسأله عن صناعته ، فقال أنا رجل منشىء ، فاقترح عليه لإنشاء رسالة فى واقعة عينها ، فاخذ الدواة والورقة وانفرد فى ناحية من الديوان ومكث زمانا كثيرا فلم يفتح الله عليه بشيء من ذلك فقام وهو خجلان ، وكان فى جملة من أنكر دعواه فى عملها أبو القاسم على بن أفلح الشاعر ، فلما لم يعمل الحريرى الرسالة التى اقترحها عليه الوزير أنشد هذين البيتين ، وقيل لهما لأبى محمد بن أحمد المعروف بابن جكيتا الحريرى البغدادى الشاعر وهما

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عشونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان كما رماه وسط الديوان بالخرس

والحريرى تأليف حسان ، منها درة الغواص فى أوام الخواص ، ومنها ملححة الإعراب المنظومة فى النحو ، وله أيضا شرحها ، وله ديوان رسائل ، وشعر كثير غير شعره الذى فى المقامات ، فمن ذلك قوله وهو معنى حسن :

قال العواذل ما هذا الغرام به أما ترى الشعر فى خديه قد نبتا
فقلت والله لو أن المغند لى تأمل الرشيد فى عينيه ما نبتا
ومن أقام بأرض وهى مجدبة فكيف يرحل عنها والربيع أنى
ومنه ما ذكره عماد الدين الأصبهاني فى كتاب الخريدة :

كم ظباء بحاجر فتنت بالمحاجر
ونفوس نفائس حدرت بالمحادر
وتثن الخاطر هاج وجد الخاطر
وعذار لأجله عاذل عاد عاذرى

وشجون تضافرت عند كشف الضفائر

وله قصائد استعمل فيها التجنيس كثيرا ، ويحكى أنه كان دميما قبيح المنظر ، فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ عنه شيئا ؛ فلما رآه استزرى شكله ففهم الحريرى ذلك ؛ فلما التمس منه أن يملى عليه قال له اكتب :

ما أنت أول سار غره قمر ورائد أعجبه خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيرى لئنى رجل مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى

فجبل الرجل وانصرف . وكانت ولادة الحريرى فى سنة ست وأربعين وأربعمائة ؛ وتوفى سنة عشر وقيل خمس أو ست عشرة وخسمائة بالبصرة .

ألوان جديدة من الأدب

في العصر العباسي

ظهر في العصر العباسي الكبير كثير من الألوان والفنون الادبية الجديدة ؛
وفي مقدمتها :

- ١ — أدب المقامة .
- ٢ — الادب الصوفي .
- ٣ — أدب الزهد .
- ٤ — أدب السخرية كما نراه في : رسالة الترييع والتدوير ، للجاحظ ؛ وفي قصائد ابن الرومي وغيره من الشعراء .
- ٥ — أدب القصة الخيالية ؛ كما في رسالة الغفران وغيرها .
- ٦ — أدب الحكمة المزدوجة بألوان عميقة من الفلسفة والتفكير العقلي .
- ٧ — أدب النقد والموازنة الادبية .
- ٨ — النقد الاجتماعي .
- ٩ — أدب الطبيعة .
- ١٠ — أدب السمر والقصة .
- ١١ — أدب الخطابة الدينية .
- ١٢ — أدب الغلمان بما يشتمل عليه من غزل بالمدكر وسواه .

وهذه الألوان العديدة ، قد عرضنا لها في ثنايا فصول هذا الكتاب ، والذي لم نتعرض له منها فلانه موضوع بحوث مستقلة ، ستنشر في كتب أخرى غير هذا الكتاب .

وإني في غنى عن أن أقول : إن العصر العباسي قد أحدث آثارا عميقة في الأدب ، ووجهه توجيها جديدا ، ودراسة ذلك كله هي التي حفزني إلى إخراج هذا الكتاب ، وسيحفزني لإخراج كتب أخرى مكمله لبحوثه ، ومنتمة لدراساته ، إذا وفق الله ، وسدد الخطى ، وأرشدنا إلى سواء السبيل

صور من الأدب العباسي

— ١ —

دخل رجل بدوى (١) عليه شعث السفر ، على داود (٢) المهلبى — وكان إذا حضر الطعام يتقدم بصرف البوابين ، ولا يمنع من الوصول إلى طعامه — فلما فرغ من الطعام وثب قائما وأومى إليه ، وقال : من أنت يا فتى ؟ قال : شاعر ، قصدتك بأبيات من الشعر . قال داود : مهلا قليلا ، ثم دعا بقوس فأوترها (٣) ، وأومى إليه وقال له : قل ، فإن أنت أحسنت خلعت وأجزلت ، وإن أخطأت رميتك بهذا السهم يقع فى أى موضع يقع فيه ، فتبسم البدرى ، وقال :

أمنت بداود وجود يمينه	من الحدث المرهوب والبؤس والفقر
وأصبحت لا أخشى بداود نبوة	ولا حدثانا إن شددت به أذى
له حكم لقمان وصورة يوسف	وملك سليمان وصدق أبى ذر
فتى تهرب الأموال من جود كفه	كما يهرب الشيطان من ليلة القدر
فقوسك قوس الجود والوتر الندى	وسهمك فيه الموت فاقتل به فقرى

فضحك داود ورى بسهمه مع القوس من يده ، وقال : يا فتى العرب ، بالله هل كان ذكر القوس فى الآيات ؟ فقال : لا والله ! ففرح بذلك ، وقال : يا فتى عرب بالله أيهما أحب إليك : أعطيك على قدرك أم على قدرى ؟ قال : بل على قدرى قال : كم على قدرك ؟ قال : مائة ألف درهم ، فأمر له بها ، ثم قال : ما منعك أن تقول على قدرى ؟ فقال : أيها الأمير ، أردت أن أقول ذلك ، فإذا الأرض لم تساو قدر الأمير ، فطلبت على قدرى ! فقال : لله درك ! والله ان نثر لك لأحسن من نظمك ! وأمر له بمائة ألف ثانية ، وأمره ألا ينقطع عنه .

— ٢ —

وقال العتاتى : كنا بباب الفضل بن يحيى البرمكى أربعة آلاف ما بين شاعر وزائر ، وفينا فتى (٤) يحدثنا ونجتمع إليه ؛ فبينما هو ذات يوم قاعد إذ أقبل إليه غلام له ! فقال له : يا مولاي ؛ أخرجتنى من بين أبوى ، وزعمت أن لك صلة بالملوك ، فقد

(١) المختار من نوادر الأخبار — مخطوط .

(٢) هو داود بن زيد بن حاتم المهلبى ، كان واليا على إفريقية ، ثم ولاء الرشيد السند ، فأتسقت له أمورها ، واستمر بها إلى أن توفى سنة ٢٠٥ هـ

(٣) أوتر قوسه : جعل لها وترآ . (٤) الأوراق للصولى ص ٤

صرنا إلى أسوأ ما يكون من الحال . فان رأيت أن تاذن لي فأصرف إلى أبوى فعلت ! فاغرو رقت عينا الفتى ، ثم قال : اثنتى بدواة وقرطاس ، فأناه بهما فقمعد ؛ فكتب رقعة ، ثم قام إلى مجلسه ، ثم قال للغلام : انصرف إلى وقت رجوعى إليك . فبينما نحن كذلك إذ جاء رجل يستأذن على الفضل ، فقام إليه الفتى ، فقال : توصل رقتى هذه إلى الأمير ؟ قال : وما فى رقتك ؟ قال : أمدح نفسى ، وأحث الأمير على قبولى ، قال : هذه حاجة لك دون الأمير ، فان رأيت أن تعفبنى فعلت ! قال : قد فعلت . فعاد إلى مجلسه ، فخرج الحاجب فقام إليه ، فقال له مثل مقالته الأولى . فاستظرفه الحاجب ، وقال : إن رجلا يمدح نفسه ولا يمدح الفضل عجيب ! فأخدمته الرقعة فلوحها للفضل ، فقرأ منها سطرين ، وهو مستلق على فراشه ، ثم استوى قاعداً ، وتناول الرقعة ، فقرأها ، فلما فرغ قال للحاجب : أين صاحب الرقعة ؟ قال : أعز الله الأمير . والله لا أعرفه لكثرة من بالباب ؛ فقال الفضل أنا أنبذه لك الساعة . يا غلام ! اصعد القصر : فناد أين مادم نفسه ؟ فقام الغلام فصاح ؛ فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولا حذاء ! فلما مثل بين يدى الفضل ، قال له : أنت القاتل ما فيها ؟ قال : نعم قال : أنشدنى ، فأنشأ الفتى يقول :

أنا من بغية (١) الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب جاسب خطيب أديب ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريد شة بما يكون تحت الجناح (٢)
لى فى النحو فطنة واتقاد أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعلم بقول منور الافصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعر وقول النسيب والامداد
وظريف الحديث فى كل فن وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبات عندى حديثا هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلى تخلو الملوك وتلهو وتناجى فى المشكل الفداح
أيمن الناس طائرا يوم صيد لغدو دعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجواهر والخيل وبالخرد الحسان الصباح

(١) من بغيته مطالبه ، يريد أن الأمير لو اصطنعه واصطفاه لرأى فيه خيرا كثيرا ، وقد عدد مزايا نفسه فى البيتين بعده (٢) الشاعر المفلق : المبدع ، وأخف الريش وأدقه ما يكون تحت الجناح ، وأراد بالخفة خفة الروح .

كل ذا قد جمعت والحمد لله على أننى ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيه ولا الماجن الخليع الوقاح
إن رمى بي الأمير أصلحه الله رماحا ثلث حد الرماح
ماأنا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدى ذى السماح
حتى أتى على آخرها . فقال له الفضل :

كاتب ، حاسب ، خطيب ، أديب ، ناصح زائد على النصاح ؟
قال : نعم ! أصلح الله الأمير ، فقال الفضل : يا غلام ، الكتب التى وردت من
فارس ! فأتى بها ، فقال للفتى : خذها فاقرأها وأجب عنها ، فجلس بين يدى الفضل
يكتب ، فقال له الحاجب : اعتزل يكن خيرا لك ! فقال : ههنا الراى أجمع بحيث
الرغبة والرغبة . فلما فرغ من الكتب عرضها على الفضل ، فسكأنا شق عن قلبه ،
فقال الفضل : يا غلام ، بدرة ، بدرة ، فقال الفتى للغلام : أعز الله الأمير ، دنانير
أو دراهم ، قال : دراهم ! قال : دنانير يا غلام ! فلما وضعت البدرة بين يديه قال
الفضل : أحملها بارك الله لك فيها . قال الفتى : والله — أيها الأمير — ما أنا بحمال
وما للحمل خلقت ! فإن رأى الأمير أن يأمر بعض غلمانه بحملها على أن الغلام
لى ! فأشار الفضل إلى بعض الغلمان ، فأشار الفتى إليه : مكانك ! ثم قال : إن رأى
الامير — أيده الله أن يجعل الخيار إلى فى الغلمان كما فعل بين البدرتين فعل . فقال :
اختر ! فاختر من أحسنهم غلاما ؛ فقال : احمل ، فلما صارت البدرة على منكب
الغلام بكى الفتى ، فاستفزع الفضل ذلك ، وقال : ويلك ! أستقللا ؟ قال : لا —
والله — أيديك الله ولقد أكرثت ، ولكن أسفا أن الارض توارى مثلك ! قال
الفضل : هذا أجود من الاول ، يا غلام ، زده كسوة !

— ٣ —

كان داود بن يزيد (١) بن حاتم المهلبى يجلس للشعراء فى السنة مجلسا واحدا ،
فيقصده لذللك اليوم وينشدونه ، فوجه إليه مسلم راريت به بقصيدته التى أولها :
لا تدع بنى الشوق إلى غير معمود نهى النهى عن هوى الهيف الرعايد (٢)

(١) أمير من الشجعان العقلاء ولاه الرشيد السند وتوفى فيها سنة ٢٠٥ هـ
(٢) أى لا تدعنى مشتاقا ، وسأله دعبل عن معنى ذلك ، فقال لا تدعنى
صريع الغواني ، فلست كذلك ، وكان لهذا اللقب كارها ، والمعمود : المشغوف
عشقا . والهيف الضامرات الخضور ، وامرأة عديدة : يترجرج لهما من نعمتها
وكذلك الرخصة الناعمة .

فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقهم عقب خروجهم عنه ، فتقدم إلى الحاجب وحسر لثامه عن وجهه ، ثم قال : استأذن لي على الأمير ؛ قال : ومن أنت ؟ قال شاعر ، قال : قد انصرم وقتك وانصرف الشعراء وهو على القيام ، فقال له : ويحك ! إني قد وفدت على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله ، وكان مع الحاجب أدب يفهم به ما يسمع ، فقال : هات حتى أسمع ، فإن كان الامر كما ذكرت أو صلتك إليه ؛ فأنشده بعض القصيدة ، فسمع شيئاً يقصر عنه الوصف ، فدخل على داود فقال له : قدم على الأمير شاعر بشعر ما قالت العرب مثله ، فقال : أدخل قائله ! فلما مثل بين يديه سلم ، وقال : قدمت على الأمير - أعزه الله - بمدح يسمعه ، فيعلم تقدمي على غيري من امتدحه ؛ فقال : هات ! فلما افتتح القصيدة وقال : « لا تدع بي الشوق ، استوى جالسا ، وأطرق حتى أتى الرجل على آخر الشعر ، ثم رفع رأسه إليه ، فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير ! قال : في كم قلته يا فتى ؟ قال : في أربعة أشهر أبقاك الله ، قال : لو قلته في ثمانية أشهر لكنت محسنا ، وقد اهتمتك ؛ لجودة شعرك وخمول ذكرك ، فإن كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة أشهر في مثله ، وأمرت بالاجراء عليك فان جئتنا بمثل هذا الشعر وهبت لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك ، فقال : أو الاقالة - أعز الله الأمير - قال : قد أقلتك ؛ قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره ، فقال : أنا ابن حاتم ! إنك لما افتتحت شعره فقلت : لا تدع بي الشوق إني غير معمود (١) سمعت كلام مسلم يتادبنى ، فأجبت نداه واستويت جالسا ؛ ثم قال : يا غلام : أعطه عشرة آلاف درهم ، واحمل الساعة إلى مسلم مائة ألف درهم !

— ٤ —

خرج مسلم (٢) بن الوليد ذات يوم ، فلقى يزيد بن منصور الحميري بباب الرشيد ، فسلم ؛ فرد عليه السلام ، ورحب به ، وسأله عن شأنه بخبره ، وسأله أن يقربه من الخليفة ، وأن يحتال حتى يعد في مآزجه ، ومن يجرى عليه أرزاقه ! فقال له الحميري : سأأتاني لوصولك إلى أمير المؤمنين !

فدخل الحميري فأصاب أمير المؤمنين لقس (٣) النفس ، قد اشتمل عليه الفكر في سرعة تقضى أمور الدنيا ، وأنه لا يتشبهت منها بشيء إلا كان كالظل الزائل ،

(١) انظر القصيدة في عصر المأمون ص ٢٨٢ ج ٢ .

(٢) المحاسن والمساوي ص ٢٥٣ طبع ليبزج .

(٣) لقس النفس : لقست نفسه من الشيء : غشت وخبثت :

والسراب الخادع ! فقال له جعفر بن يحيى : يا أمير المؤمنين أفتظن أن هذا الفكر يحبس عليك الايام ، ويمنعك عما لا تستمتع به ، إنما هذا الذى أنت فيه عارض عرض لك ، وقد كان ملك من الملوك حكما ، يقول : اللهم مفسدة للنفس ، ومضلة للفهم ، ومدهشة للقلب ؛ ومن أعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه !

وقال له سليمان بن أبى جعفر : يا أمير المؤمنين ، قد قال لقمان الحكيم : من يملك يستأثر ، ومن لا يستأثر يندم ، والله نصف الهرم ؛ والفقر الموت الاكبر . فكأن الرشيد نشط ، واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر ، فتقدم إليه الحميرى ، وقال : يا أمير المؤمنين ، خلفت بالباب آنفا رجلا من أخوالك الانصار متقدما فى شعره وأدبه وظرفه ، أنشدنى قصيدة يذكر فيها أنسه ولطوه ولعبه ومحادثته إخوانه ، ويذكر مجالس اتصلت له ، بأبلغ قول وأحسن وصف وأقرب رصف ، يبعث والله على الصباية والفرح ، ويباعد عن الهم والترح ، وكأنه قد وفق - بيمين أمير المؤمنين ، وسعادة جده - لأن يكون مبرئا من هذه الشكوى ، زائدا فى سرور أمير المؤمنين ، مستدعيا له صلة رحمه ، والتشرف بخدمته .

فاستغزه السرور والقلق إلى دخوله ، واستماع قصيدته ، وجعل يتابع الرسل بعضهم فى إثربعض ، حتى دخل ، وكان حلو الشئائل ، فوصل إليه فى وقت قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشرته ، ولم يكن فى عداد من قد اضطرب سنا ، وكان - ناهيك من رجل - معه فهم وتجربة وتمييز ومعرفة ، فأمل حتى سكن ، ثم أذن له فى الجلوس ، فانبرى مسلم ينشد قصيدته التى يقول فيها :

أديرا على الكأس لا تشربا قبلى	ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلى (١)
فما جزعى أنى أموت صباية	ولكن على من لا يحل لها قتلى
أحب التى صدت وقالت لئربها :	دعيه ، الثريا منه أقرب من وصلى !
بلى ربما وكلت عيني بنظرة	إليها تزيد القلب خبلا على خبل
كتمت تباريح الصباية عاذلى	فلم يدر ما بى ، واسترحت من العذل
إلى ان قال :	

إذا ما علت منا ذؤابة واحد تمشيت به مشى المقيد في الوحل
فلا نحن متنا موة الدهر بغنة ولا هي عادت بعدل (١) ولانهل
سأنقاد للذات متبع الهوى لأمضى هما أو أصيب فتى مثلى
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا وتغدو صريع الكأس والاعين النجل؟

فجعل الرشيد يتناول لها ، ويستحسن ما حكاها من وصف شراب وهو وغزل
وسهولة ألفاظ ، فأمر له ببال ، وأمر أن يتخذ له مجلس يتحول إليه ، وجعل
الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته ، فسماه يومئذ — بأخر بيت من شعره —
صريع الغواني !

— ٥ —

كان هارون الرشيد (٢) يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم ، وكان مسلم بن الوليد - صريع
الغواني - قد رمى عنده بالتشيع ، فأمر بطلبه ، فهرب منه ، ثم أمر بطلب أنس بن
أبي شيخ كاتب البرامكة ، فهرب منه ، ثم وجد هو ومسلم بن الوليد عند قينة ببغداد ،
فلما أتى بهما ، قيل له : يا أمير المؤمنين ؛ قد أتى بالرجلين ! قال : أى الرجلين ؟ قيل
أنس بن أبي شيخ ، ومسلم بن الوليد . فقال الحمد لله الذى أظفرنى بهما ، يا غلام
أحضرهما ، فلما دخلا عليه نظر إلى مسلم ، وقد تغير لونه ، فرق له ، وقال : إيه
يا مسلم ، أنت القاتل :

أنس الهوى بنى على في الحشا وأراه يطمح عن بنى العباس
قال : بل أنا الذى أقول - يا أمير المؤمنين :

أنس الهوى بنى العمومة في الحشا مستوحشا من سائر الأناص (٣)
وإذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بنى العباس

فعجب هارون الرشيد من سرعة بديته ، وقال له بعض جلسائه : استبقه
يا أمير المؤمنين ، فانه من أشعر الناس ، وامتحنه فسترى منه عجباً ! فقال له : قل
شيئاً في أنس فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أفرخ (٤) روعى أفرخ الله روعك يوم
الحاجة إلى ذلك ، فاني لم أدخل على خليفه قط ، ثم أنشأ يقول :

(١) الـل : الشرب بعد الشرب تباعا ، أو الشربة ، الثانية ، والنهل محركة أول الشرب

(٢) العقد الفريد ص ٤٢٩ ج ١

(٣) الأناص : الناس

(٤) أذهب روعى وفزعى

تلبظ (١) السيف من شوق إلى أنس فالموت يلحظ والافدار تنتظر
فليس يبلغ منه ما يؤمله حتى يؤامر فيه رأيك القدر
أمضى من الموت ، يعفو عند قدرته وليس للبوت عفو حين يقتدر
فأجلسه هارون وراء ظهره ، لئلا يرى ما هم به ، حتى إذا فرغ من قتل أنس قال له :
أنشدني أشعر شعر لك ، فكلما فرغ من قصيدة قال : التي تقول فيها « الوحل » فاني
رويتها وأنا صغير ، فأنشده شعره الذي أوله :

أديرا على الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند فانتلي ذحلي (٢)
حتى انتهى إلى قوله :

إذا ما علت منا ذؤابة شارب تمشت بنا مشى المقيد في الوحل
فضحك هارون ، وقال : عليك ! أما رضيت أن قيدته حتى يمشى في الوحل :
ثم أمر له بجائزة وخلي سبيله .

— ٦ —

قال علي بن جبلة في القاسم بن عيسى

المنايا في مقابله (١)	والعطايا في ذرا حجره
ملك تندى أنامله	كانبلج النوء عن مطره
مستهل عن مواهبه	كابتسام الروض عن زهره
جبل عزت مناكبه	أمنت عدنان في نقره
إنما الدنيا أبو دلف	بين مبداه ومحتضره
فإذا ولي أبو دلف	ولت الدنيا على أثره
كل من في الأرض من عرب	بين باديه إلى حضره
مستعير منه مكرمة	يكتسيها يوم مفتخره

فغضب المأمون واغتهظ ، وقال : لست لأبي إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه ،
ثم قال : اطلبوه حيث كان ، فطلب فلم يقدر عليه ، ولما اتصل به الخبر هرب إلى
الجزيرة ، فكتب إلى الآفاق في طلبه ، فهرب من الجزيرة إلى الشام ، وظفروا به
هناك ، وأخذوا حمل إلى المأمون ، ولما وصل إليه سبه وقال له : أنت القائل للقاسم بن عيسى :
كل من في الأرض من عرب بين باديه إلى حضره

(١) أصل التلبظ تحريك اللسان في الفم كأنه يتتبع بقية الطعام بين أسنانه ، ويقال
تلبظت الحية : إذا أخرجت لسانها لتلبظ الأكل (٢) الذحل : الثأر .
(١) المقاب : جمع مقنب وهو جماعة الخيل تغير

مستعير منك مكرمة يكتسبها يوم مفتخره
جعلتنا من يستعير المكارم منه ! فقال له : يا أمير المؤمنين ، أتم أهل بيت
لا يقاس بكم أحد ، لأن الله جل وعز فضلكم على خلقه ، واختاركم لنفسه ، وإنما
عنيت بقولي في القاسم أشكال القاسم وأقرانه ، فقال : والله ما استثنيت أحداً ،
ولست استحل دمك لذلك ، ولكني أستحله بقولك وكفرك في شعرك ، حيث
تقول القول الذي أشركت فيه :

أنت الذي تنزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال
كذبت ، وما يقدر على ذلك أحد إلا الله عز وجل ، الملك الواحد القهار ،
ثم أمر بمقابله !

—٧—

وقال الكسائي (١) دخلت على الرشيد ، فلما قضيت حق التسليم والدعاء ، وثبت
للقيام ، فقال : اقعد ، فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه ، ولم يبق إلا
خاصته ، فقال لي : يا علي ، ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله (٢) ؟ قلت : ما أشوقني
إليهما يا أمير المؤمنين ، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين ! فأمر بإحضارهما ،
فلم ألبث أن أقبلت ككوكبي أفق ، يزينهما هدوء ووقار ، وقد غضا أبصارهما ،
وقاربا خطوهما ، حتى وقفا على باب المجلس ، فسلباً على أبيهما بالخلافة ، ثم قال
تم الله على أمير المؤمنين نعمه ، وشفعها بشكره ، وجعل ما قلده من هذا الأمر أحد
عاقبة ، ولا كدر عليه منه ما صفا ، فقد صرت للسلبين ثقة ، إليك يفزعون في
أمورهم ، ويقصدون في حوائجهم ، فأمرهما بالدنو منه ، فصور محمداً عن يمينه
وعبد الله عن يساره ، ثم التفت إلي فقال : يا علي ، مازلت ساهرا مفكرا في معاني
آيات قد خفيت علي .. قلت : إن رأي أمير المؤمنين أن ينشدنيها فأنشدني :
قد قلت قولاً للفرائب إذ حجل عليك بالقود المسانيف الأولى
تغد ما شئت على غير عجل

(١) المسعودي ص ٢٧١ ج ٢ ، معجم الادباء ص ١٧٣ ج ١٣ ، المحاسن
والمساريء ص ٤٤٠ ، والكسائي اسمه على بن حمزة وأصله من فارس ، أشهر نحات
الكوفة وأحد القراء السبعة ، استقدمه الخلفاء العباسيون ليعلّم أبناءهم ، وألف كثيراً
من الكتب في النحو والقراءات والادب والنوادر ، وتوفي سنة ١٨٩ هـ
(٢) محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، إن العير إذا فصلت من خيبر ، وعليها التمر ، يقع الغراب على آخر العير ، فيطردها السواق ، يقول هذا : تقدم إلى أوائل العير ، فكل على غير عجل ، والقود ، الطوال الاعناق والمسائيف ، المقدمة ... ثم أنشدني :
لعمري لئن عشت من خشية الردى نهاق الحمار إننى لجهول
قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، كان الرجل من العرب إذا دخل خيبر أكب على أربع وعشر تعشير الحمار ، وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات ، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حتى خيبر... ثم أنشدني قول الآخر :

أجاعل أنت بيقورا (١) مضرمة ذريعة لك بين الله والمطر
قلت : نعم ، كانت العرب إذا أبطأ المطر شدت العشر (٢) والسلع ، وهما ضربان من الذب ، في أذئاب البقر وألهبوا فيه النار ، وشردوا البقر تفاؤلا بالبرق والمطر
ثم أنشدني لرجل آخر :

وسرب ملاح قد رأيت وجوههم إناث أدانيه ، ذكور أو آخره
قلت : إنه يعن الأضراس ... ثم أنشدني لآخر :
فإني إذن كالثور يضرب جنبه إذا لم يعف شربا وعافت صواحيبه
قلت : نعم ، كانت العرب إذا أوردت البقر الماء ، فشربت الثيران وأبت البقر ضربت الثيران حتى تشرب البقر ، وهو كما قال : كالثور يضرب لما عافت البقر
ثم أنشدني :

ومنحدر من رأس برقاء حطه مخافة بين أو حبيب مزايل
قلت : نعم ، يعنى الدموع ، والبرقاء : العين ، لأن فيها سوادا وبياضا ، وحطه : أساله ، وحبيب : محبوب ، ومزايل : مفارق ، فوثب الرشيد فجذبني إلى صدره ، وقال : لله در أهل الأدب ! ثم دعا بجارية ، فقال لها : احملى إلى منزل الكسائي خمس بدر على أعناق خمسة أعبد يلزمون خدمته ، ثم قال لى : استنشدهما - يعنى ابنيه - فأنشدني محمد الأمين :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى وتارك شكل لا يوافقه شكلى
وشكلى شكل لا يقوم بمثله من الناس إلا كل ذى نيقة (٣) مثلى
ولى نيقة فى المجد والبذل لم يكن تأنقها فيما مضى أحد قبلى
وأجعل مالى دون عرضى جنة لنفسى وأستغنى بما كان من فضلى

(١) اسم جمع لبقرة (٢) شجر لم يقتدح الناس فى أجود منه

(٣) النيقة : اسم من تنوق فى الأمر : تجود وتأنق فيه .

وأنشدنى عبد الله المأمون :

بكرت تلومك مطلع الفجر ولقد تلوم بغير ما تدرى
ما إن ملكك مصيبة نزلت إذ لا يحكم (١) طائعا أمرى
ملك الملوك على مقتدر يعطى إذا ما شاء من يسر
فلرب مغتبط بمـرزاة ومفجع بنواب الدهر
ومكاشح لى قد مددت له نحرأ بلا ضرع (٢) ولا غمر
حتى يقول لنفسه لهفأ : فى أى مذهب غاية أجرى
وترى فتانى حين يغمزها غمز الثقاف بطيئة الكسر
ثم أمرنى أن أسألهما ، ففعلت ، فما سألهما عن شيء إلا أحسنا الجواب فيه
والخروج منه ، فسر بذلك الرشيد ، حتى تبينته فيه ، ثم قال : يا على ، كيف ترى
مذهبهما وجوابهما فقلت ، يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر :

أرى قرى مجد وفرعى خلافة يزنيهما عرق كريم ومحتد
يسدان آفاق السماء بشيمة يؤيدها حزم وعضب مهند
سليلى أمير المؤمنين وحائزى مواريث ما أبقى النبي محمد

يا أمير المؤمنين ، هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمسكنت فى الثرى
عروقه ، وحذبت مشاربه ، أبوهما ملك أغر نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ،
فهما يستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان فى سعادته ، فأمتع الله
أمير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما ، فما رأيت أحدا من
أولاد الخلفاء ، وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب (٣) منهما لسانا ، ولا أعذب
كلاما ، ولا أحسن ألفاظا ، ولا أشد اقتدارا على تأدية ما حفظا ورويا ، ودعوت
لهما دعاء كثيرا ، وأمن الرشيد على دعائى . . ثم ضمهما إليه ، وجمع يديه عليهما
فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ، رقة عليهما وإشفاقا ، ثم
أمرهما بالخروج . فلما خرجا أقبل على ، فقال : كأنك بهما - وقد حم القضاء ،

(١) حكم الأمر: أحكمه .

(٢) الضرع : من ضرع ، إذا ذل وخضع ، والغمر ، من لم يجرب الأمور
وبالتحريك الحقد .

(٣) الذرب : الحديد اللسان .

ونزلت مقادير السماء ، وبلغ الكتاب أجله وانتهى الأمر إلى وقته المحدود ، وحينه المسطور الذى لا يدفعه دافع ، ولا يمنع منه مانع - قد تشتت أمرهما ، وافترقت كلمتهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء ، وتكثر القتل ، وتهتك ستور النساء .

— ٨ —

حكى أبو حامد أحمد بن محمد الاسفراينى الفقيه الشافعى (١) ، قال : كنت يوما عند نحر الملك أبى غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة ، فدخل عليه الرضى أبو الحسن (٢) ، فأعظمه وأجله ، ورفع من منزلته ، وخلى ما كان بيده من القصص والرقاع ، وأقبل عليه بمحادثته إلى أن انصرف ، ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم ، فلم يعظمه ذلك التعظيم ، ولا أكرمه ذلك الاكرام ، وتشاغل عنه برقاع يقرؤها وتوقيعات يوقع بها ، فجلس قليلا ، وسأله أمراً فقضاه ، ثم انصرف . قال أبو حامد : فتقدمت إليه ، وقلت له : أصلح الله الوزير ! هذا المرتضى هو الفقيه المتكلم صاحب الفنون ، وهو الآملى (٣) الأفضل منهما ، وإنما أبو الحسن شاعر ، فقال لى : إذا انصرف الناس ، وخلا المجلس أجبتك عن هذه المسألة ، قال : وكنت مجمعا على الانصراف ، فجاءنى أمر لم يكن فى الحساب فدعت الضرورة للملازمة المجلس إلى أن تقوض الناس واحدا فواحدا ، فلما لم يبق إلا غلبانه وحجابه دعا بالطعام ، فلما أكلنا وغسل يده وانصرف عنه أكثر غلبانه ، ولم يبق عنده غيرى ، قال لخدام له :

هات الكتائب اللذين دفعتهما اليك منذ أيام ، وأمرتك أن تجعلهما فى السفط (٤) الفلانى ، فأحضرهما فقال : هذا كتات الرضى ، اتصل بى أنه قد ولد له ولد فأفدت إليه ألف دينار ، وقلت : هذه للقابلة — فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء إلى أخلائهم ، وذوى مودتهم مثل هذا فى هذه الحال ، فردها ، وكتب إلى

(١) ابن أبى الحديد ص ١٣ ج ١ .

(٢) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ، كان أبوه نقيب الطالبين ، وصارت إليه النقابة وأبوه حى ، أجمع النقاد على أنه أشعر قریش ، وكان عالما بعلوم القرآن واللغة والنحو ، وله فيها المؤلفات النافعة - ٣٥٩ - ٤٠٦ هـ .

(٣) فلان أمثل بنى فلان : أى أدناهم للخير .

(٤) السفط : الجوالق ، أو كالفقة .

هذا الكتاب ، فاقراءه . قال : فقرأته ، وهو اعتذار عن الرد ، وفي جملته : إننا — أهل بيت — لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة ، وإنما عجائزنا يتولين هذا الأمر من نساتنا ، ولسن ممن يأخذن أجره . ولا يقبلن صلة . قال : فهذا ، هذا ، وأما المرتضى فأننا كنا قد وزعنا وقسطنا (١) على الأملاك تقسيطاً نصرته في حفر فوهة النهر المعروفة بنهر عيسى ، فأصاب ملكاً للشریف المرتضى عشرون درهما ، وقد كتب إلى منذ أيام في هذا المعنى هذا الكتاب فاقراءه ، فقرأته ، وهو أكثر من مائة سطر يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالة والطلب والسؤال في إسقاط هذه الدراهم على أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه . قال نخر الملك : فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل : هذا العالم المتكلم الفقيه الأوحى ، ونفسه هذه النفس ، أم ذلك الذى لم يشتهر إلا بالشعر خاصة ونفسه تلك النفس ؟ فقلت : وفق الله الوزير ، فما زال موقفاً وما وضع الأمر إلا في موضعه ، ولا احله إلا في محله .

— ٩ —

للطغرائى فى وصف غدير :

عجنا إلى الجزع الذى مد فى	أرجائه الغيم بساط الزهر
حول غدير مأوه المنتمى	إلى نبات المزن يشكو الخصر
لو لا ذت الريح سموما به	لأنقلبى وهى نسيم السحر
حصبأوه در ، ورضراضه	سحالة العسجد حول الدرر
وقد كسته الريح من نسجها	درعا بها يلقى نبال المطر
وألسته الشمس من صبغها	نورا به يخطف نور البصر
كانه المرأة مجلوة	على بساط أخضر قد نشر

— ١٠ —

ولابن النبیه المصرى :

أفديه ان حفظ الهوى أوضيما	ملك الفؤاد فاعسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه	حلوا فقد جهل المحبة وادعى
بأياها الوجه الجميل تدارك الصبة	ر الجميل فقد عفا وتضععضا
هل فى فؤادك رحمة لمتيم	ضمت جوانحه فؤادا موجعا ؟
هل من سبيل أن أبث صبا بى	أو أشتكى بلواى أو أتوجعا ؟
إنى لأستحي كما عودتى	بسوى رضاك إليك أن أتشفعا

خاتمة الكتاب

هذه الدراسات المستفيضة للأدب العباسي ، وأصوله ، وألوانه ، ومذاهبه ، وأعلامه ، التي يتضمنها هذا الكتاب ، أجد نفسي في غنى عن أن أبين للقارئ الواعي المثقف جدتها وأهميتها معا ، فإن في إدراك القارئ الفطن ويقظته ما يغنيني عن ذلك كله .

ولم تقتصر هذه الدراسة على عرض الأدب العباسي وفق المنهج التاريخي في دراسة الأدب ، بل إن المنهج النقدي أظهر على الكتاب: بما يشتمل عليه من نقد وموازنة ، وتحليل ، وشرح وتوجيه ، وبيان لخصائص أدب المحدثين وميزاته ومذاهبه .

والأعلام العديدة التي ترجمنا لها في هذا الكتاب ، لم تقتصر في دراستها على عرض جوانب من حياتها ، بل درسناها كقطعة حية من صميم الأدب العباسي المزدهر الحي ، المشرق بالاصالة والابتداع .

وكذلك أصول الثقافات التي كونت الأدب العباسي ، والعناصر المختلفة التي لونت هذا الأدب ، تجد لها إيضاحا وافيا في هذه الدراسات الواسعة . . مع توخي الدقة ، والإشارة إلى جميع المصادر ، وإلى أصول هذا البحث العديدة .

ولا أجد ما أقوله للقارئ إلا أن هذا الكتاب هو النواة ، التي ستنبع منها بحوث جديدة أخرى حول الأدب العباسي ، أرجو أن تظهر في دراسات متنوعة في القريب ، بين أيدي القراء ، بعون الله .

ولا أملك شيئا من الأمر إلا أن أكرر ما قلته من أني لا أعتد على شيء ، إلا على ذوق القارئ المثقف الواعي ، ويقظته وعطفه . وبالله التوفيق ، ومنه السداد ، وهو عوني ، نعم المولى ، ونعم النصير . . .

المؤلف

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
هذا الكتاب	٤
مقدمة	٥
الحياة السياسية في العصر العباسي	٧٩
د الاجتماعية	١٦
د العقلية	٢١
أعلام المفكرين	٢٤
الحياة الأدبية	٢٨
النثر الأدبي	٣٣
أعلام الكتاب وعلماء الأدب	٣٧
الشعر العربي	٤١
ألوان من صنعة المحدثين في الشعر	٥٨
أشهر الشعراء العباسيين	٦٢
طبقات الشعراء العباسيين	٦٦
من أئمة الشعر العباسي	٧٠
بين أبي تمام والبحتري	٧٤
موازنات بين قصائد من الشعر العباسي	٧٩
موازنات بين الشعراء العباسيين	٨٨
النقد الأدبي في العصر العباسي	٩٥
نشأة البيان العربي	١٠٩
تراجم الشعراء : بشار	١١٩
أبو نواس	١٢٩
أبو العتاهية	١٥١
أبو دلامة	١٥٦

الموضوع	صفحة
ابن وهيب	١٦٢
أبو تمام	١٦٥
دعبل	١٧٨
يزيد المهلبى	١٨٩
ابن أبى عينة	١٩٠
البحترى ①	١٩٣
ابن الرومى ②	١٩٩
ابن المعتز	٢١٧
المتنبى ③	٢٣٠
بين المتنبى وابن هانىء	٢٣٨
بين المتنبى والنقاد	٢٤٢
رسالة الخاتمى فى نقد المتنبى	٢٤٦
مع الشعراء المحدثين	٢٥٩
موازنا أدبية بين أعلام الشعراء	٢٦٨
أبو العلاء المعرى	٢٧٧
ابن سنان	٢٨٢
أسامة بن منقذ	٢٩٠
تراجم الأدباء والنقاد - الأصمى	٢٩٤
ابن المقفع	٣٠١
أحمد بن يوسف - عمرو بن مسعدة	٣٠٢
الجاحظ	٣٠٥
عبد الله بن طاهر	٣١٦
سليمان بن وهب	٣٢١
أبو العيناء	٣٢٣
المبرد	٣٢٥
ثعلب	٣٢٨

الموضوع	صفحة
قدامة	٣٣٤
ابن دريد	٣٤٥
الآمدى	٣٥٥
القاضى الجرجاني	٣٦٨
ابو هلال العسكري	٣٧١
البديع الهذلي	٣٧٦
الحريري	٣٩٥
ألوان جديدة من الأدب في العصر العباسي	✓ ٣٩٨
صور من الأدب العباسي	✓ ٣٩٩
خاتمة الكتاب	٤١١
الفهرست	٤١٢

مؤلف:

- ١ - قصص من التاريخ — ٣٥٠ صفحة
- ٢ - الأزهري في ألف عام — ٤٠٠ د
- ٣ - أعلام الأدب في عصر بني أمية — ٣٥٠ د